صلاح الدين والطوق الحجرى

من كليرمونت إلى حطين

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : صلاح الدين والطوق الحجري
المؤلف : أيوب الطيب
المقاس: ١٧ × ٢٤
رقم الإيداع : ٢٦٣١٧ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 5127 - 7

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تاريخ أم الدنيـــــــــــا

الـرحـلـــة الســـابـعـــة

صلاح الدين والطوق الحجرى

من كليرمونت إلى حطين

تـــأـلـيف

أيـوب الـطيـب

مالك أيوب الطيب

حاضر اليوم وأمل المستقبل

المـقـدمـة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين ،

ما أشبه اليوم بالبارحة فقد تكالبت الأعداء دوماً على الشرق، فموقع الشرق المتحكم فى الطرق التجارية، والقدسية التى تغلف أراضيه مهبط الأديان السماوية، وثراءه، كل هذا أسال لعاب الطامعين، الأمر الذى أدى إلى تردد جلبة الجيوش بين جنباته، وتدفق المحتلون ينهبون ثرواته ويمتصون خيراته متناسين حقوق أبناء الشرق فى أراضى أجدادهم، فى سلسلة طويلة من الصراع بين الشرق والغرب،

ولعل من أكثر فصول هذا الصراع وحشية ودموية هى الحروب الصليبية، عندما شهدت ضفاف البحر المتوسط الشرقية أنسياح فرسان الغرب الزاحفين جنوباً، فى موجات جنونية من المقت والكراهية التى وصلت إلى أقصى درجات التأجج، تحت تأثير عدة دوافع لعل أخرهم الدافع الدينى، ليصادف فرسان الغرب جبهة مهلهلة كانت هى سر النجاح الذى حالفهم حتى أستطاعوا تكوين كيانات لهم ملتصقة بالساحل لإعتمادهم الكلى على أوروبا فى إمدادهم بسر حياة كياناتهم،

بعد أن دعى البابا أربان الثانى إلى حرب تمنح الغفران للفرسان الغارقين فى الخطايا حتى آذانهم، وبجانب ذلك تفتح أمامهم أبواب الثراء والسلطة المفتقدين لها بأوروبا، الأمر الذى يمثل توسيع نطاق عملهم ومهنتهم التى تمنحهم الحياة الراقية السلطوية التى يحيونها، سائرون تحت مظلة المقت والكراهية والعداء الشديد الذى نجح أربان الثانى فى زراعته فى نفوس الزاحفين للشرق، الأمر الذى يفسر الوحشية والفظاظة التى قابلوا بها الجميع، حتى مسيحى الشرق، حتى لم يشهد التاريخ ما يضاهى إرهاب الأوربيين فى القرن الحادى عشر،

فقد كشفت كتابات المؤرخين والرحالة الصليبيين عن عدم قدرة أوروبىّ ذلك الزمن على تقبل الأخر، وهذا التعصب الأعمى لم يكن عن تجربة حقيقية بل نتاج دعاية عنصرية[1]، كما أظهرت هذه الكتابات وإسرافها فى نعت المسلمين بأقذع الأوصاف عن مدى التعصب الذى سيطر على أوروبا،

[1] لازم هذا التعصب والعنصرية أوروبا تبعاً لما أظهرته خلال الحقبة الإستعمارية سواء بأفريقيا أو أسيا أو الأمريكتين

حتى قبل أن يقابلوا مسلماً واحداً بشكل فعلى، بعد أن أستخدم البابا كل صياغات المقت والكراهية لتحريض الأوروبيين على الأشتراك فى الحملة،

فالحوافز المحركة فى التاريخ دائماً إيديولوجية، وغالباً ما تكون دينية، فقد ألحقت أوروبا العصور الوسطى بعلم اللاهوت جميع أشكال الأيديولوجيات الأخرى، سياسية كانت أو فلسفية أو حقوقية، وجعلت من جميع الأيديولوجيات تابعة للاهوت، فأضطرت كل حركة إجتماعية أو سياسية أن تتخذ طابعاً دينياً،

وجاء على رأس الجيش الصليبى طبقة النبلاء المعتادة على إستغلال فلاحى إقطاعياتهم، الذين لا يفوق تعطشهم للدماء إلا حبهم للسلب والنهب، بينما الطبقات الدنيا المعتادة على أن تُستغل أرادت أن تخرج من هذه الدائرة الضيقة وتمارس الإستغلال على غيرها، فقاموا بالإستيلاء على مجهودات أجيال كاملة فى مد شبكات الرى والطرق وبناء القرى، ليس لشيئ إلا لأمتلاكهم القدرة على القتل، بينما هرع التاجر الإيطالى الباحث عن الربح، فى أعقاب الفارس الفرنجى الباحث عن الأرض والنفوذ فى علاقة إستغلال مزدوج، فى تحالف بين القوات البرية المولّده من النظام الإقطاعى الفرنسى والأساطيل البحرية الإيطالية، مستغلين نزعة الغزو الإقليمى لدى البارونات الفرنسيين، والمصالح التجارية لدى الجمهوريات الإيطالية، وزادت الإمبرالية الفرنسية السياسية، والإمبرالية الإقتصادية الإيطالية من سعير هذا التحالف، فى أول عمل تعاونى أوروبى بعد سنوات من الصراع والأقتتال، وأدت النجاحات التى لاقوها إلى ترسيخ هذا التعاون الأوروبى لإستغلال ثروات الغير،

زحف الصليبيون تحت دعاوى دينية، بينما سيطرت عليهم أطماع دنيوية وشق بينهم التنافس على الرئاسة والسلطة طريقه منذ البداية، فقد بدءوا الزحف بتعهد بحكم البلاد التى سيستولوا عليها بأسم البابا، وما أن وصلوا القسطنطينية حتى تعهدوا بحكمها بأسم الأمبراطور، وما أن عبروا للشام حتى نسوا عهدهم هذا وذاك، وأستولى بلدوين على الرها من حاكمها التابع للأمبراطور الذى أقسم له، وأبى بوهيمند الذهاب للقدس بعد دخوله قلعة أنطاكيا، وريموند يدور حول طرابلس يبحث عن مفاتيحها،

وتُمثل الحروب الصليبية تجربة ثرية بالأحداث والعبر التى يجب علينا فى هذا الوقت الإستقاء منها والإستفادة من أخطاء الماضى لمواجهة أخطار الحاضر، فالصليبيون أنما نجحوا فى تثبيت أقدامهم فى شرقنا العربى بتشرذم القوى السياسية بالشرق فى ذلك الوقت، فقد أدت الخلافات بين القوى السياسية بالشرق والمعارك المتصلة بين الأمارات الإسلامية إلى تولد كماً هائلاً من الشك والحقد المتبادل، الأمر الذى أدى إلى نسيان أمراء هذه الأمارات من هو العدو الحقيقى، وجعلهم على أتم الإستعداد إلى التعاون مع المحتل الصليبى بدلاً من التعاون مع بنى جلدتهم ضده، وحرمان الشرق من إستغلال طاقاته الجبارة فى حماية أبناءه من الخطر الصليبى، الأمر الذى أوقع أبناء الشرق بأجمعهم تحت طائلة تجربة فى منتهى القسوة، عندما أحال هؤلاء الغزاة المتغطرسون الشرق الأدنى فى عصرهم إلى منطقة من أكثر الأماكن خطورة التى شهدها التاريخ، حتى أصبح القتل أمراً معتاداً، وصبغوا خريطة الشام باللون الأحمر، ورصعوا طريق زحفهم بالمدن والقرى المحترقة التى عشش فيها الخراب،

وقد أضاع الصليبيون الأمان والسكون من الشرق عامة وبلاد الشام خاصة، الأمر الذى زرع الإضطراب فى أحوال المعيشة، بعد أن أصبحت البلاد تحت رحمة من لا يمتلك أدنى قدر من الرحمة، من جماعات من النهابين الجشعين التى جاءت لتقتل الأبرياء وتسلب ما يمتلكون،

وقد لمس الصليبيون أهمية تشرذم القوى السياسية بالشرق الأمر الذى أتاح لهم سلب أراضى ومدن بعد قتل سكانها وطرد الباقى، وتكوين كياناتهم السياسية وإستمرار هذه الكيانات، ولهذا أستمات الصليبيون فى ضرب أى محاولة لإتحاد القوى الإسلامية لإيمانهم بإن هذا الإتحاد سيكتب نهاية مغامرتهم،

وكانت اللحظة الفارقة فى الحروب الصليبية هى إيمان الشرق بضرورة وحتمية الأتحاد لمواجهة المخاطر المحدقة به، بعد أن أدى العدوان الصليبى إلى تولد إحساس بالخطر لدى المسلمين، مما أدى إلى يقظة إسلامية وتوحد الهدف والمصير، الأمر الذى أفرز قادة ومجاهدين آمنوا بالمقاومة، وأن الطريق الوحيد لنجاتهم من نيران المحتل هو الوحدة، ووضع حد لصراعاتهم البينية الضيقة، ليطلق المسلمون ما أدخروه فى جعبتهم من شجاعة وبسالة وقوة وتضحية، حتى شهد الشرق سقوط كبار القادة الصليبيين فى أسر

الأمراء المسلمين، فى سلسلة من الأمراء حرص هذا الكتاب على ذكر أعمالهم حتى نستطيع تتبع عمليات التحرير التى كانت ذروتها بإستلام عماد الدين زنكى زمام العسكرية الإسلامية، والنظرة الإستراتيجية التى تمتع بها مما دفعه للعمل على تكوين جبهة موحدة قوية قادرة على مواجهة نتاج الحركة الصليبية، وأدت إنتصاراته على الفرنج إلى رفع الروح المعنوية للمسلمين، بعد أن وقف إفتقار المسلمين للقيادة القوية الموحدة حجر عثرة فى طريق تحرير الشرق، ودحر الإحتلال الصليبى، وليستكمل خليفته الملك العادل نور الدين محمود أعمال أبيه، ويطغى ورعه وإيمانه بالمقاومة على نفوس شعبه ومعاصريه الأمر الذى منحهم روح متأهبة للتضحية، وأوجد مجتمع على أتم الإستعداد لبذل الغالى والنفيس فى سبيل تحرير القدس، بعد تفاهمه مع أخيه الأكبر وتعاونهما[2]، وليفسح المجال لصلاح الدين الأيوبى، الذى ملك مقاومة الصليبيين عليه كل جوانحه، وشيد دولة ذات توجه عسكرى بهدف واحد هو تحرير القدس، والذى يصفه أبن جبير فى رحلته قبيل معركة حطين "ومآثر هذا السلطان(صلاح الدين) ومقاصده فى العدل ومقاماته فى الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة"[3]

وقد كان اللقاء بينى وبين الحروب الصليبية مبكراً جداً، وقد دفعنى زخم الأحداث المحيطة بها إلى زيادة أطلاعى على الكتب التى تتناول هذه الفترة الهامة، وخصوصاً من كتابات المؤرخين المعاصريين للأحداث، فحرب كبيرة كالحروب الصليبية دفعت الكثيريين من الطرفين المتحاربين علاوة على أطراف ثالثة إلى تغطية أحداثها، وإن كانت الدراسات الأوربية سواء المعاصرة للأحداث أو الحديثة منها تنظر للحروب الصليبية على إنها جزء هام ويستحق الإفتخار من التاريخ القومى الأوروبى العام،

وأن كنت لن أطيل على القارئ الكريم بذكر المصادر، فقد أعتمدت فى هذه الدراسة على مصادر أصيلة ومراجع متنوعة، تم إثباتها فى نهاية

---

[2] حدثت بوادر شقاق بين الأخوين، ولكن سيف الدين أمير الموصل شقيق نور الدين الأكبر طلب مقابلته ولبعث الإطمئنان لنفس نور الدين أتفق معه على أن يصطحب كلاً منهما خمسمائة فارس كحرس شخصى، وعند الموعد أصطحب نور الدين فرسانه الخمسمائة ليفاجئ بأخيه جاء ومعه خمسة فرسان فقط، الأمر الذى حدا بنور الدين بصرف حرسه، ويخاطبه أخيه بقوله"لم أمتنعت عن المجئ إلى؟ هل كنت تخافنى على نفسك؟ والله لم يخطر ببالى ما تكره، فلما أريد البلاد ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت سوءاً بأخى وأحب الناس إلى" التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص88

[3] رحلة أبن جبير ص41

الكتاب، ولا أدعى أننى وفيت الموضوع حقه من البحث، ولكنها محاولة لألقاء ضوء على فترة هامة فى تاريخنا أثرت وأمتد تأثيرها،

وتم تقسيم الكتاب إلى مقدمة وسبعة فصول وخاتمة

تناول الفصل الأول نظرة عامة على مراحل الصراع بين الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية، الدعاية الباباوية المحمومة للحروب الصليبية، النجاحات التى لاقتها الدعاية الباباوية، المجتمع الإقطاعى الأوروبى، دوافع الإشتراك فى الحملة، حملة الفقراء الغوغائيين وتمزيقها بسيوف السلاجقة ،

تناول الفصل الثانى تشكيل حملة الأمراء، موقف الأمبراطور البيزنطى من الحملة، موقف قادتها من الأمبراطورية البيزنطية، الصدامات المسلحة بين البيزنطيين والصليبيين، عبور الصليبيون البسفور وقتالهم للسلاجقة بأسيا الصغرى، تأسيس كونتية الرها، سقوط أنطاكيا ومحاولة كاربوقا إنقاذ أنطاكيا، فظائع الصليبيين فى الشام، موقف الفاطميين من الحملة الصليبية، المساعدات القيمة التى تلقاها الصليبيين من أمراء الشرق، سقوط بيت المقدس، ميلاد مملكة بيت المقدس ،

تناول الفصل الثالث المجتمع الصليبى، نظام الحكم الصليبى، الجيش الصليبى، الهيئات الديرية المقاتلة، إستراتيجيات الدفاع الصليبية، أحوال السكان الأصليين قاطنى الكيانات الصليبية، والأعباء المالية التى فرضت عليهم، المسلمون فى دولة الإحتلال الصليبى

تناول الفصل الرابع المحاولات الفاطمية المبكرة لتحرير القدس، الإعمال القتالية التى أدارها أمراء الموصل ودمشق، محاولات السلطنة السلجوقية تحرير القدس، محاولات مملكة بيت المقدس الإستيلاء على المدن الساحلية بالشام ،

تناول الفصل الخامس الإفاقة الإسلامية بظهور عماد الدين زنكى، هجوم الأمبراطورية البيزنطية على الشام، محاولات بيزنطة السيطرة على أنطاكيا، الحملة الصليبية الثانية بقيادة لويس السابع وفريدريك بربروسا على الشام، الهجوم الصليبى على قبرص تحت قيادة أرناط، نجاح نور الدين محمود فى ضم مصر لمحور المقاومة بقيادة قائده أسد الدين شيركوه، بالرغم من محاولات الصليبيين المحمومة لإحتلال مصر،

تناول الفصل السادس بدايات ظهور صلاح الدين الأيوبى، تعيينه أخر وزير للدولة الفاطمية، إسقاطه للدولة الفاطمية وإعتلاءه رأس السلطة فى مصر، وتوحيد العالم الإسلامى عقائدياً، والشام ومصر سياسياً، الأعمال القتالية بين مصر تحت قيادة صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، بوادر الصراع الصامت بين نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف، إنفراد صلاح الدين بالسلطة عقب وفاة نور الدين، إكمال صلاح الدين لمحور المقاومة، الصراع بين مكونات المجتمع الصليبى، الصراع على السلطة فى مملكة بيت المقدس ،

تناول الفصل السابع نجاح صلاح الدين فى إتمام الجبهة الموحدة، الجيش الإسلامى، الجيش الصليبى، الصراع بين الصليبيين البلديين والصليبيين الجدد، نجاح صلاح الدين فى ضرب الوحدة الصليبية وزرع الشقاق بينهم، تجمع الجيش الأسلامى والصليبى، المناورات الناجحة لصلاح الدين والجمود الصليبى، سير أعمال القتال وهزيمة الجيش الصليبى

تتناول الخاتمة نتائج الدراسة

وأخيراً أتمنى أن يكون هذا العمل المتواضع خالصاً لوجة الله تعالى، ثم فى خدمة وطنى الحبيب أم الدنيـا.

أيوب الطيب

القاهرة : الجمعة 6 ربيع الأول 1439هـ

24 نوفمبر 2017م

أصبح القتل بدون هدف أو داع إلا

إرضاء شهواته الدموية، كل هذا

بأسم التقوى والورع، فالفارس الغربى

الأن يستطيع القيام بالقتل طوال نهاره

وهو على ثقة أنه على الطريق الصحيح للجنة

وكأى من الأحداث الكبرى ذات النتائج الخطيرة كانت البداية هادئة ومتواضعة، بابا متنازع على منصبه وممنوع من دخول عاصمة الباباوية، فى إجتماع متواضع بحقل فى بلدة فرنسية صغيرة، من المؤكد أن الأساقفة ومقدمى الأديرة الثلاثمائة والعشرة المجتمعون الأن بكليرمونت غير مدركين كم الضحايا الذين ستزهق أرواحهم والمشردين الذين سيهيمون بحثاً عن مكان أمن لهم ولأولادهم بسبب إجتماعهم هذا، عندما لفظت أوروبا الفقيرة الغارقة فى ظلام الجهل والمرض فلذات أكبادها عسى أن يجدوا حظاً أفضل فى الشرق الواسع الثراء والمفعم بالحضارة، ولن يكتوى المسلمين فقط بنيران الفرنج الهمج بل طالت المسيحيين الشرقيين الكثير من هذه النيران، فالقائمون على هذه الحروب كانوا أبعد ما يمكن عن تعاليم المسيح الممتلئة بالمسامحة والسلام، ولم يستطيعوا التفرقة بين المسلمين ومسيحي الشرق فالكل شرقى، إذن فالجميع أعداء، وكان ما أدى إلى نجاح الحروب الصليبية فى موجاتها الأولى فى تحقيق أهدافها بتكوين مستعمرات غربية فى الشرق أنما هو عدم الوحدة بين العرب، وما إن أستفاق العرب وأتحدوا حتى أستطاعوا تطهير ترابهم من المغتصبين، وأجتمعت فى بدايات القرن الحادى عشر الميلادى العديد من الدوافع التى أدت لألاف الأوروبيين لترك أوطانهم والبحث عن وطن بديل لهم، ولكن لنرى ما يمكن إعتباره الشرارة الأولى لهذه الحرب،

سنبدء من قبل كليرمونت بعدة قرون، عندما نجح المسلمون فى إجبار البيزنطيين على التراجع تحت ضغط الفتوحات الإسلامية وأنار نور الإسلام سوريا ومصر وشمال أفريقيا فى بضع سنين، وسيطر المسلمون على بيت المقدس خلال خلافة عمر بن الخطاب عام 637م، وإن لم تنقطع الصلة بين الغرب وبيت المقدس بفضل التسامح الإسلامى، كما شهدت الدولة الأموية عدة محاولات مبكرة لفتح القسطنطينية، عقب فرض السيطرة الإسلامية

على البحر المتوسط بالإنتصار فى معركة ذات الصوارى35هـ/655م، وكما نجح المسلمون فى السيطرة على جزيرة قبرص وجزر البليار وكريت وسردينيا فى البحر المتوسط، وتم فتح الأندلس (أسبانيا) خلال الدولة الأموية 711م، وعبر المسلمون جبال االبرانس ليهاجموا فرنسا ويستولوا على أجزاء واسعةٌ منها، وإن أستطاع شارلمان وقف التقدم الإسلامى فى معركة بلاط الشهداء 114هـ/732م مما رفع شارلمان لمصاف الأبطال القوميين لأوروبا، وتكفلت الصراعات الداخلية الإسلامية فى أيقاف محاولات فتح أوروبا حتى حين، ويشهد الصراع منحنى جديداً خلال الدولة العباسية بما عُرف بالشواتى والصوائف[1]، توج هذا النشاط العسكرى الإسلامى بتوغل الخليفة هارون الرشيد فى أسيا الصغرى وإجباره الأمبراطورة البيزنطية "أيرين" على دفع جزية ضخمة، وعندما حاول الأمبراطور نقفور التملص من دفع هذه الجزية كان نصيبه هزيمة منكرة على يد الجيوش العباسية، ولعل اكبر هزيمة نالتها بيزنطة من العباسيين كانت على يد الخليفة المعتصم الذى قاد جيشه رداً على تجرء الأمبراطور ثيوفيلوس على مهاجمة الثغور الإسلامية، فهاجم المعتصم مدينة عمورية (هرقلة) مسقط رأس الأمبراطور محطماً أياها،

حتى أستطاعت دولة الأغالبة بتونس فتح جزيرة صقلية 212هـ/827م، وجزيرة مالطا 221هـ/835م، وفتح المسلمون كالبريا بجنوب إيطاليا ويستمر التقدم الإسلامى حتى مدينة روما فى 231هـ/841م التى هاجمها المسلمون وأستولوا عليها بينما يسارع البابا ليو الرابع بالهرب والإختباء، الأمر الذى أرق مضاجع الباباوية، ليجئ الفاطميون ويعيدوا الكرة فى مهاجمة صقلية والإستيلاء عليها 333هـ/915م، وهاجموا كالبريا، وهاجموا أقليم لمبارديا، وفتحوا مدينة جنوة 323هـ/935م، عندما بعث الخليفة القائم بالله الفاطمى

[1] الصوائف والشواتى حروب حدودية شغلت فترة طويلة خلال الدولة العباسية، وبلغت ذروتها فى بداية الدولة العباسية، وأن أخذت فى الأفول بضعف الخلافة، وخلال خلافة المعتضد 287هـ أغارت الروم على طرسوس والتى لعب حجر الزاوية خلال أواخر الصوائف وكان نائبها طغج بن جف الأخشيد والد محمد الأخشيد، ليرد الطولونيون فى العام التالى عندما أغار خماروية على بلاد الرقة برياً وبحرياً، وفى عام 294هـ أغار أحمد بن كنغلغ نائب دمشق العباسى من ناحية طرسوس وهزم ملك الروم، وعام 297هـ و298هـ غزا القاسم بن سيما الصائفة، وتهاجم الروم اللاذقية نفس العام، وعام 301هـ غزا الحسين بن حمدان الصائفة وفتح حصون فى بلاد الروم، وعام 302هـ هزم مؤنس الخادم الروم هزيمة كبيرة، وفى عام 319هـ أوقع ثميل متولى طرسوس بالروم وقعة كبيرة وأسر ثلاثة آلاف منهم، البداية والنهاية ج6

أسطوله "وأفتتحوا مدينة جنوة وغنموا غنائم كثيرة وثروة ورجعوا سالمين"[2] وهاجموا جنوب فرنسا،

ويشهد القرن العاشر الميلادى نمو حالة العداء الأوروبى للإسلام، وتزداد وتيرة هذا العداء وحِدته بزيادة النجاحات التى صادفها الغرب الأوروبى خلال صراعه ضد الشرق الإسلامى، وتمهد حركة الريكونكيستا[3] بالأندلس السبيل أمام الدعوة لحروب مقدسة بمباركة كنسية، وكان هاديه خلال هذه النجاحات هو التشرذم والضعف الذى كان ينخر فى الكيانات السياسية الإسلامية إينذاك ،

لتحاول الدولة البيزنطية تحت حكم الأسرة المقدونية القوية التى بعثت روح جديدة بها ـ مستغلة الضعف الذى سيطر على الدولة العباسية ـ إسترجاع بعض الأراضى التى فقدتها، فقامت بالسيطرة على قبرص ورودس وكريت وأنطاكيا فى عام 358هـ/969م، وفرض نوع من السيطرة فى شمال الشام، بل وصلت الجيوش البيزنطية أكثر من مرة لقرب مدينة القدس إلا أن الدولة الفاطمية نجحت فى وقف تقدمهم،

وهناك من يحاول إعتبار محاولات البيزنطيين فى فرض سيطرتهم على بيت المقدس إرهاصات للحروب الصليبية، بل هناك من يرجع الصليبيات لأبعد من هذا التاريخ، عندما قام الأمبراطور البيزنطى هرقل بقتال خسرو الثانى كسرى الدولة الفارسية الساسانية قبل الفتوحات الإسلامية، بعد أن نجح الفرس فى إنتزاع الشرق الأدنى من البيزنطيين، وأحتل القائد الفارسى "شهربراز" مدينة القدس عام 614م، بل وتحالف الفرس مع قبائل الآفار التترية (البلغار) وحاصروا القسطنطينية عام 619م، بعد رفض كسرى طلب الصلح الذى تقدم به هرقل، وإثر فشل حصار القسطنطينية يأخذ هرقل المبادءة بمساعدة كنسية التى وجهت كامل جهودها للقتال ضد الفرس الذى أخذ منحنى دينى أكثر منه سياسى، لينتصر البيزنطيون على جيش فارس الرئيس عند مدينة نينوى (الموصل) عام 627م، وينجح فى إستعادة الشام ومصر وبيت المقدس 630م التى أستقبلت هرقل إستقبال الأبطال، بعد أن أقتحم مدينة همذان عاصمة فارس وإستعاد ثلاثمائة راية رومانية كان الفرس

[2] البداية والنهاية، أبن كثير ج6 ص237
[3] حرب الأسترداد وهى الحرب التى شنها الأسبان لطرد المسلمين من الأندلس

قد غنمـوها قبل ذلك، مصداقاً لما جاء بالقرآن الكريم بقوله تعالى **"ألم، غُلبت الروم فى أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، يومئذ يفرح المؤمنون"**[4]، وإن كان هذا الربط محاولة لإضفاء الصبغة الدينية على الحروب البيزنطية الفارسية، والتى كانت منافسة بين قوتين إستعماريتين، على أراضى لها أصحابها متجاهلين حق أبناءها فيها، ومن ثم إعطاء الحروب الصليبية الصفة الدينية بالتبعية وإعتبارهم ورثة الأمبراطورية البيزنطية فى ممتلكاتها بالشام ،

وإن كان معاصرى هذا الصراع يجهلون تماماً مصطلح الحـرب الصليبية، فقد أطلق مؤرخى الفرنجة على هذه الحروب عدة أسماء مثل أعمال الفرنجة وراء البحر، والحج، والطريق إلى القدس، والحرب المقدسة، أما مصطلح الحرب الصليبية فهو حديث المنشأ ظهر فى فرنسا فى كتابات القرن السابع عشر،

معركة ملاذكرد

أضطرت قبائل الغـز التركية إلى ترك مسقط رأسها بسهـوب أسيا فى منغوليا وتخوم بحر أرال، والفرار غرباً تحت ضغط السيوف المغولية والبحث عـن مكان يؤويهم، بعد إعـتناقهم الدين الإسلامى تبعاً للمذهب السنى، مما أعطى دفعة قوية وزخم للدولة العباسية المترنحة، لتستقر هذه القبائل بتخوم مدن سمرقند وبخارى أوائل القرن الرابع الهجرى وتعاونت من الدولة السامانية فى نشر الإسلام بين باقى القبائل التركية الوثنية، وأن أدى تدفق هؤلاء المقاتلون المتبعون للمذهب السنى إلى الإصطدام بالقوى الشيعية التى كانت مسيطرة على الشام إينذاك، والمتمثلة فى الأسر العربية بشمال الشام، كالدولة المرداسية بحلب، وبنى عقيل وبنى عمار بصور وطرابلس، وكذلك الفاطميين بجنوب الشام، وأستقر التركمان فى فارس وأنتشر باقيهم تحت قيادة السلاجقة[5] برئاسة زعيمهم طغرلبك الذى أتخذ مدينة أصفهان عاصمة لدولته، وإستطاع السيطرة على بغداد 1055م وطرد أسرة بنى بوية الشيعية

[4] سورة الروم - 3

[5] ينتسب السلاجقة لجدهم سلجوق بن دقاق وقد أعتنقوا الإسلام وأتبعوا المذهب السنى لمجاورتهم للسامانيين وأستطاع طغرلبك الإستيلاء على نيسابور ليؤسس الدولة السلجوقية 429هـ/1038م وتحت ضغط البويهيين المسيطرين على الخلافة العباسية أضطر الخليفة القائم (422-467هـ/1031-1075م) لطلب العون من طغرلبك الذى دخل بغداد مسقطاً السيطرة البويهية على العباسيين

منها وإعادة الخليفة القائم بدين الله لمنصب الخلافة، حتى وجدوا ضالتهم فى هضبة الأناضول حيث مناطق قريبة الشبه ببيئتهم الأصلية وكما إنها مفتقره للوسائل الدفاعية، مما مكنهم من الأستقرار بها بعد زيادة إنسياح القبائل التركمانية لأسيا الصغرى التى فشلت الدولة البيزنطية فى وضع حد لهذه الهجرات التركية ،

وإزدادت الهجرات التركمانية، ففى 455هـ/1063م دخل إلى مدينة حلب مجموعات من التركمان تحت قيادة هارون بن خان، وأدى النظام القبلى لهؤلاء المحاربين إلى ظهور قوات مقاتلة مرتبطة بزعماءها، كما شوهد تنامى قوة بعض هؤلاء الزعماء مثل الأفشين الذى هاجم مدن وقرى الشام بقواته مما أحدث تخريباً وتدميراً شديد بدفاعات الشام قبيل قدوم الصليبيين، والأهم من ذلك هو النزاع وحالة العداء التى أستشرت بين القوى الإسلامية بالشام، الأمر الذى قضى على أى حكومة مركزية بها، ومزق مدنها إلى جزر متفرقة لايوجد أى ترابط أو تعاون بينها ،

بعد الإغارات التى قام بها السلاجقة تحت قيادة إبراهيم بن إينال أبن أخى طغرلبك، يستتبع ألب أرسلان بن جغرى بك وخليفته النشاط العسكرى السلجوقى بعد وفاة أبيه، والذى شهد إنتزاع بعض المدن الهامة بأرمينيا، كما أستطاعت جيوش ألب أرسلان الإستيلاء على القدس وجنوب الشام من الدولة الفاطمية، وفتح باب الحروب بينهم وبين الأمبراطورية البيزنطية العجوز صاحبة السيادة على الأناضول،

وقد أدى الفساد الذى ضرب أرجاء الدولة البيزنطية، عقب موت الأمبراطور باسيل الثانى عام 416هـ/1025م وتعاقب العديد من الأباطرة الضعاف إلى إحتضار الأمبراطورية، حتى إعتلاء الأمبراطور ألكسيوس كومنين Alexius Comnenus(473-511هـ/1081-1118م)، وقضاء النورمان بتشجيع من البابوية على بقايا النفوذ البيزنطى بإيطاليا، عندما أعترف البابا نقولا الثانى بروبرت جويسكارد بن تانكريد هوتفيل حاكماً لأبوليا وكالبريا والأمارات اللومباردية بجنوب إيطاليا بشرط إعترف روبرت بسلطة البابوية على هذه المقاطعات، وكما أدى قيام سلسلة متعددة الحلقات من ثورات ضد الحكومة المركزية، وضياع الأناضول التى كانت تعتمد عليها الدولة البيزنطية فى توفير الجنود والغذاء بسقوطها تحت سيطرة السلاجقة، وبوار الأراضى

الزراعية الآقطاعية، التى كانت العمود الفقرى لمد الجيش البيزنطى بالمحاربين من حائزى هذه الإقطاعات، يضاف لذلك حرص الأباطرة الضعاف على إضعاف الجيش البيزنطى وإستحداث البدل النقدى مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية، لضمان عدم ظهور طامعين بالعرش من قادته، كل هذا أدى إلى إعتماد الدولة البيزنطية على المرتزقة الأجانب باهظى التكاليف ومعدومى الولاء لتغذية جيوشها، وخصوصاً من نورمان إيطاليا، وقبائل البشناق والكمار التركية، مما جعل جيشها أقرب ما يكون إلى لوحة فسيفساء سهلة التحطيم، وكما أدى الصراع على السلطة وكثرة الطامعين فى العرش، إلى أنحدار الدولة فى دوامة من الإقتتال الداخلى، فى الوقت الذى أنساب السلاجقة المسلمون فى أسيا الصغرى وأخذوا فى إقتطاعها على مراحل،

كان على رأس الأمبراطورية البيزنطية الأمبراطور رومانوس الرابع ديوجينوس (463-460هـ/1068-1071م) الذى أوقعه حظه التعس أمام القائد المسلم السلجوقى القوى عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان بن جغرى بك فى معركة ملاذكرد(مانزكيرت)[6] 1071م، فقد حاول رومانوس طرد السلاجقة من أرمينيا لتأمين حدود أمبراطوريته الشرقية، وعمل على تجميع أكبر جيش ممكن لمواجهة فرسان السلاجقة شديدى البراعة والمهارة بحروب البدو الرحل، الذين يعتمدون على خفة الحركة والقدرة الفائقة على المناورة، فى الوقت الذى أعتمد الجيش البيزنطى الهش على المشاة الثقيلة، والفرسان التركمان والأوربيين المرتزقة ثقيلى العدة والحركة، ويهز الأمبراطور الغرور عندما يعرض عليه السلطان السلجوقى الهدنة، ليجيبه رومانوس لا هدنة إلا فى الرى عاصمة السلاجقة، ويقسم الأمبراطور الأقاليم الإسلامية على قادته، وأرتكب الأمبراطور المغرور خطأ فادح بتقسيم جيشه فقد أرسل قسم منه لمهاجمة مدينة خلاط تحت قيادة روسل دى باليول وجوزيف تارخانيوس، وبينما الجيش البيزنطى يزحف لميدان القتال عششت داخله الخيانة،

وإنتهت المعركة بكارثة بيزنطية حيث أتبع فرسان السلاحقة تكتيك محاربى الصحراء الأشهر بأن تظاهروا بالهزيمة والفرار، وما أن أتبع البيزنطيون آثرهم حتى إنقلب السلاحقة وهاجموا مطارديهم، وحصدت سيوف السلاجقة

[6] بليدة بأرمنيا شمال بحيرة فان

رقاب البيزنطيين "وقتل من الروم مالا يحصى حتى أمتلأت الأرض بجثث القتلى"[7] وتم أسر الأمبراطور نفسه على يد أمير أسمه شادى، بعد أن دفعت عصبية الدم التركمان وتأخر رواتبهم إلى الأنفضاض عن الأمبراطور والإنضمام للسلاجقة، بل أن النورمانديين المرتزقة بقيادة قائدهم روسل دى باليول أتخذوا موقف المشاهد والجيوش البيزنطية تتمزق بسيوف السلاجقة، والأنكى هو إسراع طامح بيزنطى فى العرش وهو أندرونيكس دوكاس بالإنسحاب بقواته والإسراع للقسطنطينية للفوز بالعرش، ليكون الأكثر رحمة برومانوس هو السلطان ألب أرسلان، الذى يطلق سراحه بعد أسره بثمانية أيام عقب أخذه عليه المواثيق بعدم التعرض للأراضى المسيطر عليها السلاجقة، وإطلاق جميع الأسرى المسلمين ببلاده، لتكتمل حلقات التعاسة لرومانوس، فبمجرد وصوله للقسطنطينية يتم القبض عليه على يد طامح أخر فى العرش هو ميخائيل العاشر (1078-1071م) ويتم سمل عين الأمبراطور التعيس،

وتتأكد السيطرة السلجوقية على أرمينيا وأقليم كبادوكيا ومدينتى الرها وأنطاكيا، وأنفتح باب هضبة الأناضول أمام التوغل السلجوقى، وتم القضاء على قدرة الأمبراطورية البيزنطية على دفع جيوشها إلى ميادين المعارك لسنوات عديدة بسبب القضاء على الجيش البيزنطى الرئيس، مما يوضح عجز الدولة البيزنطية عن القيام بدور حماية الجانب الشرقى لأوروبا ،

الأمر الذى سمح للسلاجقة بإكمال الإستيلاء على هضبة الأناضول ومدنها نيقية ونيقوميديا بجهود القائد السلجوقى سليمان بن قطلميش(قتلميش)، وبعد نجاح سليمان فى السيطرة على نيقية تطلع إلى السيطرة على حلب، الواقعة تحت سيطرة قبيلة بنى عقيل العربية، وأدى الصراع على حلب إلى مقتل سليمان بن قطلميش على يد تتش بن ألب آرسلان السلجوقى وحليفه زعيم بنى عقيل مسلم بن قريش، الأمر الذى أضاف تمزق إلى تمزق القوى الإسلامية،

وتستيقظ الدولة البيزنطية على واقع مرير، سقوط الأناضول ووصول قوات السلاجقة لبحر مرمرة، الحاجز الذى كانت تحتمى به عاصمتهم من الجيوش الإسلامية، وكذلك يمثل فَقْد الأناضول الإطاحة بنظام الإقطاعات العسكرية التى كانت تعتمد على أراضى الأناضول الخصيبة لتغذية جيوشها بالعناصر

[7] الكامل ج5ص65

الوطنية، مما أجبر الأباطرة على زيادة الأعتماد على المرتزقة الأتراك والأوروبيين أكثر لتدعيم جيوشها ،

ويضاف إلى هذه المصائب زحف النورمان من إيطاليا بقيادة روبرت جويسكارد للإستيلاء على عاصمة الأمبراطورية المدنفة، وبعد أن هزم النورمان جيشاً بيزنطياً 474هـ/1081م يضطر روبرت للعودة إلى إيطاليا من منتصف الطريق إلى القسطنطينية لوجود ما يلزم ذلك، تاركاً قيادة قواته لأبنه بوهيمند الذى أكال اللكمات للجيوش البيزنطية المترنحة، الأمر الذى دفع الأمبراطور ألكسيوس للإستنجاد بسليمان بن قطلميش ليعبر سبعة ألاف فارس سلجوقى مضيق البسفور ويستطيعوا هزيمة النورمان وإنقاذ القسطنطينية بينما بوهيمند يسرع خطاه إلى حيث والده 476هـ/1083م ،

كل هذه الأحداث زادت من حتمية إعتماد بيزنطة على المرتزقة لإعادة بناء جيشها المنهار، عقب تلاشى الإقطاعات الصغيرة التى كان أصحابها عماد الجنود الوطنية والمصدر الأساسى للجيوش البيزنطية، هؤلاء الجنود المرتزقة كانوا النقطة الأكثر إلحاحاً فى مفاوضات ألكسيوس مع البابا، لا لتكوين جيوش تتخذ طريق القدس، ولكن قوات تسد النقاط الأكثر خطورة لديه ،

وقد حاولت البابوية إستغلال هزيمة البيزنطيين للسيطرة على الكنيسة الشرقية، فقد راسل البابا جريجريوس السابع الأمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوكاس عقب عامين من المعركة 1073م عارضاً إجراء حوار للقضاء على الفرقة بين الكنيستين، بينما هو يشجع النورمان على مهاجمة الممتلكات البيزنطية بإيطاليا، ومن الطبيعى قوبل عرضه هذا بفتور، ليجدد خلفه البابا أوربان الثانى (Urban II)[8] (481-492هـ/1088-1099م) محاولات فرض سيطرة روما على الكنيسة الشرقية وإن كان بشئ من القوة مستغلاً الضعف الذى يسرى بشرايين الدولة البيزنطية، ففى عام 1088م أرسل أوربان الثانى سفارة للأمبراطور ألكسيوس كومنين للشكوى من إجبار

[8] أودو دى لاجيرى ولد فى 433هـ/1042م وينتمى إلى أسرة نبيلة من شاتيون بفرنسا، تلقى تعليمه بالمدرسة الكاتدرائية بمدينة ريمس، ثم تدرج فى الوظائف الكنسية، حتى أصبح رئيس شمامسة الكاتدرائية، ثم ألتحق بدير كلونى، حتى أتصل بالبابا جريجورى السابع ثم أختير لخلافته،

الكنيسة الشرقية للاتين المتواجدين بالقسطنطينية على ممارسة شعائرهم الدينية تبعاً للطقوس الشرقية، ليضطر الأمبراطور إلى تقديم تنازلات لروما،

وأضطر البيزنطيون لنسيان خلافاتهم العقائدية مع الكنيسة الغربية والأستنجاد بها لأنقاذ عاصمتهم القسطنطينية، فقد راسل ألكسيوس كومنين (473-512هـ/1081-1118م) خلال عامى 1090/1091م الباباوية وملوك وأمراء الغرب اللاتينى يستنجد بهم لإنقاذ أمبراطوريته بأرسال جنود مرتزقة للقتال ضمن صفوف جيشه ـ وكأنه المستجير بالرمضاء من النار ـ، متشجعاً بقرار البابا أربان برفع قرار الحرمان الكنسى[9] عنه عام 1089م الذى كان فرضه البابا جريجيورى السابع بسبب تأييد ألكسيوس للخارجين عليه، ورأت الكنيسة الغربية الفرصة سانحة أمامها لفرض سيطرتها على العالم المسيحى ككل وكذلك الدفاع عن أوروبا من الخطر السلجوقى الزاحف عليها، فعبور السلاجقة المسلمون للبسفور يمثل كارثة عسكرية وسياسية لأوروبا،

وأن كانت هزيمة الأمبراطورية الرومانية الشرقية فى معركة ملاذكرد لم تكن الأولى أو الأكبر، فقد سبقتها هزائم كثيرة نالتها بيزنطة من الجيوش الإسلامية، وتلت هذه الهزائم العديد من الإستغاثات، ولكن أوضاع أوروبا القرن الحادى عشر كانت مواتية لتلبية الإستغاثة البيزنطية إينذاك ،

وقد كان إعتلاء ألكسيوس كومنينوس للعرش البيزنطى بمثابة إنقاذ للأمبراطورية المدنفة، فقد قدر له لعب دوراً كبيراً فى الأحداث القادمة، بإمكانياته الإدارية والعسكرية العالية التى أعطت الدولة البيزنطية قبلة الحياة، حيث تلاقى خوف الأمبراطور وطموحه إلى إستعادة أراضى دولته التى أستولى عليها الأتراك السلاجقة، والذين كان يتمنى إبعادهم عن حدود عاصمته، مع طموح البابا أربان الثانى (أربانوس)، ذلك البابا الذى لم يكن حتى هذه اللحظة يستطيع دخول روما عاصمة الباباوية، حيث كان هناك من ينازعه الكرسى البابوى تحت أسم البابا جيبرت بمساندة الأمبراطور هنرى الرابع أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة بألمانيا[10][11]، حتى أصبح

---

[9] الحرمان الكنسى من إجراءاته أن ينزع الصلبان والرفات والأيقونات وتوضع على أرض الكنيسة ، وتمنع الكنائس من دق الأجراسها وتنزع هذه الأجراس وتمنع أقامة الصلوات بها ، ويحرم على رجال الدين بها من أكل اللحوم ويجبرون على حلق شعورهم ولحاهم ويحرم إلقاء التحية عليهم

[10] تاريخ الحملة إلى القدس ص 38 ،

[11] كانت هناك حالة من العداء بين الأمبراطورية الرومانية الغربية بألمانيا والباباوية، منذ عام 1075م عندما ألغى البابا جريجورى السابع التقليد العلمانى برفع أيدى الأباطرة عن تعيين رجال الدين وهو ما قاومه

الصراع بين أوربان وجيبرت صراع بين الفرنجة والألمان، فوجد أوربان الطَمُوح فى الدعوة لحرب تجمع حوله قلوب وآلاف السيوف، فرصة ذهبية لعلو نجمه مما يساعده للإطاحة بالبابا جيبرت، وبالفعل فى العام الذى مرت به الفرنجة فى روما فى طريقهم للقدس أستولى أوربان على المدينة[12]، وهذا ما يفسر مقاومة جيبرت لمشروع الحملة الصليبية ،

أربان الثانى كان يتمنى تحقيق ما عجز عنه أسلافه وهو تضيق هوة الخلافات المذهبية بين الكنيستين الشرقية والغربية وخصوصاً بعد القطيعة الكبرى 1054م، وتوحيد هاتين الكنيستين تحت زعامته ولم يجد فرصة افضل من مد يد العون للأمبراطورية البيزنطية راعية الكنيسة الشرقية، مما كان يسمح له بزيادة نفوذه وتحكمه فيها، كما إن حرب هدفها تحرير القدس وحماية الأمبراطورية البيزنطية من المسلمين ستسمح للباباوية أن تصبح المدافع الأول عن المسيحية بدلاً من السلطة الزمنية المتمثلة فى الأمبراطور، منهية الصراع المرير بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، الأمر الذى يرسخ سلطة الكنيسة على أوروبا بشقيها ،

كل هذا أتحد مع أحوال أوروبا فى هذا الوقت التى كانت أرض طارده لسكانها، فقد كانت أوروبا العصور الوسطى أبعد ما تكون عن العدالة بين أبناءها، حيث أنتشرت الطبقية بكل ما تحمله من أنانية وطفيلية طبقة على باقى الطبقات، فقد أنقسم المجتمع الأوروبى الإقطاعى إلى ثلاثة أقسام، هؤلاء الذين مهنتهم الصلاة، ومن هم مهنتهم حمل السلاح، وأولئك الذين مهنتهم فلاحة الأرض وتوفير لقمة العيش للجميع، الأمر الذى قضى على التفاوت والتدرج الإجتماعى، الأمر الذى جعل الصراع على أشده وأن كان مقهوراً من السلطة، وينتظر ما قد يفجره،

فقد كان هناك السادة من النبلاء الذين لم يكن لهم مهنة إلا الحرب وإستغلال الأراضى الزراعية الخاصة بهم وإلقاء فتات الفتات لأقنان أراضيهم، وهم

الأمبراطور هنرى الرابع وقام بعقد محمع دينى من الأساقفة الألمان وأعلن خلع البابا جريجورى وأرسل له رسالة "الأن وبعد أن تمت أدانتك وإنزال اللعنة عليك بالقرار الصادر من جميع أساقفنا ومنا، ما عليك إلا أن تتنحى عن الكرسى الرسولى الذى أغتصبته، أترك هذا المكان لشخص أخر يستحق مقعد القديس بطرس، لا يمارس العنف من وراء ستار الدين، بل يقوم بنشر تعاليم القديس بطرس الصحيحة، أنا هنرى الملك بنعمة من الله ومعى جميع أساقفتنا، نقول لك تنح، تنحى، عليك لعنة الله الأبدية" (تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ص55) ويرث أوربان هذا العداء الألمانى فى شخصية جيبرت

[12] تاريخ الحملة إلى القدس ص 39

الفلاحون الذين كانوا يعتبرون عبيد يباعون مع الأراضى من ضمن ما تضمه من عقار وماشية وحيوانات وفلاحين، وقد حُرم إقنان الأرض من أبسط الحقوق الإنسانية، فلم يسمح لهم بحق ملكية أى شئ، بل هو وأسرته وكوخه وماشيته ملك للسيد الإقطاعى لضيعته، وكتب عليهم أن يكدحون ليعيشوا وليتحملوا قهر حكامهم، حتى بعد موت القن كان لا يسمح سيده بدفنه إلا بعد أن يحصل على أفضل حيوان داجن لديه، فإن لم يكن لديه حيوان أخذ اللورد أفضل ملابس لديه، أو موقد نحاس، أو الفراش الذى مات عليه المسكين، وأى قن يريد الزواج يجب عليه أن يقدم لسيده قِدراً كبيراً من النحاس، بل على القن أن يسمح بالليلية الأولى من زواجه لسيد الإقطاعية، والغريب أن هذا العرف ظل معمولاً به ببافاريا حتى القرن الثامن عشر، ولا يملك هذا الفلاح خلاص من هذه المعيشة التعيسة التى فرضت عليه، وأقصى ما سمح له هو كوخ قذر من أغصان الأشجار المغطاة بطبقة من الطين، وملابس عبارة عن أسمال من جلود الحيوانات أو نسيج خشن من صوف الأغنام مُصنّع بشكل بدائى، يعيش القن هذه الحياة الغير محتملة القصيرة التى كان تنتهى سريعاً فى الغالب قبل سن الأربعين سواء بسبب الحروب الداخلية المستمرة بين الإقطاعيين، أو بسبب الأوبئة وبدائية الحياة الصحية بأوروبا، كل هذا الذل والمهانة التى عاش فى ظلها الغالبية العظمى من الأوروبيين، يفسر لنا كم الحقد والعنف الذى أظهروه تجاة البيزنطيين والمسلمين الأرقى حضارة والأرغد عيشاً،

فى الوقت الذى كان سيد الإقطاعية يراقب أراضى إقطاعيته من أعلى قلعته المشيدة فى وسط ضيعته، ويحيط بها عدة مبانى إضافية، من كنيسة وطاحونة وفرن وكير الحداد، وحظائر وأكواخ البؤساء فى صفوف متراصة فى إهمال، وغالباً ما كانت الضيعة مكتفية ذاتياً، وكان ينظر إلى أن طبقته من النبلاء يختلفون تماماً عن أقنان أراضيهم، حتى دماءهم تختلف فى تركيبها عن دماء الأقنان، وكلاً منهم خلق بشكل مناسب لأوضاعه، والتى يجب أن يظل كلاً منهم بها حتى مماته،

يضاف لذلك الجهل والأمية المستشرية ليس بين الطبقات الدنيا فقط ولكن بين نبلاء هذا العصر، يكفى أن نعرف أن شارلمان مؤسس دولة الفرنجة بفرنسا

كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وكذلك أوتو الكبير[13] مؤسس الأمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن أحسن تعليماً منه، وكذلك نبلاء وسط وغرب أوروبا سيطر على غالبيتهم الأمية، لدرجة عدم قدرة النبلاء قراءة الكتاب المقدس أثناء زيارتهم للأديرة والكنائس، الأمر الذى أسقط الجميع تحت هيمنة ما يقال لهم من رجال الكنيسة ،

وأدى ضعف الحكومات المركزية إلى تقسيم جميع أراضى وسط وغرب أوروبا إلى إقطاعيات، أدى كثرة الطامحين والمغامرين إلى كثرة الإقتتال وإقتضام أجزاء من هذه المقاطعات، الأمر الذى أدى إلى صغر مساحات نسبة كبيرة من هذه الإقطاعيات، لدرجة إنحدار عدد كبير منها لمساحات هزيلة لا تتجاوز بضعة هكتارات، حتى تحولت أوروبا كرقعة شطرنج، وتحولت هذه الإقطاعيات لدول داخل الدولة، يتمتع سيد كل إقطاعية بسلطات لا محدودة أستمدها بطغيان سيفه، فله فرض ما يحلوا له من الضرائب، وإعلان الحرب على من يشاء من الإقطاعيين الأخريين، وعندما لم تعد تكفى موارد الأقطاعيات لتغطية تكاليف حياة النبلاء المترفة أستداروا إلى أراضى بعضهم البعض ليسرقوا منها ما قد يشبع شرههم اللامتناهى للأموال، الذى لم يستطيع هؤلاء الفقراء سد هذه الإحتياجات الشرهة، ليحاول النبلاء البحث عن المزيد من الأراضى التى من الممكن أن توفر لهم متطلبات رفاهيتهم، فى وقت كانت الأرض الزراعية هى الأساس الوحيد للجاه والثروة، حتى كانت هناك أحد النصوص القانونية الفرنسية فى ذلك الوقت تقول "لا يوجد لورد بدون أرض، ولا توجد أرض بدون لورد"

ليصطدموا بواقع محدودية الأراضى الزراعية فى الغرب، وقلة الأيدى العاملة المجانية بسبب فرار الأقنان من أراضيهم، ليعمل النبلاء تفكيرهم فى أى طرق أخرى لتأمين أحتياجاتهم المالية المتنامية، لتصبح ممتلكات النبلاء الصغار والمتوسطين عرضة لنهب سيوف كبار النبلاء،

لتصبح المقاطعات تحت سيطرة الأرستقراطيين المشاغبين المعادين للمركزية الملكية، ويستمد هؤلاء الأرستقراطيون ثرواتهم ووضعهم المميز من خلال السيطرة على الأراضى الزراعية الشحيحة ورسخت هذه الأوضاع بالقيادة

[13] الدوق أوتو السكسونى، دوق بألمانيا تم أختياره من قبل زملاءه الدوقات ملكاً على ألمانيا عام 936م وفى عام 955م هزم القبائل المجرية فيعلنه البابا يوحنا الثانى عشر أمبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة،

فى الحرب، الأمر الذى جعل الحرب كالهواء بالنسبة لهم، فالسلام لديهم يعنى البطالة والفقر،

كما كان تعدد الأنظمة السياسية عائقاً أمام تطور التجارة، فكان على التجار أن تدفع ضرائب وحق مرورها عند كل حدود إقطاعية تجتازها، هذا إذا نجوا من النبلاء قاطعى الطريق، ويضاف لذلك عدم توافر النقود، الأمر الذى أحال هذه الكيانات الإقطاعية إلى شكل إكتفائى، الأمر الذى عطل تطور الأنتاج الكمى لهذه الإقطاعيات،

حتى أتخذ الفلاحون مظاهر الإحتجاج وأن كان سلبياً، بينما تمارس المؤسسات السياسية والدينية نفوذها للحفاظ على هذا الوضع وإستمراره، فقد شهد بدايات القرن الحادى عشر فرار جماعى للأقنان من أراضى أسيادهم، وكان النزوح يشمل قرى بأكملها يتركها فلاحيها إلى حيث تقودهم أقدامهم، هرباً من إبتزاز السادة الإقطاعيين، ومن الجوع الضارى الزاحف خلفهم والأوبئة الفتاكة التى تطاردهم بإلحاح، ومن البؤس الذى نشأوا فى كنفه، مما جعل من أوروبا ساحة كبيرة من الحروب الداخلية المستمرة، فى الوقت الذى تعانى أوروبا من سوء مواسم الحصاد، التى قضت عليها هذه الحروب، حتى أطلت المجاعة بوجهها البشع على كافة أراضيها، كالمجاعة التى ضربت اللورين بفرنسا عام 1095م، مما أدى إلى إنتشار عادة أكل لحوم البشر، زد على ذلك الكوارث الطبيعية التى فتكت بمناطق واسعة من القارة العجوز منذ بدايات القرن الحادى عشر، كالوباء الذى فتك بأوروبا 1094م، فى الوقت الذى لم يكن بأوروبا إلا عدد محدود من المدن الصغيرة، التى لم تستطع إستيعاب هذه الهجرات، حتى أصبحت هذه المدن الفقيرة بمثابة مخزن بشرى طارد لسكانه وينتظر أى حافز ليدفع بمخزونه البشرى إلى حيث ما يمسك أوده ،

كل هذه العذابات تحالفت ضد الأقنان، زد عليهم الجهل والأمية الذان سيطرا على هذه الطبقة التعيسة، كل هذا ألقى هؤلاء فى أحضان هوس دينى جعلهم يبحثون عن الخلاص من هذه الحياة الغير محتملة، وجد هذا الهوس الدينى مجال رحب للأنتشار، فقد هرب إلى كنفه الناس من واقعهم المرير، الذى تفشت فيه البؤس والقهر، وكان هذا الأنتشار دون أدنى عناء بين أناس محصولهم الدينى والتعليمى محدود أو معدوم تماماً، وقام فى أوروبا بين هذه

الطبقة جو مفعم بالإنقطاع عن خيرات الحياة ـ المفتقرين لها أصلاً ـ والتكفير عن الذنوب بالإيلام الجسدى، حتى أصبحت الحملات الصليبية منفذ طبيعى لتصريف الزيادة السكانية التى لم تستطع أوروبا إستيعابها، فى الوقت الذى لم تفرض الحروب الصليبية أى قيود إقطاعية على القن بما كان يعنى إنطلاقه لفضاء الحرية والهروب من وضع القنية والعبودية ،

حتى أكتظت أوروبا بأشتات إجتماعية متباينة كلاً منهم له صراعاً مع الأخر، وبعضهم يرفض الوضع القائم رفضاً مطلقاً، ولا يدرى تماماً ما يريد، والبعض الأخر يريد أن يبقى ما جاء من مؤسسات وأساليب الحكم،

يضاف لذلك النظام الظالم للميراث بالغرب والذى يخص أكبر الأبناء بكل التركة مع ترك باقي الأبناء يجرون إذيال الفقر ولا يملكون إلا ما يجود به أخيهم عليهم، مما أنتج شريحة كبيرة من الفرسان بدون أراضى والنبلاء الذين لم يسعدهم الحظ، ويتقلبون بين أعطاف الفقر وليس لهم فرصة لإنتشالهم من هوة الأملاق إلا الأرتباط بوريثة ثرية، بينما ألتجأ العديد منهم للعنف المسلح لحل مشاكلهم سواء بقطع الطرق واللصوصية أو نهب القرى النائية، أو حتى الأديرة والكنائس المترعة بالخيرات، التى لم يتورع الفرسان المنحطون عن مهاجمتها، بل حتى الفرسان المتدينون نهبوا الأديرة والكنائس ويسرعون لنوال الغفران من كنائس أخرى مقابل بعض المنهوبات، ويتناحر أمراء البلاد واحدهم مع الأخر فى حروب لا تنقطع[14]، ليسقط حتى النبلاء فى دوامات من المشاكل المهلكة، فقر إقطاعياتهم بسبب بوار أراضيهم، وهروب الفلاحين، والمجاعات والأوبئة التى قضت على نسبة معتبرة من الأيدى العاملة، والنزاعات والحروب الداخلية، وهجمات الفرسان المعدمين،

المجتمع الأوروبى بغطرسته وبغضه لكل ما هو غير كاثوليكى، وزيادة إتجاة معاداة الأجانب فى الثقافة الغربية، والهوس الدينى الذى سيطر عليه، بسبب الإعتقاد الجازم الذى إنتشر بين جنبات أوروبا بإن نهاية العالم ستكون ببداية الألفية الجديدة (1100م)، حتى أخذت الحرب شكل من أعمال التدين، علاوة على إعتبار الحرب مهنة ذات عائد مجزى، كان على أتم الإستعداد لتلبية دعوة الحرب ضد المسلمين بما تقدمه من حل مشاكله فى الدنيا والخلاص فى الأخرة، مما جعل الإستعدادات لمشاركة أحد فى الحملة الصليبية مغلفة

[14] تاريخ الحملة إلى القدس ص31

بشعور بالتوبة، بعد أن أخذت التوبة أشكال مختلفة، من الإمتناع عن ممارسة الجنس، أو التقشف فى الطعام، أو حتى تعذيب النفس،

كما فرضت الكنيسة حج كبير للتكفير عن الذنوب الكبيرة كطقس مستحدث، هذا الحج الكبير كان وجهته أربع مزارات مقدسة، أولهم روما، ثم مزار القديس يعقوب فى كمبستيلا بأسبانيا، ثم القسطنطينية، ورابعتهم وأهمهم بيت المقدس، التى منحها البابا أربان مستوى التوبة الكاملة التى تمحو جميع الذنوب، حتى أصبحت زيارة الأماكن المقدسة أكثر الكفارات شيوعاً، وتحولت ممارسة الحج من عمل فردى إلى طقس جماعى، فى مجتمع شعر أفراده أنهم محبوسون فى عالم من الرذيلة ليس لهم منها خلاص،

وغدا الذهاب فى رحلة من رحلات الحج إلى أحد الأماكن المقدسة شيئاً كثير الحدوث منذ القرن الثالث الميلادى فصاعداً، وتصارعت المدن فى الغرب للحصول على الذخائر المقدسة من الشرق حتى بأساليب غير أخلاقية،

حتى أصبحت للرحلات المقدسة والحج، توبة تضاهى الصيام والإيذاء البدنى للنفس، والقيام بالحج لبيت المقدس للفوز بالغفران ظهر كعمل جماعى قبل أندلاع الصليبيات بوقت ليس بالقصير، فخلال القرن الخامس الميلادى أستطاع القديس ماركيانوس إقناع البغايا التائبات بقيامهن بالحج للتكفير عن خطاياهن،

وفى بعض الأحيان أصبحت رحلة الحج أقرب ما تكون من عملية نفى للتخلص من العناصر القاتلة وإبعادها للشرق، وأصبحت رحلة الحج القاسم المشترك خلال سيّر القديسين، بل الحج هو النقطة الفاصلة لتحويل الرجل العادى إلى قديس، واصبح الحج الطريق المختصر لكل من أراد تتويج رأسه بهالة الإجلال والسمعة الرائعة للحجاج، الأمر الذى أضفى على الرحلة للقدس جاذبية كبيرة، حتى أنطلق عام 1065م من ألمانيا رحلة حج جماعى بلغ المشتركين بها ستة آلاف شخص وفى رواية أخرى أثنى عشر ألف شخص، وذلك قبيل دعوة البابا أوربان للحروب الصليبية ،

وأدى زيادة المجاعات والأوبئة فى القرن العاشر وإنتشار الأمية فى أوروبا، إلى شعور الأوربيون بقرب يوم الدينونة[15]، وإقتراب موعد فناء الأرض

[15] نهاية العالم

وظهور السيد المسيح، مما شجع العديد للذهاب إلى الأرض التى شهدت ميلاد السيد المسيح لإنتظار نهاية الأرض.

كما لعب دير كلونى والذى أُسس أوائل القرن العاشر، دوراً كبيراً فى نمو حركة زيارة بيت المقدس بسبب ثراء الدير وتنظيماته الإدارية الممتازة، وشبكة رجاله المنبثين فى جميع نواحى أوروبا، وأستغل الدير كافة إمكانياته فى تنظيم رحلات زيارة دورية لبيت المقدس، حتى أنشأ الدير العديد من الفنادق والنُزُل على الطريق للقدس، وكما قام الدير بتنظيم الرحلات الجماعية وتجميع الفصائل والجماعات لها،

وقد حدث تطور هائل فى أوروبا العصور الوسطى، بإنخراط الهنغاريون (المجر) فى المسيحية عام 975م، وإحراز الأمبراطور البيزنطى باسيل الثانى (جزار البلغار) نصراً حاسماً على البلغاريين الأمر الذى فرض كامل السيطرة البيزنطية على البلقان، مما مهد الطريق البرى وجعله أكثر أمناً للراغبين فى التوجه شرقاً، الأمر الذى زاد فى أعداد الأوروبيين القادمين لبيت المقدس، وما أن بدء القرن الحادى عشر الميلادى ـ الذى شهد ختامه بداية الحروب الصليبية ـ حتى تضخمت ظاهرة الحج لفلسطين،

وقد أعتبر دير كلونى أن زيارة الأماكن المقدسة من الفرائض الواجب أدائها، وكما عملت الهيئة الديرية الكلونية على زيادة النفوذ الباباوى ومساعدة الباباوات على إحكام سيطرتهم أمام السلطة الدنيوية سواء ملكية أو إقطاعية، ولعب التحسن النسبى لشبكة الطرق والمواصلات التى شهدتها أوروبا القرن الحادى عشر، علاوة على تنامى النشاط البحرى للجمهوريات الإيطالية على قدرة عدداً معتبراً من الأوروبيين على التوجه إلى الشرق، الأمر الذى أنسحب على سهولة تحريك الجيوش فى الإتجاه شرقاً،

حتى جاءت الفرصة الكبرى فى أرض الأحلام، الشرق الذى من الممكن أن يجدوا فيه ما حرموا منه بوطنهم، ثم هناك الفرسان المكونين لجيوش ومليشيات النبلاء وكانت الحرب هى الطريق الوحيد الذى يحفظ لهم مكانتهم وتوفر لهم أسباب معيشتهم، هذا وإلا ليس لهم مكان بين الطبقة الأرستقراطية، ثم الأمل الذى كان يراودهم فى أمكانية تحقيق إمارة فى الشرق، فالشرق كما نُقل لهم أرض تفيض عسل وخمر، وإن كنا لن ننفى الوازع الدينى عن

البعض فى القيام بالحروب الصليبية وإن كان وازع مغلف بالمصلحة الدنيوية أولاً،

لجأ البابا أوربان للفرنسيين إعتماداً على العلاقات الممتازة بين الباباوية والمملكة الفرنسية منذ أيام بيبين القصير أبن شارلمان 751م، ولأن أوربان فرنسى الأصل أيضاً، ينتمى لأسرة نبيلة متوسطة من أقليم شامبانى، وكذلك سيطرة الرغبة فى الحرب وهوس السلب والنهب على فرنسا، والصراع المرير الدائر بين الملكية والأسقفية والإقطاعية، مما خلق فوضى دموية، فقد سيطر العنف على مناحى الحياة فى أوروبا العصور الوسطى بشكلاً عام، لدرجة لجوء السلطة القضائية لفض المنازعات والمحاكمات عن طريق النزال والقتال أو المرور بمحن مؤلمة، كالإمساك بقطع حديدية ساخنة لدرجة الإحمرار والسير بها لمسافة تسعة أقدام، أو إخراج قطع حجرية من إناء به ماء ساخن لدرجة الغليان، أو المرور وسط النيران، على أن تثبت التهمة إذا لم يلتأم الجرح فى مدة ثلاثة أيام أو أصيب بتقيح، وأصبح من الشائع تعذيب من يقضى عليه بالإعدام وذلك ببتر أعضاءه حتى الموت ،

وقد شهدت أوروبا فى القرن الرابع زيادة إنسياح القبائل الجرمانية من شمال أوروبا الفقير إلى جوف الأمبراطورية الرومانية عبر حدودها الواهنة، فى هجرات مسلحة أقرب ما تكون للغزو، حتى دمر فرسان القوط الغربيين بزعامة قائدهم الشهيرألريك فرق المشاة الرومانية الثقيلة وأستولوا على روما 410م قبل أن يكملوا طريقهم إلى الأندلس ويؤسسوا دولة القوط الغربيين والتى أسقطها الفتح الإسلامى للأندلس،

ويأتى بعدهم الوندال شديدو القسوة، ويجتاحوا بلاد الغال والأندلس قبل أن يعبروا إلى أفريقية ويؤسسوا دولة لهم على الساحل الأفريقى بجوار أطلال مدينة قرطاجة[16]، ويلحق بهم الفرنجة والذين أستقروا فى ما يعرف ببلجيكا، قبل أن يسيطروا على بلاد الغال جميعا بزعامة كلوفس 481م مؤسس فرنسا، ثم يهاجر السكسون من الدنمارك ويخربوا سواحل الجزيرة البريطانيا ويؤسسوا لهم مستعمرات إستيطانية بها،

[16] مدينة أسسها الفينقيون وحاربت روما بما عرف بالحروب الأيونية بزعامة قائدهم الشهير هانيبال وتم تدميرها عقب هزيمته على يد القوات الرومانية،

وترادفت موجات الهجرات الجـرمانية بما تحمله هذه القبائل من سمات حربية مميزة، حتى أضطر الأمبراطور قسطنطين إلى نقل عاصمة أمبراطوريته إلى القسطنطينية، وسقوط الأمبراطورية الرومانية الغربية تحت ضرباتهم، مما أدى إلى سيطرة القبائل الجـرمانية والفـرنجية على غـرب ووسط أوروبا وتغيير التركيبة السكانية بها وإحلال العناصر الجرمانية محل السكان الأصليين، هذه القبائل التى لا تمتهن إلا القتال، وعانت أوروبا من أولاد عمومتهم الفايكنج طوال سنوات عديدة ،

وقد أخذت الأمبراطورية الكارلنجية التى أسسها شارلمان فى التوسع حتى أستولت على بلاد غالة (فرنسا) تماماً، بل وسعى خلفاء شارلمان لوراثة الأمبراطورية الرومانية بالغرب مما أنشأ تحالف بين البابـاوية وبيبين القصير خليفة شارلمان، فى الوقت الذى أستخدمت البابـاوية العنف فى الدفاع عن مصالحها،

وقد تعلم الغرب القتال من أعلى صهوات الجياد من العرب، فخلال معركة بلاط الشهداء 732م ذهب شارلمان لميدان القتال ممتطياً صهوة جواده ثم ترجل ليقاتل العرب، ثم يمتطى جواده ثانية عائداً إلى بلاطه أسير إعجابه بالفرسان العرب وفعاليتهم القتالية،

كل هذا خلق مجتمع عسكرى ونظم عسكرية أفرزت مقاتلين يفوق عددهم ما يحتاجهم هذا المجتمع أثناء السلم، فالقبائل الجـرمانية تمنح فرسانها كافة الأمتيازات بينما باقى أفرادها مجرد خدم، وحتى عندما أعتنقت المسيحية إستعارت كلاسيكيات الحرب الجرمانية وأدخلتها للمسيحية، فأصبحت "فالالهالا"[17] هى الجنة،

وينقسم هؤلاء المقاتلون إلى عصابات لكل منها زعيم يحتمى بقلعة هو وفرسانه، فقد شهدت أوروبا الجماعات الحربية مبكراً إذ إعتاد شباب القبائل الجرمانية تسليم أنفسهم لقيادة محارب فذ يعجبون به ليقاتلوا تحت أمرته، ليأخذ الرومان هذا النظام ويجندون الشباب الجرمانى تحت قيادتهم، ويُعرف قادة تلك الجماعات بالكونتات[18] أو الدوقات[19] ليصبح هذا النظام بعد ذلك

17 دار النعيم التى يذهب إليها القتلى فى الحروب فى الإعتقاد الوثنى للقبائل الجرمانية
18 كونت بمعنى رفيق الحرب باللاتينية
19 دوق بمعنى قائد باللاتينية

العمود الفقرى لدولة شارلمان، بعد ظهور نمط جديد من الروابط الإجتماعية بين السيد الإقطاعى وإفصاله[20]، وتم تكليف هؤلاء الدوقات والكونتات بمهام دفاعية وإنشاء إدارات الحكم المحلية، ومهام القضاء وفض المنازعات تبعاً للعرف المحلى، وشيئاً فشيئاً تزاد قوة الدوقات والكونتات بنفس وتيرة إزدياد ضعف الملوك،

مما أفرز كيانات سياسية صغيرة تحت سيادة سلالات أرستقراطية، تستمد ثروتها وسلطتها من سيطرتها على الأراضى الزراعية، فى ظل سيادة الإقتصاد الطبيعى على أوروبا قبل زيوع إستخدام النقود، مما دفعها للعمل العسكرى المستمر سواء للدفاع عن أراضيها أو الهجوم وسلب أراضى بعضها البعض ،

وقد بحثت طبقة النبلاء عن هويتها ومثل عليا لتؤكد إعتبارها طبقة مميزة وعلى رأس الهرم الإجتماعى فى مجتمع العصور الوسطى الأوروبى، فلم تجد إلا القتال والحرب للحفاظ على هذه الهوية، فهى وأن لم تمارس الحرب كل يوم، إلا إنها تستعد لها كل ساعة،

حتى أصبح أعضاء هذه الطبقة النبيلة هم القادرون وحدهم على القتال من أعلى صهوات الجياد بأوروبا، ولكل فارس تابع ليعتنى بجواده وسلاحه، ويمتطى التابع فرساً أيضاً ،

نظام الأفصال هو أساس المجتمع الغربى الجديد، فهو إرتباط مادى بين الأمير صاحب الإقطاع، والفارس الذى يتعيّش من مهنة القتال ويتقاضى راتب من الأمير لقاء القتال إلى جانبه كفارس بكامل معداته الحربية، إلى جانب بعض الواجبات الأخرى مثل المعونة المالية التى يقدمها الفصل لسيده إذا ما تم أسره، وضيافة اللورد وأفصاله وتقديم الطعام المناسب لهم، وكذلك المساهمة فى تسليح أبن سيده الأكبر عند تدشينه فارساً، والمساهمة فى تكاليف تزويج بنت سيده الكبرى، ومساعدة سيده فى البلاط الملكى، ومجالس الحكم والسياسة، والقيام بحراسة قصر سيده فى أوقات معينة بالتبادل مع الأفصال الأخرين التابعين لسيده، وكما أن الأعراف والقوانين الإقطاعية تجرم تخلى التابع الإقطاعى عن الدفاع عن سيده أثناء المعركة وتعتبر ذلك جريمة لا يمكن الصفح عنها، وينال الفصل فى مقابل ذلك الحماية التى

[20] تابعيه من الفرسان المرتبطين معه بقسم الولاء

يسبغها له سيده بجوار العطاء المادى الجزيل، مما أدى إلى العسكرة المطلقة للمجتمع الأوروبى ،

وأخذ هؤلاء المقاتلون فى البحث عن أعداء ليقاتلوهم، ليوجهوا نشاطهم نحو المزارعين البائسين من مواطنيهم، الأمر الذى أدى إلى ندرة الضحايا المناسبين للقتل عن ذى قبل، ويرفض المقاتلون التخلى عن الحياة الراقية التى كانوا يحيونها فى مجتمعهم الأوروبى الفقير، ويبحث هؤلاء المزارعون التعساء عن الأمان والحماية، فيجدوا هذه الحماية لدى أصحاب القلاع الذين يسرقونهم، الأمر الذى أوقع الفلاحين تحت أعباء إبتزازية متزايدة وغير محتملة من الإيجارات والألتزامات المالية المرهقة، وتزدهر طبقة الإقطاع الحربية ويزداد أعداد المقاتلين بسبب الصراعات الدموية التى تنشأ بين هذه العصابات الإقطاعية، مما يشعل نيران الحروب الأهلية بشكل مستمر غطى غرب ووسط أوروبا، وتزداد قوة الإقطاع على حساب قوة الملك الفرنسى الذى يفقد السيطرة على العديد من المساحات من أراضى بلاده، لدرجة تجنب البابا أربان أثناء دعوته للحرب الصليبية بفرنسا المرور بالأراضى الخاضعة للملك الفرنسى بعد أصدار البابا قرار بالحرمان على ملك فرنسا بتهمة الزنا،

وتحاول البابوية الحد من هذه الصراعات التى تطول الإديرة والكنائس، فالكثير من رجال الدين أصبحوا أسياد لإقطاعيات عديدة ولديهم فرسان فى خدمتهم، حتى أصبحت الكنيسة أكبر سيد إقطاعى بأوروبا بمساحات أراضيها الشاسعة، كما أدت هجمات المسلمين بجنوب أوروبا، وهجمات الفايكنج بشمال أوروبا إلى تطور النظم والأداء العسكرى الأوروبى،

وسيطر التقليد المسيحى الذى يحرم القتال وسفك الدماء، فالمسيحية أنما تدعوا للسلام والمحبة، ولكن الطبيعة البشرية فرضت نشوب الحروب لعجز البشر حل منازعاتهم بدون الإلتجاء لحكم السلاح، الأمر الذى وضع النبلاء سادة الحروب الغربيين فى دائرة الأثم والشعور بالذنب، الأمر الذى دفعهم للأعتراف وطلب الغفران الكنسى بشكل مستمر، الغفران الذى سعوا له بمنح الأديرة والكنائس بسخاء، حيث كان شراء الغفران والتوبة أيسر من الإلتزام بالفضيلة، فى الوقت الذى لم يستطيعوا الإستغناء عن مهنتهم ومهنة أسلافهم، القتال، هذه المهنة التى وفرت لهم حياتهم الرغدة ووجودهم على رأس الهرم الإجتماعى الأوروبى، فكان يجب إضفاء شرعية كنسية على النشاط الحربى،

ولن يكون هناك أفضل من القتال بمباركة باباوية كنسية، الأمر الذى يضفى ستار دينى لإرضاء نزعتهم العدوانية، وهذا ما وفرته الحروب الصليبية والحروب التى إديرت بأمر من البابا، مما يؤدى لوضعية إجتماعية أفضل لطبقة المحاربين، وأدى إلى تغيير النظرة السلبية لطبقتهم، وذلك بوصفهم الجديد كمحاربيين فى الجيش المقدس الحائز على مباركة البابا والمجتمع ،

وشهدت أوروبا القرن الحادى عشر حركة إصلاح كنسية كبرى عرفت بالحركة الكلونية نسبة لدير كلونى بفرنسا، وتهدف هذه الحركة إلى الإرتقاء بأحوال رجال الدين، ونشر العفة والتقوى فى الأديرة، بعد التدهور الذى شهدته الأديرة البندكتية[21]، وتطورت حركة الإصلاح إلى العمل على إصلاح الكنيسة وزيادة سلطة الباباوية بشكل عام، لدرجة أن البابا ليو التاسع (1048- 1054م) أعلن أن الباباوية هيئة حاكمة عالمية ذات سلطات مطلقة وإستقلال تام بتفويض إلهى، بما يعنى التخلص من السلطة الزمنية، وفرض السلطة الباباوية ليس على أوروبا فقط، بل على العالم أجمع، ونشر الكثلكة حول العالم، وحق الباباوية فى خلع وتثبيت الملوك، الأمر الذى ضخ قوة كبيرة فى شرايين الباباوية، التى أصبحت تشعر بقوة تفوق قوة الأباطرة والملوك، مما فرض البحث عن منفذ تنفس به قوتها المتدفقة الجديدة، وإن أستشعرت خطورة تنفيس هذه الطاقة فى قتال بأوروبا، الأمر الذى حدا بها توجيه هذه القوة للشرق، والنظر للحروب التى تشن بمباركة باباوية أنها طريق للخلاص والغفران، وقد حاول الباباوات الإستفادة من عسكرة المجتمع الأوروبى، وتسلط النزعة الحربية على المجتمع الإقطاعى، وتمجيد الفارس، فأعلن البابا ليو الرابع والبابا حنا الثامن أن كل من يقتل فى حرب مقدسة فهو شهيد ومثواه الجنة ،

وقد فرضت الباباوية خلال حركة الإصلاح الكلونية هدنة إجبارية تحت أسم حركة سلام الرب فى أيام معينة كأعياد القديسين وأيام الآحاد من مساء السبت وحتى صباح الأثنين، وأقسم نبلاء فرنسا عام 1016م على عدم إجبار رجال الدين والفلاحين على الإنخراط بجيوشهم أثناء صراعاتهم المتكررة، وألا يغيروا على محاصيلهم أو دوابهم، ولكن اللوردات الجشعين ما كانوا سيلتزمون بقسمهم، وتبحث الباباوية عن ميدان قتال لشغل الأمراء المتعجرفين المشاغبين خارج أوروبا لتجد ضالتها فى الحروب الصليبية،

[21] هيئة ديرية أسسها القديس بندكت (480-543م) وشجع على حياة التنسك والزهد فى الدنيا

بتوجيه عدوان فرسان الغرب خارج قارتهم المترنحة، وإن سبق ذلك عدة حروب حظت بمباركة الباباوية وراية القديس بطرس، التى أُرسلت لروجر كونت صقلية أثناء قتاله لطرد المسلمين من صقلية، وذهبت أيضاً للأندلس مصحوبة بغفران كنسى لجميع المحاربين عن خطاياهم، مع منحهم ألقاب أكثر قداسة مثل جند المسيح وجند القديس بطرس، ليس هذا فقط بل أيدت الباباوية شن حرب على المسيحين المخالفين للعقيدة الكاثوليكية ،

فقد سبق للعديد من فرسان الغرب الإشتراك بالقتال ضد المسلمين، سواء فى الأندلس عندما شهد سقوط طليطلة (1085م) فرسان فرنسا وألمانيا بجوار فرسان قشتالة[22]، نفس الحال خلال الهزيمة الساحقة التى تجرعوها على أيدى المرابطين بمعركة الزلاقة (1086م)، بعد أن أعلن البابا ألكسندر الثانى فى عام 1063م مباركته للقتال ضد المسلمين بالأندلس، ومنحه غفران الكنيسة لكل من يشترك بالقتال هناك وكما سُمح للفرسان بالإحتفاظ بالأراضى التى يتم الإستيلاء عليها بالأندلس وتكوين أمارات إقطاعية خاصة بهم ،

وكذلك الصراع الذى أدارة الفايكنج المتمثلين بالنورماندين للسيطرة على جنوب إيطاليا وصقلية من أيدى المسلمين العرب (1061- 1072م)، أيضاً بمباركة باباوية لـروبرت جيسكارد فى عام 1059م مقابل إعترافه بالباباوية كسيد أعلى له وتعهده بدفع جزية سنوية لها والدفاع عن الباباوات ضد الإمبراطورية البيزنطية، بل لم تنجو إنجلترا من هذه الهجمات الضارية فقد سقطت الجزيرة البريطانية تحت ضغط هجمات النورمانديين 1066م بالمساعدات الباباوية لوليم الفاتح، حتى القراصنة الأيطاليين من بيزا وأمالفى وجنوة عندما هاجموا مدينة المهدية بتونس 1087م وأستولوا عليها بارك البابا فكتور الثالث نهب المدينة الحزينة وأرسل راية القديس بطرس لترفرف فوق رأس القراصنة ومنحهم الغفران عن جميع ذنوبهم العديدة،

كل هذا أجتمع وأدى إلى أول وأضخم موجه إستعمارية أوروبية للشرق، تماما مثل الموجة التى قامت بهجرة ألاف الأوروبيون للعالم الجديد وقضاءهم على سكانه الأصلين مفرزاً للعالم أمريكا وأستراليا وغيرهما وإن أختلفت الدوافع والحجج،

[22] مملكة أسست بشمال الأندلس وأخذت على عاتقها قتال المسلمين لطردهم من الأندلس هى ومملكة ليون وقطلونية وأراجون حتى أتحدت هذه الممالك مكونة مملكة أسبانيا

يضاف لذلك الضعف الذى ضرب أطنابه بدولة السلاجقة بعد موت ألب أرسلان بسبب التنازع والصراع على السلطة ما يجعل مهمة الوصول للشام أيسر وأكثر أماناً

وكما نشطت الدعاية الباباوية منذ زمن طويل لتصوير المعاناة التى يقع الأوروبيين تحت براثنها أثناء رحلة زيارة القدس، وكذلك إدعاء المكابدة التى يكابدها المسيحيين الشرقيين من ظلم الحكام المسلمين، وساهم العديد من رجال الأكليرك الكاثوليكى الذين قاموا بزيارة بيت المقدس فى نشر الفظائع الوهمية التى سقطوا فى دوامتها، سواء أن كان السبب بغضهم للشرق الإسلامى، أو لزيادة هالة القدسية عند تضخيم معاناتهم فى سبيل زيارة الأماكن المقدسة، وقد أستغل مروجوا هذه الشائعات جهل وضعف إطلاع معاصريهم، ففى الوقت الذى لم يعانى مسيحى ويهود الشرق من أدنى أنواع الأضطهاد، ذاقوا الأمرين من اللاتين عندما نجحت الحملة الصليبية الأولى فى فرض سيطرتها على جزء من الشرق الإسلامى، فبينما كان المسيحيون الشرقيون يُسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية بمنتهى الحرية، حاول الفرنج فرض الكثلكة عليهم ،

حمل أودو لاجير (البابا أوربان) الذى ورث مجهودات سلفه جريجوريوس السابع، كل هذا إلى بلدة فى فرنسا تسمى كليرمونت حيث عقد مؤتمر فى الفترة من 18 إلى 28 نوفمبر 1095م فى حقل مجاور لدير بحضور ثلاثمائة وعشرة من رجال الدين اللاتين[23]، بعد قيام الملك فيليب الأول ملك فرنسا بمنع أساقفته من حضور المجْمع، وأن كان يستحيل معرفة خطاب البابا على وجه اليقين، لأن شهود العيان التى كتبوا هذا الخطاب قاموا بكتابته بعد نجاح الحملة الأولى، مما صبغ كتاباتهم بالنتائج التى حُققت، وأن كان هناك شبه إجماع على ان البابا ـ الذى عمل ما فى وسعه لإلهاب حماس مستمعيه ومس وجدانهم ـ بدء خطابه بالتحذير من التقدم الإسلامى فى أوروبا شارحاً إن الدولة البيزنطية تستغيث ويجب أغاثتها، حيث تقدم المسلمون داخل الأراضى الرومانية حتى وصلوا إلى البسفور[24]، مركزاً حديثه عن القدس أقدس المزارات المسيحية، وبأسلوب درامى عاطفى رسم صورة بالغة الكأبة عن ما يعانيه الحجاج الغربيين لزيارة هذه الأماكن، مطلقاً عليهم جنود المسيح

[23] تاريخ الحملة إلى القدس ص31
[24] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

وداعياً الجميع فرسان ومشاة، أغنياء وفقراء، داعياً آياهم عن التوقف عن ذبح بعضهم البعض وتخصيص هذا الذبح لرقاب الشرقيين فى حـرب مقدسة، ولزيادة مقدار المقت تجاه المسلمين أخذ يصب عليهم نعوتاً مثل "جنس يتسم بالحقارة والإنحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت" [25]، وناشد البابا الفرسان الأقوياء بإسراع الخطى لإنقاذ أخوانهم من ما يعانوه، ضامناً لهم الغفران والفردوس لمن يُقتل فى أثناء الحرب، "كل من يذهب إلى هناك سوف تغفر له خطاياه إذا ما واجه حتفه زاحفاً فى البر أو عابراً البحر، أو مقاتلاً الكفار"[26]، وحماية الكنيسة لممتلكات المشاركين فيها حتى يعودوا لأوطانهم، مع العفو عن الجزاءات الدنيوية لمـن شارك بالحرب المقدسة[27]، داعياً من كانوا لصوصاً أن يكونوا جنود المسيح[28] مع جعل كفارة أى مخرب فى الأرض أن يظل جندياً فى جيوش الله سواء فى بيت المقدس أو فى الأندلس لمدة عام، وإلغاء أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم إذا ذهب للحرب المقدسة، لم ينسى أن يذكـرهم بخيرات الشرق الذى تفيض اراضيه بالعسل واللبن، وأن بلادهم بأوروبا التى تكتنفها الجبال والبحار أضيق من أن تستوعب أعدادهم الضخمة، وإنها لا تكاد تمدهم بما يكفيهم من الغذاء، وإن الحياة بأوروبا أصبحت تعيسة كثيرة الشرور، الأمر الذى دفعهم لقتال بعضهم البعض، بينما أرض كنعان حسبما جاء فى الكتاب المقدس أرضاً تفيض عسلاً ولبناً" والأهم هى الحرية التى سينالها من سيقرر الإلتحاق بجيش الصليبيين من أقنان الأراضى الإقطاعية، ولا يستطيع سيدهم أن يمنع من يريد اللحاق بالجيش الذاهب للقتل المقدس، مطالباً أياهم بالأستعداد للسفر عند حلول فصل الصيف، ما جعل الحشود تهتف "الرب يريدها"

وحاول البابا قصر المشاركة فى الحملة على المقاتلين فقط، سواء أكانوا فرساناً من النبلاء أم مشاة من عامة الشعب، ولكنه فشل فى إيقاف الباحثين عن الأمتيازات التى وعدهم به، فالهالة التى وضعها البابا على رؤوس المشاركين فى الحملة المقدسة والدعوة للحرب التى تم تدعيمها بأغرى وسائل الدعاية والأكاذيب المختلفة والخطب الملتهبة، كانت أقوى من محاولاته،

---

[25] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

[26] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

[27] توالت منح الغفران للذاهبين للقدس، ففى عام 516هـ/1123م تم عقد مجمع لاتيران الذى نص على منح الذين يذهبون إلى بيت المقدس والذين يقدمون العون والذين يدافعون عن المسيحيين غفران جميع معاصيهم، وحماية ممتلكاتهم،

[28] تاريخ الحملة إلى القدس ص36

وأُتخم الجيش بالألاف من غير اللائقين للحـرب، مما أدى إلى تفاقم مشاكل التموين والإعاشة، وخلق مشاكل جمة للنظام والإنضباط ،

هل يوجد أفضل من هذا؟ أو أكثر إغراءاً؟ فقد دعى البابا النبلاء والفرسان قاطعى الطرق، محترفى اللصوصية، إلى إشباع ميلهم للقتال، وجشعهم للمال، بحرب مقدسة ـ وأن كان الكثير مما حدث فيها كان بعيداً جداً عن القداسة ـ فى أرض بكر تسيل لبناً وعسلاً كما وصفها لهم البابا، التى صورها لهم كأنها الجنة الأرضية، علاوة على هذا سيحظون بالغفران والخلاص والجنة فى الأخرة، فهم نالوا الثراء الدنيوى والثواب الأخروى، فقد أمتلكت الحرب الصليبية جاذبية شديدة، فالفارس الأوروبى الإقطاعى فرضت عليه الفروسية أن يستمد حياته من القتال، فهو ليس له مصدر دخل إلا بالحرب، وحياته المرفهة المتسلطة لا ينالها إلا بالقتال، فأتت الحركة الصليبية لتوجيه حاجته للقتال وجهة ينال بها ما لا يناله بأوروبا، تحت إشراف الكنيسة ومباركتها، حتى أصبح القتل بدون هدف أو داع إلا إرضاء شهواته الدموية، كل هذا بأسم التقوى والورع، فالفارس الغربى الأن يستطيع القيام بالقتل طوال نهاره وهو على ثقة أنه بهذا على الطريق الصحيح للجنة، بعد أن وفرت له الحرب المقدسة وسيلة رابحة للتوبة، وأطلقت داخلة غرائز الطمع المخيفة، وأرضت جشعه البالغ إلى الغنائم، فالبابا أبن طبقة النبلاء هو أدرى كيف يلعب على عواطفها الجشعة وكيف يستفزها،

حتى تحول مجرمى الأمس إلى جنود الكنيسة، كما لعب التدين العاطفى والهـوس الدينى المسيطر على وجدان الفارس والنابع من تعصب مقيت، دوراً كبير فى الحماس الأعمى الدافع للكثير للإشتراك فى الزحف على الشرق، مما أضطرم نفوسهم برغبة جامحة لقتل الكثير من المسلمين،

ولتخلق طبقة جديدة تمتلك الكثير من العنصرية ضد كل ما هو غير صليبى،

حتى من أنتوى الإنخراط فى سلك الرهبنة سيجد أن الحروب الصليبية أكثر صخباً من حياة الدير ولها نفس الغفران، حتى أصبح ينظر للحملات الصليبية كوسيلة لتكفير الذنوب، والمشاق والمتاعب والأخطار فى الحملة كتسديد لديون من يستحقون عقاب الرب جزاء خطاياهم، وكعقاب دنيوى يمنحهم الغفران، كما الإنخراط فى الحملة خير وسيلة لهروب المديونين من دائنيهم، فى الوقت الذى أخذ القضاة فى تخير المجرمين بين السجن أو الشرق،

وكرر أوربان هذا المؤتمر بالعديد من مدن فرنسا وإيطاليا وبث دعاته فى كافة أرجاء أوروبا يلهبون آذان مستمعيهم بحماسة مسعورة، فطوال تسعة أشهر زار البابا المتحمس مدن تور ومنبيلية وتولوز وبوردو ونيميز، ولم ينسى أوربان تأمين مواصلات حملته البحرية فخاطب جمهورية جنوا التى خصصت تحت تصرف أوربان أثنى عشر قطعة بحرية،

فالمدن الإيطالية التجارية رأت فى الدعوة للزحف ضد الشرق فرصة ذهبية لزيادة أرباحها التجارية وتدعيم نفوذها فى حوض البحر المتوسط بسيطرتها على موانئه الجنوبية والشرقية، الأمر الذى يكفل لها التحكم فى التجارة الشرقية ،

وعندما تلاقى كل هذا، أستجاب الكثيرون بطريقة هستيرية، وكأن مستهم عصا سحرية، وكانت النتيجة سيل من طلبات الأنضمام للحملة ما فاق توقعات حتى أوربان نفسه، وكان أول المتطوعين أديمار دى مونتى أسقف لوبوى[29] والذى سيكون له القيادة الروحية لحملة الأمراء، وتم تثبيت صليب من القماش الأحمر على كتف معطف المتطوع، ومع أن أوربان كان يريد للحملة أن تكون تحت السيطرة المباشرة للكنيسة ولكنه كان يدرك ضرورة ألقاء مقاليد الحملة العسكرية لقائد عسكرى محترف، ولكن لن يتم الأتفاق على قائد موحد للحملة بسبب الطمع والبحث عن المصالح الشخصية لقادة الحرب المقدسة ،

ولم يكن البابا أوربان هو أول من دعا لحرب تكون وجهتها بيت المقدس، بل سبقه البابا جريجورى السابع فى عام 1074م عقب معركة ملاذكرت مباشرةً، فالحرب الصليبية أضحت أقوى سلاح فى الترسانة الباباوية، يستطيع البابا إستخدامها وقت ما يشاء، وأين ما يشاء، وضد من يشاء، سواء المخالفين فى العقيدة، أو المذهب، وحتى ضد الخصوم السياسيين، لهذا حرص الباباوات على الإحتفاظ وحدهم بسلطة إعلان الحملات الصليبية، وتقديم الإمتيازات الروحية والمادية التى يتمتع بها جنودها، وأستخدم الباباوات سياسة العصا والجزرة، العصا المتمثلة باللوم والحرمان الكنسى، والجزرة المتمثلة فى الغفران والخلاص ،

[29] الحروب الصليبية ج1ص107

ليصبح الصليبيون طبقة جديدة لها رونقها فى المجتمع الأوروبى، تفتخر الأسر النبيلة بوجود فرد منها مشترك فى حملة صليبية، بعد أن أصبح أكبر مدح للبنلاء بأنه "متمرساً فى الحروب"[30]،

وواجه الأمراء الزاحفون للشرق مشكلة توفير التمويل اللازم لزحفهم، وتتكفل النقابات الدينية والجمعيات الكنسية بتوفير جانب معتبر من هذا التمويل للكثيرين من الزاحفين شرقاً، فى الوقت الذى طُولب السيد الإقطاعى تبعاً للعرف الغربى بتغطية نفقات فرسانه وباقى قواته، لتقوم الأديرة بإقراض الساده الإقطاعيين بعد إتخاذ ممتلكاتهم رهناً على أن يسدد قيمة القرض من ريع هذه الممتلكات، وكما قام النبلاء بفرض ضرائب باهظة على أتباعهم من الفلاحين وأهالى المدن الواقعة داخل حدود إقطاعياتهم لتوفير جانب من نفقات الحملة، بينما يقوم البعض برهن أقطاعياتهم لأقاربهم، فقد قام روبرت دوق نورماندیا برهن دوقيته لأخيه وليم روفرس ملك إنجلترا مقابل عشرة آلاف مارك، ليقوم وليم ملك إنجلترا بفرض ضرائب عامة على رعاياه ومصادرة أموال الرهبان لتوفير قيمة القرض

وقد أنتشرت ظاهرة فرض ضرائب باهظة لتغطية نفقات الحملات الصليبية لعل أشهر هذه الضرائب هى الضريبة التى فُرضت عقب إنتصار صلاح الدين بمعركة حطين، وعرفت هذه الضريبة الباهظة بعشور صلاح الدين والتى قدرت بعشر الدخل والممتلكات المنقولة لمدة عام على الجميع حتى رجال الدين ولم يستثنى منها إلا الصليبيين فقط مع محاولة فرض رائحة من الإحسان والصدقات على هذه الضرائب الإجبارية ،

الأمر الذى يوضح الوضع الإقتصادى السيئ لأغلب النبلاء المشاركين فى الحملة، بينما لم يجد صعوبة فى التمويل إلا ستيفن كونت بلو واسع الثراء، وريموند أوف تولوز البخيل،

وتركزت قيادة الحملة فى كبار النبلاء الذين أبدوا رغبتهم فى الإشتراك فيها، أولهم كونت ريموند أوف تولوز، وهو كونت متقدم فى السن متقلب الأهواء كثير الأطماع، سبق له محاربة المسلمين بالأندلس، وشديد الطموح ويطمع فى منحه القيادة العسكرية للحملة كمكافأة نهاية الخدمة، قام قبيل سفره بمنح

30 تاريخ بيت المقدس ص35

كاتدرائية لوبوى تبرعات ضخمة بشرط إيقاد شمعة بأسمه أمام تمثال السيدة العذراء دوماً، وأن تتم الصلاة من أجله طيلة حياته،

وهيو (هيج) أوف فرماندوا Hug شقيق ملك فرنسا، والذى أراد بأرساله لأخيه نوال الغفران على جريمة الزنا التى أعترف بها وأشترط الغفران مقابل أرساله لهيو، ومن خلفهما روبرت أوف فلاندرز، وروبرت دوق نورماندى، وستيفن كونت بلوا الذى أجبرته زوجته على الإشتراك فى الحملة والتى كان كما يبدوا يخشاها أكثر من مشاق السفر والقتال، وجودفرى الرابع أوف بويون دوق اللورين وأخويه أستاس وبلدوين وأبن عمه المسمى بلدوين أيضاً، وبوهيموند أوف تورنتو أبن جسكارد والذى وقف ضده عمه وأخوته فى طريق توسيع ممتلكاته بإيطاليا فطمع أن تفتح له الحرب المقدسة ميدان أخر لتوسيع ممتلكاته ورافقه أبن أخته كونت تنكريد ،

أما باقى نبلاء الحملة فكانوا ينتمون إلى الفرسان الأتباع المغمورين المفلسين الذين كانوا يخدمون بحاشية ملك أو عائلات نبيلة، أو نبلاء ذوى أصول متواضعة وممتلكات ضئيلة، ممن يحيون بأوروبا حياة مماثلة لحياة كبار الفلاحين، ولم يكونوا من ذوى المكانة المرموقة والوضع الإقتصادى الممتاز،

ومن قبل هؤلاء بطرس الناسك Peter The Hermit (1050-1115)، تلك الشخصية العجيبة، وكأنها فرت للتو من مخيلة راوى شعبى، وهو راهب فقير جوال فرنسى الأصل أسمه الحقيقى كوكو بيتر، قصير القامة، بينه وبين النظافة عداوة، إعتاد أن يتجول حافى القدمين، مرتدياً أسمال قذرة، يرى متابعيه إزدياد قداسته كلما إزدادت ملابسه قذارة، يتنقل ممتطياً حماراً يصفه معاصريه بأنهما متشابها السحنة كما أن رائحتهما متطابقه، وأستعان بطرس بلألاف من الخرافات النبوئية لإقناع البسطاء والدهماء والرعاع بأن الطريق إلى القدس ممهد وقريب، كانت الأوبئة والفيضانات التى حفل بها عام 1094م لها تأثير السحر على الألاف لتلحق ببطرس الناسك وتتبعه، مكونه أرتال طويلة من العربات المتهالكة التى تجرها الثيران العجفاء والمحملة بأمتعة حقيرة وطوفان من الرعاع الجياع شبه العراه بأسمالهم البالية الرثة، الكثيرين منهم أصطحب عائلاتهم فلم تكن هناك أية نوايا للعودة لأوروبا، ليزحف جيش بطرس المفتقد لقيادة موحدة فى إبريل 1096م والمفتقر للنظام بنفس القدر لإفتقاره للطعام، كالجراد الذى يبحث عن ما يصِمت به صرخات الجوع

القاسى، ناشراً الدمار والخراب بالأراضى المنكوبه بمروره، تسيطر عليهم سيكلوجية الحشود الغاضبة وسلوكها المدمر، وأقصى ما حصلت عليه هو مجموعة متواضعة من صغار النبلاء والفرسان الذين لا يؤبه بهم ـ وقد قام هؤلاء الفرسان بنهب الكنائس بمسقط رأسهم لتأمين نفقات الرحلة المقدسة ـ، بقيادة والتر سانزافوار(المفلس) الذى يبدو أنه كان له حظ كبير من أسمه، بينما هناك فصيلة من قوات بطرس الناسك كانت تسير خلف قيادة أوزة معتقدة فى قدسيتها وإنها تتلقى وحياً من السماء وستصل بهم لبيت المقدس سريعاً، والأقنان الذى فروا من أسيادهم وينظروا بعين الإرتياح لوجود فرسان إقطاعيين ضمن جيشهم ،

أستيقظ الأمبراطور ألكسيوس على واقع غير مستحب له، فبعد ما كان يريد مجرد مرتزقة فرادى أو مجموعات صغيرة من فرسان الفرنجة لتخدم بجيشه لإستعادة سيطرته على الأناضول، إذا به يفاجئ بإعصار من جيوش كبار نبلاء أوروبا، الأمر الذى أثار دهشة وفزع أبنته المؤرخة أنا كومينينا التى تصف الجيوش الصليبية "يخيل أن أوروبا أقطلعت من أصولها، ويمكن الربط بينهم وبين عدد النجوم فى السماء أو الرمال على شاطئ البحر" وتصفهم بقولها "أن الفرنج على إستعداد لبيع زوجاتهم وكل ما يملكون لقاء حفنة من المال" وتقول إيضاً "تتابع إقتراب البرابرة حتى تكاد العيون حدثاً عجباً"[31] وقد أعتاد المؤرخون اليونان بنعتهم بوصف البرابرة،

الأمر الذى جعل ألكسيوس ينظر بعين عدم الإرتياح لهذه الجيوش المتشردة ويخشى منها، فكأنه الساحر الذى أحضر شيطان فخرج عن سيطرته، فكل ما حاوله هذا الأمبرطور المجـرب الذى يحمل فوق كاهله خبرات خمسين عاماً هو الحفاظ على دولته من الذين أتوا لحمايتها، وحاول دائماً التأثير على أنصاف الهمج هؤلاء، متعمداً إرتداء الملابس الحريرية النفيسة المطرزة بالذهب بسخاء، فأول ما خطط له هو عدم السماح لهذه الجيوش للأجتماع بعاصمته ونقلها منفرده لأسيا الصغرى تباعاً، "لأن الأمبراطور خشى أن يتأمر الفرنج عليه"[32]، مع محاولة السيطرة على هؤلاء الفرنجة المحبين للنهب أثناء تنقلهم داخل أمبراطوريته، حتى أنه لم يسمح بدخول عاصمته إلا

31 الإكسياد ص271

32 تاريخ الحملة إلى القدس ص44

لمجموعات صغيرة من خمسة أو ستة أشخاص فقط[33]، بينما هو يخطط لذلك فوجئ بقدوم أول هذه الجيوش، جموع بطرس الناسك، التى ما أن ولجت داخل الأمبراطورية حتى أخذت فى نهب المجر والمناطق المحيطة ببلجراد مما أدى لإشتعال القتال بين أهالى المنطقة والجيش الصليبى المسافر لمهمة مقدسة، حتى فقد الجيش المقدس حوالى عشرة ألاف ما بين قتيل وأسير، ليدير الجيش المقدس سيوفه جهة اليهود ليتنزف منهم ما عرفوا به من ثروة، وينتقم من الربا الذى قيدوا به الجميع ،

والملفت هو ما نراه من إرتياح مؤرخ صليبى وهو وليم الصورى للمذبحة التى أرتكبها جيش بطرس ضد مدينة سملين المجرية، ويظهر وليم شماتته لمقتل أربعة آلاف مسيحى مجرى على يد الجيش المقدس[34] وهى المذبحة التى دفعت سكان بلجراد إلى الهروب من جيش بطرس وإخلاء مدينتهم من أما جيش الجوعى الذى لا يستطيع التميز بين ضحاياه ما دام لديهم ما يسلبه، لتتكرر الصورة فى مدينة نيش عندما أتبع جنود بطرس بطونهم وقاموا بقتل مواطنيهم بأوروبا، كأنهم لا يملكون صبراً على القتل، ليهاجمهم دوق المدينة ويطاردهم بعد أن لاذ الجيش بإذيال الفرار، ويعود الدوق من المطاردة بعد قتله العديد منهم وفى ركابه أسرى الجيش المقدس، بعد أن سبوا كثيراً من النساء، وأسترقوا العديد من الأطفال[35]، ليقضى قادة جيش بطرس الليلة فى دق الطبول ونفخ الأبواق لجمع فلول جيشهم الهارب، ويستمر الجيش المقدس فى مسيرته، ليسرق كل ما يقع عين جنوده عليه من ماشية وكل ما يؤكل، وقد لعبت وحشيتهم دور حاسم فى الجرائم والمذابح التى أرتكبوها طوال طريقهم ضد بنى جلدتهم ،

لتجد إنباء الثروات اليهودية التى تم الإستيلاء عليها مستقر فى أذن لورد إلمانى صغير يسمى إميخ (أميكو أوف ليننجن) لورد ليزنجين بحوض نهر الراين، والذى أشتهر عنه أنه قاطع طريق، وقد أشاع هذا اللورد بظهور صليب بجسمه، مما دفع الجموع للهرولة والإلتحاق بجيشه، ليزحف بهم إميخ 3 مايو 1096م ـ لاليغفر له ذنوبه ولكن ليقترف العديد منها ـ إلى مدينة شبير مستهدفاً يهودها، الذين أشتروا حماية أسقف المدينة، ليسابق إميخ أخبار جيشه

33 تاريخ الحملة إلى القدس ص 44
34 الحروب الصليبية ج1ص116
35 الحروب الصليبية ج1ص122

إلى مدينة ورمز ليقتحم الجيتو (الحى) اليهودى بها هو وأهالى ورمز، ليحاول يهود ورمز شراء حماية الأسقف أيضاً ولكن سيوف عصابات إميخ أسرع، بالرغم من إرسال يهود المدينة مائتى مارك للأسقف وسبعة أرطال ذهب لإميخ، ليختبئ يهود المدن الواقعه بطريق إميخ، الذى يستمر فى زحفه حتى حدود المجر، لتقع معركة بين قوات ملك المجر كولومان وقوات إميخ، يقتنع بعدها إميخ بضرورة عودته لبلاده والإكتفاء بما حصل عليه فى رحلته المقدسة من ذهب اليهود،

ما أن وصل جيش بطرس للقسطنطينية حتى ذهب لكنائسها الجيش الذاهب للحج، وقاموا بسرقة الرصاص الذين تزين به قباب هذه الكنائس، وبالمصادفة أنتشرت السرقات بقصور القسطنطينية التى أدارت فخامتها رؤوس متشردى جيش بطـرس، وإغُتصبت نساء المدينة، مما كان له عظيم الأثر ليحظوا بأهتمام الأمبراطور بسرعة نقلهم كيفما أتفق عبر البسفور وإلقاءهم على الشاطئ الأسيوى لبحر مرمرة، ليتركهم لمصيرهم أمام السلاجقة، بعد شعور الأمبراطور بصدمة من مظهر بطرس وجيشه من الرعاع الذى لا يوحى بقدرتهم مقارعة كتائب فرسان السلاجقة شديدى المهارة، لينصح الأمبرطور بطرس وقواده بعدم الإشتباك مع السلاجقة وإنتظار القوات الرئيسة للصليبيين،

بعد عبورهم البسفور إنقسم جيش بطـرس تبعاً لموطن كل قسم فقام الجنود القادمين من فرنسا بتشكيل كتيبة ضخمة من سبعة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الفرسان والتوغل بالأراضى التى كان ساكنيها من المسيحيين اليونان، وقتلوا كل من صادفوه فى طريقهم حتى عادوا محملين بالغنائم وخلف ظهورهم يتعالى دخان الحرائق، التى دفع مشاهدتها الجنود الألمان لمحاكاتهم بكتيبة من ثلاثة آلاف من المشاة ومائتى فارس للحاق بثمار السلب، وتوغلوا هم بدورهم تحت قيادة أحد النبلاء الألمان المسمى رينالد حتى تسنى لهم السيطرة على قلعة هرسك المهجورة، ليسارع رينالد وقواته بنهب الأهالى الذين كانوا مسيحيون فى المجمل، ويستمر توغل رينالد حتى أسوار نيقية عاصمة سلاجقة الروم لتخرج حامية المدينة مجبره رينالد على التقهقر لقاعدته هرسك،

فى هذه اللحظة أرسل السلطان السلجوقى قلج أرسلان (سيف الأسد) بن سليمان أحد قادة جيشه الذى سرعان ما حاصر رينالد ورجاله نهاية شهر

سبتمبر 1096م لمدة ثمانية أيام، بعد قطع إمدادات المياه عن المحاصرين، وأسرهم جميعاً وقدمهم للسيف عقاباً على جرائمهم التى طالت حتى مسيحى اليونان، ويبدوا أن رينالد والكثير من رجاله لم يريدوا الموت فى بداية رحلة حجهم، فأعلنوا إسلامهم وإنضمامهم لصفوف السلاجقة الذين أرسلوا من أسلم من الألمان لداخل الأراضى السلجوقية بفارس وخراسان،

بينما أستغل السلاجقة جشع الصليبيين وأرسلوا جاسوسين يجيدان اللغة اليونانية، أشاعوا إستيلاء رينالد ورجاله على نيقية عاصمة السلطان السلجوقى قلج أرسلان بن سليمان مع سرد الغنائم التى يتنعمون بها، مما زاد شوق باقى الجيش للهجوم على نيقية ومحاربة الألمان حتى ينالوا ثواب القتال فى سبيل الحج، ولكن الحقيقة تكشّفت قبل تحرك الجيش عند وصول أحد الناجين من جيش رينالد، مسرداً الكارثة التى حلت بهم،

وتقدمت قوة سلجوقية لملاقاة باقى جيش بطـرس الذى رفض إنتظار عودته من القسطنطينية وتقدم للسلب والنهب والإنتقام للقتلى فى جيش يبلغ حوالى خمسة وعشرين ألف من المشاة وخمسمائة فارس، وما أن تقدم هذا الجيش حتى وقع فى كمين السلاجقة الذين أخفوا جيشهم بالغابات والأحراش، وما أن أصبح جيش الصليبيين فى مرمى سهامهم حتى أمطروهم بوابل من السهام أعقبها هجوم كاسح لم يستطع الصليبيون مقاومته، ولم تستمر معه المعركة إلا للحظات، أعقبها هروب الجيش الصليبيى لمعسكره فى فوضى عارمة، يتعقبه فرسان جيش السلاجقة حتى قُتل أغلب الصليبيين، ومن نجى منهم كُتب عليه الرق، وكان الحظ رفيق ببطـرس حيث كان فى هذه الأثناء يتسول من الأمبراطور بالقسطنطينية ما يمسك أوده هو ورجاله، وكذلك يبحث عن الأمان فى القسطنطينة عندما شعر بالنهاية المنتظره جيشه المتمرد، الذى لم يستطع السيطرة عليه، ليرسل الأمبراطور البيزنطى بعض سفن أسطوله لتخُلى من كتب له النجاة من جيش بطـرس، وتفرض عليهم تسليم أسلحتهم والأقامة الجبرية حتى وصول قوات الأمراء الإقطاعيين ،

تبع هؤلاء ثلاث جيوش تحت قيادة ثلاث من صغار النبلاء ورجال الدين حملتان تحت قيادة واعظان وهما الكاهن فولكمار وجوتشوك وحمله تحت لواء كونت صغير أسمه إيمش قامت الأولى والثانية بتوجيه سيوفهما ضد يهود المجر وأن لم تستطع سيوفهم التفرقه بين اليهود والمسيحيين، ولحقت بهما الثالثة فى مهمتهما بنفس الهمة حتى تم القضاء عليهم تماماً بمعرفة

جيوش ملك المجر، ومن نجى من هذه الجيوش رجع لبيته لينال الراحة من وعثاء قتل مواطنيه، وبهذا تم القضاء على ما أطلق عليه بعض المؤرخين حملة العامة، ولتبدء مرحلة الحملة الصليبية الأولى الحقيقية أو ما يطلق عليه حملة الأمراء

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود

والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين

أمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم

قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون)

[المائدة ، 82]

كما رأينا بالفصل السابق الدعوات المحمومة للحروب الصليبية والتى نتج عنها هذا السيل الجارف من فقراء أوروبا الذين حاولوا الفرار من الأوضاع المأساوية التى فرضت عليهم طمعاً فى حياة أفضل وعُدوا بها بالشرق، فبقدر ما كانت أوروبا رحيمة بفئة قليلة من أبناءها وهم النبلاء وكبار رجال الدين، بقدر ما كانت أماً فى منتهى القسوة على الأغلبية العظمى من مواطنيها، يضاف لذلك خراب مساحات واسعة من الأراضى الزراعية والقرى بفعل هجمات الفيكنج والحروب الداخلية بين الأقطاعيين مما أدى لشح المواد الغذائية بأوروبا فى هذه الأونة، مما ترك قطاع عريض من الأوروبيين فى حالة يرثى لها من الفقر والجوع والحرمان وعدم الأمن، يضاف لذلك الأعتقاد الجازم المنتشر بأوروبا فى ذلك الوقت بقرب ظهور المسيح ونهاية الأرض فليس هناك أفضل من الحج والغفران الممنوح من باباوات روما لنهاية الحياة، فقد كانت فكرة نهاية الحياة فى الأرض المقدسة فكرة لها رونقها، ووعد الباباوية بإسباغ رعايتها وحمايتها على ممتلكات المشتركين بالحملة لحين عودتهم يبعث الطمأنينة فى نفوس الأثرياء، وقد أدى كل هذا لخروج ألاف المتحمسين لفرض السيطرة على بيت المقدس تحت قيادة بطرس الناسك وأدى كثرة وعدم نظام هذه الجموع إلى مسارعة أمبراطور بيزنطة بالتخلص من هذه المجموعات الفوضوية التى أرهقت دولته سلب وسرقات وقتل، فبينما كان الأمبراطور البيزنطى ألكسيوس يطمح فى مرتزقة يحاربون ضمن صفوف جيشه، فوجئ على مشارف عاصمته ببضعة آلاف

من المحتاجين للطعام، فقام بدفعهم لعبور البسفور فأعادوا نفس أعمالهم الوحشية من قتل وسرقة للمواطنين المسيحيين شرق البسفور فى الجزء الواقع تحت السيطرة السلجوقية، فلم يجد هؤلاء المواطنون المسيحيون الأبرياء أى حماية من أعمال الجيش المقدس سوى لدى السلاجقة المسلمين الذين قاموا بحصد رؤوس هذا الجيش والقضاء عليه تماماً، وأن نجى قائدهم بطرس لوجوده فى القسطنطينية لتخبئ لنا الأيام مفاجأة، مما بين أن مهمة بهذا الحجم كانت فى أشد الإحتياج لعسكريين محترفين،

فى هذه الأثناء كانت النخبة العسكرية الأوروبية تستعد للقيام بما أطلق عليه الحملة الصليبية الأولى أو حملة الأمراء، وكما رأينا كانت مؤلفة من جيوش بعض كبار الإقطاعيين الأوروبيين مختلفى الدوافع للإشتراك فى هذه الحرب، وكان هؤلاء الأمراء عسكريون محترفون، فأمتلكوا الصبر وقدرة السيطرة على جيوشهم مما جعلهم لا يتعجلون موعد بدء زحفهم حتى إتمام إستعداداتهم العسكرية وتنظيم شئون إدارة إقطاعياتهم أثناء غيابهم بالشرق، تتكون جيوشهم من الآلاف من الفرسان ثقيلى العدة، ومساعديهم التكتيكيين من الفرسان خفيفى العدة والمشاة، ورماة السهام، علاوة على رجال الدين وخدم المعسكرات ومهندسو الحصار، والتجار والأفاقون وطالبوا الغنائم والنهابون، والجراحون، وغلمان الأصطبل، والعديد من النساء البغاة ،

وتتابع خروج هذه الجيوش على موعد للتجمع فى القسطنطينية الغير مرحبه بوجود جيوش قوية داخل حدودها، من الممكن أن تسبب لها الكثير من الأضرار، لهذا عمد الأمبراطور ألكسيوس كومنين إلى عدم السماح لأجتماع جيشين من هذه الجيوش بجوار عاصمته، والعمل على عبور هذه الجيوش لمضيق البسفور أولاً بأول، ليكون مكان الحشد والتعبئة شرق البسفور وليس غربه، ولعدم الثقة المتبادلة بين ألكسيوس والجيوش القادمه لإنقاذه، حاول الأمبراطور إنتزاع قسم تبعية كما هو العرف الإقطاعى الغربى من هؤلاء الأمراء ليصبحوا أفصال وتابعين له فى الأمارات التى سيقيمونها فى الشرق، علاوة على القسم على إعادة الأراضى التى أستولى عليها السلاجقة من الأمبراطورية البيزنطية فور فرض السيطرة الغربية عليها لتكون خالصة لبيزنطة بدون أى سيطرة لاتينية عليها، وذلك لإقتناع الأمبراطور ألكسيوس إن الهدف الحقيقى للفرنجة هو الحصول على أمارات شرقية، ولكن كما سنرى حاول الأمراء ـ ذوى الأطماع فى تكوين أمارات فى الشرق ـ التهرب

من هذا القسم أو قاموا بالقسم مع النية الحنث به، فقد طمع الجميع فى الكعكة قبل نضجها وسعوا جميعهم للحصول على نصيب الأسد من الجائزة قبل الوصول لخط النهاية، فبينما نظـرت الأمبراطورية البيزنطية إلى جموع الصليبيين إلى أنها نجدة أرسلت لها لطرد السلاجقة وإستعادة أراضيها المسلوبة، نظر الصليبيون إلى هذه الحرب كفرصة للثراء والمجد.

هكذا تجمعت أربعة جيوش كبيرة أعتمدت فى تنظيمها على أسس الجغرافيا والعرق والجنس،

وأول الزاحفين كان هيو كونت فيرماندوا الأبن الأصغـر لهنرى الأول ملك فرنسا السابق، والشقيق الأصغر لفيليب الأول ملك فرنسا، من إقطاعيته بوسط فرنسا، مدفـوعا من أخيه الملك الباحث عن الغفران البابوى على جـريمة الزنا التى أقترفها مع عشيقته بيرترادا مونتيفرات[1]، فدفع بأخيه كالمحلل ليمنحه البابا الغفران الذى يتشوق إليه، وهيو هذا كان إنذاك فى أوائل الأربعين من العمر مغرور لدرجة المرض، ويُطلِق على نفسه لقب "أعظم الأحياء تحت السماء" وصاحب كونتية صغيرة جداً حصل عليها بزواجه من وريثتها، متوسط الثروة فمن الممكن أنه قد إجتمع مع إلحاح أخيه ملك فرنسا على سفره طموح هيو فى تكوين إمارة كبيرة تعوض صغـر حجم إقطاعيته فى فرنسا، ويتحرك هيو من فرنسا ماراً بإيطاليا ومنها ركب البحر ميمماً صوب القسطنطينية، التى وصل لشواطئها مغطى بالأوحال بعد غرق بعض سفن اسطوله ليتم إنقاذه من الغرق وإلباسه ملابس أخرى تليق بمقابلة الأمبراطور الذى لمس غرور هيو فأخـذ فى تملقه وأغراقه بمنحّه وعطاياه مما كان له تأثير السحر على هيو فسارع بالموافقة على قسم يمين الولاء للأمبراطور، وتم تنظيم عبور هيو وجيشه للبسفور مع نصائح بعدم الأشتباك مع السلاجقة وإنتظار باقى الجيوش الصليبية،

والثانى هو جودفرى البولونى دوق اللورين (Godfrey of Boyillon) (1100/1060م)، بشمال غرب فرنسا كان شاب إنذاك من مواليد 1060م له إقطاعية صغيرة جدا، ويتولى إدارة دوقية اللورين ولكن ليست وراثية لأسرته، بل مجرد إقطاع مؤقت من أمبراطور ألمانيا، فبعد وفاة جودفرى الأحدب دوق اللورين أوصى بأن يخلفه أبن شقيقته جودفرى هذا، ولكن

[1] كانت والده الملك فولك ملك بيت المقدس، ثم هربت من والده لتصبح عشيقة لملك فرنسا فيليب الأول

الأمبراطور هنرى الرابع طمع فى الدوقية فقام بتنصيب أبنه كونراد دوقاً عليها، ولكن بعد مساعدة جودفرى له فى حربه ضد البابا أوربان الثانى قام بمنحه حكم الدوقية وأن كان بشكل غير وراثى، مما سرب له الشعور بعدم الأمل فى إمكانية توسيع ممتلكاته بالغرب فلماذا لا يبحث عن حظه فى مكان أخر وينول معه مباركة البابا المعادى له، وصحب جودفرى أخواه، يوستاس والأخ الأصغر بلدوين الذى كان لا يملك أى ممتلكات فى الغرب، ففتحت له هذه الحرب أبواب سحرية يستطيع بها التمتع بما حرم منه بموطنه، فلهذا حرص على إصطحاب زوجته غودفير وأولاده معه فهو لم يمتلك نية الرجوع للغرب بعد ذلك، وبدء جودفرى إستعداداته بإعلانه نيته الثأر للمسيح من اليهود، الذين سارعوا بتقديم الرشى والأموال لشراء سلامتهم وهذا هو المطلوب ،

هذا الدوق الورع الذى أعتاد بإنتظام نهب الأديرة المحيطه بإقطاعيته، رسم مؤرخو الحروب الصليبية المعاصرين صورة براقة للفارس الصليبى ذو الكفاءات العسكرية الفذة ـ التى لم تظهر طوال الحملة ـ والذى أسمه يثير الرعب لدى السلاجقة، بل وصلوا به لمصاف أبطال الأساطير اليونانية ،

فضل جودفرى إتخاذ الطريق البرى للوصول للقسطنطينية عبر المجر والذى وافق ملكها على عبور الجيش، بعد التحفظ على بلدوين وزوجته وأولاده كرهائن لضمان عدم تكرار ما أقترفه جيش بطرس فى بلجراد قبل ذلك، متجنباً المرور بإيطاليا بسبب سوء علاقته بالباباوية[2] لمساعدته للأمبراطور الألمانى هنرى الرابع أثناء صراعه ضد البابا أوربان، وما أن عبر الجيش الحدود المجرية حتى تم إطلاق سراح الرهائن، وأستمر جودفرى فى زحفه حتى وصل للقسطنطينية فبادر ألكسيوس بدعوته للمثول أمامه، فقد كان وصول جيش بضخامة جيش جودفرى يقلق الأمبراطور ويجعله يعمل على سرعه عبوره للبسفور، ولكن جودفرى تخوف بسبب الشائعات المنتشرة بإن الأمبراطور يحتجز هيو، فسارع ألكسيوس بأرسال هيو عسى أن يستطيع إقناع جودفرى بمقابلته، ولكن هيو أخفق فى المهمة بسبب تعنت جودفرى، الذى أوسع هيو معايرة بسبب خضوعه لأليكسوس،

[2] كما رأينا كان هناك صراع بين البابا أربان الفرنسى ضد البابا جيبرت الألمانى وقد وقف أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الألمانى مع أبن جلدته وقد ساعد جودفرى الأمبراطور الألمانى الذى كان من أفصاله وتابعيه الأمر الذى يبين أن هدفه الحقيقى لم يكن الإستجابه للبابا أربان بقدر كان هدفى تفوح منه مصالح دنيوية،

عمد ألكسيوس إلى قطع الأمدادات ومنع تموين جيش جودفرى، فبادر بلدوين إلى نهب ضواحى العاصمة فأقتنع ألكسيوس بعدم جواز منع تموين الجيش القادم لإنقاذ أمبراطوريته، وأعتمد على سلاح الصبر والنفس الطويل مع جودفرى، ولكن كان مجئ أخبار بإقتراب جيوش صليبية أخرى من العاصمة إنذار بوجوب إنهاء تواجد جيش جودفرى أمام القسطنطينية، حتى لا يجتمع جيشان أمامها مما ينذر بالخطر على الأمبراطورية من منقذيها، فحاول الأمبراطور التصعيد بتقليل الأمدادات لجودفرى وجيشه بدئها بوقف أمدادات العلف، فقام بلدوين بمهاجمة القرى المحيطه ونهبها، مما شجع جودفرى بمهاجمة أسوار العاصمة نفسها، متجاهلاً دعوة الأمبراطور له بوجوب إنتقال جيشه للجهة الأخرى من البسفور، رافضا مبادرة وقف القتال التى حملها زميله فى الحرب المقدسة هيو بل وعايره جودفرى ثانيةٌ بالعبودية للأمبراطور لأنه أقسم يمين الولاء له، فأخذت القوات البيزنطية[3] بزمام المبادرة فنجحت بعد قتال أجبر الفرنجة على أن يولوا الأدبار، فى إقناع جودفرى على مشروعية قسم اليمين للأمبراطور وحتمية إسراعه بعبور البسفور، وبهذا أقسم جودفرى وأخويه وجميع باروناته يمين الولاء للأمبراطور سيداً أعلى على جميع الأراضى التى سيستولون عليها، مع القسم بتسليم مندوبى الأمبراطور جميع الأراضى التى كانت تابعه للأمبراطورية قبل إستيلاء السلاجقة عليها، بعد قتال وقع بين جيش الأمبراطورية البيزنطية والقوات القادمة لخدمة الأمبراطورية نظرياً،

وفى هذه الأثناء وصل جيش النورمان قادماً من جنوب إيطاليا تحت قيادة بوهيمند كونت أبوليا والذى سبق له هو ووالده روبرت جسكارد، مهاجمة الأمبراطورية البيزنطية قبل ذلك، حتى كونتية بوهيمند فى إيطاليا إنما أسسها أبيه على أراضى بيزنطية أستولى عليها، وكان بوهيمند ـ بقامته الطويلة وظهره ذو الإنحناءة الطفيفة وشعره المسترسل الطويل ـ أمير شديد الطموح بينما لم يرث عن والده إلا إقطاعية صغيرة وورث معها عداء عمه روجر ملك صقلية، مما أقنعه بإستحالة تحقيق طموحاته فى الغرب فجاءت الحرب الصليبية كطوق نجاة ليعبر به لشاطئ الثروة والنفوذ، فما أن تطرق لسمعه أخبار الحملة على الشرق حتى أزمع السفر مصطحباً معه أبن أخته تنكريد، وكانت حروبه السابقة ضد الأمبراطورية دافعة أياه للتأكد من قوتها وأهميه

[3] كانت القوات الموكل لها مراقبة الجيوش الصليبية قوات من المرتزقة الأتراك، وتشبه مهام قوات الشرطة العسكرية الأن،

التحالف معها، فوافق مباشرة على قسم يمين الولاء الذى طلبه منه الأمبراطور وأن حمل نية الحنث بهذا اليمين، وطلب فى مقابل ذلك إن يعينه الأمبراطور كممثل شخصى له وقائداً عاماً على القوات الصليبية، مما يمنحه نصيب الأسد عند توزيع الغنيمة المرتـقبة، وينصبه كوسيط بين الأمبراطور اليزنطى والصليبيين، وهو ما وعده الأمبراطور به وعد ضمنى مبهم، فبهذا كان عبور بوهيمند وجيشه يعتبر أكثر سلاسة من باقى الجيوش، وإن رفض تنكريد أبن أخت بوهيمند قسم يمين الولاء للأمبراطور، وسافر عبر البسفور ليلاً وإن كان يمينه لا يهم الأمبراطور كثيراً فهو كان لورد صغير لا يحوز إلا إقطاعية متناهيةً الصغر فكان لا يُؤبه به ،

لحق بهم بعد ذلك جيش ريموند الرابع كونت تولوز من جنوب فرنسا، ومعه المندوب البابوى الكاردينال إديمار الذى تميز بقدرات عسكرية فذة وأعتاد أن يحمل السلاح ويقاتل السادة الإقطاعيين المجاورين لأبرشيته بالغـرب، وكان ريموند سبق له القتال فى الأندلس ويُعتبر أكثر الأمراء ثراءاً وأن كان أقلهم إنفاقاً، وكانت كل أمانيه تنصيبه قائداً عاماً للجيش لينهى حياته بمجـد كان طالما يبحث عنه، فهو قد إقترب من الستين عاماً، وقد لا تتجدد الفرصة له لخوض حرب ترفع ذكره مثل هذه الحرب المقدسة، وسار بجيشه براً للأقتصاد فى المصروفات مما أوقع الجيش فريسة الجوع ونقص التموين، يضاف لذلك قتال الصـرب له، حتى إستطاع الجيش بعد جهد شاق الوصول للقسطنطينية، وقد تلقى ريموند إستقبال يُرضى غروره، ولكن عندما طُلب منه قسم يمين الولاء رفض رفضاً قاطعاً، فالقسم يعنى مساواته بالأخرين من الأمراء الذين أقسموا، بينما هو يبحث عن وضع مميزاً عنهم، وكذلك يضعه هذا القسم تحت أمرة من يرسله الأمبراطور مندوباً عنه والذى من الممكن أن يكون بوهـيمند، ولهذا حاول بوهـيمند تقديم نفسه كرجل الأمبراطور، فقام بتهديد ريموند بأنه سيقاتله بقواته فى حالة خروجه على الأمبراطور، وعـليه فقد أعلن ريموند أن سيده الأعلى هو الله وأنه قد جاء لتنفيذ أمر ألَهَى فى هذه الحرب، وأبدى ريموند موافـقته على القسم بشرط قيادة الأمبراطور القوات الصليبية بنفسه، وهو ما إعتذر عنه الكسيوس بدعـوى ضرورة تواجده فى الإمبراطورية بسبب الإضطرابات التى تشهدها، فألكسيوس كان يخشى من زحفه ضمن الجيش الصليبى الأمر الذى يجعله رهينة لدى قادته ذوى المزاج المتقلب، ليوعز الأمبراطور لقادة قواته بمهاجمة قوات الكونت ريموند، ليتجدد القتال بين البيزنطيين واللاتين، قتال أنتهى عن فرار قوات الكونت،

وكحل وسط وافق ريموند على أن يقسم هو وباروناته بأن يحافظوا على حياة وشرف الأمبراطور ولا يشتركوا فى أى عمل يضر بالأمبراطور أو دولته، وقد وافق الأمبراطور على هذا القسم، وهكذا لحق جيش ريموند بسابقيه شرق البسفور، ولكن يبدوا أن طموح القادة كاد أن يجرفهم للتقاتل للفوز بفرصة أكبر فى الشرق، مما يبين نجاح دبلوماسية ألكسيوس فى التفرقة بين أكبر بارونات الجيش اللاتينى، لتتولد الكراهية الصليبية للأغريق ،

وجاء بعدهم الجيش القادم من غرب فرنسا والمؤلف من فرسان غرب فرنسا والكثير من فرسان إنجلترا تحت قيادة ثلاثة إقطاعيين، روبرت كونت نورماندى أبن وليم الفاتح ملك أنجلترا[4] ومعه ستيفن كونت بلوا زوج أخته أديلا، وأبن خالته روبرت كونت فلاندرز، وما أن وصل الجيش للقسطنطينية حتى بادر زعماءه من تلقاء أنفسهم بقسم يمين الولاء للأمبراطور، فأغدق ألكسيوس الهدايا والأموال عليهم، وعبر الجيش البسفور،

نجح الأمبراطور فى إنتزاع قسم اليمين من زعماء الجيش اللاتينى، بإعتباره سيدهم الأعلى كما هو متبع فى العرف الإقطاعى الغربى، وذلك بإتباعه سياسة العصا والجزرة، فقد أغدق عطاياه التى أبهرتهم، ثم قاتل من رفض القسم حتى يرده لجادة الطريق الذى رسمه، فهل قسم الولاء الذى نجح ألكسيوس فى إنتزاعه من زعماء الحملة بإعادة الأراضى التى كانت تابعه لأمبراطوريته وهو ما ينسحب على الأناضول وأنطاكيا وشمال الشام، سوف يستفيد منه ألكسيوس والدولة البيزنطية؟

وهكذا تجمع الجيش الصليبى بأسيا الصغرى بعد إنضمام الناجين من جيش بطرس الناسك، لتبدء أول حرب إستعمارية أوروبية، حرب ستطول وسيمتد أثارها عبر عدة أجيال، وستزهق فيها ألاف الأرواح، بينما كانت القدس قبل ذلك التاريخ مفتوحة الأبواب لقاصديها دون تميز، حرب رأت الباباوية فيها فترة هدوء من الممكن أن تنعم بها أوروبا من القتال المستعر بين الأقطاعيين الذين أدمنوا النهب والسلب، ولم تفلح فيهم هدنة الرب Pax de dei التى نادت بها الكنيسة لمنع القتال فى عطلات الأسبوع وأيام الصيام الكبير، فجاءت الحـرب الصليبية كفرصة ذهبية لنقل أعمال القتل والدمار خارج حدودها والأستفادة منها لزيادة سيطرتها، وقد حصل ألكسيوس على أكثر مما

[4] كانت نورماندى وأجزاء كبيرة من فرنسا تابعة لإنجلترا

كان يريد فقد كان أقصى ما يطمح فيه هو الحصول على بعض المرتزقة الغـربيين لتدعيم جيشه ليستطيع الدفاع عن عاصمته، ولعله يستطيع إستعادة بعض أراضيه التى أستولى عليها السلاجقة ،

بينما كان وصول الفرنجة للقسطنطينية بقبابها الذهبية الشاهقة الملتحفة بالسحاب وميناءها المزدحم وشوارعها المعّبدة، وأسواقها المكدسة ببضائع لم يروا مثيل لها بالغرب، وكنائسها وقصورها الثرية، والملابس المزركشة المطرزة باللألئ وخيوط الذهب التى يرتديها حاشية الأمبراطور ورجال جيشه، بمثابة صدمة لهم لما شاهدوه من مظاهر حضارة لم يسبق لهم رؤيتها بالغـرب المفتقر للمدن، مما جعلهم يشعرون بالدونية أمام القسطنطينية والحقد على أهلها، وأخذوا يتصرفون بشراسة وغطرسة المفلسين عندما يشعروا بالقوة تجاه البيزنطيين، مما أجج مشاعر العداء بينهم، حتى قام أحد أصحاب الألقاب اللاتين بالجلوس على عرش الأمبراطور قبل أن يقيمه زملاءه بفظاظة، مما أنعكس على تاريخ الحركة الصليبية ككل، فقد أتسمت بالعداء والكراهية وإنعدام الثقة بين اليونان واللاتين، فلم يعد إنقاذ الأمبراطورية البيزنطية هو الهدف بقدر ما كان إعادة السيطرة عليها بعد القطيعة منذ عام 1042م هو أسمى أهداف باباوات روما، وبينما الحصول على إقطاعات وثروات الشرق هدف القادة العلمانيين،

من الصعوبة تحديد عدد المعسكرين شرق البسفور، لعدم وجود سجلات لإحصاء هذه القوات، التى رافقها العديد ممن كان البابا حريص على عدم سفرهم صحبة الجيش، فالبابا أراد أقتصار المشاركة فى الجيش على المقاتلين حملة السلاح فقط، وإن فشل البابا فى السيطرة على الذين أرادوا الإلتحاق بهذا الجيش، الذى فعل البابا ورجال كنيسته المستحيل لجعل الإشتراك فى هذه الحرب أكثر بريقاً، فقط شوهد فى معسكرات الجيش العديد من رجال الدين غير المحاربيين، والنساء الذين أتوا لكسب معايشهم سواء بالأعمال المشروعة كالخدمات المعيشية، أو أعمال غير مشروعة، كما كان هناك طوفان من اللصوص الذين أرادوا توسيع حجم أعمالهم فى نطاق عمل جديد رأوا الشرق الأفضل لهم، وبين أقنان فروا بجلودهم من التعاسة التى قيدتهم بقارتهم العجوز، وباعة وسوقة، حتى أختفت مساحة واسعة من شاطئ البسفور الشرقى تحت طوفان من البشر، وإذا ما رأينا تقدير مؤرخ صليبيى والذى قدر أعداد الهجرة البشرية هذه بستمائة ألف شخص من المشاة والخدم

وطفيليين جيوش العصور الوسطى، ومائة ألف فارس[5]، بالرغم من المبالغة، إلا أنه يعطينا صورة عن ضخامة الأعداد التى سنلاقيها،

ولكن توحدت أهداف الأغريق واللاتين فى أسيا الصغرى، فأقصى ما يطمح به ألكسيوس هو أبعاد السلاجقة عن عاصمته وإسترداد مدن أسيا الصغرى وخصوصاً مدينة نيقية عاصمة سلاجقة الروم، أما اللاتين فالإستيلاء على مدينة نيقية هام جداً حتى لا تكون نقطة يستطيع السلاجقة قطع خطوط مواصلاتهم وإمداداتهم،

الجيش الصليبى

فلنرى الأن الجيش الذى علينا مواجهته، فقد أدى ضعف قبضة الأمبراطورية الرومانية وكذلك ضعف الملكيات الأوروبية فى القرن الحادى عشر إلى نمو الأقطاعيين وزيادة قوتهم مكونين أسر عسكرية تسيطر على الحياة السياسية والعسكرية الأوروبية، وتوفر الحماية للفلاحين وتستغلهم في نفس الوقت، فلم تعرف أوروبا الجيوش القومية بعد، وقد تكّونت الجيوش الأقطاعية من الفرسان وهم رأس النظام الإقطاعى، والفارس الإقطاعى كان يمر بطقوس دينية لينال هذه الرتبة، طقوس تُعتبر كمعمودية ثانيةٌ له، بعد أن يتلقى تدريبات عسكرية مكثفة لينال تجهيزات الفارس بعد أن يباركها رجال الدين، وهذه التجهيزات توفر حماية تكاد أن تكون كاملة له فهو مغطى بالحديد من رأسه لأخمص قدمه، فيرتدى خوذة حديدية مخروطية الشكل، وقميص زرد (مزدوج أحياناً) به قطع معدنية فى بعض الأجزاء يغطى جسده كله حتى فخذيه، وواقى لساعديه وقدميه من الحديد، ويتسلح بدرقة (ترس) خشبى كبير مغطى بطبقة من الجلد، يثبته بجسده بواسطته سيور من الجلد و يلقيه على ظهره إذا ما طورد من أحد الفرسان، ويحمل سيف طويل مستقيم مزدوج الحد للطعن، وسلاحه الأساسى رمح قوى طويل يثبت طرفه الخلفى فى سرجه وطرفه الأمامى يتجاوز رأس فرسه، ويتدلى من طرف الرمح تحت السنان راية صغيرة ذات أشرطة طويلة لتخيف حصان عدوه عندما ترفرف هذه الأشرطة أثناء عدو الحصان، بينما يحمى الفارس صدره بترسه الخشبى الكبيرالمغطى بالجلود، ويهاجم أعداءه بهذا الرمح بأن يحرك فرسه يمينا ويسارا حتى يصيب خصمه، كل هذا ورمحه ثابت لا يحركه، بل الحركة

[5] الحروب الصليبية ج1ص192

تكون من فرسه فقط، وتكون قوة الضربة من قوة سرعة عدو الفرس، مما يجعلها غير محتملة وقاتلة، ولم ينسى الفارس أن يعطى فرسه نصيب من هذه الحماية فيتم تغطيه الفرس بغطاء سميك به قطع معدنية فى بعض الأجزاء، كل هذا منح الفارس حماية كبيرة وإن جاءت على حساب خفة الحركة المطلوبه للفرسان، علاوة على أن الفارس إذا ما فقد فرسه فى المعركة مثل له درعه عائق عن القتال مترجلاً، وكما كانت هذه التجهيزات والتدريبات الذى يتلقاها الفارس علاوة على مجتمعه المغلق، الذى لم يكن يسمح لغير أبناء طبقته الوصول لهذه الرتبة تجعله إذا ما أعتلى فرسه ينظر للجميع نظرة متعالية، ويرى الجميع تحت سرج فرسه، مما أصابهم بمرض الغرور القاتل،

وبجانب الفرسان كان هناك المشاة، فقد كانت التكاليف الباهظة جدا لتجهيز الفارس علاوة على عدم السماح لنيل رتبة فارس إلا لطبقة الأقطاعيين النبلاء أوجد سلاح المشاة، وهم فى المعتاد من المرتزقة الذين يجُمعون قبل المعارك لقاء عائد مادى، وكانوا يرتدون معاطف من الجلد واللباد السميك جدا لدرجة إستطاعتها مقاومة السهام والنشاب، وسلاحهم الرئيس هو النشاب ذو اللولب (القوس المستعرض) الذى يستطيع قذف النشاب بقوة ولمسافة بعيدة وبقدرة عالية على النفاذ،

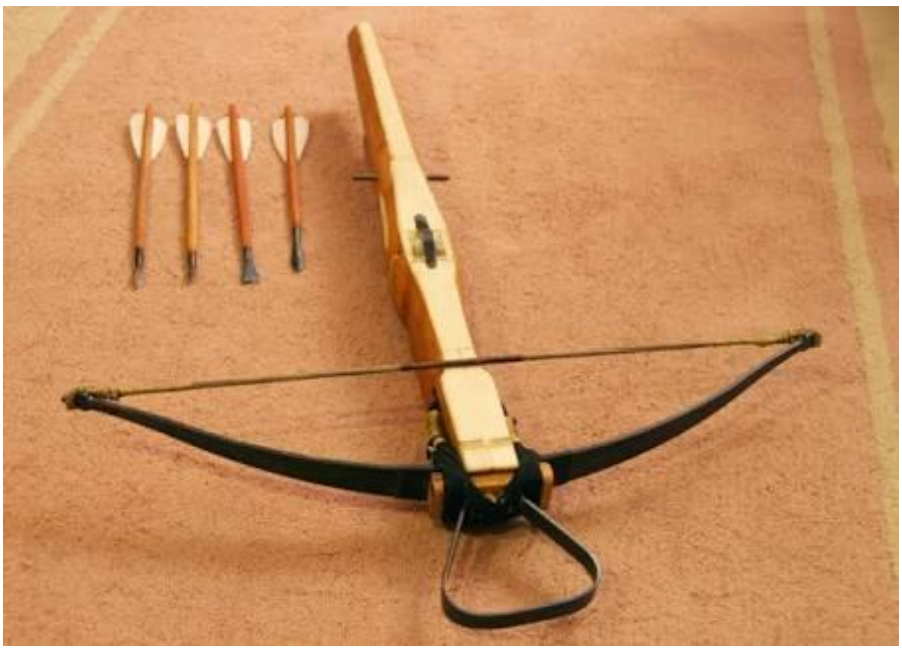

قوس مستعرض

وأجبرت الحروب الصليبية فرسان الفرنجة على إتباع إستراتيجية تعاونيه بين سلاحى الفرسان والمشاة، فالفرسان المسلمون كانوا مسلحين بالقوس المركّب القوى والسهام، وذو مهارة فائقة فى إطلاقها من أعلى صهوات جيادهم، وبسبب متانة دروع فرسان الفرنجة كانوا يستهدفون خيولهم بالسهام حتى إذا ما إصيبت كان القضاء على فرسان الصليبيين هين، ولهذا تولى مشاة الفرنجة حماية فرسانهم من فرسان المسلمين، فكان فى الغالب موقع مشاة الفرنجة بين فرسانهم وفرسان المسلمين أو كان المشاة يكونون حلقة وفى مركز هذه الحلقة كان يتمركز الفرسان الصليبيون حتى ما إذا كان الوقت المناسب لهم فتح المشاة ممرات لهم ليقوموا بالهجوم على الفرسان المسلمين،

وكان التكالب على السلطة، وطموح كونتات ولوردات الحملة الصليبية الأولى على تولى القيادة العليا للجيش الصليبى، ما أجبر القادة على تكوين ما يسمى بمجلس الأمراء، وهو مجلس تشاورى لبحث الخطط الواجب إتباعها سواء سياسية أم عسكرية أو حتى إدارية أثناء الزحف والقتال، وإقتصر حضور إجتماعات هذا المجلس على كبار قادة الجيش الصليبى وأكثرهم ثراءاً، وكذلك كبار رجال الكهنوت المرافقين للجيش ،

الأناضول والشام والأنقسام الشرقى

والأن لنرى هل كان المشرق مستعداً لمواجهة هذه الحرب الضروس؟ كانت أول قوة إسلامية ستواجه هذا الجيش الزاحف هم السلاجقة، فالطريق لبيت المقدس يمر من داخل أرضيهم، وهو ما كان يعنى ضرورة الإحتكاك الحربى بين القوتين ،

سرى الوهن فى عروق العالم الإسلامى منذ القرن الحادى عشر الميلادى، فى ظل إنقسام الشرق الإسلامى عقائدياً وسياسياً إلى خلافتين متناحرتين، عباسية سنية ببغداد، وفاطمية شيعية بالقاهرة، وتنخر المشاكل الداخلية والصراع العقائدى عظام الخلافتين، حتى باتتا عاجزتين عن حماية حدودهما، وتسيطر دولة البويهيون الشيعة على بغداد، فى الوقت الذى لم تندمل جراح الدولة العباسية من هجمات القرامطة[6] عليها 360هـ/970م لتعانى الخلافة

[6] دعوة شيعية ظهرت فى جنوب العراق وأستغلت الأوضاع الصعبة لطبقة الفلاحين على يد حمدان قرمط، وتسيطر على منطقة البحرين بشمال شرق الجزيرة العربية بمدينة الحسا وتقاتل الدولة العباسية، والدولة الفاطمية، وتهاجم مكة المكرمة وتقتل الحجاج بالحرم وترفع الحجر الأسود وترسله إلى عاصمتهم مدينة هجر حتى إستعادته ووضعه فى مكانه على يد أمير بالدولة العباسية يسمى بجكم ،

العباسية ويصبح نفوذها أوهى من الخيال، فسرعان من ترنحت الخلافة العباسية تحت وطأة زيادة نفوذ الأتراك، وتدخل النساء فى الحكم، "حتى أمرت السيدة أم الخليفة المقتدر قهرمانة لها تعرف "بتملى" أن تجلس بالتربة التى بالرصافة فى كل يوم جمعة، وأن تنظر فى المظالم التى ترفع إليها فى القصص ويحضر فى مجلسها القضاة والفقهاء"[7] وضعف أمر الخلافة جداً[8] حتى قام الخليفة الراضى بالله بتفويض الحكم إلى محمد بن رائق ولُقب بأمير الأمراء، "والخليفة ليس له مع أبن رائق نفوذ فى شئ ولا كلمة تطاع أنما يحمل إليه أبن رائق ما يحتاج إليه من الأموال والنفقات وغيرها، وهكذا صار أمر من جاء بعده من الأمراء والأكابر"[9]

ولم يقف الأمر عند هذا بل سيجبر الخليفة على الفرار من عاصمته "فقد أنهزم الخليفة المتقى بالله وأبن رائق فى جمادى الأخرة 330هـ من أبن البريدى حاكم واسط إلى الموصل فى عشرين فارساً وأستحوذ أبن الربيدى على دار الخلافة وقتل من فيها، ونهبها حتى وصل النهب إلى الحريم، ولم يدخل الخليفة بغداد إلا بجيش ناصر الدولة بن حمدان حاكم الموصل"[10]

الأمر الذى حدا بالخليفة القائم العباسى الإستعانة بهذه القوة السلجوقية السنية الناشئة، ليسرع طغرل بك زعيم السلاجقة إلى بغداد 447هـ/1055م ليعيد بعض النفوذ العباسى ويقضى على الملك الرحيم أخر الملوك البويهيين ويتخذ لقب السلطان، ليعمل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (427-487هـ/1035-1094م) على الإنتقام لسقوط الدولة البويهية الشيعية، ليجد ضالته فى أسد الدين أبى الحرث أرسلان بن عبد الله البساسيرى مقدم أتراك بغداد، ليمده الحسن بن اليازورى وزير المستنصر بالمال والسلاح على يد مؤيد الدين أبى نصر هبة الله بن موسى[11]، لينتهز البساسيرى زحف طغرل بك شمالاً لإخضاع أخيه إبراهيم الذى قاد تمرد عليه، ليهاجم البساسيرى بغداد 449هـ/1057م ومعه الرايات المصرية[12] وأجتمع أهل الكرخ الشيعة على مساعدته، ويجبر الخليفة القائم على إصدار عهد يعترف فيه بعدم أحقية بنى

7 البداية والنهاية ج6 ص165
8 البداية والنهاية ج6 ص238
9 البداية والنهاية ج6 ص238
10 البداية والنهاية ص259-260
11 الإشارة لمن نال الوزارة ص45
12 تاريخ دمشق ص146

العباس فى الخلافة فى وجود الفاطميين إبناء فاطمة الزهراء، وأنقطعت الدعوة لبنى العباس ببغداد[13] بعد أن قسم البساسيرى عسكره إلى فئتين، واحدة للقتال بالنهار من الفجر إلى المغرب والأخرى للقتال بالليل من المغرب إلى الفجر[14]، وينتصر على الألفين وخمسمائة فارس الذين أرسلهم طغرل بك لحماية الخليفة القائم، ويسجن الخليفة فى قلعة الحديثة[15]، ويخطب للخليفة المستنصر الفاطمى على منابر بغداد، والمؤذنون ينادون بحى على خير العمل، ويرسل العرش العباسى وعمامة القائم إلى القاهرة، وقبض على رئيس الرؤساء على بن الحسين بن مسلمة وزير الخليفة العباسى وجعله فى جلد ثور وصلبه حتى جف عليه فمات[16]

وإن لم يستمر هذا الوضع إذ عاد طغرل بك وقام بالقضاء على البساسيرى ويعيد الخليفة القائم لسدة الخلافة 451هـ/1058م، ويصل لعرش السلاجقة آلب أرسلان أبن شقيق طغرل بك بعد وفاته 1063م ويفرض سيطرته على مدينة حلب ويقاتل الدولة الفاطمية عن طـريق قائـده أتسز الخوارزمى، ثم يتجه شمالاً لقتال البيزنطيين،

وكأن الساحة فى حاجة إلى إنقسام جديد، فعقب وفاة المستنصر الفاطمى قام وزيره الأفضل بتنحيه ولى عهده وولده البكر نزار المصطفى بالله، ورفع زوج شقيقته أبى القاسم المستعلى بالله الأبن الصغر للخليفة الراحل لسدة الخلافة، الأمر الذى أحدث شرخاً كبيراً فى الدعوة الفاطمية التى ترى أن الإمامة تكليف لا يجوز تحويلها بشرياً، ليتخذ الأفضل العنف والشدة وسيلة ضد معارضيه، ويحاصر نزار المصطفى بالله بمدينة الأسكندرية قبل أن يقتله 488هـ/1095م، وتنسج الأساطير حول نزار، ويولد له من هذه الأساطير أبن، يلتف حوله المنشقين الفاطمين الجدد، وعلى رأسهم الحسن بن الصباح المؤسس الحقيقى لفرقة الحشاشين الرهيبة[17]،

رأينا إن الأنتصار الساحق الذى حـقـقه ألب أرسلان سلطان السلاجقة على رومانوس الرابع أمبراطور بيزنطة فى ملاذكرد (مانزكرت) فى عام 1071م

---

13 تاريخ دمشق ص 148

14 الإشارة لمن نال الوزارة ص44

15 قلعة بجزيرة بوسط نهر الفرات بالقرب من الأنبار

16 الإشارة لمن نال الوزارة ص46

17 الحشاشين أو الباطنية، وهى فرقة شيعية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو الأمام السابع عندهم،وأطلق عليه الباطنية لإعتقادهم أن للعقيدة ظاهر لعامة الناس، وباطن لهم،

وأسره للأمبراطور البيزنطى كان الشرارة التى أشعلت فتيل جولة جديدة من الصراع بين الشرق والغرب، والغريب أن السلاجقة لم يحاولوا إستثمار إنتصارهم فى ملاذكرد وتثبيت أقدامهم فى الأناضول، وبدلا من ذلك إستدار السلطان ألب أرسلان ليقاتل بعض أفراد أسرته فى بلاد ما وراء النهر، ليقُتل هناك فى العام اللاحق على معركة ملاذكرد 1072م، ليخلفه أبنه جلال الدولة أبو الفتح محمد ملكشاه، والذى عين أحد أقاربه وهو سليمان بن قتلمش كنائب عنه فى الأناضول، والتى أصبحت بحكم موقعها ميدان الصراع بين السلاجقة والبيـزنطيين، مما دفع سكانها إلى الهجرة منها فأضحت شبه خالية من السكان، يضاف لذلك الطابع العسكرى الصرف الذى صبغ الدولة السلجوقية، والذى أنطبع على التواجد السلجوقى بأسيا الصغرى، مما حدا إلى إقتصار التواجد السلجوقى على الحاميات بالمدن الكبرى فقط، بينما التركيب السكانى كان كما هو بيزنطياً فى الأغلب، مما سهل مهمة الإستيلاء عليها سواء من جانب السلاجقة أو الصليبيين بعد ذلك، وإن كان السلاجقة إستطاعوا فرض سيطرتهم على أسيا الصغرى إلا أنه لم يكن هناك رابط بين الأمراء الأتراك هناك، فلم تكن هناك سلطة موحدة إستطاعت فرض سيطرتها على الجميع ،

بالرغم من كفاءة السلاجقة العسكرية إلا أنهم فشلوا فى إقامة دولة مـركزية، فهم ما أن أنتهوا من تشيد صرح أمبراطوريتهم الباهرة، حتى رأوا إنهيار هذا الصرح سريعاً، دون أن يتسع لهم الوقت للإستمتاع بها، قد يكون السبب هو نظام الإقطاع الذى سمح للقادة الطموحين بتكوين قوات ذات ولاء شخصى لها، فى دولة مترامية الأطراف سيطرت على شمال وشرق العالم الإسلامى، فالشام أراضيه تمزقت بين الأمراء الطموحين للسلطة، وإن حاول ملكشاه فرض سيطرته على الشام عن طريق إرساله أخيه تاج الدولة تتش ليستولى على الشام ويحكمه بأسمه (470هـ/1077-1078م)،

ثبت تتش قـدمه فى دمشق وأن فشل فى الإستيلاء على حلب من حاكمها العـربى سابق بن محمود المرداسى 1079م، بعد أن أسُتنزفت دمشق تماماً تحت الحكم الفاطمى لسوء العلاقات بين الولاة الفاطميين وأهالى دمشق، حتى "أشتد الغلاء بدمشق وعدمت الأقوات، ونفذت الغلات منها، وأضطر الناس إلى أكل الميتات، وأكل بعضهم بعضاً"[18] وتعانى دمشق من أتسز بن أوق السلجوقى "ونزل بأهلها منه قوارع البلاء" حتى لم يبق من أهلها سوى ثلاثة

[18] تاريخ دمشق ص174

آلاف إنسان، بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء"[19] حتى وإن كان فى هذا الوصف الكثير من المبالغة إلا أنه يبين مدى الدمار الذى أصاب الشام،

وكان تتش قد أرسل قائد من قواده يسمى أتسز بن أوق لمحاربة الفاطميين والإستيلاء على جنوب الشام، فأستولى أتسز على بيت المقدس والرملة والساحل ما عدا أرسوف (1076م/1077م)، وكانت الأنتصارات التى حققها أتسز دافعه له لمحاولة غزو مصر، ولكنه هُزم على يد بدر الدين الجمالى الوزير المصرى، والذى أرسل قائده ناصر الدولة الجيوشى يطارده حتى دمشق محاولاً السيطرة عليها ولكنه فشل أيضاً فى الإستيلاء عليها، بعد إستنجاد أتسز، بتاج الدولة تتش وتسليمه دمشق له، وكانت القوة التى تمتع بها بدر الدين الجمالى المستنصرى دافعاً له لمحاولة فرض سيطرته على الساحل الشامى، الأمر الذى أدخل عنصراً جديداً فى القتال المستشرى بالشام، فقام بدر الدين بمهاجمة صور وحصارها، وبها صاحبها القاضى أبن عقيل، الذى أستنجد بأمير من الأتراك يسمى الأمير قرلو، الذى هاجم بدوره صيدا المملوكة لبدر الدين ليجبره على مغادرة صور،

ثم جمع تتش بين حكم دمشق وحلب بعد الإستيلاء عليها، ولفرض سيطرته عليهما قام بقتل قائده أتسز (1079م) بعد تخوفه من طموحه، وهكذا أصبح وسط الشام بيد تتش بينما الأناضول تحت حكم سليمان الذى أستطاع الإستيلاء على أنطاكيا، التى كانت تحت الحكم البيزنطى فى 1085م أى قبل ثلاثة عشر عاماً من مجئ الصليبيين تحت أسوارها، وإكمالاً لمسلسل القتال بين أمراء الشرق تقاتل أبناء العم تتش وسليمان، ليخر سليمان قتيلاً فى أرض المعركة فى 1086م بسهم أصابه فى وجهه[20]، ليخلفه أبنه الصبى قلج أرسلان داود، والذى كان عليه مواجهة جيوش الفرنجة، وأدى مقتل سليمان إلى تفكك دولته بالأناضول، ومحاولة صغار قادة التركمان البحث لهم عن مكان تحت شمس السلطة، وحرمان سلاجقة الروم بأسيا الصغرى من شخصية قوية كانت أكثر قدرة على مواجهة الصليبيين، وتنامى حالة العداء بين سلاجقة الشام وفارس من جهة وسلاجقة الروم من جهة أخرى، مما

[19] تاريخ دمشق ص 178
[20] تاريخ أبن أبى الهيجاء ص 136

أضعف دولة سلاجقة الروم الأمر الذى يسر مهمة الصليبيين فى عبورهم أسيا الصغرى ،

وأدى إنتصار تتش إلى تخوف أخيه ملكشاه من زيادة نفوذه فسارع بالتوجه شخصياً لحلب، فرأى تتش أن الحكمة تفرض عليه عدم مقابلة أخيه فسارع بالأبتعاد عن طريقه، وحاول ملكشاه إعادة توزيع أمارات الشام وتفتيتها لضمان عدم إستقلال أحد عن دولته، فعين قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكى أميراً لحلب، ونصب أمير يسمى مؤيد الدولة ياغى سيان بن محمد بن ألب التركمانى أميراً لأنطاكيا بعد أن ترك معه حامية سلجوقية من أربعة آلاف فارس، تاركاً دمشق فقط لأخيه تتش، والذى عين قبل ذلك الأمير أرتق أميراً على بيت المقدس، وعندما توفى أرتق خلفه أبنه سقمان، وقام تتش بعد ذلك بمهاجمة حمص وإستولى عليها بعد قتل أميرها أبن ملاعب، مما أغرق الشام فى بحور من الفوضى، وتعطلت الأنشطة الصناعية والزراعية والتجارية بالشام، الأمر الذى دمر الإقتصاد العام، وأوصل الشام لحافة الإفلاس، وحرم قيام دولة قوية موحدة بها مما جعل مهمة الصليبيين سهلة وهينة ،

وكانت وفاة ملكشاه 1092م بداية موجة جديدة من الصراع على السلطة بين أبناءه الأربعة وعمهم تتش، فقد عمل تتش على توسيع نفوذه فـأستولى على حلب من قسيم الدولة وقتله وأسر الأمير كربوقا أتابك الموصل، ويستمر كربوقا فى الأسر حتى يطلق رضوان بن تتش سراحه، ثم يُقتل تتش بعد ذلك فى معركة بينه وبين أبن أخيه السلطان بركياروق فى 488هـ/1095م، ليخلف تتش ولداه فخر الدين رضوان على حلب وشمس الملوك دقاق على دمشق، كأن الشام فى حاجة لإنقسام جديد،

والنتيجة أنه قبيل مجئ الحملة الصليبية انقسمت دولة السلاجقة إلى خمسة أقسام متناحرة وهم، سلطنة فارس وزعيمها السلطان بركياروق بن ملكشاه، مملكة خراسان وما وراء النهر وزعيمها أبو الحرث سنجر بن ملكشاه، مملكة حلب وزعيمها رضوان بن تتش، مملكة دمشق وزعيمها دقاق بن تتش، سلطنة سلاجقة الروم بالأناضول وزعيمها قلج أرسلان بن سليمان، ويضاف لذلك الأتابكيات التى ظهرت كرد فعل طبيعى لحالة الفوضى التى ضربت الشرق، كأتابكيات الموصل وحصن كيفا وأذربيجان وماردين

وأربيل، فلم يؤسس السلاجقة دولة مركزية بل كانت الدولة السلجوقية عبارة عن إتحاد ضعيف بين إمارات شبه مستقلة، زد على ذلك فشل السلاجقة والفاطميون فى إيجاد حوار مشترك فيما بينهما ،

هذا وبخلاف المدن الساحلية وجنوب الشام التى يسيطر عليها الفاطميون، عندما أستغل الفاطميون هـزيمة السلاجقة وسقوط أنطاكيا فهاجم الوزير الأفضل[21] بن بدر الدين الجمالى وزير الفاطميين القوى مدينة القدس وأجبر الأخوين سقمان وإيلغازى أبنى أرتق على تسليم المدينة 491هـ/1098م، كما أستقر جناح الدولة فى حمص، وكذلك الأمارات العربية الصغيرة ذات الإستقلال القلق مثل طرابلس تحت حكم أسرة القاضى أبن عمار بن أبو طالب، التى أنتهـز أميرها تقدم الفرنج وأخذ يوسع رقعة أمارته حتى مدينة طرطوس، وأنقسم الوادى الأعلى لنهـر العاصى بين خلف بن ملاعب الشيعى الأشهبى فى أمافيا بينما شيزر تحت حكم بنى منقذ الكنانيون، ومدينة الرحبة وهيت والكوفة بوسط العراق تحت زعامة صدقة بن دبيس بن مزيد، بينما بنو محرز يحكمون إمارتى المرقب وقدموس متناهيتى الصغر الواقعتين فى منطقة النصيرية، بينما حكم بنو عمرون إمارة الكهف، وحكم القاضى أبن صليحة مدينة جبلة، والجميع يستغل الإضطرابات الداخلية للحفاظ على إستقلالهم الهش، حتى أصبح المشهد السياسى بالشام مشهد فسيفسائى ،

وأدى إختلاف عناصر السكان فى الشام إلى حالة تشرذم وعدم تعاون أدت إلى الإنهيار السريع تحت وطأة الهجوم الفرنجى إذ شكل الأتراك أرستقراطية حاكمة متناثرة بين مدن الشام، بينما شكل العرب حكام المدن الصغيرة، ثم هذه الأسر الحاكمة لم تكن ذات تاريخ ممتد قبل ذلك، بل كانت عبارة عن بعض المغامرين الذين أستطاعـوا السيطرة على مدن وتوريث حكمها لأبناءهم لما لا يزيد عن جيل واحد فقط، مما أدى إلى طمع كل طامح فى إستلاب أحد المدن لتكوين إمارة له ولأسرته، فى وقت كثر فيه المغامرون الذين قدمهم نظام الإقطاع العسكرى الشرقى، بينما السكان توزعـوا بين مسلمين سنة من عرب وأتراك وأكراد وتركمان، وشيعة، والمسيحيين

[21] كان لقبه الرسمى "السيد الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه أبن السيد الأجل أمير الجيوش بدر المستنصرى" وهو أبن الوزير بدر الدين الجمالى، أستنابه المستنصر على مدينة صور ثم عكا ثم تولى الوزارة عقب وفاة أبيه 487هـ/1095م حتى وفاته 515هـ/1121م ،وإغتيل الأفضل على إيدى الحشاشين بالقاهرة 515هـ إنباء الأمراء بلأنباء الوزراء ص52

الشرقيين المتناحرين فيما بينهم والمختلفين عقائدياً، من سريان ونساطرة وأرمن مهاجـرين من الشمال، وموارنة، بينما أتباع الطائفة النصيرية والدروز معادين الجميع، والجميع فى صراع صاخب.

وقد أدى تعاقب الكيانات السياسية والأشخاص، السيطرة على المدن بشكل مستمر إلى عدم رسوخ أقدام أي من هذه القوى السياسية فى مدنها وأماراتها، الأمر الذى يبرر سرعة سقوط هذه الكيانات الهشة، الأمر الذى أدى إلى عـدم تكوين دولة مركزية قوية بالشام ،

الأمر الذى دفع الفاطميين للبحث عن التحالف مع الصليبيين، بينما أخذت الأسر العربية الحاكمة تنظر إلى الإنهيار السلجوقى بعين الإرتياح وأتخـذ الجميع موقف المراقب السلبى، الأمر الذى أدى إلى عدم قدرة الشرق الرد بالشكل الملائم على التوغل الصليبى، الأمر الذى أتاح للصليبيين التمتع بثروات الشرق الغنى، وإيجاد نقاط إتصال بالحضارة العربية المتقدمة، مما يعد اللبنة الأولى للنهضة الأوروبية ،

الأمر الذى خلق ظروف مواتية للصليبيين، فلنتخيل إعلان الحركة الصليبية قبل عشر سنوات كانت ستصطدم بالدول السلجوقية وهى مازالت فى عنفوان قوتها، الأمر الذى كان حتماً سيكتب النهاية للصليبيين فى مهدهم،

الإستيلاء على نيقية

بدء الجيش الصليبى التحرك فى أبـريل 1097م مصطحباً معه فصيلة من سلاح المهندسين التابع للجيش البيزنطى بقيادة تاتيكيوس، متجهاً إلى عاصمة السلاجقة مدينة نيقية ويبدو إن السلطان السلجوقى قليج أرسلان أعتقد تحت تأثير سهولة قضاءه على جموع بطرس بأستحالة تجرؤ الصليبيين على مهاجمة عاصمته، ولهذا كان مشغولاً فى أقصى شرق بلاده بمحاربة أمراء الدانشمند[22] للسيطرة على مدينة ملطية، بل ترك زوجته وأولاده داخل مدينة نيقية، ولم يستيقظ إلا والجيش الصليبى تحت أسوار عاصمته ،

[22] أمارة أسسها كمشتكين أحمد دانشمند أحد قادة ألب أرسلان ، والذى أشترك معه فى معركة ملاذكرد ليمنحه السلطان ألب أرسلان مدن سيواس وملطية ونيكسار ليحكمها بين عامى 477-573هـ/1084-1177م متخذاً مدينة سيواس عاصمة له

وأثناء زحف الجيش الصليبى مر بالوادى الذى هلك فيه جنود بطرس الناسك فكان مشهد بقايا عظامهم خير حافز للصليبيين لتوخى أقصى درجات الحذر، فتم إرسال الكشافة أمام الجيش حتى لا يُفاجئ بكمين، إلى أن وصل الجيش أسفل أسوار نيقية البالغة الحصانة بأسوارها التى تبلغ أربعة أميال، المحصنة بمائتين وأربعين برجاً والمطلة من جهتها الغربية على بحيرة هرسك الكبيرة، ويحيط الصليبيون بالمدينة، ويتم توزيع مهام الحصار على القوات، فعسكر جودفرى من جهتها الشمالية، وتنكريد بقوات خاله بوهيمند بالجانب الشرقى، والجانب الجنوبى من نصيب ريموند، ثم وصل جيش روبرت أوف نورماندى وستيفن كونت بلوا ليكتمل الجيش الصليبى، وإنتقل الأمبراطور ألكسيوس لمدينة بيليكانوم القريبه لمتابعة الأحداث بعد إرساله مندوباً عنه يسمى بوتوميتيس، وقامت حامية نيقية بمراسلة السلطان شارحه له الموقف وطالبه النجدة، ظل السلطان رابط الجأش فالصليبيين قد عجم عودهم العام المنصرم، وتلمس ضعفهم وقلة إمكانياتهم، فقام السلطان بإرسال جزء من جيشه كطليعة ريثما يتبعه هو بباقى الجيش، فحاولت قوة المدد فك الحصار عن المدينة فهاجمت جيش ريموند المرابط أمام السور الجنوبى ولكنها أضطرت للأنسحاب مفضلة إنتظار قدوم السلطان بباقى قوات الجيش،

ووصل السلطان بباقى الجيش ليهاجم الجهة الجنوبية مباشرة المتمركز فيها جيش ريموند، الذى تحمل عبئ المعركة هو وجيش روبرت أوف فلاندرز، بينما لم يغامر جودفرى وبوهيمند بترك أماكن تمركزهم، وبعد معركة دموية أنسحب السلطان تاركاً المدينة لمصيرها، فالسلطان السلجوقى من البدو الرّحل عاصمته هى خيمته، ومقدار قوته يقاس بالمحاربيين المنضمين تحت لواءه، لا بالمدن التى يسيطر عليها، أما بخصوص زوجته وأولاده فسوف تضمن المفاوضات أمنهم الشخصى ،

وعندما طلب الصليبيون من ألكسيوس إتمام الحصار بواسطة أسطول بيزنطي بالبحيرة التى أستخدمها المحاصرون فى إمداد المدينة بما هى فى حاجة إليه، أمدهم ألكسيوس بما طلبوه، بينما قامت مفاوضات سرية بين بوتوميتيس مندوب ألكسيوس وحامية المدينة حول الأستسلام، فالمدينة حتى وقت قريب كانت تابعه لبيزنطة قبل إستيلاء السلاجقة عليها، وألكسيوس حريص على تجنيبها ويلات إقتحام الصليبيون لها، وخصوصاً أن معظم سكانها من المسيحيين بإستثناء الحامية فقط، وبينما يقوم القادة الفرنجة

بالأعداد للقيام بهجوم عام على المدينة، فوجئوا برايات الأمبراطور ترفرف على أسوارها (26 يونيه1097م)، بعد تسلل جنود الجيش البيزنطى من المرتزقة الأتراك عبر البحيرة بالسفن التى طلبها الفرنج لإتمام الحصار، لتعود نيقية لأحضان بيزنطة بعد ستة عشر عاماً من إستيلاء السلاجقة عليها، ليتنفس ألكسيوس الصعداء بعد إبعاد الخطر السلجوقى عن عاصمته، وينظر الجنود الفرنجة بحسرة للنبلاء السلاجقة وهم يرحلون من المدينة بسلام، بعد أن طمعوا فى التحفظ عليهم للحصول على فدية لقاء إطلاق سراحهم، وصُدم الفرنجة لطريقة ألكسيوس المتسامحة مع أسرى السلاجقة، فقد رحلت السلطانة وأبناءها بمنتهى الأحترام فى إتجاة القسطنطينية، وأُرسلت رسالة للسلطان متساءله عن المكان الذى يود إرسال السلطانة وأبناءه إليه .

ولكى يخفف الأمبراطور من مرارة الصدمة الصليبية أغدق الطعام على الجيش، وأقام حفل فخم للقادة والنبلاء، وأخذ فى اغراقهم بين جبال من الذهب الذى أمطرهم به، بينما كان نصيب المشاة عملات نحاسية[23]، وطلب أستكمال يمين الولاء للنبلاء الصغار الذين لم يقسموا من قبل فوافق الجميع حتى تنكريد عندما أعترض وطلب ليقسم أن يملئ الأمبراطور خيمته ذهباً له، وقام بالأمساك بتلابيب زوج أخت الأمبراطور الذى اعترض على فظاظة تنكريد، ولكنه أقسم بعض توبيخ بوهيمند الحريص على تملق الأمبراطور ،

وقد كان الإستيلاء على نيقية باعث للبهجة والحبور فى نفوس الصليبيين ورافعاً من روحهم المعنوية، ليستمر زحف الجيش بعد أن تم تقسيمه لفيلقين، يسبق أولهما ثانيهما بيوم لعدم وقوع مشاكل فى التموين،

وحدث أشتباك أخر بين الفرنجة والسلاجقة عند ضوريليوم (أسكى شهر) حيث قام السلطان قلج أرسلان بالأتحاد مع أعداءه آل دانشمند لمواجهة هذا الخطر الجديد، وتم إجتماع قوى سلاجقة الروم فى سهل ضوريليوم لمنع تقدم الصليبيين، وتقابلوا مع طليعة جيش الصليبيين بقيادة بوهيمند (1يوليو 1097م) الذى فوجئ بقوات السلاجقة وأضطر للأشتباك معها، وكاد أن يسقط فى هزيمة ساحقة لولا أن أنقذه قدوم باقى الجيوش الصليبية، ليتغير مصير المعركة، وأنتهى هذا الأشتباك إلى هزيمة السلاجقة ونصر وإن كان مكلف للصليبيين، ويبدوا إنه بخلاف الضعف الذى كان يسرى بعروق الدولة

[23] تاريخ الحملة إلى القدس ص47

السلجوقية، كان تكتيك الصليبيين جديد بالنسبة للسلاجقة، فسهام السلاجقة التى طالما أثارت الرعب بالشرق، فشلت فى إختراق وسائل الحماية الصليبية التى أحالت فرسانهم إلى قلاع متحركة وإن أفقدتهم للرشاقة، وأن أقتنع الصليبيون بقوة السلاجقة وأنهم أعداء يجب أن يحترموهم، وقد حددت معركة ضوريليوم مصير اسيا الصغرى، فقد أنساح الصليبيون بحرية، ولم يحاول السلاجقة تجديد محاولة قتال الجيش الصليبى، تاركين هذه المهمة للطبيعة والمناخ القاسى، وكما أجبرت الخسائر الفادحة التى منى بها الصليبيين وخصوصاً قوات المقدمة، إلى إتباع تكتيك جديد فى الزحف، وذلك بالزحف بكامل الجيش كوحدة واحدة، وضم الكتائب بعضها البعض لضمان عدم إنفراد السلاجقة بأى قوات صليبية، وهو التكتيك الذى سيعتمد عليه الجيش الصليبي طوال مراحل الصراع بالشرق ،

وواصل الصليبيون زحفهم حتى أصبحوا فى شهر أغسطس أمام مدينة قونية المهجورة، وأن منحت الصليبيين ملاذاً أمناً لينعموا فى واديها الخصيب ببعض الراحة التى كانوا فى أمس الحاجة إليها، كما كانت المياه المتوفرة فيها هى أثمن ما يبحثوا عنه بعد المسافة التى قطعوها فى الصحراء والتى أفتقدوا فيها لما يرطب شفاههم، وأستمر الزحف حتى مشارف مدينة قيصرية فلاقى الصليبيون هناك جيشاً سلجوقياً سرعان ما إنسحب شرقاً، وهنا سنترك الجيش الرئيس ونصطحب صغار الأمراء الذين تعجلوا تحقيق ما جاءوا من أجله، فالحج لم يكن هو الهدف الأسمى لهم بل المهم هو تكوين أمارات، حتى إن حادت بهم عن طريق القدس ،

حلم الأمارة

قام تنكريد وبلدوين مصطحبين بعض الفرسان بالأنفصال عن الجيش الرئيس متجهين شرقاً نحو سهول كيليكيا (قيليقيا) الخصيبة بحثاً عن ما جاءوا من أجله، فتنكريد وبلدوين من صغار الأمراء ذوى الطموح والنسب وليس لهما أى أمل أو مستقبل بالغرب، والطريق إلى كيليكيا ممهد، فقد دُمر الأقليم بسبب الصراع للسيطرة عليه بين السلاجقة والبيزنطيين، مما أفسح المجال لهجرة الأرمن إليه والإستيطان به خلال القرن الحادى عشر، وقد كان الأرمن خير أعوان لبلدوين وتنكريد ضد أعداءهم السلاجقة، وقد بدء بلدوين مبكراً عندما تصادق مع أحد نبلاء الأرمن المسمى باجرات آملاً فى مساعدته

فى تكوين إمارة مستقبلاً، ولكن تحرك تنكريد المبكر أجبر بلدوين على الأسراع لينال بواكير نتاج الشرق ،

أنطلق تنكريد بفصيلة صغيرة مكونة من مائة فارس ومائتى من المشاة، وتحرك بعده بلدوين بخمسمائة فارس وألفين من المشاة، متخذين طريقين منفصلين أديا بهما إلى طرسوس التى وصلها تنكريد أولاً وحاول الإتصال بالأرمن المتواجدين داخل أسوارها، والذين يسروا مهمته فى السيطرة عليها بعد قيام حاميتها التركية بإخلائها، وعند وصول بلدوين رأى رايات تنكريد ترفرف أعلى أسوار طرسوس مما زرع الحسد فى قلبه، وهنا تحرش به بلدوين طالباً من تنكريد أن تكون السلطة فى طرسوس فى يده، فلم يجد تنكريد بُد من إخلاءه لطرسوس لأنه لم يكن ند لبلدوين وجيشه، فتوجه إلى أدنة، وبعد سيطرة بلدوين على طرسوس وطرده لتنكريد منها وصل لطرسوس ثلاثمائة فارس نورماندى جاءوا كمدد لتنكريد من الجيش الرئيس، فأغلق بلدوين أبواب طرسوس فى وجوههم رافضاً السماح لهم بقضاء الليل فى حماية أسوارها ولم يشفع لهم أنهم زملاءه بالجيش المقدس ولا توسلاتهم، فأضطروا لأقامة معسكرهم فى العراء خارج أسوار طرسوس، لتهاجمهم فصيلة تركية كانت بالجوار أثناء الليل مما نتج عنه ذبح المدد الصليبى عن بكرة أبيه ،

وظهر أمام شواطئ كيليكيا أسطول قرصان يسمى ونمار البولونى، ينتمى لبلدة بلدوين فقدم لبلدوين ثلاثمائة رجل شكّل منهم حامية لطرسوس، ليخرج بلدوين متجهاً شرقاً،

أثناء ذلك حث تنكريد الخطى ليصل مدينة أدنة ويحتلها بعد إخلاء الأتراك لها أيضاً، ثم يلحق بها مدينة المصيصة فى أكتوبر1097م بمساعدة الأرمن، ليلحق به بلدوين عند هذه المدينة، ليعامله تنكريد بنفس المعاملة التى عامل بها بلدوين رجاله من قبل أمام طرسوس، فرفض السماح لبلدوين بالدخول داخل المدينة، ليس هذا فحسب بل هاجم النورمان تحت قيادة تنكريد وريتشارد زوج أخته، جيش بلدوين للأنتقام منه على مقتل مواطنيهم بطرسوس، ليظهر الوجه الحقيقى للصليبيين، وإستطاع بلدوين وجيشه صد الهجوم وإجبارهم على الفرار بعد خسائر فادحة للطرفين، وإن أفسح بلدوين وتنكريد مجالاً للصلح وإيقاف القتال وتبادل الأسرى ،

تبين هذه الحادثة حقيقة الأهداف وراء خروج الجزء الأكبر من المشتركين فى الحملة الصليبية، كما تبين عدم إستعداد الفرنجة للتعاون إلا فيما يحـقق أهدافهم الشخصية فقط، أما ما دون ذلك فالقتال هو الحل، مما يعد إنتقال أسلوب حل الإقطاعيين الأوروبيين لمشاكلهم بالغـرب، والأنانية والنفعية المسيطرة عليهم، فقد ترك بلدوين وجيشه زملاءهم تأكلهم سيوف المسلمين اسفل أسوار طرسوس، كما تقاتل زملاء السلاح بالجيش المقدس بعد ذلك بجوار مدينة أدنة،

وإن إضطر بلدوين للألتحاق بالجيش الرئيس عند ورود أخبار بإحتضار زوجته ومرض إبنائه، ثم سرعان ما إنفصل عن الجيش ثانيةً بعد موت زوجته وأولاده ليجرب حظه بشمال العراق مصطحباً قوة أقل مما كانت معه قبل ذلك، فلم يصحبه إلا مائة فارس فقط، وفى هذه الأثناء أستطاع تنكريد الإستيلاء على الأسكندرونة بمساعدة أسطول القرصان ونمار مما أتاح ميناء هام جدا للصليبيين، ثم يلتحق تنكريد بالجيش الرئيس تاركاً الساحة خاليه أمام بلدوين زميله اللدود ،

ونلحق الأن ببلدوين الذى تناسى أن الهدف الرئيسى للحملة جنوباً حيث بيت المقدس، وليس تكوين لوردية بشمال وادى الفرات، ونجح بلدوين فى الإستيلاء على بعض القلاع بسبب مساعدة الأرمن الذين كانوا يشكلوا الغالبية بين سكانها من جهة، ومن جهة أخرى قلة عدد الحاميات التركية بهذه القلاع، فتم له الإستيلاء على روندان وتل باشر، وعهد بلدوين بذكاء بقيادة المدن التى أستولى عليها لأمراء من الأرمن مما نما ثقة الأرمن فيه، وهناك وافته رسل أمير مدينة الرها (أورفا) المسن ثوروس بن هيثوم أمير الرها الأرمنى، الذى كان يشعر بضعف قوته عن الوقوف فى وجه التهديدات التركية وكما خشى على مستقبل أمارته بسبب شيخوخته، وعدم وجود وريث له، ثم كانت أنباء إستعدادات قوام الدولة كربوقا أتابك الموصل القوى لنجدة أنطاكيا، مما يعنى ضرورة مرور جيشه بالرها مما يعرضها للدمار، دافعاً قوياً لألحاح ثوروس على بلدوين بضرورة إسراعه لحماية الرُها مقابل راتب سنوى، ينضم لهذا خوف ثوروس من أبناء جلدته الأرمن بسبب كراهيتهم له لإتّباعه الكنيسة البيزنطية، وكان يطمع فى الأستعانه ببلدوين كمرتزق لحمايه أمارته، وإن كان بلدوين يتطلع لأكثر من ذلك، فقد كان يرنو إلى أن يكون لورد وليس مرتزق بالأجر، ورأى أنه ليس هناك أفضل من الرُها لتكون نواة لورديته،

فأستعمل سياسة النفس الطويل ولم يعلن موافقته على التوجه مباشرة إلى الرها، لعل أمير الرها الشيخ العجوز يفقد صبره مما يسمح لبلدوين بفرض شروطه لتولى حماية المدينة الهامة، بالفعل دفع خوف ثوروس من الأتراك إلى عرض إتخاذه بلدوين أبناً بالتبنى مع جعله ولى عهده ووريثه إذا ما أستقر بالرها وتولى الدفاع عنها، وهذا ما كان يتمناه بلدوين فوافق على الفور، وينصب ثوروس بلدوين كولى عهده بيد، ويحفر قبره باليد الأخرى ،

فبراير 1098م يمم بلدوين وجه للرها مصطحبا معه ثمانين فارساً فقط[24]، ونجح فى تفادى كمين نصبه له حاكم سميساط، بعد الإختباء ليلتين فى قلعة أرمينية[25]، ووصل بلدوين بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين للرها وسط إستقبال حافل من الأمير الشيخ وأهالى أمارته، وتم إجراء حفل التبنى بالكنيسة، وتم تنصيب بلدوين رسمياً شريكاً ووريثاً لثوروس، الذى يستطيع الأن الأطمئنان فى حماية ولده ومنقذه بلدوين، وحاول بلدوين إظهار أهميته للرها فقام بتشكيل حملة مكونة من فرسانه ومشاة أرمن ضد سميساط القريبة من الرها، والتى كانت شوكة فى جنب أرمن الرُها، ولكن الحملة فشلت ومنيت بخسائر فادحة بسبب فرار الجنود الأرمن حتى بلغت الخسائر حوالى ألف جندى أرمنى ،

ولكن هل يرضى بلدوين بالأنتظار حتى يصبح حاكم الرها منفرداً، أم سيتعجل هذا الأمر؟ لن يطيل بلدوين إنتظارنا لمعرفة الأجابة، فقد تم التخطيط للقيام بمؤامرة ببث روح الكراهية لثوروس بدعوى ضعفه عن حماية المدينة بينما يوجد من هو أجدر منه على القيام بهذه المهمة، كما رُوجت أخبار عن الصلات الوثيقة التى تربط بين ثوروس وبيزنطة وإعتناق ثوروس المذهب الأرثوذكسى، مما نتج عنه تحرك جماهيرى للأطاحة بثوروس بمباركة أبنه بلدوين، وعندما تحركت الجماهير الغاضبة للفتك بأميرهم الشيخ فى 2ربيع الأخر 491هـ/7مارس 1098م تقاعس ولده ومنقذه عن القيام بواجبه فى حمايته، فتم الفتك بثوروس ليعقبها الدعوة من أهالى الرها لبلدوين لتولى زمام الحكم بالمدينة ،

[24] تاريخ الحملة إلى القدس ص52
[25] السابق

وعمل بلدوين على كسب تأييد الأرمن فقام بالزواج من الأميرة أردا أبنة أحد النبلاء الأرمن وشجع فرسانه على الزواج من أرمنيات،

وهكذا نجح بلدوين فى تحقيق أماله فى تكوين أمارة له، وإن جاءت بعيدة عن الأراضى المقدسة، بل فى أعالى الفرات، كما لم يتم إنتزاعها من أيدى المسلمين بل تم التخلص من حاكمها المسيحى التابع ولو أسمياً للأمبراطور ألكسيوس، والذى أرتبط معه بلدوين بقسم بإرجاع الأراضى التى كانت تابعة لبيزنطة من قبل، فبلدوين لم يحترم قسمه مع الأمبراطور ولا إتفاقه مع ثوروس، وقد أظهرت هذه الحادثة أن النبلاء الصليبيين لم يكونوا على إستعداد لإحترام إيمانهم مع القسطنطينية ولن يلتزموا إلا بمصالحهم الشخصية، وأن أثبت بلدوين لباقى الأمراء الصليبيين الشرهين للسلطة والثروة، إمكانية تكوين أمارات لاتينية تحت شمس الشرق الساطعة، مما أشعل نيران حماستهم ليحثوا خطاه لعلهم يفوزا بما فاز به، وكما أثبت قيام إمارة فرنجية بالرها للأرمن المسيحيين مدى الدمار الذى جلبته معها الحملة المقدسة على جميع سكان الشرق مسلميه ومسيحيه،

أتخذ بلدوين لقب كونت الرُها، هذا اللقب الذى حرم من مجرد الحلم به فى الغـرب، ولكن واجهته مشكلة ضعف قواه العسكرية، فالفرسان الذين صحبوه كانوا مجرد شرذمة قليلة العدد فحاول الأعتماد على الأرمن، وأستمراراً فى مسلسل الضعف الشرقى سارع حاكم سميساط التركى "بلدق" بعرض مدينته للبيع لبلدوين بعشرة ألاف عملة ذهبية، ولم يجد بلدوين أدنى صعوبة فى توفير هذا المبلغ بسبب الكنوز التى وجدها فى خزائن ثوروس، فتم شراء سميساط مع ضم بلدق وحرسه للعمل كمـرتزقة لدى بلدوين، وجذبت نجاحات بلدوين أعداد كبيرة من فرسان الجيش الصليبي للأنضمام إليه للفوز بجانب من غنيمة الرها، وأستطاع بلدوين توسيع كونتيته بالأستيلاء على مدينة سروج الواقعه جنوب الرها، والتى كان صاحبها أمير من الأراتقة يسمى نور الدين بلك بن بهرام بن أرتق، وقد حاول هذا الأمير الأرتقى الأستفادة من بلدوين فطلب منه المساعدة ضد رعاياه أهالى سروج الذين لم يدفعوا ما عليهم من ضرائب فتوجه بلدوين إليه ويساعده بالإستيلاء على أمارته وعزله عنها،

وقد كانت النجاحات التى حققها بلدوين خير دعوة للعديد من الفرسان الباحثين عن إقطاعات للمجئ للرها، وهو ما شجعه بلدوين وقام بالإغداق على هؤلاء الفرسان بالأموال والأقطاعات، مما أدى إلى تكوين أرستقراطية عسكرية

لاتينية تحكم مواطنى الرها الأرمن، الذين وجدوا أنفسهم تحت نير نظام الإقطاع الغربى، بسبب إستيلاء الصليبيون على ضياع الرها وحقولها الزراعية، وقيام بلدوين بحجز كافة الأماكن الهامة وحتى الثانوية فى الإدارة لقومه اللاتين، وكذلك وجدوا أن الضرائب التى فرضها بلدوين هى نفسها التى أضطروا لدفعها لثوروس، كما كره الأرمن إيثار بلدوين بنى جنسه الفرنج بالمناصب الكبرى السياسية والعسكرية، ومنحهم الإقطاعات الضخمة التى حرم منها أصحابها الأرمن، مما دفعهم لمحاولة التخلص من بلدوين ورجاله الذين أتوا من الغرب لحمايتهم وإنقاذهم، وقاموا بالإتصال بالأراتقة المسلمين للحصول على مساعدتهم ضد محرريهم، ومن ضمن المتأمرين "تفنوز" صهر بلدوين، وهو ما أكتشفه بلدوين وتعامل معه بمنتهى القسوة ضد المتأمرين من أرمن الرها 26ديسمبر1098م، بعد القبض عليهم، فقام بسمل أعين البعض، وقطع أطراف أخرين، وجدع أنوف غيرهم، وقتل الباقى، والأهم مصادرة أموال الجميع، بينما تفنوز يفر للجبال خوفاً من صهره الرهيب ،

الطريق إلى أنطاكيا

ونترك بلدوين ينعم بإمارته الجديدة ونعود للجيش الصليبى الرئيس، فقد كان الإستيلاء على أنطاكيا خيار إستراتيجى صليبى، فلم يكن من الممكن ترك هذه القلعة الضخمة خلف ظهورهم خلال زحفهم إلى القدس، ثم هى أول مدن الشام من الجهة الشمالية، مما يمكنها من التأثير على من يريد العبور للشام أو منه، وكانت أنطاكيا تابعه لصاحب حلب رضوان بن تتش ويتولى الحكم فيها الأمير ياغى سيان التركمانى نائباً عنه، والذى كان زرع بذور الخلاف بينه وبين سيده رضوان بن تتش حينما ساعد عدو رضوان وشقيقه اللدود دقاق بن تتش حاكم دمشق، مما حرم أنطاكيا من مساعدة أقرب القوى الأسلامية لها ،

وعند إقتراب الجيش الصليبى من أنطاكيا تسبقه أخبار إنتصاراته على سلاجقة الروم، كان يسيطر على أكبر مدينتين بالشام أخوان أمتلك قلبيهما كرهاً متبادل، دقاق بن تتش فى دمشق، وأخيه اللدود رضوان بن تتش بحلب، وقد حاول رضوان مهاجمة دمشق لإستلابها من أخيه، فى الوقت الذى رضى فيه أخيه دقاق بدخوله تحت طاعة أعداءه الفاطميين لينال مساعدتهم فى قتال أخيه والإستيلاء على حلب، ليسارع رضوان إيضاً بإعلان خضوعه للدولة الفاطمية ويخطب خطباء حلب بأسم الخليفة الفاطمى، فى الوقت التى يفر من

رضوان زوج أمه الأمير جناح الدولة ويستولى على حمص وينادى بإنفصاله عن حلب،

فيبحث أمير أنطاكيا ياغى سيان عن حلفاء ضد الخطر المشترك على الجميع، ولم يستطع رضوان أمير حلب والتابع له أمير أنطاكيا قراءة الوضع وتناسى خيانة ياغى سيان له وتمسك بأنانيته وعناده رافضاً مساعدة أنطاكيا، وإن وافق على تقديم هذه المساعدة الأمير دقاق بأرسال جيش من دمشق لإنجاد المدينة بعد إستقباله لشمس الدولة أبن ياغى سيان الذى أرسله والده مستنجداً، وكما وافق قوام الدولة أبو سعيد كربوقا أتابك الموصل على مساعدة ياغى سيان عقب إستقباله أبن ياغى سيان الثانى الأمير محمد، طمعاً فى السيطرة على أنطاكيا مما يضمن له حصار حلب الطامع فى الإستيلاء عليها، كما كاتب ياغى سيان وثاب بن محمود زعيم قبيلة بنى كلاب، وجناح الدولة حسين حاكم حمص، بينما تجنب مكاتبة سيده رضوان صاحب أنطاكيا نظرياً، بسبب الخلافات بينهما،

ووطن ياغى سيان نفسه على حصار طويل فجمع كل قواته البعيدة عن الضخامة (حوالى ستة ألاف فارس) داخل أسوار مدينته بالغة المتانة، والتى تجعل إقتحام أنطاكيا من الصعوبة بمكان، وأثناء تقدم الفرنجة لأنطاكيا أستولوا على عدد من المدن والبلدات الصغيرة، كما أستولى جيش ريموند تحت قيادة إديمار على الجسر الذى يعبر نهر العاصى الفاصل بينهم وبين أنطاكيا مما مكنهم من عبوره فأصبحوا وجهاً لوجه أمام أسوار المدينة، تلك الأسوار التى تركت الصليبيين مندهشين من ضخامتها والأربعمائة برج الذين يزينوها ، وبسبب طول أسوار المدينة لم يستطع الصليبيون حصارها بشكل كامل، كما لم يستطع ياغى سيان تغطية الأسوار جميعاً بالمدافعين عنها، فأنطاكيا كانت يحتضنها جبال شاهقة من الشرق والجنوب ويمر نهر العاصى من جهتها الغربية، ويكتنفها من الشمال مستنقعات وأحراش، مما سيطيل حصار أنطاكيا لمدة سبعة أشهر (21أكتوبر1097م – 3 يونيه 1098م)، فقد كان إقتحام المدينة مستحيل، فلم يعُد هناك طريق إلا الخيانة فقط ،

وأراد ريموند شن هجوم خاطف للإستيلاء على المدينة، ولكن مشهد أسوار أنطاكيا المهيب دفع الجميع للرفض وخصوصاً بوهيمند الذى كان يرى أنطاكيا خير نواة لأمارته المنشودة، فكان يريد أن يكون له فقط الفضل فى الإستيلاء عليها ليكون له الحق بالمطالبة بتولى حكمها منفرداً، وتم منح جبهة

القتال فترة هدوء كان الطرفان فى أمس الحاجة إليها، الصليبيون بعد عبور أسيا الصغرى المرهق ولإنتظار وصول التعـزيزات، وياغى سيان لأستكمال إجراءات الدفاع وأنتظار النجدة الموعود بها، وبالفعل وصل أسطول صغير من جمهورية جنوا من ثلاثة عشر سفينة مكدسه بالرجال والسلاح، وقام هذا الأسطول بالإستيلاء على ميناء السويدية، الواقع بجوار أنطاكيا ،

وتحرك الصليبيون بمنتهى الأريحية والحرية، بينما على مقربة منهم قوات حلب ودمشق، ولكن غلب حقد الأخوان دقاق أمير دمشق ورضوان أمير حلب، الأخوة الأعداء فشلوا فى نسيان خلافاتهما والإتحاد لمجابهة الغزاة، بينما لو قدموا المصلحة العامة على الخلافات الضيقة لأمكن وضع القوات الصليبية بين مطرقتهم وسندان قوات أنطاكيا ،

وكان العنصر الغالب على سكان أنطاكيا هم الأرمن والسـريان، الأمر الذى خشى منه ياغى سيان أن يمدوا يد العـون للغزاة، فأخرج النصارى من سكان أنطاكيا خارج الأسوار قبيل وصول الصليبيون بحجة حفر خندق يحيط بالمدينة، وأسرع بإغلاق أبواب أنطاكيا فى وجه سكانها وتركهم يرتمون فى أحضان الصليبيين ،

تمركزت الجيوش الصليبية بالقطاع الشمالى الشرقى لأنطاكيا، وتم بناء جسر من القوارب لعبور نهر العاصى، لفتح طريق للساحل والأسكندرونة لتلقى أى تعزيزات قد تصل من الغـرب، ولم يضيع بوهيمند الوقت بل أخذ فى البحث عن أى طريقة للإتصال بمن داخل المدينة، ولم يطل بحثه فاللاجئون المسيحيون المبعدون عن المدينة وفروا له قنوات إتصال بأقربائهم داخل أسوار أنطاكيا، ولم يقف ياغى سيان مكتوف الأيدى بل أخذ فى الدفع بقواته خارج أسوار أنطاكيا من خلال البوابات التى لم يغطها الحصار لمهاجمة الباحثين عن الأمدادات والأعلاف من الجيش الفرنجى، فقد دفع السكون العسكرى لقوات أنطاكيا، الصليبيين للتحرك بمنتهى الحرية، وقد أستغل ياغى سيان هذه الحرية التى يتحرك بها الصليبيون، فعندما شاهد ياغى سيان من أعلى أسوار أنطاكيا تحرك كتيبة صليبية من ثلاثمائة فرنجى من الفرسان والمشاة للبحث عن مواد الإعاشة وعلف مطاياهم، وما أن عبرت هذه الكتيبة جسر نهر العاصى حتى خرجت كتيبة من فرسان أنطاكيا وتفتك بالكتيبة الفرنجية، ليحاول من نجا من فرسان الفرنج الفرار فى إتجاة معسكر جيشهم، واثناء عبورهم جسر نهر العاصى تهاوى أكثرهم فى قاع النهر لثبتهم

دروعهم الحديدية فى قاعه غرقى، وما أن يصدم مشهد فرسان الفرنجة المتساقطين بالنهر حتى أندفع زملاءهم الذين كانوا بالمعسكر للثأر لهم، وعبروا النهر ليتلاقوا مع فرسان أنطاكيا بالقرب من بوابة المدينة، لتدور معركة بين فرسان الفريقين، ولكن فرسان الفرنج لا تحسن العمل بعيدة عن مشاتها، لتدور الدائرة عليهم، ليقتل من يقتل من فرسان الفرنج ويهرب الباقى فى إتجاة معسكرهم ويبتلع النهر المزيد منهم ،

ولضخامة الخسائر الصليبية من القتلى خلال بحثهم عن الأعلاف وغيرها من مواد الأعاشة قام الصليبيون ببناء برج قوى جمعوا أحجاره من شواهد القبور بالمنطقة، لمنع تسلل أى قوات للأغارة عليهم، على أن يتولى رجال كل قائد مسئولية الدفاع عن البرج بالتناوب وأطلقوا على البرج برج مالريجارد، كما جعل الأفرنج بينهم بين أنطاكيا خندقاً لكثرة الغارات عليهم[26]

وفى أوائل 1097م أوشك مخزون المواد التموينية والطعام الخاص بالفرنجة على النفاذ، وأطلت المجاعة بوجهها البشع عليهم، وأدى إستنزاف الفرنج للمناطق المجاورة لأنطاكيا إلى نفاذ كل ما يؤكل منها، فقرر القادة المجتمعون أرسال بوهيمند وروبرت أوف فلاندرز بقسم من الجيش للبحث عن أى طعام يستطيعوا نهبه وإختلاسه من القرى الواقعة فى وادى العاصى إتجاه حماة، وبعد رحيل القائدان على رأس عشرين ألف جندى وعامل، حاول ياغى سيان إنتهاز الفرصة بالهجوم على القوات المتبقيه للحصار، ففى نهاية شهر يناير 1097م هاجم جيش أنطاكيا الصليبيين ليلاً محدثاً بهم خسائر، حتى كاد أن يشتت جيش الصليبيين، ولكن صمود ريموند الذى قام بهجوم مضاد أوصل جيش أنطاكيا لأبواب مدينتهم، قبل قيامهم بهجومهم المضاد الذى أوقع خسائر فادحة بصفوف الفرنجة، كما أصيب جيش أنطاكيا بخسائر لا يستطيع تعويضها، وأن لم تحسم هذه المعركة الموقف ،

أما جيش بوهيمند وروبرت فقد تعرض لهجوم جيش دمشق بقيادة دقاق وأتابكه طغتكين وشمس الدولة بن ياغى سيان وأمير حمص جناح بن ملاعب الذين كانوا فى طريقهم لإنقاذ أنطاكيا، وعندما علموا بموقع جيش بوهيمند وروبرت بقرية البارة هاجموه فى 30ديسمبر1097م، وأوقعوا بقوات روبرت المتقدمة خسائر فادحة قبل أن ينقذه بوهيمند، وأن إصيب الجانبان

[26] تاريخ دمشق ص219

بخسائر فادحة مما تعذر على آياً منهما إتمام مهمته، فأنسحب بوهيمند وروبرت فى إتجاه أنطاكيا خاليا الوفاض بدون طعام، وأنتظر جيش دقاق الجيش القادم من الموصل بقيادة كربوقا لأنقاذ أنطاكيا،

تأزم موقف الفرنجة أمام أنطاكيا وعض الجوع بأنيابه الحادة الجيش، وتساقط الجنود قتلى براثن الجوع، وتنهار الجياد الهزيلة تحت وطأة المجاعة حتى لم يتبقى منها سوى سبعمائة حصان، ولكن أين المفر فلم يكن هناك طريق للعودة بل لم يأمن أحد للأبتعاد عن الجيش المرابض أسفل أسوار أنطاكيا، لو كان هناك قليل من الأتحاد بين أمراء الشرق لأمكن بمنتهى السهولة القضاء على الجيش الفرنجى وأستئصال شأفته وهو يترنح تحت لكمات الجوع،

حتى يقوم الفرنج بطرد النساء الذين أصطحبوا الجيش من أوروبا لإعتقادهم أن إنحلالهم الأخلاقى هو السبب فى هذه المجاعة[27]، ولكن بالرغم من الضعف البادى على جيش الفرنجة فالعرب كانوا أضعف لفشلهم قراءة الأحداث ونسيان عداءاتهم، وأخذ العديد من الجنود الهرب من الجيش أمام أنطاكيا باحثين عن ملاذ أمن لعلهم يجدوا فيه ما يقيم أودهم، والمفاجأة هو هروب أول الداعين للحرب المقدسة وقائد أول موجاتها والذى قُتل الألاف ممن أتبعوا دعوته وساروا تحت لواءه، أنه بطرس الناسك، لم يحتمل مشاق الحصار وجبن أمام أنتشار أخبار قدوم جيش النجدة لفك الحصار عن أنطاكيا، جبن عن مواجهة القتل فى الحرب المقدسة للوصول لبيت المقدس، وتبعه فى هروبه بعض كبار الفرسان ومنهم وليم النجار كونت ميلان قبل أن يلقى تنكريد القبض عليهم بعد مطاردتهم وإعادتهم لصفوف الجيش، وأن حرص القادة على عدم هز صورة بطرس أمام الجيش حرصاً على معنوياتهم، وأن أُجبر باقى الهاربين ـ بعد توبيخ بوهيمند لهم ـ على القسم بعدم الهروب مجدداً وملازمة الجيش حتى وصوله للقدس،

وبينما تأزم الموقف تماماً وحاصرت الصليبيين مخاطر جمة، كان بوهيمند الطموح مايزال سائراً فى مخططه فى تكوين أمارته بأنطاكيا، ويحاول رسم صورة له كقائد أعلى للقوات الصليبية، فهو لم ينظر لهذه الحرب إلا كفرصة تساعده على إنشاء مملكة له والتى حرم من تكوينها بالغرب، ولكن كان يجب عليه العمل على التخلص من المندوب الأمبراطورى تاتيسيوس، فوجوده

[27] تاريخ الحملة إلى القدس ص55

يعنى تسليمه جميع المدن التى كانت تابعه لبيزنطة قبل إستيلاء السلاجقة عليها وهو ما ينطبق على أنطاكيا، فكان يجب غيابه عن مشهد سقوط أنطاكيا، فقام بمخاطبته فى صورة الناصح بوجود نوايا من جنود الجيش لقتله بسبب تقاعس الأمبراطور عن مد يد العون لهم فى محنتهم أمام أنطاكيا، بينما أشاع بين صفوف الجيش أخبار بخيانة بيزنطة ومندوبها للقضية الصليبية بقيامه بالإتصال بالأتراك، مما دفع تاتيسيوس للهرب لعاصمته بحراً عن طريق قبرص، وما أن حدث هذا حتى أخذ دعاة بوهيمند فى نشر خبر هروب مندوب الأمبراطور جبناً، تاركاً عبء الإستيلاء على أنطاكيا على كاهل الفرنجة، مع بث أقاويل بإن سبب معاناة الصليبيين هو تقاعس ألكسيوس عن الألتزام بوعوده ومجيئه لمساعدتهم فى إقتحام المدينة المحاصرة، مما يدحض أى دعوى بيزنطية لإستعادة أنطاكيا ويحل الصليبيين من أى ألتزام أمام ألكسيوس،

وأختار بوهيمند وقت تكالب المصائب والأخطار على الجيش الصليبى لتنفيذ الجزء الثانى من مخططه، هو إشاعته بحتمية عودته لإيطاليا مصطحباً جيشه بسبب إلتزماته الملحة فى الغرب، والتى لا يجد أى مقابل بالشرق لألقاء هذه الألتزمات وراء ظهره، وإن سرت فى الجيش إشاعة بإن بوهيمند سيوافق على إستمراره فى الشرق إذا مُنح كونتية أنطاكيا كتعويض عن خسائره بالغرب بسبب تغيبه بالشرق، وإن لم تنطلى هذه الخدعة على كبار القادة إلا إنها وجدت أذان صاغية بين عامة الجيش الذى تملكه الفزع من فكرة غياب بوهيمند وجيشه، وإن كان الأمراء ما عدا ريموند لم يهتموا بمن ستصير له أنطاكيا قدر إهتمامهم بإنتهاء وضعهم الصعب أسفل أسوارها، وهكذا لم يعد أما بوهيمند للفوز بأنطاكيا إلا إظهار مقدرته ومواهبه فى الإستيلاء عليها ،

وأثناء ذلك شعر رضوان بن تتش صاحب حلب بخطأه بالتراخى عن نجدة أنطاكيا، فحاول تجاوز خلافاته وحقده القديم على تابعه ياغى سيان وقرر مد يد المساعدة لشمس الدولة أبن ياغى سيان وقبول ملتمسه بالمعونة، فقام بتشكيل جيش من قوات دمشق والأمير سكمان بن أرتق والأمير أرسلان تاش أمير سنجار وقوات شيزر وحماة وحمص، وعسكر به عند مدينة حارم إستعداداً للزحف لفك الحصار، وما أن أعلم كشافة الفرنجة قادتهم بهذا الجيش حتى عقدوا إجتماع أسفر عن خطة تقضى بخروج جميع فرسان الجيش لمهاجمة النجدة قبل وصولها لأنطاكيا، وإستمرار المشاة بالحصار، وبالفعل

تسلل فرسان الفرنجة ملتحفين بظلام الليل، وتم عمل كمين بجوار الجسر العابر لنهر العاصى، وما أن تقدمت قوات النجدة الدمشقية حتى فاجأها فرسان الفرنجة بعد أن قاموا بتقسيم قواتهم لستة كتائب، وقاموا بهجوم عام قوى أضطرت النجدة تحت ضغطه إلى الأنسحاب لدمشق بعد قتال دامى أستبسل فيه رضوان وجيشه، وفى هذه الأثناء خرجت حامية أنطاكيا مهاجمه المشاة الفرنجة مستغله غياب الفرسان، دافعه أمامها مشاة الفرنجة من مواقعها حتى كادت أن تقضى عليهم، وما أن ظهرت رايات فرسان الفرنجة حتى تأكدت حامية أنطاكيا أنهزام النجدة القادمه إليهم فسارعوا الخطى لداخل أسوار مدينتهم، ليزداد يقين الفرنجة من ضعف القوى الإسلامية بسبب تشرذمها وتفككها، وعدم قدرتها على العمل المشترك ،

وبلغت لأسماع الصليبيين فى 4مارس1098م وصول أسطول إنجليزى لميناء السويدية القريب، يحمل كل ما الجيش فى حاجة إليه، جنود إيطاليين وأنجليز، مواد بناء، أخشاب لصنع معدات الحصار، ولكن تكمن مشكلة وصول حمولة الأسطول لأنطاكيا سالمة وضمان عدم تعرضها لكمين من حامية المدينة، وبسبب إنعدام الثقة بين أكثر الأمراء طمعاً فى أنطاكيا، بوهيمند وريموند، رفضا إنفراد آياً منهما بقيادة قوة تأمين حمولة الأسطول وزحفا معا للميناء، وفى طريق عودتهما محملين بحمولة الأسطول وقعا فى كمين نصبته فصيلة من حامية أنطاكيا، فهربا تاركين حمولة الأسطول فى أيدى قوات أنطاكيا، ووصل بعض الفارين للجيش الرئيس فسارع جودفرى لأنقاذ الأحمال بعد ما قص عليه الفارين نبأ مقتل بوهيمند وريموند، فقام جودفرى بتجميع كافة فرسان الفرنج ومعه كبار القادة الصليبيين وعبور نهر العاصى، فخرجت عليه فصيلة أخرى من أنطاكيا لتأمين وصول قوات الكمين المنتصر لداخل المدينة بغنائمها الثمينة، فقاتل جودفرى هذه القوات حتى ردها لداخل أنطاكيا ثم أستدار لقتال قوات الكمين وهنا ظهر بوهيمند وريموند الذين يبدوا أنهما أختفيا بعد هزيمتهما حتى تشجعا بظهور جودفرى وقواته وتعاونوا حتى تم هـزيمة قوات الكمين المثقلة بالغنائم وأستعادوا الحمولة النفيسة،

ونظرا لخطورة وجود بوابة من بوابات أنطاكيا غير محاصرة قام الصليبيون بتشيد برج أمام هذه البوابة لمنع المرور منها، مما يعنى أن حصار أنطاكيا أكتمل ببناء هذا البرج، وتطوع ريموند بتوفير خمسمائة جندى للتمركز به وحراسته، كما قام الصليبيون ببناء برج أخر عند أخر بوابة غير محاصرة،

وتم تكليف تنكريد بحراسة هذه البوابة مقابل مائة فرانك دفعها ريموند وأربعون مارك تدفع شهرياً لتنكريد من ميزانية الجيش، الأن فقط لم يكن فى مستطاع حامية أنطاكيا الدخول أو الخروج ويجب عليها الأعتماد على مخزونها للأعاشة خلال الحصار،

ولم تكتفى القيادات السياسية بالشرق الأدنى فى هذا الوقت بتشرذمها وعدم إتحادها، بل أمتلكت من قصر النظر وعدم القدرة على قراءة الموقف ما دفعها لمحاولة التحالف مع الصليبيين ضد أعداءها من بنى جلدتها، ففى أبريل 1097م أرسل الأفضل شاهنشاه بن بدر الدين الجمالى وزير الخليفة المستعلى الفاطمى من مصر رسالة وديه للجيش المحاصر لأنطاكيا، عارضاً التحالف والعمل المشترك ضد السلاحقة، على أساس تقسيم ممتلكات السلاجقة فى الشام بحيث يصبح شمال الشام للصليبيين وجنوبه للدولة الفاطمية، لإعتقاده إن الصليبيين لم يحضروا للشام إلا لإعادة سيطرة الامبراطورية البيزنطية على الأراضى التى أستولى عليها السلاجقة، وهو ما ينطبق على أنطاكيا وشمال الشام، وأمتلك الصليبيون من الذكاء السياسى ما جعلهم يحسنون إستقبال الوفد الفاطمى، بل ويرسلون بدورهم سفارة للقاهرة محملة بهدايا ثمينة مع رسالة ودية للأفضل، ليخلوا بال الصليبيين من جهة الجنوب حتى حين،

بينما تنتشر بين جنبات المعسكر الصليبي أنباء إقتراب جيش إنقاذ أنطاكيا بقيادة كربوقا أتابك الموصل في مايو 1097م، الذى يبدوا أنه كان من القادة العسكريين أصحاب القدرات العسكرية المتوسطة، وكما أتصف بكثير من الغرور والصلف والتعنت، فقد أضاع ثلاثة أسابيع ثمينة بمحاولة القضاء على بلدوين المختبئ خلف أسوار الرها القوية، بالرغم من ضعف قدرات قوات بلدوين، ثلاثة أسابيع كانت كافية بوضع الجيش الصليبى بين شقى الرحى، قوات كربوقا من جهة وحامية أنطاكيا من جهةٌ أخرى، مما كان سيضمن الأنتصار على الفرنجة، وعندما أيقين كربوقا بصعوبة الإستيلاء على الرها يمم وجه نحو أنطاكيا ولكنه وصل متأخراً جداً،

فخلال الثلاثة أسابيع التى اضاعها كربوقا أمام أنطاكيا كثف بوهيمند جهوده فى تنفيذ مخططه فى التواصل مع أحد من المتواجدين خلف الأسوار المنيعة، فنجح أخيراً فى التواصل مع أحد ضباط ياغى سيان يدعى "فيروز الزراد"

وهو أرمنى الأصل، حقد على ياغى سيان مصادرته قبيل هذه الأحداث بسبب إتهامه بالمتاجرة فى السوق السوداء، وكما كان يريد ضمان أمنه الشخصى وأمن عائلته، وبعد مفاوضات سرية بين بوهيمند وفيروز تم التوصل لإتفاق يقوم بمقتضاه فيروز بتسهيل إقتحام أنطاكيا مقابل عائد مادى ضخم ووعد بضمان حياته وحريته هو وأسرته، كل هذا جرى فى منتهى السرية ولم يُطُلع عليها بوهيمند أى من القادة الأخرين، بينما أخذ بوهيمند فى الدعاية للأخطار المحدقه بالصليبيين أذا لم يتم الإستيلاء على أنطاكيا قبل وصول جيش كربوقا، الذى أخذ فى التحرك فى إتجاه أنطاكيا تاركاً حصار الرها،

ما أن بلغت أسماع الصليبيين نبأ إقتراب جيش كربوقا حتى أزدادت وتيرة الهروب من الجيش، حتى طالت حالات الهروب كبار الأمراء الصليبيين ففى نفس يوم سقوط انطاكيا هرب ستيفن كونت بلوا زوج أبنة وليم الفاتح ملك إنجلترا على رأس حشد غفير من الفرنسيين فى إتجاة ميناء الأسكندرونة للبحث عن أى وسيلة تقلهم لأوطانهم، فالموت فى سبيل حرب مقدسة لم يكن فى الحسبان بقدر ما كانت كنوز الشرق التى وعدوا بها هى المحرك لهم ،

وفى ذات اليوم الذى شهد هروب ستيفن، وبينما الصليبيون يضربون أخماساً فى أسداس، ويتشاورون فى ما يجب عليهم إتباعه لمواجهة قوات النجدة القادمة من الشرق، قام بوهيمند بإعلان إتفاقه مع فيروز بعد تحديد موعد تنفيذ الأتفاق فى هذا اليوم، وكانت الخطة كما شرحها لهم تقضى بتظاهر الصليبيون بالخروج فى إتجاة الشرق لمقاتلة جيش كربوقا، ثم يتسللوا تحت جنح الليل للسور الغربى للمدينة عند برج الأختين المسئول عنه فيروز بعد تزويد جنودهم بالسلالم، ليسهل فيروز لهم الأستيلاء على أحدى البوابات التى سيتولى حراستها هذه الليلية، ولضمان صدق فيروز ارسل أبنه كرهينة لدى بوهيمند، الذى عرض هذه الخطة على القادة مع إظهار خطاب فيروز والذى لم ينسى بوهيمند لفت نظر القادة إلى ما ذيل به فيروز خطابه من شرطه لكى يتم تنفيذ هذا الأتفاق، وهذا الشرط هو إتفاق جميع القادة على أن يتولى بوهيمند وحده السلطة فى أنطاكيا ،

عند غروب الشمس أخذت كتائب فرسان الجيش بالزحف فى إتجاه الشرق تحت نظر أعين حامية أنطاكيا، متظاهره بالخروج لقتال كربوقا، وما أن شاهدتهم حامية أنطاكيا حتى أسترخت ممنيه نفسها بقضاء ليلة هادئة، بعد كم

المعارك التى خاضتها، ليذهب الجميع فى نوماً عميق وتتراخى دوريات حراسة الأسوار،

وقبيل الفجر أرتد الجيش الفرنجى فى سكون ووجهته السور الغربى لأنطاكيا حيث فيروز يتولى مسئولية الدفاع عن برج "الأختين" فى كنف الجبل منتظراً هناك، ووصل جنود بوهيمند فى صمتاً تام، حاملين السلالم التى أعتلوها للوصول أعلى أسوار أنطاكيا، ليدلف ستين فارس من خلال نافذة لغرفة كان داخلها فيروز الذى أبدى إمتعاضه من قلة عددهم، ولكن هؤلاء الفرسان أخذوا فى صمت فى قتل القوات التى تتولى حماية الأسوار وقد غضت فى نوماً عميق أطمئناناً لبعد الجيش الصليبى، حتى إستطاعت هذه القوة فتح بوابة السور الغربى ليتدفق منها فيضان من الجنود الجوعى ممتلئ الحقد ليقتلوا كل من صادفهم وينهبوا الجميع، مسلمى أنطاكيه ومسيحيها، وحاول ياغى سيان الهرب قبل أن يقبض عليه بعض الأرمن فيقتلوه ويبيعوا رأسه لبوهيمند، بينما أحتل أبنه شمس الدولة قلعة أنطاكيا وتحصن بها، وفى نهاية اليوم لم يبقى بين سكان أنطاكيا المسلمين أحياء، بعد قتل الجميع حتى أنه لم يكن فى الأمكان السير فى شوارع أنطاكيا بسبب الجثث المنتشره فيها، حتى كانت أول مشكلة تواجه الصليبيين بعد إحتلال أنطاكيا هى التخلص من الجثث قبل تحللها فتنتشر الأوبئة بالمدينة، وحاول بوهيمند شن هجوم مفاجئ ليستولى على القلعة ولكنه أرتد مثقل بجراحه هو ورجاله،

ها قد أرتفعت رايات بوهيمند الحمراء على أسوار أنطاكيا 2 يونيه 1098م، وبالرغم من الكميات الهائلة من مواد الأعاشة التى أستولوا عليها، لم يتسنى للصليبيين الأستمتاع بنصرهم أو حتى مناقشة مستقبل المدينة، فكربوقا على الأبواب وأن جاء متأخراً، فالوقت الذى أهُدر فى حصاره للـرها كان كفيل بتجنيب الشرق ويلات الإستيطان الصليبى لعدة مئات من السنين،

وصل جيش كربوقا ليعسكر فى نفس مكان المعسكر الصليبى قبل إقتحامهم أنطاكيا 4 يونيه 1098م، وتم توفير قناة إتصال بالقلعة المسيطر عليها شمس الدولة، ليصمم كربوقا على وجوب تسليم القلعة لرجاله فيوافق شمس الدولة على مضض، وتم تعيين الأمير أحمد بن مروان ضابطاً على القلعة من طرف كربوقا، ليحاول كربوقا التوغل للمدينة والإستيلاء عليها من خلال القلعة، ولكن الخطة تفشل بسبب السور الذى شيده الصليبيون ليفصل القلعة

عن باقى أجزاء المدينة، وإن نجح فى الإستيلاء على ميناء السويدية القريب وتحرير بعض الأسرى المسلمين[28]

ليعتمد كربوقا خطة الحصار وتجويع الصليبيين، وعند قيام كربوقا بإعادة إنتشار قواته لإحكام الحصار على أنطاكيا حاول الصليبيون مهاجمته ولكنهم أقتنعوا بأن الفرار لداخل أسوار أنطاكيا أفضل،

وعضت المجاعة بأنيابها الجيش الصليبى، الذى فى غمار نشوة نصره بإستيلاءه على أنطاكيا دمر مخزونها من مواد الأعاشة، ليجد نفسه فريسة الجوع، فقد أستولت على المدينة مجاعة رهيبة أضطر معها جموع الصليبيون أكل الميتة، حتى أصبح السيف بالخارج والجوع بالداخل[29] مما كان دافع للكثير لمحاولة هروبه من أنطاكيا حتى نجح بعضهم، والمثير كان ممن نجح فى الهرب كونت المدينة التى شهدت بداية التبشير بالحرب المقدسة، لامبرت كونت كليرمونت، ومن ضمنهم أيضاً زوج أخت بوهيمند، بل هناك العديد سلموا أنفسهم لقوات كربوقا ،

وتمسك الصليبيون بأخر أمل لإنقاذهم من هذا النفق المظلم المحاصرين فيه، ألكسيوس، فقد أنتشرت أخبار بإقتراب حملة الأنقاذ التى يقودها ألكسيوس أمبراطور بيزنطة، بينما ألكسيوس يتلمس الأخبار وهو على مشارف الشام، يقدم قدم ويؤخر الأخرى، ورد عليه ستيفن كونت بلوا وبعض الفارين الأخرين ليعلنوا هلاك الجيش الصليبى أمام أنطاكيا ـ كما صور لهم رعبهم وربما لحفظ ماء وجههم لهروبهم من أمام أسوار أنطاكيا ـ، بينما يخبره بطرس أولب أحد الفارين من أمام أنطاكيا أنه رأى جيشاً إسلامياً فى طريقه لقتال الجيش البيزنطى، ليقطعوا تردد ألكسيوس فيدير ظهره مسرعاً لعاصمته، فألكسيوس كان يخشى مسبقا التواجد بالشام مع الجيش الصليبى حتى لا يصير تحت رحمة الصليبيين الجشعة، فزادت كراهية الفرنجة لليونان، وأنصبت لعناتهم على ألكسيوس الذى خان الحرب المقدسة، كراهية أستمرت ملازمة اللاتين حتى نجد اثارها فى كتابات وليم الصورى، الذى كان لا يصف الكسيوس إلا بالماكر[30]، وكما كان إنسحاب ألكسيوس كإعلان

28 تاريخ حلب ص359
29 تاريخ وليم الصورى ج1 ص338
30 تاريخ وليم الصورى ج1ص155

تنازل عن كافة حقوقه فى الأراضى المستولى عليها وخصوصا أنطاكيا كما بيّن لهم بوهيمند ذلك ،

بلغت الروح المعنوية الحضيض بالنسبة للصليبيين فلم يكن هناك أمل، فلا توجد نجدة قادمة فى الأفق، ولا يوجد طعام، وجيش كربوقا محاصر أنطاكيا تماماً، حتى أضطر بوهيمند لإشعال النيران بالمنازل التى أختفى بها الجنود المناط بهم حماية الأسوار خوفاً من قوات كربوقا وعجزاً عن مواجهة الجوع، حتى أتت هذه النيران على ألف منزل، فكان يجب رفع معنويات الجنود بأى ثمن حتى لا يتحول الجيش إلى مجموعة من القتلى والأسرى،

الجيش فى حرب مقدسة، والمعلن إنه زاحف بأمر آلهَى فيجب إستغلال هذه النقطة، والبسطاء يصدقون أى ما يمت للناحية الدينية بصلة، فأعلن أحد فقراء القسس من بروفانس ويسمى بطرس بارثولوميو أنه حلم إثناء نومه بأحد الحواريون (أندراوس) يخاطبه بأن جميع القديسين سيحاربون مع الصليبيين، ويرشده عن مكان الرمح الذى أشيع بطعن السيد المسيح به، وأن القديس أندرو أخذ بطرس طائراً ليريه مكان الرمح بكنيسة أنطاكيا، وعاد له أندرو أكثر من مرة بسبب تخوف بطرس من عدم تصديق قصته، مخبراً بطرس بوجوب إبلاغ هذه الرسالة لريموند بالتحديد، وبالمصادفة ريموند هو سيد بروفانس مسقط رأس بطرس، مما حدا ببوهيمند إنكار هذه الرؤيا التى ترفع من شأن رفيق سلاحه اللدود، وبالفعل ذهب بطرس ويسبقه ريموند وأخرون وقاموا بالحفر فى المكان الذى حدده بطرس طوال نهار يوم 14يونيو1097م، وبعد يأس الجميع ومبادرتهم بالإنصراف، يقفز بطرس فى الحفرة مخرجاً قطعة من الحديد معلناً أنها الرمح وسط تهليل الجميع، وتتوالى الأحلام والرؤى من بطرس وغيره مبشره بالنصر، وعند إشتداد المجاعة كان يجب القيام بهجوم شامل على كربوقا لضرب جيشه وإجباره على رفع الحصار، ومعنويات الجيش لا تسمح بالقتال وقد يتمرد الجنود الجوعى، فحلم أخر من القديس أندرو لبطرس يطالب فيه بوجوب قيام الصليبيون بهجوم فى ظرف خمسة أيام ضد كربوقا مع وعد بمعونة سماوية سيؤدى الغرض،

بينما يحاول الصليبيون بث الشجاعة فى نفوس جنودهم المنهاره معنوياً، كان المشهد فى معسكر كربوقا على عكس ذلك تماماً، فقد أستاء الأمراء المتحالفون مع كربوقا من تعاليه عليهم وإستبداده بالأمور، ومعاملتهم كأتباع وليس حلفاء، وزاد إستياء دقاق صاحب دمشق قيام كربوقا بالتفاوض مع أخيه

وعدوه رضوان صاحب حلب، وكما كان الهجوم الفاطمى بجنوب الشام دافعاً له للأعلان بوجوب عودته لمدينته لحمايتها، وطفت على السطح المنازعات حتى بين جنود جيشه، فحدثت مشاحنات وإحتكاكات بين جنوده العرب وجنوده الأتراك، وكان إستعمال كربوقا القسوة فى منع هذه الأحتكاكات السبب الذى أوغر صدور جميع رجاله عليه،

وحاول الفرنج إستغلال ظروف كربوقا المضطربة بإرسال سفارة إليه لعلها تقنعه بفك الحصار، وبيان عدم وجود أى نوايا عداءيه ضد كربوقا وممتلكاته، وتألفت هذه السفارة من الداعى الهارب بطرس الناسك والذى تم تعينه فى هذه المهمة كفرصة لإستعادة سمعته بعد محاولة هروبه المخذية علاوة على فارس يسمى "هيرلوين" يجيد العربية والفارسية للقيام بالترجمة، وقد تمسك كربوقا بضرورة إستسلام الفرنج بدون قيد أو شرط، فتم قبول خيار القتال من الطرفين ،

وحدث أن مرض ريموند مرضاً ألزمه الفراش، مما كانت فرصة ذهبية لبوهيمند بتوليه القيادة العامة فى هذه المعركة، لتأكيد مجهوداته المضنية فى الحفاظ على أنطاكيا، وقام بوهيمند بتقسيم الجيش الصليبى لستة كتائب مقسمة على أساس عرقى، كتيبة مكونة من الفرنسيين الشماليين والفلمنكيين بقيادة هيو أوف فيرماندو وروبرت أوف فلاندرز، وثانية من شرق فرنسا بقيادة جودفرى، وثالثة من نورماندى بغرب فرنسا بقيادة روبرت دوق نورماندى، ورابعة من تولوز وبروفانس بجنوب فرنسا بقيادة أديمار مندوب البابا، والخامسة والسادسة من نورمان إيطاليا بقيادة بوهيمند وتنكريد، مع ترك فصيلة من مائتين جندى لحماية القلعة ويقودهم ريموند من فراش مرضه، وفى مقدمة الجيش الـرمح يحمله بطرس،

خرجت الكتائب الصليبية فجر يوم 28يونيه1098م تباعاً من أسوار أنطاكيا خلال باب المحمرة، خرج أولاً هيو (هيج) وكونت فلاندرز وروبرت دوق نورماندى كحرس مقدمة الجيش، وتبعاً للتكتيك اللاتينى سارت المشاة أولاً ومن خلفها الفرسان، لتوفير الحماية لجياد الصليبيين التى لا يمكن تعويضها من سهام ونشاب قوات كربوقا، وقد علم كربوقا بإستعدادات الصليبيين عن طريق قواته المحتله قلعة المدينة، وحاول أحد أمراء كربوقا العرب ويسمى وثاب بن محمود حث كربوقا بالقيام بالهجوم على جيش الفرنجة قبل أستكمال حشده خارج أسوار أنطاكيا وعدم أعطاءه فرصة تنظيم صفوفه، ولكن كربوقا

رفض واثقاً فى جيشه، حتى يستطيع القضاء على جيش الفرنجة كاملاً وليس المقدمة فقط، وأقصى ما فعله كربوقا هو إحتلاله طريق تقدم الصليبيين بواسطة كتيبة من فرسانه، التى هاجمها هيو وأجبرها على التقهقر ،

وبالفعل تم تأخير هجوم كربوقا حتى أتخذ جيش الفرنجة أوضاعه القتالية المناسبة وأستعد للقتال كل هذا وكربوقا ينتظر، فحاول كربوقا التظاهر بالأنسحاب لسحب جيش الفرنجة للموقع المناسب له وأرسل فصيلة قوية لضرب الجانب الأيمن للصليبيين، ولكن بوهيمند أنتبه لخطة كربوقا وتم القضاء على هذه الفصيلة، وشدد الهجوم على الجيش الرئيس لكربوقا وأنتشرت بين صفوف قوات الصليبيين أقاويل عن وجود فرسان بملابس بيضاء يلوحون برايات بيضاء، وأن لم يشاهدها الجميع ويبدوا أنه لم يشاهدها إلا من له صلة ببوهيمند، وأعقب ذلك تخلى أمراء كربوقا المستائين من تكبره وتعاليه عليهم عنه، وإنسحابهم تباعاً وعلى رأسهم دقاق أمير دمشق "ولم يضرب أحداً منهم بسيف ولم يطعن برمح ولم يرمى بسهم"[31] ولم يكن للمحاربين "عزيمة صادقة فى جهاد ولا حماية بلاد"[32] وفشل كربوقا فى إعادة تنظيم صفوف جيشه المضطرب بسبب الضغط الصليبى المستمر، وحاولت قواته إشعال النيران فى الحقول المحيطة لعرقلة التقدم الفرنجى دون جدوى، مما أضطره للأنسحاب من ميدان المعركة عائداً للموصل ،

قد حددت هذه المعركة مصير الشام ككل، فقد تخلص الصليبيون من الخطر الإسلامى حتى حين، وتأكد لديهم عدم قدرة الأمراء المسلمين على مواجهتهم أو التغلب عليهم، كما بينت هذه المعركة إحتياج المسلمين لقيادة قوية تستطيع جمع الكلمة على المقاومة وقيادتهم فى طريق النصر، وأن العدو الحقيقى للمسلمين هو الإنقسام والتشرذم ،

تأكد مصير أنطاكيا بإستسلام أحمد بن مروان بعد مفاوضات عقب إنسحاب كربوقا، بعدما رفض تسليمها إلا لبوهيمند والذى يبدو أنه كان بارعا فى فن المفاوضات السرية مع المحاصرين، وهنا ثارت مشكلة حكم أنطاكيا، فقد عمل بوهيمند جاهداً على الأحتفاظ بها مستعيناً بتأيد جميع الأمراء ماعدا ريموند فقط، بل أخذ فى فرض سياسة الأمر الواقع بالإستيلاء على أبراج الأسوار التى كانت فى أيدى القادة الأخرين بإستثناء الأبراج المسيطر عليها

[31] الكامل ج8 ص187
[32] ذيل تاريخ دمشق ص175

ريموند، ويبدو أنه أستولى عليها بمباركة القادة الذين لم يرغبوا فى القتال للأستيلاء على أنطاكيا وتحمل مشقة الحفاظ عليها للأمبراطور الغائب، الذى لم يجهد نفسه بمشاركتهم معاناتهم بل لم يرسل حتى جزء من جيشه لمعاونتهم، ويضاف إلى ذلك الكراهية التى كان يكنها اللاتين للبيزنطيين، كراهية زادها الحرمان الذى عانوا منه فى أنطاكيا والطريق إليها، ولم يجدوا من يلقوا عليه تبعية هذا الحرمان سوى ألكسيوس، وكما لا يرغبون فى خسارة جهود بوهيمند الذى ألمح بضرورة عودته لإيطاليا إلا إذا منحت له أنطاكيا، الوحيد الذى صمم على وجوب الوفاء للقسم أمام الأمبراطور هو ريموند الذى لم يقسم للأمبراطور أصلا، وبالفعل تحت ضغط ريموند وزميله أديمار تم الأتفاق على أرسال هيو كونت فيرماندو الراغب بشدة فى العودة لموطنه كمبعوث للأمبراطور لمطالبته بضرورة سرعة حضوره على رأس جيشه لتسلم أنطاكيا، ولكن الأمبراطور لم يعد يملك النية للزحف المقدس ،

وأدى أنتشار نبأ سقوط أنطاكيا إلى مسارعة جمهورية جنوا إلى محاولة السبق فى الحصول على إمتيازات تجارية فيها، وهو ما أستغله بوهيمند الذى أصبح يلقب بأمير أنطاكيا فى محاولة توطيد مركزه بعقد معاهده معهم يمنحهم بمقتضاها سوق وكنيسة وثلاثين منزل داخل أنطاكيا، فى مقابل أن يساعدوه على إحكام سيطرته عليها والوقوف إلى جانبه ضد من يقاتله إلا فى حالة قتاله ضد ريموند، ومن حسن طالع بوهيمند أن وافت أديمار المنية ليخفف عنه عبء المعارضة لإستيلاءه على حكم أنطاكيا، فوفاة إديمار متأثراً بالوباء الذى أنتشر فى أنطاكيا بفعل تحلل الجثث والمرجح أنه التيفويد أو الطاعون، ترك فراغاً فى القيادة الدينية للحملة، جعل النبلاء يسارعون بالكتابة للبابا شارحين له الموقف العام للحملة، مترجين أن يلحق بهم لقيادتهم خلال طريقهم الدموى ،

وإستكمالاً لمسلسل التفكك تجدر الإشاره لأمير قلعة أعزاز المسمى عمر، فمدينة أعزاز كانت تابعه لرضوان صاحب حلب، وظهرت من عمر هذا بوادر تمرد على سيده، مما دفع رضوان للقيام بحملة لتأديب أميره المتمرد، كل هذا والصليبيون يستولون على أنطاكيا فبدلاً من إتحاد الأمراء المسلمين نجدهم يقاتلون بعضهم البعض تاركين الفرنجة يعملون فى حرية فى إقتطاع أجزاء من الجسد العربى المريض، ويااليت الأمر أنقضى على هذا فقط بل أستنجد أمير عمر بجودفرى ضد رضوان، وبالتأكيد لم يضيع جودفرى

فرصة إنقسام العالم العربى، فطلب من ريموند مساعدته الذى سارع بتلبية طلب جودفرى، وكما أرسل بلدوين بعض قواته من الرها تبلغ ثلاثة آلاف جندى، ليزحف جودفرى على أعزاز بعد أخذ أبن الأمير عمر رهينة، فيرفع رضوان حصاره عن أعزاز عند إقتراب الجيش الصليبيى، ليقسم أمير عمر قسم الولاء والتبعية لجودفرى (سبتمبر 1098م)، فكان هناك من الحكام بالشرق من هم على إستعداد الإستعانة بأعداء أمتهم ومن جاءوا لإغتصاب أراضيهم من أجل محاربة بعضهم البعض حتى ينقلب عليه من أستعانوا بهم عن قريب،

وهنا أخذ جميع قادة الفرنجة فى البحث عن نواة لأمارات لهم بالشرق، فجودفرى ذهب شرقاً بعد أن منحه أخيه بلدوين مدينتى تل باشر وروانداان بعد أن تعهد جودفرى على إعادتهما لبلدوين ثانية إذا ما أستولى على أى مدن أخرى، أما بوهيمند فبعد تأكده من إحكام سيطرة رجاله على أنطاكيا سار لأقليم كيليكيا بالشمال الشرقى ليبحث عن أراضى لتوسيع حدود إمارته الوليده، بينما سارع روبرت كونت نورماندى للاذقية ليتولى حكمها قبل أن يجبر على الفرار منها من أهاليها بسبب ضرائبه وقيامه بنهب سكانها، وريموند قام بتجربة حظه بحوض نهر العاصى فأستولى على بعض القرى الصغيرة وأهمها البارة ،

وبينما القادة يحاولون إرضاء جشعهم ويحققون بعض النجاحات فى إستيلاءهم على بعض المدن والبلدات وجد صغار الجنود أنفسهم لم ينالوا أى فائدة من إنتظارهم بأنطاكيا، بل عض الجوع بطونهم فبعد الإستيلاء على أنطاكيا فوجئ الجميع بعدم وجود أى طعام بسبب عدم زراعة أى مساحات من أنطاكيا، وتحت إلحاح هؤلاء الجنود عقد القادة إجتماع لبحث الخطوات التالية للحملة، وأفتتح بوهيمند الحديث بمطالبته بحقه فى حكم أنطاكيا منفرداً، فالأمبراطور لم ولن يحضر مما يجعلهم فى حل من قسمهم له، وأعترض ريموند على هذا الطلب مطالباً الجميع بإحترام تعهداتهم أمام الأمبراطور، وأن كان ما يحركه هو غيرته من بوهيمند، فأنفض الإجتماع بدون طائل فهددهم الجنود بأستكمال زحفهم بدون الأمراء بعد قيامهم بتدمير أسوار أنطاكيا تماماً، وخوفاً من حدوث ذلك وكحل وسط تم الأتفاق سراً على محاولة فتح معرة النعمان ومنحها لريموند إرضاءاً له لترك الأجزاء المستولى عليها من أنطاكيا لبوهيمند،

وبالفعل هوجمت معرة النعمان وأن فشل هذا الهجوم فى الإستيلاء على المدينة، فتم فرض الحصار عليها، الذى قاومه رجالها ببسالة شديدة، وقاموا بقصف الصليبيين المحاصرين لمدينتهم بخلايا النحل التى تشغى بنحلها، وبعد حصار أسبوعين تم الإستيلاء على المدينة والتى لم يجد بها الصليبيون أى طعام يأكلوه إلا اللحوم البشرية للقتلى، بعد أن شجعهم بطرس الناسك على إلتهام لحوم قتلى المسلمين، فقد قام جنود الجيش المقدس الباحثين عن التوبة، بغلى الرجال البالغين فى قدور وشى الأطفال الصغار وتناول لحومهم، وأقتطعوا لحم العجز من جثث الشرقيين وطبخوه وأكلوه، وملتهمين اللحم بوحشية قبل أن يتم طهيه [33] ،

وساوم بوهيمند ريموند على تسليمه الأجزاء التى أستولى عليه من معرة النعمان بشرط أن يقوم ريموند بتسليمه الأجزاء المسيطر عليها فى أنطاكيا، ويقوم بوهيمند بطرد رجال ريموند من أنطاكيا[34]، وبسبب طمع ريموند الإعتراف به قائداً عاما على الحملة حاول شراء موافقة باقى الأمراء بمبالغ مالية، ثم أعلن قيامه بالزحف بعد قيام الدهماء بحرق معرة النعمان لإجباره على التحرك جنوباً، ففقراء الصليبيون وجدوا أنفسهم أسرى الجوع الضارى بشمال الشام، بينما بوهيمند وريموند يتصارعان على الفوز بأمارات لهما، فى الوقت الذى لم يستفد المقاتلين الفقراء المترجلين من الإنتظار بشمال الشام، بل سقطوا صرعى المرض والجوع، فرأوا فى الزحف لجنوب الشام بارقة أمل لإسكات ضربات جوعهم، ولم يصحبه إلا روبرت كونت نورماندى وتنكريد، قبل إن يلحق بهم بعد شهر جودفرى دوق اللورين وروبرت كونت فلاندرز مدفوعين بتهديدات رجالهما، بعد مرور خمسة عشر شهراً قضوها بأنطاكيا خلال زحفهم المقدس قضوا أغلبها يتصارعون على إقتسام الغنائم والبحث عن مدن وقرى لتكوين إمارات غربية بعد قتل سكانها، ويبحثون عن الأسرى المسلمين ليأكلوا لحومهم، بل أن مرشديهم يحثوهم على ذلك المسلك الذى ينزع الأنسانية عن فاعله، خمسة عشر شهراً بينما الشرق لم يستفيق من نومه ويتحد لمواجهة الخطر المحيط ببلدانه، وأخيراً تحرك الصليبيون جميعا فى 13يناير1099م، وإن بقى بوهيمند وبلدوين فى أمارتيهما الجديدتين بعد أن حققا ما سافرا من أجله ،

[33] تاريخ الحملة إلى القدس ص68
[34] تاريخ الحملة إلى القدس ص68

الطريق إلى القدس

وتبدأ مرحلة جديده من تاريخ الحملة، فقد تغيرت خريطة المنطقة فى الخمسة عشر شهراً هذه، الفاطميون إعتماداً منهم على نجاح سفارتهم للجيش الصليبى والحفاوة التى قوبل بها مبعوثيهم من قبل قادة جيش الفرنجة قاموا بالإستيلاء على جنوب الشام بما فيها بيت المقدس من الأمير سقمان (سكمان) الأرتقى وأخيه الأمير آيلغازى الأرتقى فى 26أغسطس1098م، جاعلين حدود دولتهم نهر الكلب جنوب مدينة بيروت، وأحسن الأفضل معاملة سقمان وآيلغازى وسمح لهما بالتوجه لدمشق، إعتقاداً من الأفضل إختفاء أعداءه الأساسين السلاجقة من مسرح الأحداث فى الشام، وإعتماداً على ثقته فى حلفاءه الجدد ـ الصليبيين ـ أدار الأفضل ظهره للقدس متوجهاً للقاهرة تاركاً حامية بعيدة عن الضخامة بالمدينة المقدسة، مستبعداً أقدام الصليبيين على مهاجمة جنوب الشام، ولكن الأيام أوضحت له خطأ حساباته، فما أن أستولى الصليبيون على أنطاكيا حتى تماست حدود الفريقين وأصبح الحليفان وجهاً لوجه، فلم يعد هناك مفر من الأصطدام بينهما، فحاول الأفضل اللجوء للدبلوماسية مجدداً، فأرسل سفارة لتلتقى بالجيش الصليبى قرب طرابلس تحمل هدايا لجميع قادة الفرنج وتعرض تسهيل أداء الحج لبيت المقدس بشرط قدوم الصليبيين بمجموعات صغيرة غير مسلحة، ولكن كان الرد الصليبى فظ وصادم، ردوا بأنهم سيقومون بالحج بطريقتهم الخاصة، وكان لسقوط أنطاكيا وقع مدوَى فى نفوس حكام مدن الشام، فبدلاً من إتفاقهم على المقاومة نافسوا بعضهم البعض على الفوز بود الصليبيين، إعتقاداً منهم أنهم بذلك يحافظون على عروشهم،

فما أن بدء ريموند الزحف حتى سارع الأمير عز الدين أبو العساكر سلطان أبن منقذ أمير شيزر فى 17يناير1099م بإرسال سفراءه عارضاً توفير مرشدين ليدلوا الجيش الصليبى على أفضل الطرق وأيسرها لبيت المقدس، ويبدى إستعداده لأمداد الجيش الصليبى بإحتياجاته الغذائية بأسعار تنافسية، بل سمح للجيش الصليبى بإستكمال النقص فى خيوله بشراء ألف فرس بالفائض من الغنائم التى أستولى عليها من أنطاكيا، كما تعهد بتوفير ممر آمن لمرور القوات الصليبية فى طريقهم لإحتلال القدس، وقد أختير طريق الساحل للزحف للقدس مباشرة، فالجيش الصليبى أصبح صغير العدد وغير قادر على الإستيلاء على أى من المدن الكبيرة، بينما يجب توفير مجهوده لمعركة القدس، وذلك بمساعدة حكام المدن الواقعة فى الطريق، التى سارع حكامها

كما سنرى لشراء السلام من الجيش الضعيف، فالصليبيون على يقين بإن أخبار الأستيلاء على القدس كفيلة بجلب طوفان من جيوش أوروبا ،

وبالفعل بدء الصليبيون الزحف للقدس مع محاولة تجنب تجمعات السكان، وحدث إثناء مرور الصليبيين بسهل البقاع أن وصلوا لأطلال حصن الأكراد، والذى أحتمى فيه سكان وحامية المنطقة، فقاتلهم الجيش الصليبي، ويبدوا أن الجيش الصليبى أصبحت عاداته معروفة، فقد قام المدافعون عن حصن الأكراد بإخراج بعض الماشية من أحد الأبواب، والتى ما أن رأها جنود الجيش الصليبى حتى نسوا كل شئ إلا هذه الماشية والتى تسابقوا للفوز بها، وتتبعثرت قوات ريموند شذر مذر، فأستغل أهل حصن الأكراد هذه الفوضى وقاموا بهجوم خاطف زلزل الجيش الصليبى وكاد قائده ريموند أن يقتل بعد تسابق حرسه خلف الماشية وتركوه، وقام السكان بإخلاء الحصن مستغلين هزيمة الصليبيين، والذين حاولوا بعد تجميع شعث قواتهم الأنتقام من حصن الأكراد ففوجئوا به خالياً (29 يناير 1099م)،

والمبكى تسارع حكام الشام فى إرسال سفارات للجيش الصليبى فى أثناء وجوده بحصن الأكراد، معلنين عدم تعرضهم للجيش أثناء زحفه وأستعدادهم لتقديم كافة الخدمات والتسهيلات لوصول الجيش لوجهته، فى سبيل عدم تعرض الجيش لأماراتهم، بل نجد أن حكام شيزر المسيطرين على المنطقة الواقعه بين حوض نهر العاصى حتى البحر المتوسط، وأسرة بنى عمار صاحبة طرابلس ينتهجان سياسة المهادنة والإستسلام للصليبيين، الأمر الذى يعنى أن الأراضى المار بها الطريق إلى القدس صارت ممهدة أمام الجيش القاتل، وسمح حكام شيزر للصليبيين بشراء ألف حصان ليقاتلوا بها فى زحفهم الدموى مقابل بعض الغنائم والأغنام التى أستولى عليها الصليبيون، كما وصل مبعوث من أمير حمص جناح الدولة أبن ملاعب محملاً بالهدايا لشراء رضا الصليبيين ولحقتها سفارة من أمير طرابلس القاضى أبو على فخر الملك بن عمار وطالب بأسم أمير طرابلس برايات ريموند لتزين أسوار أمارته، وقد دفع هذا الطلب ريموند للطمع فى طرابلس فحاول مهاجمة عرقة أحدى قلاع طرابلس بعد أن قام بعض تابعيه بالإستيلاء على أنطرسوس، والأشد إيلاماً أن القوة التى أستولت على طرسوس أنما هى فصيلة صغيرة من مائة فارس ومائتى من المشاة[35] زحفت للبحث عن ما يقتات به الجيش

[35] الحروب الصليبية ج2ص46

بقيادة فارس يسمى ريموند بيلية، وما أن ظهـرت هذه الفصيلة الصغيرة أمام أسوار طرسوس حتى قاتلها أهالى المدينة حتى إسدل الليل أستاره، فأخلى أهالى طرسوس مدينتهم تحت جنح الظلام، بعد أن أستولى عليهم الرعـب من الفرنج، بالتأكيد ما حدث فى معرة النعمان إنتشر فى المدن المحيطة، ثم اليأس من النجدة فأميـرهم القاضى إبن عمار أطمأن لصداقته للفرنج، وأضطر الجيش الصليبى إلى رفع الحصار عن عرقه بعـد أربعة أشهر من الفشل فى أقتحام أسوار المدينة بالرغم من إكتمال الجيش الصليبى بعد وصول جودفرى وروبرت كونت فلاندرز ،

ولم يكتوى المسلمون فقط بنيران الصليبيين، بل أكتوى البيزنطيين بنيرانهم الصديقة، فقط هاجم القرصان نيمار مدينة اللاذقية المدينة الوحيدة بالشام التابعة لبيزنطة، ليسقط فى أسر حاكم المدينة البيزنطى ليقوم جودفرى بمظاهرة عسكرية تحت أسوار اللاذقية يجبر من خلالها حاكمها بإطلاق سراح القرصان الأسير، الذى سيوفـر دعم بحرى محدود بأسطوله إثناء زحف الجيش اللاتينى ،

وبالرغم من إستيلاء الصليبيون على أنطرسوس (طرسوس) ومهاجمة عرقة التابعتين لأمارة طرابلس فما أن أقترب الجيش الصليبى من طرابلس حتى سارع أميرها أبن عمار بشراء أمان عاصمته لفترة من الوقت بخمسة عشر ألف بيزنطة[36] وخمسة عشر جواد أصيل، وعدد كبير من الحمير، وكما أمد الجيش بكل ما يحتاجه من طعام وشراب ومرشدين للطريق، وهذا نفس النهج الذى أنتهجته بيروت وعكا وأن حاول حاكم صيدا قتالهم ولكن ماذا سيفعل منفرداً،

وأستمر التقدم الصليبى بمعاونة الأنقسام العربى، حتى وصل الجيش الصليبى للرملة المدينة الداخلية، والتى أخلتها حاميتها وسكانها، ومنها سارع تنكريد لأحتلال بيت لحم وأستمر الجيش فى التقدم حتى ظهرت أسوار بيت المقدس فى يوم الثلاثاء الموافق 7يونية1099م، وبالرملة عقد الجيش الصليبى مجلس حـرب لمناقشة الرأى القائل بضرورة البدء بمصر لأن مفاتيح القدس بالقاهرة، فقد أطارت النجاحات التى صادفها الجيش الصليبى فى الشرق عقول قادته وجنوده، وتملكهم الزهو بالنصر الذى صادفوه بتشتت أعداءهم،

[36] عملة ذهبيه بيزنطية

وأنسى البعض منهم المدينة المقدسة وحلموا بالإستيلاء على مصر ليستطيعوا إلتهام الشرق بأكمله، ولكن غلب الرأى المنادى بالبدء بالقدس بسبب ضعف الجيش الصليبى،

ويستمر تقدم الصليبيين بسلاسة بدون أن يصادفوا مقاومة حقيقية، ليستطيع جيش الفرنجة الوصول إلى جنوب الشام ماراً بالعديد من المدن والأمارات والتى تخلى حكامها قصيرو النظر عن خيار القتال والأقتصار على الدفاع عن عروشهم بالخضوع ملقين وراء ظهورهم أى هدف غير ذلك، وظلوا متحصنين خلف حصونهم، ينظرون بإرتياح من أعلى قلاعهم للجيوش التى تمر عرضاً بعيداً عنهم، متناسين إن سيوف الصليبيين التى منحوها حرية الهجوم على القدس سوف تستدير إليهم بعد تحقيق الهدف الذى سوف يجلب المزيد من جنود أوروبا كما أشار تنكريد، فشل العرب فى نسيان خلافاتهم وأن يتحدوا ضد العدو المشترك وفقدوا القدرة على قراءة الموقف قراءة صحيحة بأنهم مجرد أهداف مؤجلة حتى تسمح ظروف أعداءهم، وأن أعداءهم يحاولون صرف نظرهم عن هذه الحقيقة حتى يقابلوهم منفردين،

تحت أسوار القدس

المدينة المقدسة فى الأديان السماوية، أغدقت عليها قدسيتها أهتمام الحكام المختلفين الذين تولوا حكمها على مدار تاريخها، مما متعها بتحصينات قوية تولى بناءها الرومان وزادت مناعتها بما أضافه عليها المسلمون بعد ذلك، وأن كان يعيب القدس عدم وجود مورد مياه داخل أسوارها وكل مصادر المياه بالنسبة لها كانت الأبار القليلة خارج هذه الأسوار، وأن أنتشرت بها خزانات المياه والتى أضلعت بحل جزء من هذه المشكلة، وكان يتولى مسئولية الدفاع عنها فى ذلك الوقت الأمير الفاطمى إفتخار الدولة وتحت قيادته حامية متوسطة العدد من المصريين، وأستعد إفتخار الدولة للحصار بطم الأبار الواقعة خارج الأسوار أو تسميمها، وكما قام بتخزين كميات وفيرة من الطعام إنتظاراً لحصار طويل، وكما قام بتغطيه الأسوار والأبراج بأكياس ضخمة مليئه بالقطن والقش لتخفيف وقع ضربات منجنيقات الجيش المهاجم،

تم توزيع مسئولية الحصار على القادة الصليبيين، ففى الشمال تمركزت قوات روبرت كونت نورماندى فى مواجهة باب يسمى باب الزهور، وإلى جانبه روبرت كونت فلاندرز أمام باب العمود، وفى الشمال الغربى جودفرى دوق

اللورين أمام بوابة يافا، ومعه تنكريد والذى يبدوا أنه عُقد بينهما إتفاق أستعاض تنكريد به عن بوهيمند، وجنوباً ريموند تمركز على جبل صهيون ،

وعانى الصليبيون العطش بعد قيام أفتخار الدولة بإفساد الأبار مما أضطرت معه الفرنجة إلى أرسال فصائل لجلب المياه على مسافة عدة كيلومترات، وقد حاول الصليبيون مهاجمة أسوار المدينة بعد خمسة أيام من وصولهم أمامها آملين الأستيلاء عليها بواسطة هجوم خاطف بعد أن وعدهم قس مسن بالنصر فى خطبة خطبها على جبل الزيتون، ولكن المحاولة فشلت بسبب إفتقارهم لآلات الحصار والتى كانوا يفتقدون مواد بناءها،

وفى السابع عشر من يونيه وصل أسطول جنوى صغير مكون من ست سفن بقيادة أمير البحر الجنوى وليم أمير باكو وشقيقه بريموس، ورسى بمرفأ يافا المهجور، وكان محمل بالطعام والأهم كمية وافرة من المواد المستخدمة فى بناء آلات الحصار، وقام تنكريد وروبرت كونت فلاندرز بقيادة دوريات البحث عن الأخشاب والتى أستطاعوا إمداد الجيش بها، مما وفر المواد اللازمة لبناء الآلات، فصنعت السلالم اللازمه لأقتحام الأسوار، كما تم بناء برج خشبى مزود بمنجنيق ،

وبالرغم من إحتدام الصراع بين الصليبيين على تقسيم ثمرة القدس قبل إقتطافها، فقد حاول تنكريد تأكيد حقه فى بيت لحم فهو من أستولى عليها، ولكن رجال الدين رفضوا ذلك وكما رفضوا فكرة تعيين أمير أو ملك على القدس فقد كان هناك صراع بين رجال الدين والعلمانيين على من تكون له السلطة العليا بالقدس، ولكنهم أستطاعوا تأجيل خلافاتهم لحين نضج الكعكة،

وثارت شائعات عن قرب وصول جيش النجدة من مصر مما ساهم فى بث الرعب فى نفوس الصليبيين وهبوط روحهم المعنوية فتم اللجوء للرؤى كما حدث ونجحت فى أنطاكيا، فشاهد أحد القسس وأسمه بطرس دي زيديريوس، الكاردينال أديمار أسقف لوبوى الراحل وهو يخبره بالخطة الواجب إتباعها والتى كما يبدوا كانت من وضع بشرى، وأخذت وتيرة بناء السلالم والمناجيق تسير بصورة أسرع، مع الحرص على تغطيتها بجلود الحيوانات المضمخة بالخل حتى لا تؤثر فيها النيران الأغريقية التى تستعملها حامية القدس، حتى تم الإنتهاء منها وسحبها إلى الأسوار، وينادى منادى بين جنبات معسكرات الصليبيين بالإستعداد للهجوم فجر الغد بالتجهيزات القتالية الكاملة

(الدروع)[37]، وهاجم الصليبيون بكل شراسة، شراسة الخائف من أن يقع بين جيش النجدة وحامية القدس، وجاهد الصليبيون حتى نجح ريموند فى لصق البرج الخاص به بالسور، وأن لم ينجح فى إيجاد موطئ قدم بالسور بسبب المقاومة البطولية من الجنود المصريين الذين نجحوا فى تحويل برج ريموند لشعلة من النيران، بعد أن قاتلوا ببسالة على مدى خمسة أسابيع، مفضلين إلقاء أنفسهم من الأبراج عن الإستسلام ،

فى الجمعة32شعبان 492هـ/15يوليو1099م بعد ما يزيد عن أربعين يوما من حصار القدس، وفى جهة أخرى كان جودفرى يحقق نجاحات مماثلة وإن أستطاع بعد جهد الإستيلاء على السور الشمالى، بعد إيصال البرج الخاص به لأسوار المدينة، بينما كان جودفرى وأخيه يوستاس بالطبقة العليا من البرج المحصن والمغطى بجلود الحيوانات المسلوخة حديثاً والمغمورة بالخل، وكان معهما العديد من الفرسان ليتقدم فارس أسمه ليتولد ويتبعه أخر أسمه جيلبرت، ثم تدفقت موجات من الفرنجة إلى شوارع القدس بدروعهم الحديدية التى لا تؤثر فيها ضربات أعداءهم، ويتم فتح أبواب المدينة بعد السيطرة على الأسوار، ليرتكبوا مذبحة بالغة القسوة ويقوموا بقتل كل ما يتحرك بالقدس غير مفرقين بين رجال ولا نساء ولا أطفال الجميع قتل، والفرنجة تبكى من سرورها،

مذبحة يصفها وليم الصورى مبتهجاً مشيداً بالعدد الضخم من ضحاياها، مثنياً على الصليبيين الذى أتموا حجهم بالإغتسال بدماء الآلاف من المسلمين بلا أى تأنيب للضمير، "حيث غطت الدماء الأرض، والأشلاء المبعثرة، تثير رؤيتها الفزع فى النفوس، بينما كان منظر الفرنج أكثر فزعاً وقد تخضبت ملابسهم بالدماء من رأسهم لأخمص قدمهم"[38]، وما أن علم أفتخار الدولة بإقتحام دفاعات المدينة حتى سارع بالتوجه إلى برج داود والتحصن به،

حتى الأهالى العزل لم يلاقوا أدنى شفقة، الآلاف منهم فروا بأطفالهم وأسرهم محتمين بالمسجد االأقصى لما له من مكانة وقدسية، ولكن الهوس بالدماء لا يرى إلا القتل طريقاً للفوز بالثواب، فقد أقتفى تنكريد أثرهم برجاله المتعطشين للمزيد من الدماء ليشهد جنبات المسجد مذبحة جديدة حتى تنساب الدماء من أبوابه، بينما تنكريد يتقافز لسرقة القناديل الفضية المعلقة لأنارة

[37] تاريخ وليم الصورى ج1 ص417
[38] الحروب الصليبية ج2ص126

المسجد، وما أن تتردد أنباء عن وجود مسلمين أحياء بالمسجد الأقصى حتى يسارع الصليبيون فى إتجاة المسجد للمشاركة فى ثواب الجريمة،

ويحاول بعض أهالى القدس الهروب بالصعود أعلى قبة المسجد الأقصى "فقد اطلق عليهم السهام وخروا صرعى يتساقطون على رؤوسهم، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص فى الهيكل، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بالدم"[39] على حد وصف أحد شهود العيان من الصليبيين الفخورين بالقتل،

بينما أستولى جنون القتل على الجميع، فمن تربى فى البؤس وتحت عقوبات بدنية لا تنتهى مثل الفلاحين الفرنج إذا ما أتيحت لهم القدرة على غيرهم يكونون فى منتهى القسوة، أنتشروا فى شوارع المدينة يقتلون وينهبون ويسلبون، "ووضعوا السيف فى الأهالى أسبوعاً كاملاً"[40] ليستفيدوا من قانون الغزو عندما أتفق الصليبيون بمباركة رجال الدين بإن أى شخص يستولى على بيت أو أى منشأة فهى تصبح ملكاً خاصاً به، فسارع الجميع ليقتحموا البيوت ليكون القتل نصيب من أحتمى ببيته هو وأسرته ويعلق الصليبى سلاحه بالبيت حتى لا يجور أحد على حقه الأثيم، حتى لم يبق من سكان القدس أحد ولم يرحموا أمرأة ولا طفلاً[41]، ويخربوا المدينة التى يزعمون تبجيلها، وما أن فرغ الصليبيون من مذبحتهم حتى أتجهوا وهم فى منتهى الخشوع للأحتفال بإتمام حجهم وإيديهم تغطيها الدماء إحتفالاً بنوالهم الغفران وما زال يتردد فى القدس آنين القتلى الأبرياء ،

حتى يتشفى مؤرخ لاتينى مجهول مشارك فى الحملة بنتاج كدهم فى قتل الإبرياء "وصدر أمر بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت أن تكون مملوءة بجثثهم، فقام الشرقيون الذين قدر لهم الحياة بسحب القتلى خارج مدينة بيت المقدس وطرحهم أمام الأبواب، وتعالت أكوامهم حتى حازت البيوت إرتفاعاً، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة"[42]

---

39 تاريخ الحملة إلى القدس ص74-75
40 تاريخ الأزمنة ص124
41 تاريخ الحملة إلى القدس ص75
42 أعمال الفرنجة ص120

وتدق أجراس روما إحتفالاً بالإستيلاء على بيت المقدس، بينما البابا أربان الثانى لم يكتب له مشاهدة هذا الإحتفال، فقد مات قبل وصول إنباء القدس مباشرةً ،

دخل الصليبيون القدس وحققوا ما خرجوا من أجله بسبب المساعدات القيمة التى تلقوها من حكام الشرق والتى تجاوزت ما منحه الغرب لهم، وعقب إقتحام المدينة حدثت مذبحة لمدة ثلاثة أيام بالمدينة راح ضحيتها جميع من كان فى القدس، ولم ترحم أمرأه ولا طفل ولا شيخ الجميع قتل، إلا من تحصن ببرج داود، أفتخار الدولة وحرسه، الذين سمح لهم بمغادرة القدس فى مقابل تسليم البرج،

حتى أن الجنود الصليبيون خاضوا فى دماء ضحاياهم التى غطت كعوبهم، وواجه من أراد التجول فى شوارع القدس مشكلة البحث عن موطئ لقدمه خالى من جثث ضحاياه،

شوارع القدس التى لم يجد الجيش المقدس ما يزينها به إلا جثث الأبرياء بعد أن نهلوا من دماءهم، التى أصبح الدم المسفوك مخيفاً حتى أن المنتصرين أنفسهم ساورهم الأحساس بالخوف وشعروا بالتقزز[43]، ليمر أهالى القدس بنهاية مفجعة مأساوية، ويدمر الحجاج المدينة التى يزعمون تقديسها، وكان أول إجراء قام به الصليبيون هو طرد جميع الكهنة الشرقيين التابعين فى المجمل للدولة البيزنطية من كنيسة القيامة وإقتصار الصلاة بها تبعاً للطقس الغربى، وهو إجراء لم يقم به أى من حكام القدس المسلمين،

القدس وأنطاكيا لم يكونا الضحية الأولى للصليبيين بل سبقتهما مدن أوروبية أوقعها حظها التعس فى طريق الجيش المقدس الذى لم يستطع التفرقة بين المسلمين والمسيحيين، فالجيش المقدس ترك طريق طويل فى أوروبا وأسيا مرصع بجثث الاف الضحايا ومئات من القرى والمدن المدمرة المتعالى منها أعمدة الدخان ،

[43] الحروب الصليبية ج2ص126

رسم تخيلى لجودفرى وعلى رأسه تاج من الشوك

وما أن يستقر الصليبيون بالقدس حتى تطفو على السطح مشكلة لمن تكون السيطرة على القدس، القوى الدينية أم القوى العلمانية، ففراغ منصب المندوب البابوى بموت أديمار أحدث أضطراب، فالكاردينال إديمار الوحيد الذى كان من الممكن أن ينول إجماع الجميع لتولى السلطة العليا ببيت المقدس، فى الوقت الذى ازداد فيه نفوذ الأمراء الدنيويين بسبب دورهم المؤثر فى الإستيلاء على القدس، ويضاف لذلك إستشعار الصليبيون لأهمية القوة العسكرية فى حياة الدولة الوليدة، مما رجح كفة ذهاب السلطة العليا فى القدس لقائد عسكرى محترف، وهذا ما حاول رجال الدين مقاومته ورفض تنصيب ملك على المدينة التى شهدت حياة السيد المسيح (عليه السلام)، بل أرادوا تكوين حكومة ثيوقراط (دينية) تكون السلطة العليا فيها للبطريرك كممثل للبابا بروما، أليس أول من دعا للحملة هو البابا؟، وكذلك قد سبق

ورفض البابا تنصيب قائد علمانى للحملة، بل أسند قيادتها لمندوب عنه وهو إديمار، ولكن وضع القدس والدولة الوليدة المحاطة بالأعداء حسم الأمر للقوة العسكرية ولكن لمن تكون السلطة، ريموند، أم روبرت كونت فلاندرز، أم روبرت كونت نورماندى، أم جودفرى، فهم كل من بقى من كبار الأمراء .

ساهم روبرت كونت نورماندى وروبرت كونت فلاندرز فى حل بعض المشكلة بقرارهما العودة لأوروبا، يبقى ريموند وجودفرى، ويتكفل غرور ريموند وتسلطه، وضعف جودفرى لحل المشكلة وحسم الأختيار، ليذهب المنصب لجودفرى، الذى إنتشرت أسطورة بإنه مولود من بجعة[44]، والمفتقد لأى قدرات سياسية أو إدارية، بينما قدراته العسكرية متواضعة، وأن أدى منحه لبطريرك القدس ملكية حى المسيحيين بالقدس ملكية كاملة للكنيسة، إلى رفعه سريعاً أعلى سلطة القدس، ويحمل لقب حامى القبر المقدس لعدم إكتمال شكل الدولة إينذاك، ولإتقاء معارضة رجال الدين الرافضين تنصيب ملك لبيت المقدس، تاركاً هذه الخطوة ليخطوها أخيه وخليفته بلدوين بعد ذلك،

ثم يهيم ريموند فى الشام باحثاً عن موطئ قدم لينشأ أمارته المنشوده بعد أن خسر كل ما أمل فيه، فلا هو أصبح القائد العام للحملة كما تمنى ولا هو أصبح صاحب بيت المقدس، ليستدير لحلفاءه القدامى آل عمار أصحاب طرابلس لحل مشكلته المستعصية، فليس أجدر من آل عمار لحل هذه المشكلة فهم حلفاءه قبل كل شئ، فقام ريموند بالإستيلاء على اللاذقية تاركاً مهمة الإستيلاء على كافة ممتلكات آل عمار ومحو أمارتهم بطرابلس تماماً لتحل محلها كونتية طرابلس لأبنه وخليفته برتراند، بهذا يصبح شرق البحر المتوسط بالكامل تحت سيطرة الصليبيين، لتتغير خريطة الشرق تماماً ويدخل عنصر جديد مغتصب على موازين القوى بالمنطقة لحوالى ثلاثة قرون ويستمر أحتكاكهم بالشرق حتى بعد طردهم تماماً من الشام لفترة ليست بالقصيرة، وبعد تطهير الساحل الشامى والشرق من الأحتلال الصليبى يجد الشرق نفسه وقد أجهد تماماً وأستنفزت طاقاته فى هذه الحروب الطويلة والدائرة كلها على أرضه، بينما الغرب أستفاد أينما أستفادة بسبب إحتكاكه بحضارة متقدمه بمراحل عن حضارته البالغة الأنحدار مما يساهم وبشكل مباشر فى النهضة التى شهدها الغرب فى نهايات العصور الوسطى ، بينما تنفست القسطنطينية الصعداء لإختفاء أعداءها السلاجقة، فقد أستطاع

44 الحروب الصليبية ج2 ص154

الصليبيون إضعاف الجيش السلجوقى وإبعاد خطره عن البيزنطيين إلى حين، مما سمح لبيزنطة بإستعادة بعض أراضيها بأسيا الصغرى، وكما تمكنت من المناورة بقواتها وإرسال جزء كبير منها لفرض سيطرتها على سواحل بحر إيجة ،

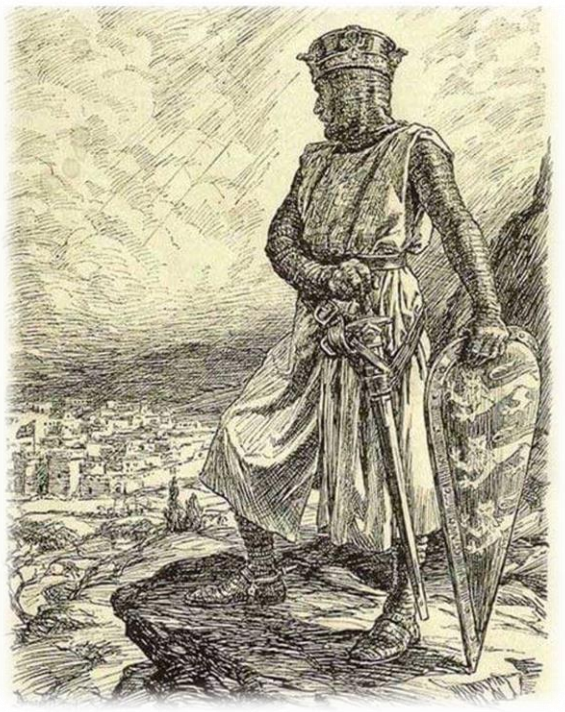

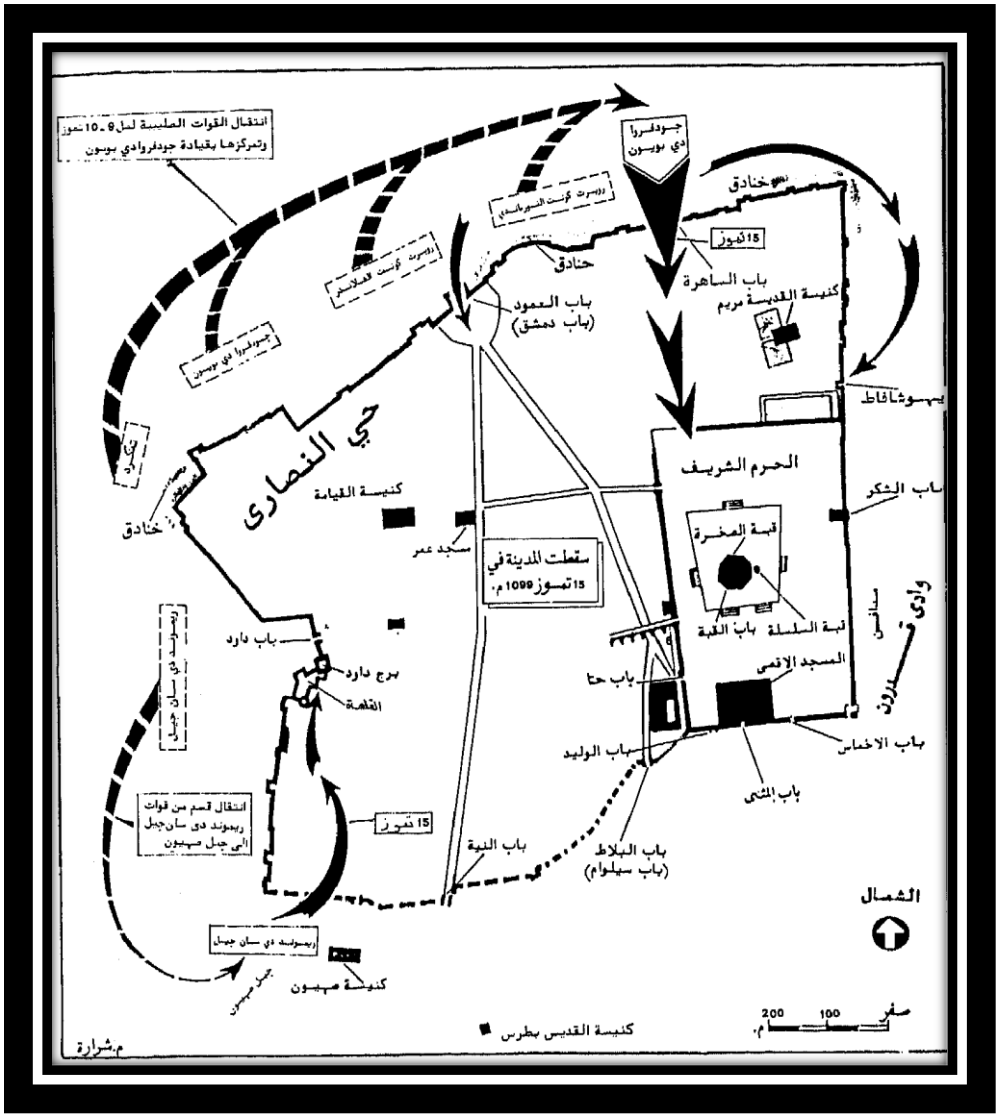

إقتحام الصليبيين للقدس

درع فارس مسلم

"ولدت الكيانات الصليبية عرجاء،

فقد أخفق الكيان الصليبى فى إحداث

نوع من الإندماج الإجتماعى بين عناصر

سكانه ذوى الأصول المختلفة"

كما مر علينا فى الفصل السابق رأينا كيف أستطاع شرذمة من الأوروبيين إقتطاع جزء عزيز من شرقنا العربى مكونين أربعة كيانات غربية على أرضنا ـ مملكة بيت المقدس، كونتية طرابلس، أمارة أنطاكيا، كونتية الرها ـ فى 1099م، بعد إرتكابهم جرائم تطهير عرقى فى جميع الأماكن التى شاء سوء حظها مرور هؤلاء البرابرة عليها مخلفين لوحة دموية مليئة بجثث أبرياء كل جريمتهم أنهم حلموا بحياة آمنة على أراضيهم وأراضى أجدادهم، كل هذه ليس لقوة الصليبيين بقدر ما كان بسبب ضعف وتفرق العرب، مما أصاب المسلمين بضربة موجعة لم يصابوا بمثلها من قبل.

بالرغم من أن الفرنج كانوا بعيدين عن الكثرة العددية إلا أن تسليحهم الجيد والمتمثل فى وسائل الحماية التى تمتع بها فرسانهم ومشاتهم على حداً سواء، وإتحادهم الذى ما أن أنفرط هذا الإتحاد حتى إنهار هذا الصرح الذى شيدوه، والمسلمون بالرغم من أنهم أكثر فى القوى البشرية والقدرة العسكرية، إلا إن الفرقة والتشرذم الذى سيطر عليهم أمال ميزان القوى لصالح الفرنج،

نظام الحكم الصليبى

نقل الصليبيون نفس النظم الإقطاعية المطبقة فى أوروبا وخصوصاً فرنسا، حيث أنه النظام السياسى الوحيد الذى يعرفه الغرب إينذاك، وإن أختلفت نظمهم السياسية والحياتية لإختلاف المدن والأقاليم التى جاء منها أفراد الحملة الأولى،

بالنسبة لمملكة بيت المقدس كان أسم عاصمتها (القدس) المهيب يضفى رونق عليها الأمر الذى منح حاكمها لقب الملك، مما أعطاه بعض السلطة على باقى الكيانات الصليبية، وأن كانت ليست سلطة قوية مطلقة، بل أقرب ما تكون لإتحاد كونفدرالى، وتزيد هذه السلطة أو تنقص تبعاً لشخصية الجالس على عرش بيت المقدس،

وكأى قوة إحتلال نُظمت الكيانات الصليبية والمجتمع من أجل الحرب، ويفترض أن تولّى منصب ملك بيت المقدس يكون إنتخابى، وإن لم يُلتزم بهذا الشرط، وكان ملك بيت المقدس هو القائد الأعلى للجيش، حيث يقوده خلال المعارك ويرفرف فوق رأسه الراية الملكية البيضاء الموسوم بها أربعة صلبان حمراء فى جوانبها علاوة على صليب أحمر كبير بوسطها،

ويعتبر الملك أمير أول بين بارونات وليس له عليهم سلطة مطلقة، ويقسم الملك خلال حفل تتويجه على المحافظة على أملاك الكنيسة ومعاونة البطريرك وإطاعته[1]، ولم يمارس الملك سلطته مباشرة إلا فى مدن عكا وصور ونابلس والقدس، أما باقى مدن المملكة فكانت تدار من قبل البارونات والكونتات حائزى الإقطاعات،

والملك مطالب بعدم إتخاذ قرار إلا بعد مشورة أمراءه، كما لا يحق له عزل أمير من إقطاعه إلا بقرار من المحكمة العليا، التى كانت تتألف من كبار بارونات المملكة وممثلى هيئتى الهيكل والإسبتارية، بالإضافى عن ممثلين عن رعايا المدن التجارية الإيطالية، تحت رئاسة الملك، وتضطلع بالقضايا المختصة بالنبلاء، ولا يمكن لأى مرسوم ملكى أن يصبح قانونياً إلا بموافقتها، الأمر الذى منحها سلطة تشريعية، والتى كانت تختلف عن المحكمة البرجوازية والتى كانت تختص بالفصل بين الأحرار من طبقة العامة البرجوازية الوسطى من الفرنج، والتى كان يرأسها فيكونت المدينة[2] وهو ممثل الملك، يعاونه أثنى عشر محلفاً من اللاتين الذين ولدوا أحرار، ويتم إختيارهم فى الغالب من البروفانسيين، ويستطيع المتهم إختيار أحد هؤلاء المحلفين ليقوم بدور المحامى بالدفاع عنه، بشرط عدم تدخله فى إصدار الحكم، وتعقد المحكمة البورجوازية أيام الأثنين والأربعاء والجمعة أسبوعياً، عدا ايام العطلات والإحتفالات العامة والحروب،

ونظراً لزيادة نفوذ الجاليات الإيطالية فى الشرق، ولما تتمتع به من حكم ذاتى فى أحياءها التى خصصت لها نظير دورها فى إحتلال المدن الساحلية،

[1] قسم التتويج الملكى ، أننى من الأن فصاعداً أكون خير عون مخلص لك (البطريرك) وسوف أدافع عنك ضد كل من يناصبك العداء فى أنحاء المملكة الصليبية ، وأننى سوف أحترم قوانين المملكة وأصون قوانيين هؤلاء الملوك الصليبيين السابقين الذين هم أجدادى ذوى الذكرى الخالده المباركه

[2] حاكم المدينة وهو منصب غير وراثى

والنشاط التجارى المتنامى بسبب موقع الشرق المتحكم فى التجارة العالمية، تم تشكيل محكمة الموانئ، والتى أتخذت قوانين مدينة أمالفى نموذجاً لها، وكانت تختص بالقضايا التجارية، والقضايا بين أبناء الجالية الإيطالية بعضهم البعض أوبينهم وبين باقى الصليبيين، وكانت تعقد فى الحى الإيطالى من كل مدينة، ويترأسها القنصل الإيطالى،

وتم تنظيم السلطة القضائية على أساس قوانين "الأسيس" الشهيرة، وهى مجموعة من القوانين الفرنسية فى الغالب بالإضافة لبعض الأعراف المنتشرة فى أوروبا مضافاً للتشريع الرومانى، تم تجميعها بناء على طلب الملك بلدوين الأول،

ويحتفظ الملك بإقطاع ممتاز[3] مكون من مدينة القدس، بإراداتها من عوائد الحجاج المتدفقين من أوروبا، ونابلس الشهيرة بخصوبة أراضيها، وعكا وصور أكبر ميناءى بالشام، وأضيف للدومين يافا وعسقلان والعديد من القلاع الداخلية، ويتبع الملك قوات مشاة (سرجندية) تبلغ 5025 جندى،

ويلى الملك فى السلم الأقطاعى أربعة بارونات وهم أمراء الجليل ويافا وصيدا، على كل منهم تقديم مائة فارس فى خدمة الملك أثناء المعارك، ولورد شرق الأردن الذى عليه تقديم ستين فارساً، وعلى كل مدينة من مدن الملك تقديم عدد معين من الفرسان ثقيلى العدة، فالقدس عليها تقديم واحد وستين فارسا كامل العدة، ونابلس خمسة وسبعين فارساً، وعكا ثمانين فارساً، من النبلاء قاطنى هذه المدن، وأدى كثرة إيرادات الملك من الأعمال الإقتصادية الخدمية بسبب سيطرته على العديد من المدن التجارية الواقعة على الساحل الشامى، التى أتاح لها موقعها إدارة نسبة كبيرة من الأعمال التجارية بين الشرق والغرب، كل هذا دفع إلى وجود نظام الإقطاع النقدى، الذى لم يشهده الغرب، وذلك بتعيين فرسان فى خدمة الملك مقابل رواتب نقدية ،

وخضع النبلاء لقانون يجيز مصادرة أملاكهم فى حالة إرتكاب جرائم مثل التخلى عن ميناء بحرى للعدو، أو إقامة طريق تجارى مع المسلمين، أو تزييف العملة الملكية، أو تحريض الفلاحين ضد الملك، أو الهجوم على الملك أو العائلة الملكية ،

[3] الدومين الملكى

يلي هؤلاء البارونات الأربعة، حكام مدن المملكة المختلفة وعددهم أثنى عشرة أميراً، كأمير قيسارية وتبنين وسيد أبلين[4] وغيرهم، ويتبع الملك أمراء مرتبطين بيمين الخدمة الإقطاعية وهم كونت طرابلس، وكونت بيروت، وكونت صيدا، وسيد حيفا، وسيد قيسارية، وسيد طبرية، وكونت يافا وعسقلان[5]، وكونت مونتريال والأراضى الواقعة فيما وراء نهر الأردن[6]، وسيد أرسوف، وسيد أبلين[7]

وتمثلت السلطة التشريعية فى المحكمة العليا (البرلمان) والتى تتكون من أربعين نبيلاً من أصحاب الإقطاعات الكبرى، وتعقد إجتماعاتها تحت رئاسة الملك للمشاورة فى القرارات الهامة، وأن أُعتبر رأيها إستشارياً، وقد أجتمعت المحكمة عام 1123م لبحث أى المدن أولى بالحصار، عسقلان أم صور وعندما لم تحصل أغلبية تم الإلتجاء للقرعة بترك صبى يسحب ورقة عليها أسم المدينة تعيسة الحظ، كما أن المحكمة العليا هى من قامت بإستدعاء بلدوين الأول 1100م لخلافة أخيه جودفرى بالرغم من معارضه تنكريد والبطريرك، كما قامت المحكمة العليا بإستدعاء بلدوين الثانى لخلافة أبن عمه بلدوين الأول، كما قامت المحكمة العليا بإجبار آمورى بالأنفصال عن زوجته 1162م للأعتراف به ملكاً على بيت المقدس، كما قامت المحكمة العليا بدور قضائى بين بارونات المملكة،

كما أمتلكت كل إقطاعية محكمة خاصة كالمحكمة العليا تضم أفصال سيد الإقطاعية، ومن إختصاصات محاكم الإقطاعيات الخاصة تنظيم الأسواق ومراقبة الأسعار ونظافة المدينة بما يقارب إختصاصات المحتسب[8] فى المدن الإسلامية بما يبين تأثر الصليبيين بنظم الحكم الإسلامية ،

وقد حرص ملوك بيت المقدس على تحجيم نفوذ النبلاء وهو ما فشلوا فيه، ليزداد نفوذ بارونات المملكة وخصوصاً أثناء فترة حكم بلدوين الرابع المجذوم، حتى أجبر النبلاء الملوك الصليبيين على القسم بإحترام الإمتيازات والحريات التى تم منحها للنبلاء من الملوك السابقين،

---

[4] رسائل جاك دى فيترى ص188

[5] وكان هذا المنصب مختص بولى عهد المملكة

[6] أمير قلعة الكرك

[7] تاريخ بيت المقدس ص62

[8] وظيفة إسلامية ويقوم متوليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الأسواق والأسعار والتأكد من مراعاة الإجراءات الصحية أثناء إعداد وبيع المأكولات ، والتأكد من دقة الموازين

وتأرجحت العلاقة بين الملك وباروناته متأثره بقوة الجالس على العرش، وأن شهد عصر الملوك المولودين بالشرق تنامى قوة الإقطاع، منذ عهد بلدوين الثالث أول من ولد بالشرق من ملوك بيت المقدس، ففى عهده شب نزاع بينه وبين جيرارد أمير صيدا الذى لم يعر ملك بيت المقدس أدنى إهتمام وقام بتشكيل أسطول بمدينته وأستغله فى الأعمال القرصانية والتى أختصت بسلب السفن الناقله للحجاج القادمين من أوروبا، لتصل أصوات شكواهم لبيت المقدس، فتنعقد المحكمة العليا وتصدر حكمها بطرد الأمير القرصان من بارونيته، لينقل جيرارد نشاطه الإجرامى إلى أمارة أنطاكيا، لكن نصيبه هناك لم يكن أفضل منه ببيت المقدس، فلم يجد جيرارد إلا نور الدين محمود والذى فتح ذراعيه له، ويشترك جيرارد فى الكثير من المعارك فى صف نورالدين ضد الصليبيين، الأمر الذى حفز الصليبيين على البحث عنه حتى تسنى لهم القبض عليه وإعدامه حرقاً،

ويساعد الملك كندأصطبل (كونستابل) المملكة وهو قائد الجيش ويعاونه المارشال (نائب قائد الجيش)، ويشرف الكونستابل على القوات العسكرية للمملكة ومعداتها والتحقق من نسبة الخدمة العسكرية المستحقة على الأفصال التابعين للملك، كما يفصل فى المنازعات أثناء الحملات العسكرية كما يشرف على القوات المرتزقة المستأجرة بمعرفة الملك ونبلاءه، أما المارشال فيشرف على خيول الفرسان وإستبدال الفاقد منها بسبب العمليات العسكرية ويشرف على توزيع الغنائم وخصوصاً الخيول منها،

والياور (الحاجب) وهو من يشرف على قصر الملك، وعلى عمليات قسم التبعية الإقطاعية التى يقسمها البارونات للملك، وهو أقرب كبار الحاشية من الملك، والسنشال وهو من يشرف على الخزينة والشئون المالية، والتشامبرلين وهو المشرف على دخل ومصروفات الملك، والقهرمان وهو من يتولى الإشراف على القلاع وإمداد حاميات القلاع بإحتياجاتها وعلى جباية الضرائب ويترأس المحمكة العليا نيابة عن الملك إلا فى حالة نظر القضايا الإقطاعية، ويضاف لهؤلاء الأسقف ويتولى فض المنازعات التى قد تحدث بين رجال البلاط، والفيكونت (الفيسكونت) وكان يتولى رئاسة المدينة ويرأس المحكمة البورجوازية، ويتولى حفظ الأمن بواسطة قوات شرطية، ويتشابه بلاط طرابلس وأنطاكيا والرها مع النظم المطبقة فى بيت المقدس مع بعض الأختلافات المحلية البسيطة،

ونالت الكنيسة نصيب وافر فى دولة الصليبيين، فقد تم إنشاء خمسة أبرشيات وتسعة أسقفيات، والعديد من الأديرة والمنظمات المرتبطة بالكنيسة وأصبحت الكنيسة من أكبر الإقطاعيين بالشرق، كما نالت الكنيسة ومؤسساتها مساحات شاسعة من الأراضى والضياع الزراعية، وأصبح لدى الكنيسة العديد من الفرسان التابعين تبعية إقطاعية لها ،

وقد تم تقسيم مملكة بيت المقدس إلى عدة تقسيمات كنسية، أسقفية بيت المقدس برئاسة البطريرك، وأربعة أسقفيات أخرى بقيسارية والناصرة وصور والبتراء،

ولم يكن الإيمان يكفى لإطعام رجال الدين، ومهما كان إعجابهم بملذات الجنة، فإنهم كانوا لا يكرهون أن يتبعوا الطرق الأكثر راحة التى تؤدى إليها أو بعيداً عنها، فقد تمتع رجال الأكليرك بمملكة بيت المقدس بثراء فاحش، أنتقده أسقف عكا جاك الفيترى بقوله "لقد أصبحوا بمثابة أبقار تسمن على جبال السامرة، وأهتموا بأجسادهم دون أرواحهم، واصبحوا أغنياء من فقر المسيح، ومن تواضع المسيح أصبحوا متغطرسين، وأصبحوا مستبدين من ميراث المسيح، وهذا يتناقض مع مقولة الرب لبطرس إذ قال الرب لبطرس أطعم شعبى ورعيتى[9] ولم يقل جز صوف شعبى ورعيتى"[10]

والملفت للنظر أن المملكة اللاتينية ببيت المقدس والتى إقيمت بدعوة باباوية عانت السلطة الكنسية بها من تسلط النفوذ العلمانى المتمثل فى الملك، بشكل لم تشهده السلطة الكنسية بأوروبا، فقد نال ملك بيت المقدس الحق فى إختيار وتعيين الأساقفة، بل نال الملك الحق فى إختيار البطريرك من الأسماء المرشحة التى تعرض عليه، تلك الأسماء التى تدخل النبلاء كثيراً فى إختيارها ،

وأنتشرت ظاهرة موت الرجال اللاتين بالشرق فى سن مبكرة، سواء بسبب الحروب أو بدائية الحياة الصحية لديهم، أو بسبب مباذل الإنحلال الأخلاقى الذى سقطوا فيه، والتى دفعت جاك دى فيترى مطران عكا إلى الكتابة لرعيته "من بين البولين[11] يندر أن تجد واحد من بين ألف يأخذ زواجه مأخذ الجد،

[9] يوحنا 17-21
[10] رسائل جاك دى فيترى ص221
[11] البولان هم الصليبيون المولودون بالشرق

إنهم لا ينظرون إلى الزنا بإعتباره خطيئة كبرى، فهم مدللون منذ صغرهم، ويندفعون فى موج اللذائذ العارضة، وعاشوا حياة التخنث، وأعتادوا على الإستحمام بدلاً من القتال، وكانوا مسرفين فى حياة الخلاعة والدعارة، ثم أنهم غير معتادون على سماع كلمة الله، التى ينظرون إليها بإستخفاف، وأثروا ثراء فاحش، وفى أكثر الأحيان يقتل الناس هنا وهناك سراً وعلانية، بالليل والنهار، وفى المدينة هناك باعة السموم والمهلكات، كما أن فيها الكثير من المومسات وبيوت الدعارة، وصارت بيوت المومسات مكتظة"[12] "كانت عكا حافلة ببيوت الدعارة، ولما كانت البغايا يدفعن إيجارات عالية للمنازل، فإن رجال الدين إيضاً يقومون بتأجير منازلهم لهن"[13] "وهكذا فإن هؤلاء الأشرار دنسوا هذه الأماكن المقدسة"[14] "ولقد تأثر هؤلاء بالعادات الشرقية إذ كانوا شديدى الغيرة على زوجاتهم!، وكانوا يسمحون لزوجاتهم بالذهاب إلى الحمامات ثلاثة مرات أسبوعياً فى حراسة مشددة"[15]

وكما سيطر على المجتمع اللاتينى بالشرق إنحلال أخلاقى ونشطت بنات الهوى القادمات من أوروربا، كما إنتشر إدمان المقامرة ولعب النرد حتى بين ملوك بيت المقدس ونبلاءهم، حتى أصبحت الدعارة وبنات الهوى من المرافقين الأساسيين لجميع الجيوش الصليبية، لدرجة رفض فرسان جان دى برين خلال حملته على مصر مغادرة معسكرهم بدمياط حتى لا يتركوا بنات الهوى بلا عمل، الأمر الذى دفع جوانفيل مؤرخ حملة لويس التاسع التأكيد على نومه وخيمته مفتوحة الأطناب خشية أن يظن أحد أن معه فتاة ليل،

وقد كانت إستعادة المسلمون مساحات واسعة من الأراضى المحتلة، وكذلك الأعمال التعرضية التى قامت بها القوات الإسلامية والتى نتج عنها تدمير مساحات واسعة من الأراضى الزراعية التى كانت تمثل عصب الإقتصاد الصليبى، والجشع وأحلام الثراء السريع، الأسباب الرئيسية فى تفشى البطالة داخل المجتمع الصليبى، الأمر الذى أدى إلى البحث عن أعمال أكثر راحة وربحية، لتنتشر البغايا وبيوت الدعارة، لدرجة إشتهار شارع الحمراء بمدينة عكا بهذا النشاط المذموم،

[12] رسائل جاك دى فيترى ص220
[13] مقاتلون فى سبيل الله 39
[14] رسائل جاك دى فيترى ص221
[15] رسائل جاك دى فيترى ص227

كما كان من نتاج تفشى البطالة فى المجتمع الصليبى إنتشار الرشوة وشراء المناصب العليا، حتى أصبحت الرشوة هى الطريق الوحيد للوصول إلى المناصب الهامة فى الإدارة الصليبية، وغدت الكفاءة والجدارة لا وجود لها فى مسوغات شغل الوظائف،

كما أنتشرت ظاهرة إنتقال الإقطاعيات بين أيدى الباحثين عن الإرتباط بالأرامل، ولعل أشهرهم رينو دى شاتيون، الذى تولى أمارة أنطاكيا ومن بعدها بارونية الكرك بسبب زواجه من وارثتيهما على التوالى، ونفس الحال بالنسبة لمملكة بيت المقدس التى عانت من وصاية نسائية فى أخريات عمرها، من الملكة ميسلندا بنت بلدوين الثانى أرملة الملك فولك، القادم من فرنسا لعرش المملكة بزواجه منها، ونفس الحال للملك جى أسير صلاح الدين بمعركة حطين والذى أعتلى العرش بزواجه من سيبيل وريثة اللقب الملكى، حتى تداول عرش بيت المقدس أمراء من القادمين من الغرب الغير مرحب بهم بالشرق عن طريق زواج المصلحة، وقد كان رينو وجى من أكبر الكوارث التى سقطت فوق رؤوس الصليبيين،

فرسان ومشاة

ومَثّل الفارس المدرع ثقيل العدة عصب النظام العسكرى الصليبى، وكما فى الغرب كان يشترط أن ينمتى الفارس لطبقة النبلاء، "والفرنج لا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان"[16] ونظراً لمحدودية الأراضى الزراعية المتاحة للملك ليتصرف بها كإقطاعات، تميز الإقطاع الصليبى بمحدودية الأراضى التى يحصل عليها الفارس، حتى شهد الإقطاع الصليبى حدثين جديدين وهما الإقطاع الصغير الذى يكفى فارس منفرداً، بمنح الفارس إقطاع يدر مبلغ صغير يكفى مصروفاته الخاصة ويستطيع من خلاله توفير أسلحته وفرس له، وثانيهما هو الإقطاع النقدى أو العينى والذى يعتمد فيه الفارس على سيده الإقطاعى الأعلى الذى يوفر له سبل العيش بنقدِه راتب سنوى يتم الإتفاق عليه، وفى المعتاد كان هذا الراتب من الضألة ما كان يكاد يكفى إحتياجاته اليومية، إذا ما كان الفارس أعزب، أما الفارس المتزوج فكان عليه زياده إعتماده على سيده، وكلاهما يبحث عن مصدر دخل أخر هام وهو غنائم المعارك الحربية والنهب وقطع الطرق،

[16] الإعتبار ص64

وكان يُمنح الفارس اربعة جياد، ومائتى بيزنط ذهبى[17] فى السنة، وخمسين ميكيال من الذرة، وعشرين ميكيال من الشعير وعشرة مكاييل من الفول[18]، وخمسين مكيال من الزيت،

وأدى إختلاف البنية الإقتصادية للشرق الأدنى عنه فى الغرب إلى إختلاف شكل الإقطاعيات، ففى الغرب المعتمد بشكل أساسى على القرية والإقتصاد الأولّى المتمثل فى الزراعة أعتمد الإقطاعى على الأراضى الزراعية فقط التى يمثل مركزها قلعة الكونت، أما فى الشرق المتقدم حضارياً والمرصع بمدن كبيرة تزخر بالصناعات والإنشطة التجارية، مثلت المدينة المركز الرئيس للإدارة الصليبية، الأمر الذى فرض على سيد المدينة توفير أعداد معينة من الفرسان المدرعين والمشاة لخدمة البيت الملكى،

وتم بناء الجيوش الصليبية على طبقة وراثية من المحاربين (الفرسان النبلاء) الذين مثلوا العمود الفقرى للمجتمع الصليبى، وهم محاربون يؤدون خدمات حربية مقابل إقطاع، الأمر الذى فرض على هذه الطبقة للحفاظ على كيانها وإستمرار سيادتها، القيام بمهمة مزدوجة، وهى التوسع والدفاع،

وقد تطلب القضاء على الفارس الصليبى عمليات معقدة بسبب وسائل الحماية التى كانت توفر له ـ مادام على متن جواده ـ حماية كبيرة من أسلحة أعداءه سواء المقذوفة أو أسلحة الضرب، فلهذا كان يجب دفع الفارس للترّجّل وذلك بقتل جواده أولاً، وهو الأمر الذى تنبه له الصليبيون فعملوا على توفير حماية لجيادهم بأسلوبين، أولهما تخصيص نصيب من وسائل الحماية الصناعية لجيادهم بتغطية الأعضاء القاتلة للجواد بأجزاء معدنية وزرد، والأسلوب الثانى بإحاطة الفرسان اثناء الزحف والمراحل الأولية من المعارك بقوات نبّالة مترجّلة، لإبعاد فرسان المسلمين بنبالهم للحدود الأمنة التى لا تستطيع نبال المسلمين إصابة فرسان الفرنجة، حتى اللحظة المناسبة للهجوم الصليبى فيفتح المشاة الفرنج ممرات فى نطاق الأمان الذى وفروه لفرسانهم، فيخرج فرسان الفرنج مهاجمين فرسان المسلمين ،

بينما أعتمدت الإستراتيجية القتالية الصليبية على ثقل التسليح الذى يتيح درجة عالية جداً من الحماية للمقاتل الصليبى، ويهاجم الفرسان الفرنج صفاً واحداً

17 عملة بيزنطية

18 يستخدم الشعير والفول كعلف للجياد

من الحديد الذى لايؤثر فيه ضربات أعداءهم، بينما ضرباتهم مميته فكان يجب حرمان الصليبيين من وسيلة هجومهم بقتل خيول فرسانهم ،

وإن سيطر على الفارس الصليبى الغرور والنرجسية، فلم يكن هناك ما يجبر فارس نبيل متغطرس على إتباع ما يؤُمر به، الأمر الذى يدفعه للتهور القاتل البعيد عن أى نظم عسكرية، ففى المراحل الأولى من القتال يكون الفارس الصليبى عضو بوحدة عسكرية، وبعد الصدام الأول يغيب عن ذهنه هذه الوحدة ويقاتل من أجل الدفاع عن نفسه ومن أجل حب الظهور ،

أما المشاة فقد تكفلت الطبقة الوسطى بتوفيرهم للجيش اللاتينى، فنسبة ضخمة من أفراد الحملة الأولى كانوا من الفلاحين وأقنان الأرض، الذين أرتبطوا بسيدهم الأقطاعى فى الغرب برباط أقرب للعبودية، وما أن تلقوا الدعوة للحرب بالشرق حتى خلعوا قيود العبودية والقنية، وسارعوا بالسفر بدون ترحيب من البابا، ولم يملك سيدهم الإقطاعى القدرة على منعهم، ونظرياً كان ينظر لجميع المشاركين بالحملة على أنهم أحرار، وأدى نجاح الحملة فى تحقيق هدفها إلى خلخلة البنية السكانية لجنوب الشام، بعد تفريغ مناطق كبيرة من سكانها الإصليين، مما فتح مجال لفوز العديد من أقنان الغرب حسب قانون الغزو بإمتلاك أراضى بالشرق، مما حول عبيد الأمس إلى أسياد، الأمر الذى منحهم مهن أكثر راحة وربحية ولمعاناً، وكذلك أتاحت لهم الثروات والأملاك التى أستولوا عليها بقانون الغزو ثراء بعد فقر، الأمر الذى أنشأ الطبقة الوسطى أو البورجوازية، التى تغذى جيوشهم بالجنود المترجلين، وعمل البرجوازيون بجانب الزراعة بكافة المهن التى يحتاجها سكان المدن، فالعديد منهم أمتهن الصناعة والأعمال الخدمية، والتجارة، وكانت الأماكن التى تقدم الأطعمة الجاهزة تعتبر ذات أرباح وإقبال فى مدن العديد من سكانها مهاجرين، كما أمتهنت العديد من الأوربيات مهنة الدعارة التى كانت تدر عليهن أرباح خيالية، كما أنتشرت الخمارات التى كانت تتم فيها أيضا المقامرة بالنرد، التى أقبل عليها القادمين للشرق من أجل التوبة والحج للأماكن المقدسة،

الفرق بين وضع القن فى أوروبا ووضعه بالشرق كفرق السماء عن الأرض، فإخلاء مدن كاملة بالشرق من سكانها الأصليين أتاح لهم فرص تملك عقارات لم يكونوا يحلمون بجزء منها، ولا ريب لم يعد أحد منهم للغرب، وأن كان العدد الذى وصل منهم للشرق نسبة ضئيلة من العدد الذى

خرج من الغرب، بسبب بدائية تسليحهم وتدريبهم، وعدم إهتمام زعمائهم النبلاء بأمرهم، والفقر والعوز الى رافقهم فى رحلتهم،

وأشتق لفظ البرجوازية من أصل عربى وهو كلمة البرج المحصن، فجميع القرى الصليبية والتى تم إنشاءها على أطلال القرى العربية مزوده ببرج دفاعى يستخدم كنقطة مراقبة وملاذ آمن فى حالة الدفاع، ولم ترتبط طبقة

البرجوازية بأى تبعية لسيد إقطاعى أعلى، وأن أتربطت بحاكم المنطقة التى بها أراضيهم بما يفرضه العرف من ضرائب وعشر الإنتاج من المحاصيل والفاكهة، وكذلك الخدمة العسكرية كقوات مشاة وخصوصاً فى حالة تعرض مدنهم وقراهم أو المملكة لخطـر هجوم القوات الإسلامية ،

وأتاح هذا النظام توفير الحماية للمستوطنة الصليبية (القرية) بتوفير القوة البشرية المتمثله فى حائزى الأراضى والحرفيين (البرجوازيين)، يضاف لذلك الأعمال الدفاعية الهندسية (برج القرية)، هذا غير فرسان صاحب المقاطعة، مما وفر خطوط دفاعية عن المملكة، علاوة على توفير قوات مغذية للجيش[19]،

وقد واجهت الصليبيين مشكلتين أساسيتين، الأولى هى الإنقسام بين الكيانات السياسية وأن ادت سيطرة مملكة بيت المقدس على مدينة القدس، وكذلك مساحتها الكبيرة، إلى تمتع ملوكها بقدر من السيطرة على باقى الأمارات الصليبية.

أما المشكلة الثانية التى واجهت الصليبيين فى الشام هى قلة المحاربين الأوروبيين الذين أبدوا إستعدادهم للأستقرار فى الأمارات الوليده، فكما مر علينا لم يستقر بالشرق من كبار الأمراء إلا من فاز بنصيب كبير من الكعكة، أما من لم يستطع إيجاد له موطئ قدم فى إمارة فقد سارع بالعودة لأوروبا مصطحباً معه رجاله، مما ألقى مسئولية حكم القلاع والإقطاعات على الصليبيين الجدد، وهم من طبقة الفرسان الذين كانوا يلتحقـون بخدمة بيت ملكى أو بيت نبيل فى أوروبا، أو ينتمون لطبقة صغار النبلاء، الذين لم تسمح لهم إقطاعاتهم بأوروبا إلا بحياة لا تمتاز عن حياة كبار الفلاحين، مما يعنى أن الشرق جنة الأحلام بالنسبة لهم،

وإن إدى نجاح الأساطيل الإيطالية فى نقل المزيد من الجيوش الصليبية إلى أنعاش الصليبيين بالشرق، ووقى الصليبيين الجدد مخاطر الطريق البرى المار بالأناضول والذى قضى على أكثر من جيش صليبى ،

وإن أستمرت معاناة الصليبيين فى الشرق من ضعف القوى البشـرية والعسكرية، زاد من تفاقم هذه المشكلة إنعدام الثقة والمقت المرير بين

[19] وهو قريب من نظام الكيبوتز والمستوطنات التى يتبعها الكيان الصهيونى فى الوقت الحاضر ،

الصليبيين والمسيحيين الشرقيين الذين أظهر لهم الأحتلال الصليبى مدى الفرق الشاسع بين الحكم الأسلامى الذى تمتعوا فى ظله بحرية أقامة شعائرهم الدينية بدون أدنى تدخل من الحكام المسلمين، حرية فقدوها تحت النير الصليبى الذى لم يحاول إخفاء عداءه للمذاهب الشرقية، وحاول جاهداً القضاء عليها، فى الوقت الذى كان المسلمون قد تركوا للمسيحيين الشرقيين حرية ملكية أراضيهم لقاء دفع ضرائب أقل بكثير من التى أضطروا لدفعها لحكامهم الصليبيين الجدد ،

شكل المسلمون نسبة معتبرة من سكان المناطق التى سيطر عليها الصليبيون، بعد إن رأى الصليبيون ضرورة الحفاظ على هؤلاء السكان الذين مثلوا لهم عصب الحياة الإقتصادية، بعملهم بالزراعة والصناعة التى تدر لهم الأرباح والدخل وتوفر لهم مستلزمات إعاشتهم، فالصليبيون لم يستطيعوا ملئ المدن المحتلة، بل ظلوا أقلية مما أضطرهم إلى الإستعانة بالعناصر المحلية للعمل بالزراعة، وهى مهنة لم يتخيل النبلاء المحاربون المتغطرسون العمل بها يوماً من الأيام، يضاف لهؤلاء الآلاف من الفلاحين وأقنان الأرض الذين صاحبوا زحف الجيش الصليبى فى إتجاه القدس، وهؤلاء أتاح لهم الشرق مرتبة ما كانوا يحلموا ببلوغها فى الغرب، فهم شكلوا طبقة ملاك ومستأجرى الأراضى الزراعية،

وقد شكل النبلاء الفرنج طبقة إرستقراطية مقاتلة عملت على الحفاظ بعدم وجود إتصال مباشر بمن يحكموهم، فالأمارات الصليبية كانت تشتمل على مجموعة من الغزاة الذين يختلفون عن فلاحيهم ثقافياً وإجتماعياً ولغوياً، مما أدى إلى عدم خلق قنوات إتصال بين الفلاحين سكان الأرض الأصليين والحائز على الإقطاع من النبلاء المتغطرسين، الذين أقتصرت علاقاتهم بالعناصر المحلية على علاقة إستعلائية إستغلالية تقوم على النفعية وإستنزاف ناتج مجهودات عمل العناصر المحلية لتأمين أمنهم الغذائى، وجمع أكبر قدر من الأموال للحاكم ورجاله، الأمر الذى أدى إلى حدوث عزلة مطلقة بين الغزاة المستعمرين والسكان المحليين المقهورين ،

شكل الإستعماريون اللاتين مجموعة منغلقة من الغزاة المعتمدين على القوة، من العسير بل من المستحيل على غير الفرنج الإلتحاق بهذه المجموعة، مهما أمتلك من المواهب والأمكانيات، فقد تجسدت الطبقية فى المجتمع الصليبى بشكلاً فج ،

وولدت الكيانات الصليبية عرجاء، فقد أخفق الكيان الصليبى فى إحداث نوع من الإندماج الإجتماعى بين عناصر سكانه ذوى الأصول المختلفة، بسبب تمسك كل أصحاب هذه الأصول المختلفة بعاداتهم وثقافاتهم التى تربوا عليها ويضاف لذلك العنف والتعالى والعنصرية التى سيطرت على الغزاة الصليبيين ،

وأصبح الهاجس الأمنى والأمن العسكرى هو الباعث والموجة لحياة الصليبيين، الأمر الذى أنعكس على تقوقع الصليبيين والتركز فى الإقامة على مناطق محدودة لتقليل خطوط دفاعاتهم، وكذلك قام الصليبيون تحت الهاجس الأمنى ببناء كافة منشأتهم ومدنهم وقراهم بشكل عسكرى صرف[20] توفر لهم الحماية،

وسيطر العنصر الفرنسى على الديمجرافية السكانية للمستوطنين الصليبيين بالشرق، وضربت اللغة والعادات الفرنسية بجذورها فيما وراء البحر، وأن شوهدت مستعمرات إيطالية بالمدن الساحلية، كإمارة جبيل، علاوة على التواجد الإيطالى فى المدن الساحلية بموجب تخصيص أجزاء من هذه المدن بناء على أتفاقيات الغزو، وقد قام أبناء الكوميونات الإيطالية بتأسيس شركات تجارية، لتغذية أوروبا بالمنتجات الشرقية والبهار المتهافت عليه، وتمتعت هذه الكوميونات بإستقلال ذاتى حصلت عليه نظير خدماتها البحرية الحربية التى كانت تفتقر إليها القوات الصليبية للإستيلاء على المدن الساحلية، وقد عملت هذه الكوميونات على إحتكار النشاط التجارى فى الشام وكذلك كافة أعمال الشحن البحرى والأعمال المصرفية،

وإن كان يمكن إعتبار أن العناصر المكونة للمجتمع الصليبى شملت كافة الأمم الأوربية، فقد بلغت مزايا السفر إلى الشرق وإغراءاته مسامع الجميع فى أوروبا، الأمر الذى أوجد مجتمعاً خليطاً وغير متجانس، لم يجمعه تحت شمس الشرق الساطعة، إلا الرغبة فى الثراء،

وشوهد تواجد من بعض المدن البحرية الأخرى مثل مارسيليا وبرشلونة فى المدن الساحلية الرئيسة، وكما كان للتواجد الألمانى نصيب متمثل فى هيئة فرسان التوتون، وعمل أعضاء الطبقة الإرستقراطية العسكرية فى بيت

[20] وهو ما يرى بإسرائيل وليدة الحركة الصهيونية والتى كافة مستوطناتها والمدن المحتلة أنشأت لأغراض عسكرية ،

المقدس المتفاخرون بأنسابهم المزعومة على الحفاظ على نقاء سلالاتهم بالتزاوج فيما بينهم، بينما أنتشر التزاوج من مسيحيات شرقيات فى أمارتى الرها وأنطاكيا، بينما نبلاء المملكة جميعهم من أصول متواضعة، أما البرجوازية الصليبية والتى قدمت ضباط الصف المشاة والجنود للجيوش الصليبية، فقد أنتشر فيما بينهم الزواج من المسيحيات الشرقيات، وإن لم ينقطع سيل الوافدين الجدد الذين ألهب خيالهم أخبار الإستيلاء على القدس، وروايات الجنود العائدين المبالغ فيها عن ما شاهدوه، وأن كان بقاء هؤلاء الحجاج بالشرق مؤقت، وأضطر ملك بيت المقدس دفع عائد مادى كبير للمقاتل من الحجاج ليستفيد من مجهوداته الحربية، وكما شكل أنصاف الشرقيون ممن أطلق عليهم تركبولى، فرسان خفيفى العدة مسلحين بالسهام على غرار فرسان الشرق ،

يضاف لهذه اللوحة الفسيفسائية السكان الأصليين الذى سمح لهم بالتواجد فى الأراضى المحتلة، كانت الأغلبية الساحقة من هؤلاء الشرقيين من المسيحيين سواء يعاقبة ونساطرة وموارنة، المخالفين للاتين فى العقيدة، الذين ساد عدم الثقة بينهم وبين المستوطنين الصليبيين، بقدر قد يكون أكثر مما كان بينهم وبين حكامهم المسلمين، الأمر الذى دفع مطران عكا جاك دى فيترى وصف المسيحيين الشرقيين بقوله "إنهم غشاشون وثعالب خبثاء مثل اليونانيين وكذابون ومنافقون ويعشقون الربح وخونة ويسهل كسبهم بالرشوة ويقول أحدهم الشئ ويقصد عكسه، وكانوا أشبه بالنساء فى المعركة، وكانوا عزل من السلاح، ولا يعتبرون السرقة والنصب أمراً مهولاً، ومن أجل مبلغ ضئيل من المال يصبحون خونة ويطلعون العرب على أسرار المسيحيين، ولا عجب فقد نشأوا بينهم ويستعملون لغتهم"[21]، حتى نجد رواية مصرى صاحب كتاب سير الأباء البطاركة يقول فيها "وصرنا معشر اليعاقبة لانصل للحج إليه ـ بيت المقدس ـ ولا نتمكن من الدنو منه، من أجل ما هو معروف من بغضهم ـ أى الفرنج ـ لنا، وسوء إعتقادهم فينا وتكفيرهم أيانا"[22]

وكذلك تشبث بعض المسلمون بأراضيهم وخصوصاً بحوض نهر العاصى، والمنطقة المحصورة بين بانياس وعكا وسهل البقاع، كما ظل البدو الرحل فى حركتهم الدائمة خلف الكلأ، وتعرض هؤلاء المسلمين لكافة أعمال الإستغلال

[21] رسائل جاك دى فيترى ص229
[22] سير الآباء االبطاركة ص49

من جانب حكام بيت المقدس، مما أوقعهم تحت ضغط شديد من أعباء مالية وضرائبية فى منتهى القسوة، كما عانوا من التفرقة حتى القانونية، فقد تم فرض عقوبة الإعدام إذا ما تكرر ضرب شخص مسلم لصليبى فى الوقت الذى لم يتم فرض أى عقوبة على الصليبى فى حالة تعديه بالضرب على المسلم، وقد أظهر هؤلاء المسلمون دائماً ميلاً إلى الإنعطاف لجانب القوات المسلمة خلال الحروب والإغارات التى تقوم بها، الأمر الذى حدا بوليم الصورى بوصفهم بأنهم "أنضموا كثيراً لكتائب العدو وأرشدوهم إلى كيفية القضاء علينا، لمعرفتهم التامة بكافة التفاصيل عنا، إذ ليس هناك وباء أشد فتكاً من عدو داخل بيتك"[23] وأن أبدى أبن جبير أمتعاضه وأسفه بسبب تمسك بعض المسلمون بالبقاء تحت دولة الفرنج

وقد عانى هؤلاء المسلمين من العنصرية الدينية التى عانى منها حتى مسيحى الشرق، فقد حُرم على المسلمين تشيد المساجد، بل حتى المساجد الموجود قبل الغزو الصليبى تم تحويلها إلى كنائس، كما لم يسمح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية، كما حرم مسيحى الشرق من ممارسة شعائرهم تبعاً للطقوس الشرقية، ولا يمكن أخذ المعاملة الإستثنائية التى تمتع بها أسامة بن منقذ من قبل فرسان الداوية عندما سمحوا له بالصلاة بالمسجد الأقصى كنموذج لمعاملة المسلمين داخل مملكة بيت المقدس، بل كانت هذه الحالة إمتياز شخصى لأسامة بن منقذ حيث كان يزور مملكة بيت المقدس كسفير لمعين الدين أنر حاكم دمشق والحليف الوحيد والهام للصليبيين من الحكام المسلمين،

ومثلت واردات الضرائب والجمارك التى كانت تفرض على التجار والقوافل الماره بالأراضى التى سيطر عليه الفرنج مصدر دخل أساسى بالنسبة للأقتصاد الصليبى، فأبن جبير يذكر فرض ضرائب على الحجاج المغاربة أثناء عودته من رحلته للحج قبيل معركة حطين، ويبدى إندهاشه لإتقان الفرنج القائمين على تحصيل الجمارك للغة العربية وتدوينهم بها[24]

وكما فرض أعتماد الصليبيين على التجارة وعوائد الجمارك كمصدر أساسى لمصادر دخلهم إلى حسن معاملة التجار المسلمين "برفق وتؤدة دون تعنيف

[23] تاريخ وليم الصورى ج2 ص302
[24] رحلة أبن جبير ص250

أو تحمل"[25] كما أعتاد التجار طلب الحماية من هيئة ديرية، وكانت هذه الحماية بالتأكيد لقاء ثمن مادى، فقد أعتاد التجار المواصلة الذهاب إلى عكا تحت حماية فرسان الداوية، لدرجة مشاهدة أبن جبير بعكا مسجد قديم أبقى عليه محرابه، وأقام الصليبيون فيه محراب لهم، فكانت تقام فيه الصلوات للمسلمين والمسيحين "فالمسلم والكافر يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه وهذا مصلاه"[26]

وتأثراً بالحضارة والنظم الإسلامية نقل الصليبيون الكثير من الوظائف الإسلامية للإنتفاع بها داخل المجتمع الصليبى، كوظيفة المحتسب، وهو المسئول عن متابعة الأخلاق العامة والأسواق والصحة والتأكد من إلتزام الباعة بالموازين وإتباع الإجراءات الصحية السليمة فى إعداد وعرض وتداول الأطعمة، فقد إستعار الصليبيون هذه الوظيفة بأسمها العربى بل حرصوا على تعيين مسلم فى هذه الوظيفة الحساسة،

وعمل الصليبيون على معالجة مشكلة قلة السكان اللاتين فى الأراضى التى أستطاعوا السيطرة عليها بالأستعانة بالحجاج الوافدين لزيارة القدس، والذين لم ينقطع سيل تدفقهم على الشرق بعد أن ألهب إحتلال القدس خيال الأوربيين، متأثرين بمنح الغفران للذاهبين للقدس، ففى عام 516هـ/1123م تم عقد مجمع لاتيران الذى نص على منح الذين يذهبون إلى بيت المقدس والذين يقدمون العون والذين يدافعون عن المسيحيين غفران جميع معاصيهم،

كما لعبت الحملات العديدة التى كانت وجهتها الشام وسيل الزوار الذى لم ينقطع دور بارز فى تعويض النقص العددى للجيوش التى يستطيع الصليبيون تقديمها لأرض المعركة، كما كان للجمهوريات الإيطالية، البندقية، جنوا، بيزا، دوراً هاماً جداً فى إكمال السيطرة الصليبية على المدن الساحلية بفضل أساطيلهم، وإن كانت هذه الخدمات ليست مجانية ولا إقتناعاً بالفكرة الصليبية بل نظير ثمن باهظ وهو حصول هذه الجمهوريات على أمتيازات تجارية واسعة فى المدن التى ساهموا فى الأستيلاء عليها، بل تعدى الأمر إلى حصولهم على أحياء خاصة بهم ليمارسوا فيها حياتهم كأنهم فى مدنهم

[25] رحلة أبن جبير ص 349
[26] رحلة أبن جبير ص134

الأصلية، أما الحل السحرى الذى أهتدى إليه الصليبيون لمواجهة ضعف القوى البشرية لهم بالشام فكان الهيئات الدينية المقاتلة،

فرسان الأسبتارية و الداوية (فرسان الهيكل) والتوتون

وجد الصليبيون أنفسهم فى محيط من أعداء أكتسبوهم بوحشيتهم ودمويتهم، أعداء كان كل هدفهم تطهير أراضيهم من الوجود الغربى، وكذلك كان إتساع الأراضى التى سيطروا عليها، وقلة أعداد قواتهم المقاتلة، يمثلان أخطار قاتلة يجب مواجهتها، فبالرغم من الحصانة الطبيعية التى تمتع بها الشام، الذى تكتنفه الصحراء من الجنوب، وجبال طوروس شمالاً، وصحراء سيناء غرباً ونهر الفرات شرقاً، إلا أن وجود قوى إسلامية أمتلكت الإرادة على قتال الصليبيين منعهم من السيطرة الكاملة على الشام، كما فشلت القوات الصليبية فى فرض سيطرة مملكتهم على كافة الوديان الداخلية التى شكلت خطورة كبيرة عليهم، وحتى السيطرة الصليبية على المدن الساحلية، فلم يسيطروا عليه إلا بمساعدات الجمهوريات الإيطالية بثمن باهظ جداً، يضاف إلى ذلك المعارك الدامية التى أدارها المسلمون ضد الصليبيين بعد تنامى القوة الإسلامية عقب الموجة الصليبية الأولى، وقد أصيب الصليبيين خلال هذه العمليات الحربية بخسائر ضخمة، علاوة على أسر أعداد كثيفة منهم، ونجاح المسلمون فى تحرير مساحات واسعة من الأراضى المحتلة من الصليبيين مما حرم السادة الإقطاعيين من الدعامة الأساسية التى بنوا عليها قواتهم المسلحة، وعجزهم عن الوفاء بإلتزاماتهم العسكرية تجاة ملك بيت المقدس سيدهم الإقطاعى الأعلى، وكذلك تفشى الأمراض بينهم والأوبئة وقسوة الطقس الذى لم يعتادوه بأوروبا وبدائية عاداتهم الصحية وإنحلالهم الأخلاقى الذى غرقوا فيه حتى آذانهم الأمر الذى أدى إلى تآكل قواتهم المقاتلة بإستمرار، فكان يجب البحث عن قوات صليبية دائمة كى تحافظ على الوجود الصليبى ومقاومة النشاط العسكرى الإسلامى المتنامى ضدهم ،

بينما نقل الصليبيون نفس النظم الإقطاعية التى تربوا فى كنفها، والتى لم تكن تسمح بإنشاء وتكوين جيوش عاملة، بل كانت الجيوش الصليبية نفس الجيوش الأقطاعية بالغرب الأوروبى، والتى كانت لا تفرض على الفرسان تقديم خدمات عسكرية لسيدهم الإقطاعى الأعلى إلا خلال فترات لا تتجاوز أربعين يوماً فقط، وأن فرضت ظروف العداءات التى أحاطت بوجود الصليبيين والمعارك التى أضطروا لمواجهتها بالشرق إلى عدم الألتزام بشرط المدة

المحدده للخدمة العسكرية الواجب على الفصل تقديمها لسيده الأقطاعى، فقد ألتزم الفصل الصليبى بالخدمة العسكرية لمدة عام من بداية إعلان الحرب،

وأن ظل النظام الأقطاعى للصليبيين عاجز على تقديم جيوش كثيفة العدد قادرة على مواجهة التحديات المفروضة عليهم، حتى الحجاج الصليبيون الذين أستمر تدفقهم للشام وأن مثلوا قوة بشرية ضخمة إلا أنهم لم يلتزموا بالقتال إلا لفترات محدودة لقاء عائد مادى باهظ يغادرون بعدها لأوروبا، فقد أستعان الصليبيون بالمرتزقة والذين كانوا فى الغالب من الحجاج، وأن مثل ذلك عبء مادى ضخم عجزوا عن القيام به، خصوصاً بعد ضياع مساحات واسعة من الأراضى الزراعية الخصيبة على يد عماد الدين زنكى، وأبنه نور الدين محمود، الأمر الذى فرض الإعتماد على الهبات الخاصة التى كانت ترد على المملكة من ملوك ونبلاء أوروبا، لهذا كان يجب على الصليبيين البحث على وسيلة يستطيعوا من خلالها إيجاد شكل من الجيوش العاملة المتواجدة تحت السلاح طوال الوقت لمواجهة أى ظروف طارئة،

وجد الصليبيون الحل العملى فى الجماعات الرهبانية المقاتلة التى أستأثر النبلاء السيطرة عليها فى طبقية دينية، فمن المستبعد إكتفاء سلالة طبقة المحاربين الوراثية المتكبرة بالعمل الديرى الخيرى الذى ينتزع منهم أسباب الحياة الراقية التى نشأوا عليها، فكان من الطبيعى تحوير نشاط الهيئات الديرية التى أنتموا لها للعمل العسكرى الصرف، والمتمثل فى الأسبتارية والداوية والتوتون الذين اقسموا على قتال المسلمين بغض النظر عن المكان والزمان، والمصابرة على الحرب وإن طالت أمدها، بعد أن أتخذ الصليبيون خلال المرحلة الثانية من دولتهم سياسة دفاعية بحتة أزاء النشاط العسكرى الإسلامى المتنامى،

ولا ريب إن إقبال الرهبان على حمل السلاح والقتال مثل تغييراً جذريا فى التقليد الكنسى، ففى القرن الرابع الميلادى قال القديس مارتن "أنا جندى المسيح ولذلك لا يجب أن أقاتل" فالتقليد المسيحى يجرم حمل السلاح ناهيك عن القتال، فإراقة الدماء معصية يجب عدم إرتكابها، ولكن ما أن حل القرن الحادى عشر حتى أنتهى تقريباً الحظر على رجال الدين بحمل السلاح، حتى

نجد أن وليم الصورى وهو رجل دين بارز ورئيس أساقفة صور يصف رالف بطرك أنطاكيا عام 1136م "وكان رالف محارباً عظيم القدر"[27]

كانت بدايات هذه الجماعات على يد الأسبتارية والتى بدأت على أيدى بعض تجار مدينة أمالفى الإيطالية[28] فى عام 1070م أى قبل بداية الحملة الصليبية الأولى كجمعية خيرية قامت بإنشاء مستشفى القديس جون لعلاج فقراء الحجاج الأوروبيين الوافدين على القدس، بعد سماح الحاكم المصرى للقدس لهم، وتم تكريس المشفى للقديس يوحنا المتصدق بطريرك الأسكندرية فى القرن السابع الميلادى فى بداية الأمر، ليتم تغيير راعى الهيئة بعد ذلك إلى يوحنا المعمدان الأكثر شهرة، فلهذا أطلق عليهم Hospital والتى تعنى المشفى باللاتينية وحورت إلى الأسبتارية ،

وظلت الأسبتارية مكتفيه بعملها الخيرى حتى ظهور الداوية (فرسان الهيكل) التى تأسست فى 1118م خلال تولى الحاكم الثالث لبيت المقدس بلدوين دى بورج، كمنظمة عسكرية منذ البداية على يد فارس فرنسى يدعى هيو دى بانيز، الذى وصل من أقليم شامبانيا بفرنسا يصحبه زميله جفرى دى سانت أومير، وتسعة فرسان فرنسيين أخريين، عندما ظهرت مشاكل أمنية خطيرة تهدد الوجود الصليبى بالقدس، بسبب الأغارات الأسلامية على قوافل الصليبيين الوافدة على بيت المقدس، وقامت بهذه الإغارات الحامية المصرية بعسقلان، وكذلك الهجمات التى كانت وجهتها بعض القرى الصليبية الصغيرة التى خلفت الكثير من الصليبيين قتلى، وهذا ما دفع بلدوين الثانى إلى تشجيع هؤلاء الفرسان المتحمسين لإنشاء هذه الهيئة، ومنحهم بطريرك بيت المقدس جاريموند (522-512هـ/1118-1128م) تصريحاً عام 1118م بإنشاء منظمة حربية مهمتها محاربة المسلمين، وتأمين طريق الحجاج وحماية معبد سليمان بالقدس لمدة تسعة سنوات[29] وفى عام 1128م قام البابا هونوريوس وبطريريك بيت المقدس استيفن بتخصيص زى أبيض لهم، وذلك فى مجمع عقد فى مدينة تروى بفرنسا، ومنحهم البابا يوجينيوس الثالث (1145-1152م) الحق فى حياكة صلبان حمراء على أرديتهم،

[27] وليم الصورى ج3 ص104
[28] مدينة إيطالية تقع فى كامبانيا بأقليم سالرنو
[29] رسائل جاك دى فيترى ص209

ولأدراك بلدوين الثانى أهمية المنظمة المحاربة الجديدة منحها جزء من قصره الواقع بباحات المسجد الأقصى الشريف والذى أطلق عليه الصليبيون هيكل سليمان لأقامة أعضاءها ،

وقد أتخذ هيو هذا الجزء من هيكل سليمان ليكون مقراً لجمعيته الوليده ولهذا أطلق عليهم فرسان المعبد أو الهيكليون Temblars، وتنهمر الهبات على الجماعة بسخاء حتى تمتلك عدد ضخم من المدن والقلاع ليس فقط بالشام بل وفى ربوع أوروبا، سواء فى بروفانس وبواتو (فرنسا) وإنجلترا، وأرغونة وقطلونيا وقشتالة (أسبانيا) والبرتغال، وتوسكانيا ولمبارديا وصقلية (إيطاليا) والمجر وألمانيا، ذلك بسبب هطول الهبات والتبرعات على رأس الجماعة مما مكن فرسان الهيكل من التمتع بثراء فاحش ومباركة الباباوات المتعاقبين والذين نظروا لفرسان الهيكل على أنهم ليسوا حماة الوجود الصليبى بالشام فقط، بل كجنود جاهزين لفرض إرادة البابا على معارضيه، بل أكثر من ذلك قيام البابا أنوسينت بجعل التبعية المباشرة لفرسان الهيكل للبابا بروما، ورفع أى سيطرة على قلاع وحصون فرسان الهيكل إلا سيطرة الفرسان فقط، ولم يتم أعفاء الفرسان من دفع العشور للكنيسة فقط بل مُنحوا حق جمع العشور لمصلحة المنظمة، كل هذا جعل من منظمة فرسان الهيكل دولة داخل الدولة وكنيسة داخل الكنيسة، وتم فرض ضريبة يدفعها جميع رجال الدين حتى الأساقفة بل ويدفعها البابا ذاته لصالح الهيئات الديرية المقاتلة، بل وسُمح لهم بالإحتفاظ بالغنائم التى يحصلون عليها، مما اضفى هالة من القداسة والثراء على فرسان الهيكل فسارع العديد من النبلاء للتطوع ضمن صفوفها .

وكان على رأس فرسان الهيكل رئيس يطلق عليه مُقدم الفرسان (المُعلم) يليه البرسبتور أو ناظر الإقطاعية وهو ينوب عن المُعلم حال غيابه ويتمتع بنفس صلاحياته، ثم مدير الخزينة وهو المسئول عن أموال الهيئة، ثم المارشال أو كندسطبل ويعتبر القائد العام لقوات المنظمة ومن مهامه تخصيص الأسلحة والخيول للفرسان ووضع الخطط والأستراتيجيات العسكرية ويقود الفرسان فى ميدان المعركة، وتم تخصيص قائد لكل مدينة للفرسان فيها وجود، فكان هناك قادة للقدس وطرابلس وأنطاكيا، ومقدمين بالممالك الأوروبية، فكان هناك مقدم لأنجلترا وفرنسا والمجر وأراجون (أسبانيا) والبرتغال، وتم تكليف قائد القدس بالرعاية الصحية للفرسان وتأمين الحجاج خلال طريق الحج داخل الأراضى المسيطر الصليبيين عليها، ويتولى حماية صليب الصلبوت

المعتقد إنها القطعة المتبقية من الصليب الحقيقى خلال المعارك، وكما تم تخصيص مسئول عن ملابس الفرسان وخيامهم يسمى الخازن، كل هؤلاء المسئولون كان يخصص لكلاً منهم أربعة خيول وثلاثة خيام له ولحاشيته وتعيين حراس شخصيين لهم، وتم تعيين قسطلان (قائد) لكل حصن وقلعة تابعه للمنظمة .

أما العنصر الأساسى فى التنظيم وهو الفارس، وفى الغالب يكون فرنسياً يجرى فى عروقة دماء النبلاء، فكان يتم إختياره من بين طبقة النبلاء ويتميز بدرع الزرد الحديدى يعلوه جلباب أبيض قصير موسوم بصليب أحمر، وخوذة حمراء، ولحيته الطويلة وشعره القصير، ويخصص لكل فارس ثلاثة خيول، وينص قانون الداوية على أن يتناول كل فارسان طعامهما معا من صحن واحد، ويحرم على الفرسان الصيد بالصقور ولعب النرد، بل كان الفارس نادراً ما يستحم[30]، ولم يكن الفرسان هم كل القوة العسكرية للداوية بل كان هناك طبقة أقل منهم يطلق عليهم أسم الرقباء، يخصص لكل فرد منهم حصان واحد فقط، ويتميزون بزيهم الأسود الموسوم بصليب أحمر، ويتم تجنيدهم من الطبقة البرجوازية[31]، ومهامهم تتراوح بين الخدمات اليومية بالمنظمة كالطبخ علاوة على القتال، ويصل الرقباء إلى تسعة أمثال الفرسان فى التنظيم، وخصصت للرقباء بعض الوظائف الهامة كقائد ميناء عكا فكان يعين من بين الرقباء وكما كانوا يعينون كحرس شخصى لقادة الفرسان وكان يعين من بينهم حامل الراية الخاصة بهيئة الداوية، التى تتكون من نصف أبيض والأخر اسود، مكتوب عليها باللاتينية ما ترجمته "رب لا تعطينا نحن النصر بل أعطيه لمجدك" كما ثبت على الراية صليب أحمر ذو ثمانية زوايا مطرز باللون الذهبى، ويجب على الأعضاء الجدد القسم بالتمسك بثلاثة مبادئ مدى الحياة، وهى الفقر والعفة والطاعة، وتوفير الحماية والمساعدة للحجاج الأوربيين خلال الطريق الرابط بين ميناء يافا ومدينة بيت المقدس،

وقد وضع الأسقف برنارد اسقف كليرفو بفرنسا كتاباً عنوانه الفروسية الجديدة للدعاية لهيئة فرسان الداوية، وإظهار شجاعتهم وخشونتهم وإيمانهم وزهدهم، وسن به القوانين المنظمة للهيئة، التى وافق عليها البابا هونوريوس عام 1139م بمجمع تروى الدينى، وأصدر إعترافاً رسمياً بالهيئة المقاتلة ،

30 عالم الصليبيين ص145

31 طبقة وسطى من أصحاب الحرف والصناع

وأستمر نمو هيئة الداوية ولعبت أملاك الداوية المنتشرة فى أوروبا والثروات المتراكمة فى خزائنهم، إلى إضطلاع الهيئة بالقيام بنشاطات مالية سواء بالإقراض بالفوائد التى تفوح منها رائحة الربا الفاحش، أو تحويل الأموال بين الشرق اللاتينى وأوروبا، أو بين أقاليم أوروبا نفسها حتى أصبحت الداوية بنك أوروبا، ليجلب لها ثراءها دمارها، وكان تضخم قوة الداوية بشكل مستمر، وكذلك الأمن الذى خيم على المملكة وطرقها، ما أدى إلى تغيير هدف الداوية الأساسى من تأمين طريق يافا ـ بيت المقدس، إلى تأمين حدود المملكة وتشكيل قوات النخبة الصليبية ،

وقد شجعت النجاحات التى صادفت الداوية، هيئة الأسبتارية على إقتفاء أثرها للتحول إلى هيئة عسكرية، بعد أن رفض أعضاءها الجدد الإكتفاء بحياة الرهبنة فقط، وتطلعهم لحياة الفروسية والحرب الأكثر صخباً التى تتواءم مع نشأتهم الإقطاعية، ليقوم مقدم الأسبتارية ريموند أوف لوبوى الفرنسى بتغيير نشاط الهيئة من الإهتمام بالمرضى إلى مؤسسة من الفرسان الملتزمين بعهود لقتال المسلمين، ويستولى على كنيسة بيزنطية بالقدس لتكون مقر الهيئة الخيرية الجديد، وتلاقى الإسبتارية نفس نجاحات فرسان الهيكل وبلغت أملاك الأسبتارية عام 1142م ما يضاهى أمارة كبيرة من بينها مدن كبرى كأرسوف، حتى أصبحت الأسبتارية من كبار السادة الإقطاعيين التابعين للملك مباشرةٌ، وبينما سيطر الفرنسيون على هيئة الداوية، كان أغلب أعضاء هيئة الإسبتارية من الفرسان الإنجليز والإيطاليين، حتى أصبح مما تفتخر به العائلات النبيلة بأوروبا إشتراك أحد أبناءها بإحدى هاتين الهيئتين ،

ويرتدى فرسان الإسبتارية زى خاص عبارة عن رداء أسود طويل يثبت به صليب أبيض ذو ثمانية زوايا، على أن يرتدى زى أحمر فوق ملابسه الكهنوتية أثناء القتال، وأُتخذت الهيئة يوحنا المعمدان راعياً لها، وصدر مرسوم رسمى بهيئة الإسبتارية من البابا بسكال الثانى فى 15 فبراير 1119م، مع وضع الهيئة تحت الرعاية المباشرة للباباوية بروما، مع إعتراف الباباوية لما للهيئة من أملاك بالغرب الأوروبى وبالشرق وإضافة أملاك وأمتيازات جديدة لها، ووضع نظام إنتخاب مقدم الهيئة من بين أثنى عشر مرشحاً من الفرسان كعدد حوارى عيسى عليه السلام، ويشترط فى المقدم أن يكون فارساً نبيلاً وأبناً شرعياً لفارس ،

كما أقتحمت الإسبتارية النشاط البحرى الخدمى والتجارى بنقل الحجاج الأوروبيين والبضائع بين الشام وأوروبا، الأمر الذى خلق تنافس وخصومة بينها وبين الجمهوريات الإيطالية ،

أصبحت هذه الهيئات لا تعترف بسلطة ملك بيت المقدس وأمراء طرابلس وأنطاكيا والرها، حتى لم تخضع لسلطة الكنيسة الكاثوليكية بالشرق، ولا تعترف إلا بسلطة البابا بروما، الذى لم يبخل بمنح الإمتيازات للهيئة، الأمر الذى أتاح لها أتخاذ مواقف مغايرة لسياسة الملك وكونتات وبارونات الصليبيين، مما خلق كراهية متبادلة بين رجال الدين بالشرق اللاتينى وفرسان الهيئات الديرية، وأصبحت منظمتى فرسان الهيكل والإسبتارية أشبه بمراكز تجنيد بأوروبا لتغذية جيوش الصليبيين فى الشام بما يعنى منحهم جيوش عاملة محترفة تحت السلاح طوال الوقت لمواجهة أى خطر يهددهم، تتخذ سياسة هجومية عدائية تجاه المسلمين، يشكل التدريب العسكرى جزءاً أساسياً من برنامجهم اليومى ،

وتم وضع سياسة عقابية للرهبان[32]، تعتمد على العقوبات الجسدية والسالبة للحرية والمعنوية، يبدء سلم العقوبات بنفى الفارس المذنب لبضعة أيام، أو سويعات، بعد نزع شارة الصليب وتمزيق ملابسه، وقد يكون النفى دائم، وقد يتم تقييد الفارس المذنب بالسلاسل داخل السجن بالدير، أو يتم جلده، وقد يحرم من الطعام، أو يجبر الفارس المذنب على تناول فتات الطعام المتساقط من الرهبان[33]، وهو جالس أرضاً تحت أقدامهم ولا يسمح له بطرد الكلاب إذا ما أكلت معه زيادة فى إذلاله ،

وأعتبرت الداوية والإسبتارية بمثابة جيشان متجددان بإستمرار، ومرتبطان بقسم دينى لحماية الأراضى المقدسة وقتال المسلمين فى أى مكان، أياً كانت ظروف القتال، وأن كانا يشتركان فى القتال كحلفاء متطوعين وليس كتابعين، وكما كانا على أتم استعداد للتضحية بمبادئهما من أجل مصالحهم المالية، وانتشرت مراكز بأوروبا لتغذية الهيئتين بالمحاربين بإستمرار، ولعب ثراء الهيئتان الدور الأبرز فى تدفق الفرسان للألتحاق بهما، كما سيطرت حالة من العداء بين الهيئات الديرية المقاتلة، حتى كثيراً ما شوهدوا يتقاتلوا،

---

32 يتم محاكمة المنتسبين إلى الهيئات الديرية المقاتلة أمام المحكمة الأكليرية المختصة فى النظر فى شئون الديانة الكاثوليكية والهرطقة والفصل فى القضايا التى يكون رجال الدين طرفاً بها،

33 رسائل جاك فيترى ص209

ولتوسيع قاعدة الإشتراك بالهيئتين، إستجدت الهيئتان عضوية شرفية لمن يريد من نبلاء أوروبا العلمانيين الإشتراك لفترة محدودة بالداوية أو الإسبتارية، كما كان الإشتراك بأحدى الهيئتين باب للخروج من قرار الحرمان الكنسى، كما لم يُلتزم حرفيا بشرط إقتصار العضوية على الفرسان المنحدرين من عائلات نبيلة فقط ،

ولبيان أهمية قوات الداوية والإسبتارية، يكفى أن نعرف أن الأمارات الصليبية الكبيرة كانت ملـزمة خلال المعارك الحربية بتقديم خمسمائة فارس عن كل إمارة إلا إمارة طرابلس فقط كانت تقدم مائتى فارس فقط، أما الأمارات الصغيرة الفرعية فقط كان على كلاً منها تقديم مائة وثلاثة وثمانين فارساً، أما المدن الإقطاعية المستقلة فكانت تقدم متجمعة ستمائة وستة وستين فارساً، أما هيئتى الداوية والإسبتارية فكانت تستطيع تقديم ما يزيد عن الألفى فارس، بما يعنى تفوق الداوية والإسبتارية على التنظيمات العلمانية، يضاف لذلك التفوق، الطاعة والنظام النسبى المتمتع بهما فرسان الداوية والإسبتارية بعكس الفارس العلمانى الذى لا يمكن كبح جماحه ،

وخلال القرن الثانى عشر أصبح الداوية والإسبتارية مسئولان عن عـدد متزايد من القلاع، سواء أمُنحت هذه القلاع للهيئين، أم قامتا بشراءهما أو بناءهما،

كما نص قانون الهيئتان على عدم دفع فدية لأحد أعضاءهما حال سقوطه فى الأسر، وخوض القتال بدون مقابل مادى مهما كانت ظروف القتال ونسبة القوات المتحاربة ،

وإنتهت الهيئتان نهاية مأسوية، فبعد هزيمة الصليبيين بحطين حطت الهيئتان رحالهما بمدينة عكا، ليطردا منها عقب قيام السلطان الأشرف خليل بن قلاون بتحرير عكا عام 1291م، لتجد الإسبتارية مأوى فى قبرص منذ 1291م، ثم فى جزيرة رودس 1310م، ومنها لجزيرة مالطا 1530م، الأمر الذى نمّا قدرات الهيئة البحرية، وتتمسلك الإسبتارية بطابعها العسكرى الموجه ضد المسلمين، لتهاجم طرابلس الغـرب بليبيا 1531م، قبل أن تطرد منها 1551م، لتعود الهيئة لمالطا حتى تسقط نهائياً على يد نابليون بونابرت 1798م أثناء إبحاره إلى الأسكندرية خلال الحملة الفرنسية، وأن ظلت هناك بعض الطوائف المنتمية للهيئة حتى الأن ببعض الدول الأوربية ،

أما الداوية فبعد سقوط عكا على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون أنتقلت الهيئة لقبرص ومنها لفرنسا، وتتخلى عن طابعها العسكرى وتهتم بالمناحى الإقتصادية من نشاطات بنكية ومصرفية ونشاطات تجارية، الأمر الذى خوّل الهيئة ثروات طائلة كانت وبال عليها حتى تحولت الهيئة إلى فريسة يتلمظ لثرواتها أشداق ملوك أوروبا، حتى هاجمها لويس الرابع (الجميل) الطامع فى ثرواتها، فأفنى أفرادها وقام بالقبض على قيادات الهيئة ويحاكموا محاكمات كنسية، تقضى بهرطقة طقوس الهيئة وإتهامها بالكفر ليتم إعدام ستين من قيادات الهيئة وعلى رأسهم مقدمها جاك دى مولان حرقاً ،

وامام النفوذ الفرنسى المسيطر على التواجد الصليبى بالشرق، وهيمنة اللغة الفرنسية على الحياة الإجتماعية، ظهر فرسان التوتون كأداة فولاذية للمقاومة الألمانية للنفوذ الفرنسى، فقد تم أنشاء هذه الهيئة بشكل رسمى أثناء حصار الصليبيين لعكا 1190م عقب معركة حطين، عندما قام بعض الفرسان الألمان من مدينتى "برمن" و"لوبك" من بقايا قوات الأمبراطور الألمانى فريدريك باربا روسا، المشتركين فى الحصار بإقامة مشفى لرعاية الجرحى والمرضى الألمان بسبب الصعوبات التى يواجهونها بالمستشفيات الفرنسية لعائق اللغة، وبسبب العلاقات غير الودية بين الألمان وهيئة الإسبتارية، وكمحاولة ألمانية لتأكيد إستقلالهم الذاتى ومقاومة الهيمنة الفرنسية، وسرعان ما أعترف البابا كلستين الثالث بالهيئة الألمانية الجديدة، وأتخذت قانون الداوية قانوناً لها، وأتبعت التنظيمات العلاجية الخاصة بالإسبتارية بالمشفى الخاص بها، وأتخذت زى أبيض مثبت به صليب أسود زياً خاصاً لها[34]، وتمتعت بنفس الأمتيازات والإعفاءات التى تمتع بها هيئتى الداوية والإسبتارية، وكانت نواتها أربعون فارساً من النبلاء الألمان الغير متزوجين أختاروا هنرى دى فالبوت مقدماً لهم، وغرقت هيئة التوتون فى الثراء حتى أمتلكت حول قلعة مونتفرات فقط خمسة عشرة قرية ،

وينتهى الحال بالهيئة الألمانية بنقل نشاطها لوسط أوروبا تقاتل القبائل الوثنية ببروسيا (النمسا) ثم تعتنق الجماعة المذهب البروتستانتى، وللهيئة تواجد بالنمسا فى الوقت الحالى كطائفة فخرية ،

[34] رسائل جاك دى فيترى ص216

ولأهمية هذه الهيئات الديرية المقاتلة حرص ملوك بيت المقدس على تشجيع إنشاء مثل هذه الجماعات وأغدقوا عليها الأمتيازات والمنح، فأنتشر محاكين من هيئات أخرى، وأن لم تكن بنفس أهمية الداوية والإسبتارية والتوتون، فقد شجع جودفرى دى بويون حاكم بيت المقدس بعض الرهبان لتأسيس هيئة "كنيسة القيامة" ومهمتها حراسة كنيسة بيت المقدس، كما قام راهب إنجليزى بتأسيس هيئة "القديس توماس" التى أقتصرت عضويتها على الفرسان الإنجليز، وكما تم أنشاء هيئة فرسان "القديس لازاريوس" وأتخذت صليب أخضر ثمانى الأطراف شعاراً لها، التى أنشأت أولا من خلال مشفى لعلاج الجذام وقد كان مقدم الهيئة وأعضاءها من المصابين بهذا الداء، الأمر الذى يمثل خطر مزدوج على المسلمين، سواء بسبب الأعمال القتالية أو بسبب العدوى، علاوة على هيئات "الثالوث المقدس"، و"هيئة السيف"، و"هيئة الروح القدس"، كما أسست مدينة جنوة هيئة "القديس لورانس"، وأسست أسبانيا "هيئة القديس جيمس"، وكما كانت هناك "هيئة القديس جورج" فقد وقع فى الأسر "رينو" الملقب بالأسقف وكان محارباً شجاعاً بارزاً لبراعته الحربية، وكان رئيس جماعة فرسان القديس جورج بعد أن سقط فى كمين للقوات المصرية بعسقلان"[35]

وإن أتسمت العلاقة بين الملك والهيئات الديرية العسكرية بشئ كبير من الغموض فلم يوجد أى روابط رسمية بينهما، كما أمتلك الداوية والإسبتارية صوت مسموع بمجلس الحرب بسبب قوتهما العسكرية والإقتصادية ،

هذا ولم تكن فكرة إنشاء هيئات ديرية مقاتلة وليدة الحرب بالشام، فقد ظهرت عدة هيئات بالأندلس خلال الحروب التى شنتها مملكتى قشتالة وأراجون ضد مسلمى الأندلس، مثل هيئة فرسان "قلعة رباح"، وفرسان "كلاترافا"، كما ظهرت بالغرب الأوروبى بعض الهيئات التى قاتلت الشعوب السلافية على ساحل البحر البلطيقى ،

وقد مثلت قوات الهيئات الديرية المقاتلة نواة الجيوش النظامية بالعسكرية الأوروبية التى كانت تعتمد على الجيوش الإقطاعية المؤقتة حتى ذلك التاريخ، ،

[35] وليم الصورى ج3 ص140

كما تم تجنيد قوات من الشرقيين المنحدرين من أب شرقى قد يكون تركى وأم لاتينية وقد تكون بيزنطية أوالعكس وسميت هذه القوات بالتركبولى وهم رماة الفرنج[36]، وعملت هذه القوات كفرسان خفيفى العدة مسلحة بالقوس والسهم كالفرسان المسلمين، وخصصت للمهام التى تحتاج لخفة الحركة والقدرة العالية على المناورة ،

ولعب ضعف الأمراء الصليبيين بسبب قلة قدراتهم المالية، التى كانت الأغارات والحروب الإسلامية السبب الرئيس فى إنهيار النشاط الزراعى الصليبي مما أدى إلى أرتباك إقتصادى للكيان الصليبى بالشام، أمام النفقات الباهظة للدفاع عن القلاع الصليبية خصوصاً بنقاط التماس مع الأمارات الإسلامية، كل هذا أدى إلى قيام النبلاء الصليبيون إلى بيع قلاعهم وأراضيهم الزراعية، التى وجدت فى ثروات الهيئات الديرية طريقاً لسيطرتها على هذه الإراضى، حتى أصبحت الداوية والإسبتارية بمرور الوقت بمثابة أكبر أقطاعى بالشام، تستطيع تسير جيوش ضخمة والدفاع عن قلاعها المنتشرة بكافة أمارات الصليبيين بالشام، حتى أضطر الأمير ريموند كونت طرابلس 1124م إلى أضافة القلاع الحدودية إلى عهدة الداوية والإسبتارية لقيامهم بالدفاع عن هذه القلاع، وهى السياسة التى أتبعها كافة أمراء وملوك الصليبيين بالشام، الأمر الذى أدى إلى زيادة قوة هذه الهيئات، فقد سبق أن قام ريموند كونت طرابلس بمنح الإسبتارية حصن الأكراد الحدودى، كما قام ملك بيت المقدس بمنح الإسبتارية قلعة بانياس 1157م، وقامت الإسبتارية بشراء حصن المرقب عام 1186م علاوة على بعض القلاع الهامة الأخرى ،

وتنشأ هوة سحيقة بين المثل العليا التى بنيت عليها الداوية والإسبتارية كهيئتان دينيتان كانتا تناديان بأنهما سيعملان من أجل المسيح فى إخلاص، وسيتبعان الفقر منهاجاً وسيكونا جنود المسيح، وبين الواقع الفعلى بكونهما من أكبر الإقطاعيين وملاك الأراضى بمملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى وأكبر مرابين بأوروبا ،

ومن المحتمل إشتراك بعض القبائل المحلية ضمن صفوف الصليبيين كقوات مساعدة أو خدمية، ففى معركة جرت بين نور الدين محمود والصليبيين بالقرب من مدينة بانياس، عندما دفع الصليبيون سرية قوية لتقوية حامية

[36] الإعتبار ص51

بانياس، قام شقيق نور الدين محمود، الأمير نصرة الدين أمير أميران بنصب كمين لهذه السرية والقضاء عليها تماما، "ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الفرنج ومسلمى جبل عاملة المضافين إليهم"[37]

قلاع وحصون

وقد أجبرت قلة القوات المتاحة للصليبيين وكذلك إتساع الأراضى المسيطرين عليها وتنامى القوة العسكرية الإسلامية وسيطرة روح الجهاد لتحرير الشام، إلى إتباع الصليبيين إستراتيجية عسكرية تقوم على تجنب الإشتباك فى أى معارك مفتوحة إلا فى أضيق الحدود، وتشكيل الجيش الصليبى كقوات ذات مرونة عالية تسمح لهم بسرعة وسهولة المناورة ونقل القوات بين جنبات الأراضى المحتلة، والأعتماد على إستراتيجية دفاعية تعتمد على أعمال هندسية تتمثل فى القلاع القوية المسيطرة على نقاط حدودية حاكمة والطرق الرئيسة، وزاد شعور الأقلية الذى سيطر على الصليبيين، من تقوقعهم داخل حصون توفر لهم الشعور بالأمن، خصوصاً بعد فشل المؤسسة الحاكمة الصليبية فى إكتساب حب المحكومين وتكوين حاضنة شعبية لها، حتى أصبحت هذه القلاع كطوق حجرى يحمى وجودهم، ومراكز يدار منها الحكم، للتغلب على القصور فى القوى البشرية المؤهلة للخدمة العسكرية، وكذلك لطول خطوط التماس بين الأمارات الصليبية والمسلمين، ومثلت هذه القلاع مراكز محصنة لتأمين الحدود وثكنات للقوات المقاتلة، والإحتفاظ بالغنائم والأسرى، ومراكز إمداد وتموين لقواتهم، ومحطات عسكرية متقدمة، وملاجئ للسكان، والأهم تحصيل الضرائب على الأراضى الزراعية الخاصة بالسكان سواء المسلمين أو المسيحيين الشرقيين، فبلدوين الثانى أنشأ قلعة بالقرب من بيروت حيث "كان الفلاحون الشرقيون يرفضون دفع ضرائب أراضيهم ولكنهم أجبروا بعدئذ على ذلك"[38]، وعقب نجاح نور الدين محمود فى ضم مصر لدولته على يد صلاح الدين "أضطر آمورى إلى بناء بعض الحصون والقلاع القوية على الحدود، لتفصل بينهم بين أعداءهم، ولتكون إيضاً بمثابة خطوط دفاعية قوية[39]"

37 الروضتين ج1ص311
38 تاريخ الحملة إلى القدس ص226
39 رسائل جاك دى فيترى ص187

وقد ربط الصليبيون بين قلاعهم بشبكة إتصالات بالحمام الزاجل أتخذوها من المسلمين، أو بالنيران والإشارات الضوئية أتخذوها من البيزنطيين، علاوة على التحالف مع بعض الحكام العرب ومهادنتهم حتى الفرصة المناسبة للقفز عليهم، ليس هذا فحسب بل عاش الصليبيون فى مجتمعات مغلقة محصنة، فجميع المدن والقرى الصليبية مهما صغر حجمها كانت عبارة عن قلاع وأبراج محصنة، حتى المنشأت الدينية من كنائس وأديرة تم بناءها بالشكل الذى يوفر الحماية لقاطنيها،[40]

وقد عمد الصليبيون إلى الإكثار من إنشاء المستوطنات التى توفر مناطق جذب للمهاجرين اللاتين بمنح تسهيلات ومميزات للقادمين من الغرب، مما يحقق بعض التوازن مع السكان الأصليين لفلسطين بتغيير التركيبة السكانية للأرض المحتلة، وكما سيوفر هؤلاء المستوطنون جانب مهم من إحتياجات الصليبيين من المنتجات الزراعية[41]، فالحركة الصليبية ـ وكذلك خليفتها إسرائيل ـ حركة إستيطان وإستعمار قائمة على إستغلال أراضى الغير وفرض الأمر الواقع بالقوة المسلحة، وقد إنتشرت هذه المستوطنات فى طول الأراضى التى سيطر عليها الفرنج وعرضها، نجد منها الكثير حول مدينة القدس وفى الضفة الغربية لنهر الأردن، مثل مستوطنة كفر مالك، والقبيبة، وبيت جبروين، وغزة، والداروم، والبيرة، وأمتد وجود المستوطنات لمدينة عكا التى تم تشيد مستوطنة كاستيل إمبرت بجهتها الشمالية، وإن نقل الصليبيون أسماء غربية لهذه المستوطنات المشيده على أنقاض قرى عربية[42]، فمثلاً مستوطنة البيرة تم إطلاق أسم لاتينى عليها وهو "ماجنا ماهومريا" والتى كانت تابعة لكنيسة بيت المقدس وملكية خاصة لها، بينما حملت القبيبة أسم "ماهومريا بارفا"، وأدرعات أصبحت "برنارد دى تامب"

والمستوطنة بشكل عام كانت تتكون من الأراضى الزراعية وفى مركزها بيوت قاطنى المستوطنة والكنيسة والمركز الإدارى، يضاف لذلك بعض المنشأت الخدمية مثل الطاحونة والمخبز، ومن الجدير بالذكر أنه كان يمنع بناء طاحون أو مخبز إلا لسيد المستوطنة، مما كان يدر عائد مجزى له، ويحيط بهذه المبانى سور دفاعى وفى أحد زواياه قلعة أو برج ،

40 كما فى حالة إسرائيل الأن
41 كما فى حالة إسرائيل الأن
42 كما فى حالة إسرائيل الأن

ويُمنح المستوطن الصليبى قطعة أرض زراعية مقابل إيجار نقدى وكذلك تقديم عشر أنتاجه من الفاكهة والمنتجات الزراعية الأخرى إلى مالك المدينة أو القرية، سواء الملك أو الكونت أو الكنيسة أو الهيئة الديرية، وكذلك على المستوطن دفع نسبة من الغنائم التى قد يستولى عليها، ويفرض على المستوطن طحن حبوبه بطاحونة سيد المستوطنة، وخبز خبزه بفرن السيد أيضاً

وقد قام سيد المستوطنة بزراعة أراضيه عن طريق سكان المنطقة الأصليين بعد أن حولهم إلى أقنان أرض فى أراضيهم وأراضى أجدادهم، بعد أن أرهقهم بعدة ضرائب وإلتزامات مالية مجحفة، فقد كان على المسلم أن يسدد ضريبة أساسية تقدر بثلث إنتاجه الزراعى بشكل عينى، سواء من الحنطة أو الكروم، أما أشجار الفاكهة والزيتون فقد فرض عليه سداد نصف المحصول، ونقل وتسليم هذه الضرائب لسيد المستوطنة فى مخازنه، بالإضافة إلى ضرائب على إنتاج النشاطات المساعدة للمزارع مثل عسل النحل وحيوانات الحقل والطيور الداجنة، علاوة على تقديم المزارع المسلم هدايا إجبارية ثلاثة مرات سنوياً إلى سيد المستوطنة، تشمل طائر من الطيور الداجنة، وعشر بيضات ونصف رطل من الجبن وأثنى عشر بيزانت كثمن للحطب المستخدم كوقود، بالإضافة إلى إلتزام القن المسلم بالسخرة فى بناء القلاع والتحصينات الدفاعية،

يضاف لذلك فرض ضريبة نقدية موحدة على كل مسلم بالغ من المقيمين بالأراضى المحتلة تقدر بعملة ذهبية واحدة عرفت بأسم نوميزما، وهى عملة ذهبية مرتفعة القيمة، ولزيادة حصيلة الصليبيين الجشعة من هذه الضريبة تم تحديد سن الرشد للمسلم بخمسة عشر عاماً، يضاف لذلك ضريبة مستحدثة على كل سكان المملكة للدفاع عنها عقب زيادة النشاطات العسكرية الإسلامية فى عهد صلاح الدين الأيوبى (1183م)

والغالب أن سكان المستوطنات كانوا من طبقة البرجوازية والبولان (الصليبيون البلديون)، وهم يشكلون ميليشيات عسكرية بجانب أعمالهم الأصلية الحرفية والتجارية، مما يبين حقيقة عسكرة المجتمع الصليبى بالشرق (الجيش هو الشعب والشعب هو الجيش) ومما وفر معين لتغذية الجيوش الصليبية،

ولبيان الأهمية العسكرية للمستوطنات الصليبية نرى الحامية الفاطمية بمدينة عسقلان تهاجم مستوطنة البيرة 519هـ /1124م لوقوعها فى الطريق الرابط بين نابلس والقدس على بعد خمسة أميال شمال القدس، بما كان يمثل مركز دفاعى متقدم لعاصمة المملكة اللاتينة، وأستطاعت القوات الفاطمية أن تستولى على المستوطنة قسراً "وحكموا السيف فى رقاب سكانه الذين هلكوا عن بكرة أبيهم، ولم يستثن من القتل سوى الشيوخ والنساء والأطفال إذ كانوا قد لجئوا إلى البرج" [43] ليسفر الهجوم عن مقتل جميع ميليشيا المستوطنة[44]،[45]

[43] وليم الصورى ج 3ص 39

[44] تاريخ الحملة إلى القدس ص214

[45] الملاحظ هو إستفادة الحركة الصهيونية بدراسة المستوطنات الصليبية لتتجه الحركة الصهيونية إلى إقامة مستوطنات ذات ملكية جماعية يديرها الكيبوتز (لم الشمل بالعبرية) وتتطور المستوطنة لما عرف بالموشاف (المستوطنة بالعبرية) وهى ذات ملكيات خاصة توفر الحماية للمدن الكبرى والمناطق الخالية من السكان، وكما توفر إنتاج زراعى صناعى خدمى للدولة الإسرائيلية وتمدها بالجنود، كل هذا قائم على تهجير السكان الأصليين من أراضيهم وإحلال المستوطنيين مكانهم

فرسان الهيئات الديرية

"وأستولوا على ممتلكاتهم

وأموالهم وأذاقوهم

مرارة الذل والهوان"

إبن القلانسى

واصفاً حال أهالى مدينة جبيل

بعد إستيلاء الفرنج عليها

ولم يتخاذل الفاطميون أمام الصليبيين، فكانت أولى محاولات تحرير القدس قادمة من مصر عندما قاد الأفضل شاهنشاه الوزير الفاطمى جيشه لفك الحصار عن المدينة المقدسة والدفاع عنها ولكنه وصل متأخراً، فأضطر الأفضل إلى التمركز بعسقلان منتظراً وصول الأسطول بالإمدادات، فاخذ جودفرى بزمام المبادرة وهاجم الجيش الفاطمى بمساعدة زملاءه فى الجيش الصليبى قبل عودتهم لأوروبا، فأستطاع هزيمة الجيش الفاطمى مما أكد السيطرة الصليبية على القدس وكتابة شهادة ميلاد المملكة، وقد كان وصول أسطول بندقى فى يونيه 1100م عارضاً خدماته على الصليبيين فى الإستيلاء على أى مدينة ساحلية بشرط الحصول على ثلث المدينة خالصة للبندقية، كأشارة بدء لتحرك صليبى جديد ناحية حيفا تحت قيادة تنكريد والذى نجح فى الإستيلاء عليها وقتل جميع سكانها الذين رفضوا عرض أسقف البندقية بإعتناق المسحية أو إخلاء مدينتهم، فأقتحم الصليبيون المدينة بالسيف[1] فى نفس اللحظة التى وصلت إليه فيها نبأ وفاة جودفرى[2] حاكم بيت المقدس فى 18 يوليه 1100م .

أسر بوهيمند

وفى هذه الأثناء كان بوهيمند يحاول زيادة نفوذه فى شمال الشام، بينما يشتعل صراع قديم للسيطرة على مدينة ملطية الأرمينية بين الأرمن والتركمان،

[1] ذيل تاريخ دمشق ص139

[2] يورد محمد بن العظيمى الحلبى بكتابة تاريخ حلب رواية مقتل جودفرى جراء سهم اصابة خلال معركة ضد عكا، تاريخ حلب ص360

وأنتهز بوهيمند إستنجاد حاكم ملطية الأمير جبريل الأرمنى به من هجوم الملك غازى كمشتكين بن دانشمند(477-495هـ/1084-1102م) أمير سيواس الرهيب، ليحاول بوهيمند تأكيد سيطرته وقوته فى شمال الشام، فبالرغم من قرب الرها وأميرها بلدوين من ملطية، إلا أن تجربة ثوروس الدامية أقنعت جبريل بتجنب الإستنجاد به، وقدم جبريل عرضاً سخياً سال له لعاب بوهيمند، بوضع مدينة ملطية الغنية تحت حماية أمير أنطاكيا الطموح، فزحف بوهيمند بقواته بدون مبالاة، لحماية ملطية منتشياً بخمر الإنتصارات التى لقوها فى طريقهم للقدس، ليقع فى كمين نصبه آل دانشمند التركمان لينتهى الحال بأسر بوهيمند وأبن عمه ريتشارد دى سالزنو، وذبح كامل قواته فى رمضان 493هـ/أغسطس1100م ولم يستطيع بلدوين إنقاذ بوهيمند الذى نقله كمشتكين لداخل دولته لتقع أمارة أنطاكيا فى مشكلة البحث عن من سيقوم بإدارتها حال غياب أميرها الأسير، وأن مثّل أسر بوهمند فرصة ذهبية لمملكة بيت المقدس وملوكها لتبوء مكانة أسمى من باقى الكيانات الصليبية الأخرى، بعد إختفاء هذا الأمير ذو القدرات العسكرية والسياسية الفذة، الذى كان يستطيع بإمكانيات أنطاكيا الضخمة سحب البساط من تحت أقدام بيت المقدس كالمدينة المسيطرة على باقى الكيانات الصليبية، لتجد أنطاكيا ضالتها فى شخص تنكريد أبن شقيقة بوهيمند الذى تولى الوصاية على الأمارة المكلومه لحين فك أسر خاله، والغريب إقدام كمشتكين على إطلاق سراح أسيره الثمين مقابل فدية فى مايو1113م

بلدوين الأول وتأسيس مملكة بيت المقدس

وصل خبر وفاة جودفرى لشقيقه بلدوين أمير الرهُا، فسارع بالتوجه إلى بيت المقدس بقوات ضئيلة تبلغ حوالى مائتى فارس وسبعمائة من الرجّالة[3]، بينما أخذ بطرق القدس دايمبرت فى العمل على فرض سيطرته على المملكة محاولاً إنشاء حكومة ثيوقراط(دينية) ليتعثر بمقاومة رجال جودفرى المنتمين لشمال فرنسا والغير مستعدين للخضوع لبطريرك ينتمى لمدينة بيزا الإيطالية، والمنتظرين وصول بلدوين لتسلم زمام السلطة، وهو ما عمل دايمبرت على مقاومته فقام بإرسال رسالة لبوهيمند طالباً منه منع وصول بلدوين للقدس بالقوة، ولكنه لم يكن وصل له أخبار أسر بوهيمند، وأثناء توقف بلدوين أمام أسوار طرابلس فى طريقه لبيت المقدس، أتحفه والى طرابلس

[3] تاريخ الحملة إلى القدس ص103

بالهدايا والخبز والخمر والعسل المصفى وأكباش الضأن المطهية[4]، وبأخبار كمائن دقاق أمير دمشق التى نصبها للإيقاع به خلال الطريق، مما مكن بلدوين من مقاومة قوات دقاق والتنصل منها، وعندما عسكر بلدوين أمام مدينة بيروت أرسل أمير المدينة قوارب مليئة بالطعام يومياً للورد بلدوين[5]، وعند مرور بلدوين بمدينة حيفا التابعه لتنكريد، خشى بلدوين من ذكرى عراكه مع تنكريد فلم يدخل المدينة لذلك، ليفاجئ دايمبرت ببلدوين فى 10 نوفمبر 1100 م أمامه بشوارع القدس، ليُنادى به الجميع ملكاً على بيت المقدس، وأمام الأمر الواقع تراجع دايمبرت وقام بتتويج بلدوين ـ الذى أمتلك لا مبالاة دينية سافرة ـ ملكاً على القدس بكنيسة القيامة فى ديسمبر1100م.

واشتهر بلدوين بإنحلاله الأخلاقى حتى "أنه لم يكن بإستطاعته كبح شهواته، فأنحدر وأنغمس فى الملذات الجسدية" وكان بلدوين قد تزوج بالأميرة أردا الأرمينية أثناء تولية كونتية الرها، لكسب الأرمن فى صفه والإستفادة من ثروتها، ولكن الملك بلدوين أصبح فى غير حاجة إليها، فقام بتدبير مؤامرة للتخلص منها "فأتفق مع أسقف بيت لحم لكى يتم الطلاق منها، بذريعة إنها تم إغتصابها على يد بحارة السفينة التى كانت تستقلها، وإنها ليست مثال للعفة"[6]،

وقد حاول بلدوين إنعاش إقتصاد دولته فقام بمنح إعفاء ضريبى للتجار الذين يفدون بالحاصلات الزراعية من القمح والشعير لعاصمته ،

وقد عمل بلدوين الأول على توسيع مملكة بيت المقدس وتوفير رئة لها على البحر المتوسط لضمان سهولة إتصاله بالأوروبا، التى يعتمد عليها إعتماداً كلياً لحياة مملكته، فالغرب هو الضمان الوحيد لبقاء الكيان الصليبى على قيد الحياة، فبدون الأمواج البشرية المتلاطمة على سواحل المملكة القادمة من الغرب ما كانت المملكة وأخواتها تستطيع الحياة وسط البحر الزاخر الإسلامى، علاوة على الهبات المالية المستمرة التى تغذى خزانة الصليبيين الخاوية بشكل مستمر، وبالرغم من تحكم الدوافع الإقتصادية فى الذهاب للشرق، إلا أنه طالما نجح الصليبيون على تقديم أنفسهم للغرب كحماة لأقدس

[4] تاريخ الحملة إلى القدس ص103
[5] تاريخ الحملة إلى القدس ص106
[6] تاريخ وليم الصورى ج2 ص195

مقدساتهم بالقدس، نظر الغرب للكيانات الصليبية نظرة عاطفية كجزء من لحمه ودمه، الأمر الذى جعل الحملات والجنود لا تنقطع عن سواحله ،

فما ان وصل أسطول من جنوا حتى أنتهز بلدوين هذه الفرصة وعقد إتفاقية معه على أن يهاجموا بعض المدن الساحلية على أن تحصل جنوا على ثلث الغنائم من المنقولات وكذلك شارع من سوق أى مدينة يساعدون فى الإستيلاء عليها، وقد أختار بلدوين البدء بأرسوف التى أستسلمت فى أبريل 1101 م، ولحقت بها قيسارية فى مايو 1101م التى أحدث بها الصليبيون مذبحة مروعة أعادت إلى الأذهان ذكرى إقتحام بيت المقدس، وتم إشعال النيران فى جثث القتلى من أهاليها، وإن نجا نساء المدينة، لبيعهن فى أسواق الرقيق، بعد أن حصل كل مقاتل من جنوة على ثمانية وأربعين قطعة نقود ذهبية ومائتى رطل من الفلفل، بما يغطى تكاليف سفره من جنوة مع هامش ربح مجزى ،

طرابلس وريموند

فى هذه الأثناء أتجه ريموند كونت تولوز العجوز يجر أذيال الخيبة للقسطنطينية، يلعق جراح فشله فى كل ما خطط له، فهو لم يتم تعينه قائداً عاماً للحملة كما حلُم، ولا هو أستطاع إحكام قبضته على أنطاكيا، ولا أعتلى رأس السلطة فى بيت المقدس، ليفاجئه عام 1101م بضواحى القسطنطينية مشهد أرتال الألاف من فرسان الفرنجة الزاحفين شرقاً بعد أن ألهب حماسهم أنباء سقوط المدينة المقدسة وثروات الشام المتدفقة بين أيدى مواطنيهم الذين سبقوهم للشرق، هؤلاء الفرسان قادمون من لمبارديا بإيطاليا علاوة على أعداد معتبرة من الفرنسيين والألمان، لتتجدد أمال الفارس العجوز فى إيجاد موطأ قدم لأمارة له، ليزحف متقدماً الفرسان فى طريق الثراء بعد عقد صفقة مع الأمبراطور، لتصطدم شراسة وعناد هذه الجموع المشاكسة الأمير العجوز، بعد أن رفضت هذه الجموع الإنصياع لأوامره وأصرت على عدم الزحف جنوباً، والزحف لداخل أراضى السلاجقة لتحرير بوهيمند عدوا ريموند القديم، بعد أن رفض الفرسان اللومبارديون القادمون من ايطاليا ترك أبن وطنهم يرسف فى قيود الأسر، وزحفوا قسراً لمنطقة نائية فى كبادوكيا لمحاربة آل دانشمند فى عقر دارهم، بعد أن أسكرتهم خمر إنتصارات الحملة الأولى، ليزحف ريموند مجبراً على رأس فرسانه الجدد، بعد أن جمع هذا الزحف جميع القوى الإسلامية بأسيا الصغرى، بعد أن أستشعروا خطورة هذه

الجموع الغوغائية، ويتم إستدراج الجيش الصليبى بسهولة، وهو يزحف فى رعونة وغرور، حتى أنهكته حرارة الطقس وندرة الماء والمؤن، لتهاجمه قوات السلاحقة وآل دانشمند حلفاء اليوم، ليتم القضاء على هذه الجموع الغير منضبطة بيسر وسهولة، بينما ريموند يلوذ بالفرار فى إتجاه القسطنطينية،

لتختفى هذه الجموع الضخمة بدون أى نتائج إلا إتخام أسواق الرقيق فى المدن الإسلامية بالألاف من العبيد، وتفشل هذه المحاولة الأوروبية فى تحقيق أى نجاح بالرغم من ضخامة أعدادها بسبب الغرور الذى سيطر عليهم بعد نجاحات الحملة الأولى ،

ليزحف ريموند بفلول قواته فى إتجاه أمارة بنى عمار بطرابلس حلفاءه القدامى، ليصطدم بصديقه أمير طرابلس فخر الدين أبو على بن عمار (492-501هـ/1099-1108م) ذو النزعات السلمية، ليعيد ريموند سيطرته على أنطرسوس بمساعدة فلول الجموع اللمباردية، ومعاونة أسطول جنوى تصادف مروره باحثاً عن أى غنائم، ليتخذها ريموند قاعدة عمليات للإستيلاء على طرابلس وحمص لفرض سيطرته على حوض نهر العاصى الخصيب،

ويضطر فخر الدين إلى نسيان خلافاته القديمة مع القوى الإسلامية التى طالما ساعد الصليبيين ضدهم، ليستنجد بصاحب دمشق وصاحب حمص، ليرسل دقاق صاحب دمشق ألفين من فرسانه، لينضموا إلى فرسان حمص الذين أرسلهم أميرها جناح الدولة حسين، وبالرغم من ميل ميزان القوى البشرية لصالح المسلمين إلا أن ريموند أستطاع تحطيم هذا الجيش ليحاول محاصرة طرابلس، قبل أن يضطر لرفع الحصار لقلة قواته، ليهاجم ريموند حصن الأكراد التابع لجناح الدولة صاحب حمص، الذى إغتيل على يد الحشاشين أثناء تجهيزه قوات لمقاتلة ريموند، أثناء صلاة الجمعة بتدبير "الحكيم المنجم الباطنى"[7] رئيس الحشاشين وصديق رضوان صاحب حلب المقرب، ليحاول ريموند إستغلال مقتله ويهاجم حمص، وأن أضطر لرفع الحصار بسبب نجدة دقاق للمدينة،

ليستغل ريموند رسو اسطول جنوى من أربعين سفينة بميناء اللاذقية ويهاجم بمعاونته مدينة جبيل التابعة لإمارة طرابلس ويستولى عليها (1104م) وسط مذابح قامت بها قوات جنوة التى لم تحترم الأمان الذى منحه ريموند للسكان

[7] تاريخ دمشق ص230

المستسلمين، وأستولوا على ممتلكاتهم وأموالهم وأذاقوهم مرارة الذل والهوان[8] ويتم منح جنوة ثلث المدينة لتكون نواة مستعمرة جنوية بجبيل تحت حكم أسرة أمبرياتشى ،

ويقوم ريموند ببناء قلعة صنجيل أمام طرابلس لإحكام الحصار على المدينة الصامدة، وعندما نجح الطرابلسيون فى إحراق هذا الحصن أصيب ريموند بحروق بالغة أدت إلى وفاته ،

ليختار فرسان ريموند وليم جوردان أبن خالته خليفة له لإكمال سيطرته على طرابلس، بينما برترام أكبر أبناء ريموند فى فرنسا يدير أملاك والده هناك، ليُحكِم وليم جوردان الحصار على طرابلس بإستيلاءه على حصن عرقة المنيع الواقع شمال طرابلس، ويزداد الأمر سوءاً داخل المدينة المحاصرة، وترتفع أسعار السلع بشكل جنونى، بينما تتعالى أصوات أميرها أبن عمار طالباً النجدة، ليرتد إليه صدى صوته بلا مجيب، ليضطر إلى الإسراع لبغداد لمقابلة السلطان السلجوقى والخليفة العباسى، الذان يحييا الأمير الشجاع الصامد للحصار طوال ستة سنوات، بعد أستقبال شديد الفخامة، ويتبادلا معه العبارات الرقيقة المشجعة فقط، بدون أى نية للمساعدة العملية، ليقتنع أبن عمار بعدم جدوى وجوده ببغداد لييمم وجهه شطر طرابلس، ليصطدم بأذنيه فى منتصف الطريق خبر إستنجاد وجهاء طرابلس بالفاطميين وتسليم المدينة لهم، بينما يصل برترام بعد مقتل أبيه بثلاث سنوات مطالباً بإرثه، التى كان يرى طرابلس من ضمنه حتى قبل سقوطها، بدعوى إن أبيه أول من حاصرها، ليرفض وليم جوردان تسليمه ثمرة مجهوداته طوال السنوات الثلاث، ليستنجد برترام ببلدوين، فى الوقت الذى أستنجد وليم جوردان بتنكريد، ليتم تقسيم أراضى طرابلس بين الأميرين، وتتحد جهود الجميع فى إسقاط المدينة الباسلة بعد ست سنوات من الحصار الفظيع، وكالعادة لم تحترم قوات جنوة إتفاق الملك مع وجهاء طرابلس بالإخلاء الأمن لمدينتهم، فأطلقوا العنان لوحشيتهم الجشعة فى قتل أهالى المدينة العزل دون إستثناء (1109م) ليعتلى برترام (502-505هـ/1109-1112م) عرش إمارة طرابلس الموحدة بعد إغتيال وليم جوردان فى ظروف غامضة لا تبرءه،

موقعتى الرملة الأولى والثانية

[8] ذيل تاريخ دمشق ص143

لم تقف مصر مكتوفة الإيدى، فأعتمد الأفضل سياسة القتال لطرد الصليبيين من الساحل والثأر لضياع بيت المقدس وهزيمته السابقة وخداع الصليبيين له، فقد كانت للدولة الفاطمية قوات بحرية ممتازة، ونظم عسكرية برية، لعل من أهمها صبيان الحُجر، وهم جنود كانوا يتم تجنيدهم من أبناء المصريين، سواء عسكريين أم مدنيين، وكانوا يتلقون تدريباتهم بثكنات عسكرية تسمى الحُجر، ملحقه بالقصر الخليفاتى، وأن كانت هناك حُجر أيضاً بجوار باب النصر، يضاف لهؤلاء صبيان الخاص وهم قوات النخبة والمكلفين بحراسة الخليفة، علاوة على باقى فرق الجيش الفاطمى مثل فرق الريحانية والجيوشية والأسكندرانية والفرحية وعبيد الحافظ [9]

ومثّل صبيان الحُجر قوات نظامية محترفة ومدربة تدريب عالى، وأدت الحروب الصليبية إلى زيادة أعداد صبيان الحُجر فى عهد الأفضل حتى أصبحوا كالمماليك السلطانية خلال عهد المماليك، وكان يتم تشكيل قوات حامية عسقلان من هذه القوات النخبة، التى كان يجرى إستبدالها أربعة مرات سنوياً، حيث "كان من عادة المصريين أن يرسلوا إليها أربع مجموعات سنوياً تحل الواحدة محل الأخرى، حتى تظل قوة حامية عسقلان متجددة على الدوام، ومن ثم يكونون قادرين دائماً على متابعة القتال ضد الفرنجة وتكبيدهم الخسائر المتلاحقة"[10]، "وكان من الطبيعى أن يحاول هؤلاء القادمون الجدد مضاعفة جهدهم للدلالة على شجاعتهم، لذا كانوا يكثرون من القيام بغارات وحملات هدفها التخريب"[11] حتى "رأى الصليبيون أن ليس ثمة بارقة أمل تومئ إلى توقف هذه الغارات الجريئة من جانب الأعداء لإستمرار تجدد قواتهم التى كانت كالحية ذات الرؤوس التسعة، فكانوا كلما هزمت طائفة من جندهم حلت أخرى جديدة مكانها، فيزدادون بأساً على بأس"[12]

حتى أضحت عسقلان شوكة فى جنب مملكة بيت المقدس وصخرة تحطمت عليها هجمات صليبية متوالية، مما دفع وليم الصورى بوصفهم "كالفراشة

[9] الإعتبار ص6
[10] وليم الصورى ج3 ص49
[11] وليم الصورى ج3 ص131
[12] وليم الصورى ج3 ص131

التى لا يقر لها قرار، يتربصون بالصليبيين الدوائر يصيبونهم فيها بالضرر"[13]

وأضطلعت صبيان الحُجر بتشكيل قوات إغارة تنطلق من عسقلان، بمفارز قوية تتألف من أربعمائة إلى ستمائة جندى، يرأس كل مائة جندى أمير يقومون بأعمال تعرضية، وتشن هذه المفارز حرب إستنزاف ضد المستوطنات الصليبية، وأمتازت هذه القوات بالبسالة والفعالية والمبادءة، وأنضم إليهم العديد من الفرسان المتشوقين لقتال الفرنج مثل أسامة بن منقذ[14] الذى قاد حامية عسقلان لمهاجمة مرفأ يبنى، وتم قتل مائة صليبى وأسر العديد منهم[15]، كما حدث فى 1138م أستغلت حامية عسقلان إنشغال الملك فولك بحصار بالقرب من دمشق، وقامت بالهجوم على المنطقة الواقعة بجوار البحر الميت، الأمر الذى دفع رئيس جماعة فرسان المعبد روبرت البرجندى والفارس برنارد فاشيه بجمع الفرسان والقوات الراجلة المتبقية بالمملكة ومطاردة القوات المصرية، بينما القوات المصرية تنسحب لجر الصليبيين وراءهم، لترتد حامية عسقلان تهاجم مطارديها، فتفر القوات الصليبية وتم الفتك بالعديد منها، "وعاد العدو إلى عسقلان ظافراً منصوراً"[16] على حد قول وليم الصورى

ولم يجد الصليبيون ما يوقف حامية عسقلان إلا إستراتيجية الصليبية المعتمدة على القلاع والحصون، فتم تشيد قلعة فى بير سبع، تعقبها أخرى فى أبلين ثم ثالثة تسمى بلانش جارد، ليتم حصار عسقلان، ويضاف لذلك ضعف وشيخوخة الدولة الفاطمية،

وإن كان وسائل حماية فرسانهم لا تضاهى دروع فرسان الفرنج، وأعتمد فرسان صبيان الحُجر على الرمح والسيف فى قتالهم، فى ظل ضعف دروعهم النسبى، بينما أعتمد السلاجقة على أسلوب القذف والقتال من مسافة بإعتمادهم على الفرسان النبّالة، الأمر الذى قلل القتال المتلاحم ضد الفرسان الصليبيين المدرعين بشكل كامل،

---

[13] وليم الصورى ج3 ص38

[14] فارس وشاعر عربى ينتمى لأسرة بنى منقذ أمراء شيزر بلبنان ،

[15] الإعتبار ص17

[16] وليم الصورى ج3 ص174

قام الأفضل بتشكيل حملة وعهد بقيادتها إلى مملوك أبيه المسمى سعد الدولة القواسى، والذى أضاع عدة أشهر معسكراً بعسقلان الأمر الذى أتاح لبلدوين تنظيم قواته ودفاعاته، ليزحف الجيش المصرى ويتمركز بالقرب من مدينة الرملة ليتسنى له تهديد مدينة القدس ومرفأ يافا، ويلتقى بالجيش الصليبى الخارج لقتال قواته فى 7سبتمبر1101م بقرب مدينة الرملة، وفى أثناء القتال يقتل قائد الجيش المصرى بعد أن سقط به جواده، بينما قلب الجيش المصرى يشدد ضرباته ضد الصليبيين الأمر الذى يصيبهم بخسائر فادحة تجبرهم على التقهقر والإحتماء بيافا[17]، فسارع الأفضل إلى تشكيل حملة أخرى فى مايو 1102م تحت قيادة أبنه شرف المعالى سناء الملك حسين بن الأفضل، الذى زحف فى أتجاه مدينة القدس، وحاصر مدينة الرملة ـ التى أصبحت الهدف الإستراتيجى للقيادة المصرية لتوسطها الطريق بين القدس ويافا الأمر الذى يتيح تهديد المدينتين الأبرز فى دولة الصليبيين ـ ليسارع بلدوين شمالاً فى إنتظار قوات قادمة من الشمال، بقيادة ستيفن كونت بلو، الهارب من أمام أنطاكيا والباحث عن ما يحفظ به ماء وجهه أمام زوجته الثرثارة، وستيفن كونت برجندى، ويسوق الغرور بلدوين لقتال الجيش المصرى، وعندما نصحه ستيفن كونت بلو بعدم مهاجمة الجيش المصرى صرخ فيه بلدوين بإنه سيهاجم حتى لو كان ستيفن ورجاله فى فرنسا، ويباغت الجيش المصرى بلدوين وقواته بالقرب من الرملة 17مايو1102م لينتهى الأشتباك بهزيمة بلدوين وفراره ـ بعد أن أرتمى فى أرض المعركة مختفياً بين الحشائش ـ وإحتماءه بالرملة[18]، التى زحف نحوها الجيش المصرى، وقتلوا أكثر خيله ورجالته[19] ثم أستطاع بلدوين الفرار من الرملة متنكراً بدون أخبار رجاله هو وخمسة من فرسانه وكان أمام بلدوين فارس أنجليزى يدعى روبيرت ومن خلفه بلدوين ثم أربعة فرسان، تاركاً باقى رجاله تحت رحمة السيوف المصرية، حتى الفرسان الخمسة الذين فروا معه قام الجنود المصريون بالقضاء عليهم، بعد أن أختفى فى أجمة قصب حين تم مطاردته، وقام جنود الجيش المصر بإحراق تلك الأجمة حتى أصيب جسده ببعض حريق[20] قبل إقتحام الجيش المصرى الرملة ليذهب فرسان بيت المقدس طعمة لسيوف المصريين، الذين قتلوا أربعمائة فارس صليبى وتم إرسال ثلاثمائة فارس

17 تاريخ حلب، العظيمى ص360
18 تاريخ حلب ص360
19 تاريخ دمشق ص229
20 تاريخ دمشق ص 229

أخرين للقاهرة، ومن بين القتلى ستيفن كونت برجندى وستيفن كونت بلو، وغيرهم من كبار أمراء أوروبا، ويتجول بلدوين منفرداً حتى يصل لأرسوف، ويتسلل بحراً لمدينة يافا، التى أتجه إليها الجيش المصرى لتحريرها ومطاردة بلدوين، وشاء حسن حظ بلدوين وصول أسطول ضخم من مائتى سفينة تحمل عدد ضخم من الجنود الأنجليز والفرنسيين والألمان ملئ الساحل[21]، مما أتاح معونة كان الصليبيون فى أمس الحاجة إليها، لتتجمع الجيوش الصليبية المتبقية بالمملكة وتتحد مع الحجاج القادمين من أوروبا ليخرج بلدوين من يافا فى 27مايو 1102م ليستطيع هزيمة الجيش المصرى وفك الحصار عن يافا،

ويصل للشرق أسطول جنوى باحث عن أى مكاسب، ليسرع الخطى لبيت المقدس عارضاً خدماته ومتساءلاً عن الثمن، ويسرع بلدوين بجيشه غرباً للإستيلاء على عكا فى مايو1104م بمساعدة هذا أسطول الجنوى المكون من سبعين سفينة[22]، بعد أن تم الأتفاق على إعطاء جنوا ثلث عكا بعد مقاومة بطولية من الجيش المصرى تحت قيادة الأمير زهر الدولة الجيوشى، وبالرغم من الإتفاق بين الحامية والملك بلدوين على إخلاء المدينة بشرط عدم المساس بأهالى عكا ومنحهم الأمان، إلا أن الجنويين لم يحترموا إتفاق الملك وأعملوا القتل فى أهالى المدينة العزل، الأمر الذى قلص النفوذ الفاطمى بالشام، وأتاح للصليبيين ميناءاً ممتاز يصلح للرسو طيلة أيام العام ومدينة تتمتع بحصانة قوية ووضع تجارى متميز، الأمر الذى جعل من عكا ميناء الصليبيين الرئيس بالشام ،

والأنكى هو وجود قوات تركية تعمل تحت أمرة تنكريد بأنطاكيا، ففى هذه الأثناء هرب الأمير أرتاش (بكتاش) بن تتش، من السلطان غياث الدين محمد وأرتمى بأحضان تنكريد يحتمى به، وأستجار به فأجاره، وأكرمه وأحسن إليه، وأجتمع إلى أرتاش الأتراك الذين مع تنكريد[23]

معركة الرملة الثالثة

وفى أعقاب ذلك حاول الأفضل تكرار محاولة طرد الصليبيين من الشام فقام بتشكيل جيش بعسقلان تحت قيادة ابنه سناء الملك، وحاول الإتصال بسلاجقة

[21] تاريخ حلب 360
[22] تاريخ الحملة إلى القدس ص 131
[23] تاريخ دمشق أبن القلانسى ص292

دمشق فوافق طغتكين على مساعدة الجيش المصرى بألف وثلاثمائة فارس وأوكل قيادتهم لأحد أمراءه المسمى أصبهبد صباو ويعاونه الأمير جهارتكين، قام بلدوين بالتمركز فى الرملة لتوسطها الطريق بين القدس ويافا، ومن ضمن جيشه الملك محيى الدين أرتاش بن تتش أخو دقاق والمطالب بعرش دمشق[24]، وقام الجيش المصرى والدمشقى بالهجوم والأشتباك مع بلدوين فى معركة دموية فى أغسطس 1104م أصيب فيها الطرفان بخسائر فادحة ـ من بين القتلى من الجانب الصليبى قائد قوات أرسوف وقائد قوات عكا ـ وأنتهت المعركة بدون منتصر أو منهزم، ولم تكن هذه المحاولة الأخيرة للفاطمين لقتال الصليبيين بل كانت هناك عدة أشتباكات أكبرها التى وقعت فى أكتوبر 1106م والتى أستطاعت فيها قوة صغيرة من فرسان الجيش المصرى أبادة قوة من الجيش الصليبى فى الرملة، وكذلك قامت بمهاجمة قافلة ضخمة من حجاج أوروبيين وأبادتها تماماً، وعندما حاول روجر أوف روزوى حاكم يافا مواجهة القوة المصرية، أبيدت قوات يافا وهرب روجر بشق الأنفس، وتقدمت القوة المصرية عقب ذلك على طريق القدس حتى وصلت لحصن صليبى تحت الإنشاء يطلق عليه "كاستيل آرنو" لتهاجمه وتقتل جميع العاملين على بناءه وتأسر الفارس جيوفرى قائد برج داود والمشرف على أعمال بناء الحصن،

معركة رأس العين (حران)

وفى هذه الأثناء بشمال الشام تدور معركة بين أمير الرها بلدوين دى بورج وأمير أنطاكيا بوهيمند من جانب وأتابك الموصل شمس الدولة جكرمش وصاحب ماردين معين الدين سقمان، فبينما الصراع على قدماً وساق بين سقمان صاحب ماردين وجكرمش أتابك الموصل وخليفة كربوقا للإستيلاء على مدينة حران، وبينما قواتهما على وشك الإشتباك إذا بقوات الرها وتل باشر وأنطاكيا تتجمع وتزحف ناحية المدينة لإلتهامها، وتفرض عليها الحصار لتطفوا على سطح المعسكر الصليبى خلافات بين كونت الرها بلدوين وأمير أنطاكيا بوهمند على من ستأول إليه مدينة حران عقب الإستيلاء عليها، ومن سيرفع رايته أولاً على أسوار المدينة عند سقوطها، الأمر الذى سيضعف أصابع الصليبيين المحاصرة للمدينة، الأمر الذى حدا بسقمان وجكرمش نسيان خلافاتهما والإتحاد حتى حين لإنقاذ حران، وتقع المعركة

[24] الصورى ج1ص521

فى رأس العين بعد أن جمع جكرمش ثلاثة ألاف فارس بينما قدم سقمان سبعة ألاف فارس فى التاسع من شعبان 497هـ/7 مايو 1103م، بينما تجّمع فرنج الرها تحت قيادة بلدوين دى بورج، وقوات أنطاكيا تحت قيادة بوهيمند وتنكريد وبطرق أنطاكيا برنارد، وقوات تل باشر تحت قيادة جوسلين بما يمثل كل القوة الضاربة للصليبيين بشمال الشام، وقام الجيش الفرنجى بمحاصرة حران ولم يرغب الصليبيون فى مهاجمة المدينة حفاظاً على تحصيناتها التى طمعوا فى الإستفادة منها والإستيلاء عليها سليمة، وقام الصليبيون بمفاوضات مع المحاصرين وأن أختلف بلدوين وبوهيمند إيهما يرفع رايته أولاً أعلى أسوار حران، مما أنساهما القوات الإسلامية القادمة لقتالهم، والتى فاجأتهم بإتخاذها أوضاع قتالية ممتازة أعلى التلال المحيطة بنهر البليخ ـ رافد من روافد نهر الفرات ـ، لتدور المعركة بضفاف النهر، وحاول الصليبيون إستعارة التكتيك الشرقى، فأتبعوا أستراتيجية الكمائن، إذ خططوا بأن تهاجم قوات الرها الجيش الأسلامى منفرده، فى الوقت الذى يختبئ جيش أنطاكيا ليتدخل فى الوقت المناسب، ويتبع المسلمين الأستراتيجية التقليدية بأن تظاهروا بالأنسحاب، وما أن طاردهم جيش الرها حتى قام المسلمون بهجوم مضاد أدى لإندحار الجيش الصليبى ووقوع بلدوين دى بورج وجوسلين حاكم تل باشر وبندكت أسقف الرها فى الأسر أثناء محاولتهم الفرار مترادفين على ظهر جواد على ضفة النهر، بعد هروب بوهمند وتنكريد بجيش أنطاكيا مذعورون لدرجة قيام برنارد بطرق أنطاكيا بقطع ذيل فرسه خوفا أن يجذبه بعض فرسان المسلمين أثناء فراره، ليقع جنود الرها جميعهم بين قتيل وأسير، وكان هذا الإشتباك كارثة[25] على الصليبيين، ولم ينج بوهيمند إلا بعد إسراعه بالهرب وليجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه بعد خروج بعض المدن من تحت سيطرته بسبب الهزيمة التى لحقت به وضعف جيشه، فقام بالسفر لأوروبا ليجمع جيش لمهاجمة الدولة البيزنطية بمباركة البابا بروما فى 1107م ليهُزم بعد أن أرسل قلج أرسلان فرقة قوية من جيوشه لإنجاد الأمبراطور البيزنطى من حليفها الجشع، ويضطر بوهيمند للعودة لإيطاليا مهزوماً محبطاً لينتظر الموت الذى جاءه 1111م محتجباً عن الأنظار، بينما يتولى تنكريد الوصاية على الرها المكلومة على أميرها المنهزم،

[25] تاريخ الحملة إلى القدس ص132

بينما ينجح جوسلين فى الحصول على حريته بعد دفع فدية ضخمة فى 1107م ليلحقه بلدوين دى بورج فى 1108م بعد دفع فدية أضخم، ولم ينجح بلدوين كونت الرها فى دخول مدينته لآن تنكريد الوصى على الرها منعه[26]

وقضت معركة البليخ على آمال الصليبيين فى التوسع بالجزيرة وشمال العراق، وأقنعت الهزيمة الثقيلة التى مُنى بها الصليبيين بتحنب الدخول فى إشتباكات فى ميادين مفتوحة، وقضت على جزء كبير من الهيبة العسكرية الفرنجية، وأنهت مجهودات بوهيمند فى جعل أنطاكيا إمارة كبرى فى شمال الشام وإستيلاءه على حلب، وأتاح إنتصار المسلمين إسترداد المواقع التى أستولت عليها قوات أنطاكيا شرق نهر العاصى والقريبة حلب، وأضعفت القوة العسكرية للرها التى لم تستطع تعويض خسائرها البشرية بعد ذلك، كما كانت أول نصر حاسم حققه المسلمون فى الصراع،

وما أن يتوقف القتال بين الأعداء، حتى يشتعل بين الحلفاء، فقد فشل جكرمش وسقمان فى إقتطاف ثمرة نصرهم بالهجوم على الرها الواقعة بالقرب من ميدان المعركة والخالية ممن يدافع عنها، بسبب الخلاف الذى نشب بينهما على إقتسام الغنائم والأسرى، عندما هاجمت قوات جكرمش خيمة سقمان وتختطف بلدوين كونت الرها طمعاً فى الفدية المتوقع دفعها لإطلاق سراحه، قبل أن يهاجم قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم الموصل ويخطف الأسيرين الثمينين، ليقاتل جاولى سقاوة قلج أرسلان الذى يغرق فى نهر الخابور ويصل بلدوين وجوسلين إلى يد جاولى سقاوة الذى يطلق سراحهما لقاء ستين ألف دينار فدية،

وبالرغم من هذا فتعتبر المعركة دليل عملى على أهمية العمل الإسلامى المشترك، وما يمكن للوحدة والتعاون الإسلامى أن يحققاه .

وإستمراراً فى الدعم البحرى المتدفق للصليبيين لإقتطاع المزيد من المدن الساحلية، وفد أسطول أسكندنافى ضخم من سبعين سفينة على متنه عشرة ألاف مقاتل، بقيادة ولى عهد النرويج سيجورد جورسا لافارير ذو التسعة عشر عاماً، ليتم الإتفاق على مهاجمة مدينة صيدا على أن يوفر بلدوين لهم مأكلهم ومشربهم، ويهاجم بلدوين المدينة براً بينما يحاصرها النرويجيون من البحر بأسطولهم، لمدة سبعة وسبعين يوماً، وتسقط المدينة 1110م، بعد

[26] تاريخ الحملة إلى القدس ص134

مفاوضات نصت على خروج سكان صيدا فى أمان، بعد أن فرض بلدوين عليهم مبالغ باهظة "وأستغرق أحوالهم وصادر من علم أنه له بقية منهم"[27] وتعتبر مساعدة النرويجيين أفضل بكثير من مساعدات الإيطاليين الجشعين الباحثين عن مكاسب سياسية وإستيطانية وتجارية، بينما النرويجيون الغير مهتمين بالتجارة يريدون العودة لبلادهم سريعاً،

وقد أدى نجاح الصليبيين إلى صدمة للشعب العربى ومحاولتهم دفع الخليفة والسلطان السلجوقى لإتخاذ موقف إيجابى ضد الوجود الصليبى فى الشرق، عندما دخل بغداد وفد من وجهاء حلب وفقهاءها وصوفيتها، مدفوعين بإعتداءات تنكريد الوصى على أنطاكيا، بعد أن هاجم حصن الأثارب التابع لحلب وأستولى عليه رداً على مهاجمة رضوان صاحب حلب لأنطاكيا، بل وأجبر رضوان على دفع أتاوة ضخمة له، وبينما المصلون ينتظرون أداء صلاة الجمعة، أندفع وفد حلب يحطمون منبر الخطيب ومنعوا الخطيب من الصلاة وترتفع الأصوات مطالبه بالجهاد،

وبالفعل حاول السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه الأخذ بالمبادرة متشجعاً بتحريض أليكسيوس كومنين أمبراطور بيزنطة الحزين على خداع الصليبيين له، وقام بدفع جيش كبير تحت قيادة حاكم الموصل الأمير الأسفهسلار شرف الدين مودود[28] فى إبريل 1111م لطرد الصليبيين من الشام، ومعه الأمير أحمديل الكردى صاحب مراغة بأذربيجان، والأمير قطب الدين سكمان صاحب ميافارقين، وصاحب همذان الأمير برسق بن برسق، وقد أمتلك مودود إرادة للجهاد والحرب ضد الغزاة دفعته إلى نقل المعركة لعقر دار أعدائه، والإسراع فى دخول الشام بجيشه الكبير والمفتقد للأنسجام بين عناصره، ومقاتلة الصليبيين وإحراز بعض الإنتصارات، ولم يثنيه مرض الأمير برسق والأمير سكمان، وحاصر مدينة تل باشر وبها صاحبها جوسلين الأول، وتختنق المدينة وتوشك على السقوط، لولا الرشوة التى دفعها جوسلين للأمير أحمديل الكردى صاحب مراغة بأذربيجان، والذى رفض إستكمال الحصار بدعوى إنقاذ حلب من تنكريد، ليزحف مودود بجيشه لحماية حلب، فلا يجد مودود ترحيباً من رضوان، الناظر بفزع لضخامة جيش مودود من

[27] ذيل تاريخ دمشق ص171
[28] تاريخ دمشق أبن القلانسى ص278

أعلى أسوار قلعته، وأغلق فى وجوههم باب حلب[29] بل وقام بمهادنة الصليبيين وأظهر العداء لمودود، ودفع قواته لمهاجمة أطراف الجيش السلجوقى الأمر الذى أضطره للأنسحاب،

ولاريب أن سبب النتائج الهزيلة لحملة مودود هو العداءات الشخصية للحكام المسلمين، وعدم وجود قاعدة بالشام يستطيع مودود منها الإنطلاق لقتال الصليبيين، فيجرى مودود إتصالات من طغتكين أتابك دمشق، ينتهزها طغتكين لضرب الحصار الإقتصادى الذى فرضه بلدوين على دمشق، بسبب مهاجمة القرى المجاورة لدمشق والتى تمدها بإحتياجاتها المعيشة، وكذلك قطع الطرق حول دمشق الأمر الذى أدى إلى أزمة إقتصادية طاحنة بالمدينة، وإرتفاع جنونى بالأسعار،

لتنتهى المفاوضات بالإتفاق على مهاجمة إمارة طرابلس المجاورة لدمشق، ليعيد الكرة مرة ثانية فى 507هـ/1113م عندما تجمعت قوات الموصل تحت قيادته، وقوات دمشق تحت قيادة طغتكين، وقوات حلفاءهم أمراء مدن الجزيرة، وزحف مودود بقواته وعبر نهر الأردن، وإتجه إلى الأقحوانة ومنها لطبرية حيث تجمعت قوات بيت المقدس بقيادة بلدوين وقوات أنطاكيا بقيادة روجر، وقوات تل باشر بقيادة جوسلين، وألتقى المسلمون بالقوات الصليبية، بعد أن أخفى مودود قواته فى كمين محكم، وكلف خمسمائة من فرسانه بالتظاهر بخروجهم بحثاً عن الأعلاف والتحرش بالصليبيين، الذين ما أن شاهدوا هؤلاء الفرسان حتى طاردوهم طمعاً فى قلة أعدادهم، ليتجه الخمسمائة فارس نحو الكمين متظاهرين بالفرار ليتم الإطباق على قوات الفرنج ويستحر فيهم القتل، وأنتهت المعركة عن هزيمة ثقيلة للصليبيين، أضطر بلدوين إلى خلع أسلحته وإلقاء رايته من يديه وأنبطاحه أرضاً حتى لا يُعُرف فيقع فى الأسر، ونجح بلدوين فى الفرار بشق الأنفس فاقداً رايته وخيمته الفاخرة[30]، وأُخذ سلاحه[31]، بعد أن أصيب جيشه بخسائر فادحة جدا ولم ينقذه إلا مسارعة أمراء طرابلس وأنطاكيا والرها بمد يد العون له وكذلك حسن حظه بوصول أسطول يحمل ستة عشر ألف جندى قادمين من أوروبا مما بدل الوضع على الأرض لصالح الصليبيين،

---

[29] تاريخ حلب ص365

[30] تاريخ الحملة إلى القدس ص152

[31] تاريخ دمشق ص295

وقامت القوات الإسلامية بنهب مدينة بيسان، بعد أن أنضم إليها الفلاحون المسلمون بالقرى الصليبية، وبينما القوات الإسلامية تعمل سيوفها فى رقاب من يقع فى يديها من الفرنج، كان بلدوين وقواته معتصمه بجبل متخذه أوضاع دفاعية، ولا يجروء على التدخل لحماية رعاياه، وسرايا الإسلام تصل حتى أسوار القدس[32] ولم يبقى بين القدس وعكا ضيعة عامرة[33] وتعتبر هذه المعركة أول هزيمة كبرى للصليبيين بجنوب الشام،

لتندفع الحامية المصرية بعسقلان تعيث فى جنوب المملكة تدمر المستوطنات الفرنجية حتى تصل لأسوار بيت المقدس وهى تتبع إستراتيجية الأرض المحروقة، بينما أصوات أبواق التحذير أعلى برج داوود تصرخ بجنون، لتصيب الإقتصاد الصليبى فى المملكة بضربة مؤلمة بحرق الغلال وتدمير المنشأت الإنتاجية والزراعية، وأن لم تسعفها قلة أعدادها لأكثر من ذلك، لتنسحب بعد أسر وقتل كل من لاقتهم ،

ويتحول قارب التشتت لشاطئ الصليبيين، ويختفى ذلك التعاضد الذى وفر القوة للصليبيين حتى ذلك الوقت، فقط عانى بلدوين كونت الرها من المجاعة التى حلت بإمارته، ونظر بعين الحسد لإمارة أنطاكيا الثرية التى وفرت لإميرها جوسلين معيشة رغدة، فعند ذلك طلب بلدوين من جوسلين أن ينعم عليه ببعض ما يرفل فيه، فيرفض جوسلين فيتظاهر بلدوين بمرض يشرف معه على الموت، لتنتشر الإشاعة ويتلقاها جوسلين بسرور، ليسرع الخطى فى طريق الرها عقب إستدعاء بلدوين له لتسليمه زمام الأمور بالرها قبل موته الوشيك، ليتم القبض على جوسلين ويتم تعذيبه حتى يتنازل عن أنطاكيا، ويسيطر بلدوين عليها، بعد طرد جوسلين الذى يسارع لبلدوين ملك بيت المقدس، الذى يعيين جوسلين إميراً على مدينة طبرية،

لتصل أنباء التناحر اللاتينى لأذن الحامية المصرية بعسقلان، فتهاجم مدينة يافا فى غارة تدميرية لضرب إقتصاد المملكة اللاتينية، بعد أن أستدعوا الأسطول المصرى المتمركز بمدينة صور بلبنان، ويتم محاصرة المدينة الفزعه بينما القوات المصرية تدمر الحقول المحيطة بالمدينة ثم تنسحب لقاعدتها عسقلان،

---

32 تاريخ دمشق ص295

33 تاريخ دمشق ص295

وأن لم يمهل القدر مودود حيث إغتيل على يد جماعة الحشاشين التى إبتليت بهم الحياة فى الشرق أثناء العصور الوسطى، وأن أدت تجربة مودود لتأكيد أهمية تحالف القوى الإسلامية ضد الوجود الصليبى بالشام، كما بينت أهمية مدينة الموصل ومنطقة الجزيرة التى سينطلق منها شعلة إنشاء محور المقاومة ـ الموصل، حلب، دمشق، القاهرة ـ الذى سيقضى على الوجود الصليبى بالقدس، لترتبط فكرة الجهاد الإسلامى وضرورة طرد الصليبيين من الشام بأمراء مدينة الموصل المرتبطين بطاعة سلاطين سلاجقة فارس،

وإن أظهرت النتائج الهزيلة بالنسبة للقوات الضخمة التى تجمعت تحت قيادة مودود بسبب تضارب مصالح أمراء المدن الإسلامية، إلى أهمية إنشاء جبهة موحدة لضرب الوجود الصليبى بالشام ،

وبعد أن أطمئن بلدوين بعدم وجود أى تهديد بعد مقتل مودود وكذلك الضعف الضارب فى مصر بعد قتل الأفضل وأبنه مما شجعه للقيام بحملة أستكشافية ضد مصر بعد مد حدود دولته لخليج العقبة فأتجه بلدوين جنوباً فى مارس 1118م ليصل بلدوين حتى مصب نهر النيل بمدينة تنيس قبل أن ينسحب لتوافيه منيته قرب العريش فى 2 إبريل 1118م من إنتفاض جرح أصابة فى الواقعة الكائنة بينه وبين المصريين[34]

وكاليوم فبالرغم من الإختلافات العرقية واللغوية التى كانت تسيطر على الأوروبيين إلا إنهم إستطاعوا تخطى كل هذه الخلافات سواء مجبرين تحت ضغط بلدوين الأول أو خوفاً من الهجمات الإسلامية، أو لشعورهم بأهمية الإتحاد والتعاون طمعاً فى توسيع مساحات أماراتهم والأراضى التى أستولوا عليها، ولكن على الجانب الأخر ما زال التناحر والفرقة مسيطرة على المسلمين، فرضوان ملك حلب معادى الجميع وعلى أتم الإستعداد للتحالف مع الفرنج لقتال أخوانه، وطغتكين متهم بقتل مودود الذى لم تشفع له جهوده فى قتال الصليبيين، والفاطميون لم يكرروا تجربة التعاون مع الأتراك كتجربة الأتحاد مع طغتكين، وأمراء الأمارات الصغيرة كشيزر يميلون مع الجانب المنتصر، كل هذا أعطى الصليبيين القدرة على توسيع مساحات أماراتهم بإستمرار، والوقوف أمام الهجمات الإسلامية التى واجهتهم، كل هذا خلق جبهة مهلهلة وضعيفة ومثالية للهزيمة، وكذلك الإنقسام العقائدى الذى سيطر

[34] تاريخ دمشق ص 305، تاريخ حلب ص368

على العالم الإسلامى بوجود خلافتين سنية ببغداد وشيعية بالقاهرة علاوة على الضعف المسيطر على الخلافتين كل هذا أدى إلى إستحالة وجود أدنى تعاون بين الجميع ،

بلدوين الثانى

أدى الموت المفاجئ لبلدوين الأول لمشكلة فى من يخلفه، خصوصا لعدم وجود أبناء ذكور له فأتجهت الأنظار لأبن عمه وخليفته فى الرهُا بلدوين دى بورج ليتم تتويجه ملك بيت المقدس الجديد تحت أسم بلدوين الثانى (512-526هـ/1118-1131م) فى كنيسة القيامة الى يدخلها بلحيته الكبيرة التى أطلقها على الطريق الشرقية 14 إبريل 1118م ،

وأفتتح عهد بلدوين الثانى بكارثة حلت بالصليبيين عامة وأمارة أنطاكيا خاصة، فقد هدد روجر الأنطاكى حاكم أنطاكيا مدينة حلب، مما دفع الوصى عليها إيلغازى أمير ماردين إلى جمع جيشه وقوات صاحب بدليس، لمقاتلة جيش أنطاكيا التى تعجل أميرها روجر مقابلة نجم الدين إيلغازى (إيل غازى) إبن أرتق ولم ينتظر قوات بيت المقدس، ودفعه غروره إلى أرسال رسالة إلى إيلغازى "لاتتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك"[35]، فصلف الفرنج وصل لحد اللامعقول، وكأنهم مازالوا يعيشون فى ظل أجواء الحملة الأولى،

يزحف روجر بكامل جيش أنطاكيا، ويتخذ أوضاع دفاعية أمام حصن تل عفرين، ليلح أمراء إيلغازى عليه للمبادرة بالهجوم بدون إنتظار قوات حلب بعد ورود تقارير من جواسيس إيلغازى المتغلغلين فى صفوف جيش أنطاكيا متنكرين فى زى تجار، ليقوم إيلغازى بمناورة رائعة ينجح من خلالها بمحاصرة معسكر جيش أنطاكيا تماماً، حيث يرسل كتيبة من جيشه لمهاجمة حصن الأثارب التابع لروجر، الذى يضطر لإرسال قوات من جيشه بقيادة روبرت بونز للدفاع عن الحصن، لتخبر كشافة قوات أنطاكيا روجر بحصار الجيش الإسلامى لقواته، ليحاول روجر كسر الحصار، ويهاجم قوات إيلغازى قرب أرتاح فى معركة البلاط 28 يونيو 1119م عندها فاجئت قوات إيلغازى جيش أنطاكيا، وأمطرته بسهام كالجراد حتى شوهدت خيولهم كالقنافذ من

[35] الكامل ج10 ص553

كثرة النشاب[36] وتمزق سيوفهم قوات أنطاكيا، لتنتهى المعركة بفناء جيش أنطاكيا تماماً ومقتل أميرها روجر وجميع فرسانه[37]، ولم يعود منهم لأنطاكيا إلا عشرون فارساً[38]، وسقوط ما يتجاوز سبعين فارساً صليبياً أسيراً فى يد إيلغازى، حاولوا إفتداء أنفسهم لقاء فدية ضخمة رفضها إيلغازى ليقوم بقتلهم جميعاً[39]، ويتمكن إيلغازى من تحطيم قوات النجدة التى قادها بلدوين ملك بيت المقدس الذى لم ينجيه من القتل إلا فراره بأقصى ما يستطيع جواده وتعلقه بالجبال، ويهاجم إيلغازى قلعة سرمدا ليستسلم له حاكمها رينولد مازوار، كما حرر إيلغازى قلعة زردنا بعد هروب أميرها روبرت الأبرص، ويختفى الفرسان النورمانديون تماماً من أنطاكيا وشمال الشام مما دفع مؤرخى الفرنجة لإطلاق أسم بحر الدم على هذه المعركة ،

ليفَك آسار حلب من مصير طرابلس وغيرها من المدن الساحلية، بعد أن وطن الحلبيون أنفسهم على قرب إلحاق بلدهم بمن سبقوها لسيطرة الفرنج، ويحتفل الحلبيون إحتفال الفائز باليسر بعد العسر، وتنهال على أسماع إيلغازى قصائد المدح، وأرسل له الخليفة المسترشد العباسى الشكر على ما يفعله من غزو الفرنج ولقبه بنجم الدين[40]، لتكون معركة البلاط (سرمدا) درة فى عقد الإنتصارات ضد الفرنج، كالعادة لم يستغل إيلغازى نصره بالتقدم لأنطاكيا المفتقدة لأمير أو حتى جيش ،

وأن وعى الفرنج درس بحر الدم، بضرورة عدم إنفراد أياً منهم بعمل عسكرى ضد المسلمين، ووجوب تعاونهم وأن يعملوا متحدين، وكما أدى فقدان أنطاكيا لفرسانهما النورمانديين إلى إجبار بلدوين الثانى إلى تغطية الإمارة بفرسانه الفرنسيين فى الأساس، بعد تزويج العزاب من هؤلاء الفرسان بأرامل فرسان أنطاكيا، مما ساهم فى توحيد القوى البشرية الفرنجية فى الشرق بشكل كبير، وجعلها أكثر إلتحاماً ،

ليجد بلدوين نفسه مسئول عن أنطاكيا لحين وصول وريثها بوهيمند الثانى بن بوهيمند مؤسسها، ولم تنتهى هزائم الصليبيين عند هذا الحد، فقد ظهر بطل

---

36 تاريخ دمشق 320

37 الإعتبار ص40

38 الإعتبار ص119، يعلق العظيمى على هذه المعركة بقوله "لم يفلت من الفرنج إلا دون العشرة مجروحين، فلما وصلوا أنطاكيا ماتوا، ولم يقتل من المسلمين إلا دون العشرة" تاريخ حلب ص370

39 الإعتبار ص40

40 الكامل ج8 ص653

أخر من أبطال المقاومة، وهو نور الدين بلك بن بهرام بن أرتق أبن أخ إيلغازى وصاحب قلعة صغيرة بالجزيرة تسمى "خرتبرت" الذى سارع بحصار الرها بقواته قليلة العدد، وأن اضطر لرفع الحصار، بعد إستنجاد أهالى الرها بجوسلين الذى سارع بالزحف بقواته ومعه جاليران صاحب قلعة البيرة لقتال بلك، ليطارد جوسلين بقواته بلك بمنتهى الغرور بينما يتظاهر بلك بالفرار لسحب قوات الصليبيين لمكان به ما يحد قدرة فرسانهم على المناورة التى تحتاج لميدان سهل فسيح خالى من العوائق، ليقوم بلك بنصب كمين لقوات جوسلين فى التاسع من رجب 516هـ/13سبتمبر1122م بمنطقة مستنقعات وحشائش وأحراش بجوار مدينة سروج بالرغم من قلة قوات بلك التى لم تبلغ أربعمائة فارس فقط، ويستمر جوسلين بلامبلاته فى مطاردة بلك المتأهب لمواجهته، ليصل جوسلين بقواته ليلاً إلى موقع كمين بلك، بينما عينى بلك ترنو إليهم كانت قوات جوسلين تسقى خيولها مطمئنه، لتفاجئهم سهام قوات بلك وهى ترتطم بصدورهم وبمطاياهم، ليسقط فى أيد جوسلين وتعرقل المستنقعات والحشائش قدرة قوات جوسلين على الحركة والمناورة، ليمطر بلك ورجاله بسهامهم قوات جوسلين، ليسقط معظم قوات جوسلين قتلى ويتم أسر جوسلين وأبن خالته جاليران صاحب قلعة البيرة، وقد أدى هذا الإنتصار إلى ضياع هيبة الصليبيين العسكرية، وغياب قادة الرها الأمر الذى أضطر معه بلدوين بالتكفل بالإهتمام بالأمارة بالإضافة إلى أنطاكيا، ليقوم بلدوين بزيارة أمارة الرها ليحاول تنظيم شئون دفاعها، ويعيين جفرى الراهب صاحب مدينة مرعش حاكماً عليها ،

ليقع الملك بلدوين نفسه أسيراً فى التاسع من صفر 517هـ/18 إبريل 1123م فأثناء تواجد بلدوين فى الرها وكان يشرف على تخزين القمح داخل قلاع الأمارة، أقام بلدوين معسكره بجوار مدينة كيسون وهو لا يدرى أن معسكر بلك بالقرب منه، وبينما بلك يقوم برحلة صيد أصطدم بمعسكر ملك بيت المقدس فى حوض نهر الفرات ليندفع فرسان بلك بمهاجمة الجيش الصليبى، لتنتهى الوقعة عن هزيمة بلدوين من الأمير بلك، وتحيط قوات بلك بملك بيت المقدس وتنتهى المعركة بأسر بلدوين ويضمه إلى جوسلين بقلعة خرتبرت، وتختفى قيادات ثلاثة من كيانات الصليبيين الأربع بالشرق، ليتولى أمير قيسارية وصيدا الأمير إيستاش جرنيه الوصاية على عرش بيت المقدس[41]،

[41] تاريخ الحملة إلى القدس ص195

ويجد مقاومة من البارونات الذين كرهوا فيه غطرسته وتعاليه عليهم ليتم إغتياله فى ظروف غامضة ويتم تعيين وليم بوريس أمير طبرية وصياً على المملكة، بعد إختفاء قيادات الصليبيين بمملكة بيت المقدس، والرها، أنطاكيا، وأن لم يستطيع المسلمون إغتنام هذه الفرصة الذهبية وأستئصال شأفة الصليبيين، لعدم إتحادهم فى المقام الأول

وفى هذه الأثناء خرجت حملة من البندقية تتكون من ثلاثمائة سفينة على متنها خمسة عشر ألف مقاتل تحت قيادة دوج البندقية دومينيو كوميشيلى، بناء على إلتماس من بلدوين بسبب تخوفه بعد معركة بحر الدم، وما أن تحركت الحملة من البندقية حتى أدرك البنادقة أن الهجوم على بيزنطة قد يفيد البندقية أكثر من خدمة الفكرة الصليبية، فقاموا بالهجوم على ميناء كورفو وحصاره ستة اشهر قبل أن تصل إليهم توسلات مملكة بيت المقدس محمله بأخبار أسر الملك ووعود بمكاسب كبيرة للبندقية، فأتجهت الحملة للشام لتقوم مفاوضات لتحديد ثمن المساعدة المتوقعه من الأسطول البندقى،

وتم الأتفاق على مهاجمة صور ذات الموقع الإستراتيجى والتجارى الهام والثروات التى جعلت الإستيلاء عليها فكرة خلابة، فأصر البنادقة على معرفة الثمن مسبقاً، لتدور مفاوضات لعدة أشهر بين البنادقة وبطريرك بيت المقدس جورمون وكونستابل المملكة وليم أوف بور، فتم الأتفاق على منح البندقية شارع كامل بكنيسة وحمامات ومخبز فى كل مدينة من مدن المملكة، على أن تعفى هذه الأحياء من كافة الضرائب والجمارك، ولهم أن يستعملوا الأوزان والمقاييس الخاصة بهم، وكذلك الحصول على ثلث كل مدينة سيتم الإستيلاء عليها بمساعدة البنادقة، وكذلك أشترط البنادقة إلا تقوم مملكة بيت المقدس بعقد اى معاهدة تجارية مع أى من الجمهوريات الإيطالية المنافسة لها، وبعد الأتفاق على الثمن تم الهجوم على صور وفرض الحصار عليها فى فبراير 1124م وبعد مقاومة بطولية من حامية المدينة بالرغم من ضألة عددها، حيث كان فى المدينة سبعمائة فارس من فرسان دمشق[42] مما أجبر الصليبيين على إنتظار فراغ الطعام والمياه من المدينة المفتقده لمصادر المياه إلا ما يخزن من مصادر خارج أسوارها، ويعض الجوع بنابه أهالى صور، لتستدعى كتابات أهالى صور طغتكين أتابك دمشق بقواته ليعسكر بالقرب من المدينة وتجرى مفاوضات تنتهى بعقد إتفاق على تسليم صور فى يوليو

[42] وليم الصورى ج3 ص30

1124م، وسط إستهجان وثورة الصليبيين لحرمانهم من الغنائم والأسلاب التى كان لابد لهم من الحصول عليها لو إنهم دخلوا المدينة حرباً[43]

وفى هذه الأثناء يعمل بلدوين وجوسلين على الفرار من الأسر، وينجحوا فى السيطرة على قلعة خرتبرت، بمساعدة بعض الأرمن الذين نجحوا فى التسلل للقلعة متنكرين فى زى تجار ومتسولين، ويقتلوا قائد القلعة، ثم يتسلل جوسلين ـ نصف الأرمنى من جهة أمه ـ من القلعة لطلب المساعدة بعد أن أقسم أمام بلدوين إلا يستحم أو يبدل ثيابه قبل الإفراج عنه، ليصل جوسلين للقدس ويودع القيود التى كان مقيد بها فى السجن بمذبح كنيسة القيامة، ولكنه يفشل فى الإفراج عن بلدوين، الذى يرتاع أمام بلك الذى سارع لخرتبرت وألقى القبض على بلدوين ثانيةً ومن معه، بينما الأرمن الذين ساعدوه كان مصيرهم الإعدام، وأدت وفاة بلك إلى مفاوضات للأفراج عن بلدوين أنتهت إلى إطلاق سراحه بعد أن ظل أسيراً ثمانية عشر شهراً، لقاء فدية مالية، جعل أبنته ذات السنوات الخمس رهينه حتى يدفع هذه الفدية، فحاول حصار مدينة حلب لعلها تدفع فديته، ولكن هجومه فشل ليرتد لعاصمته،

وتداعب دمشق أحلام الملك العجوز، فيرسل هيج دى باينز مقدم الداوية لأوروبا طالباً دعم أمراءها للإستيلاء على كبرى مدن الشام، مستغلاً موت أتابكها طغتكين، وصغر سن خليفته تاج الملوك بورى، وتتراص جميع القوى الصليبية بالشام خلف بلدوين، ويجلس بلدوين فى قاعة المحكمة العليا، ويدخل إليه فولك زوج أبنته الكبرى، وأمير أنطاكيا بوهيمند الثانى زوج أبنته الصغرى، وبونز كونت طرابلس، وجوسلين كونت الرها، ويلاقى أقتراح مهاجمة دمشق ترحيب الجميع،

وتزحف جميع قوات الصليبيين فى ظل راية بلدوين فى ديسمبر 1130م، وتعسكر أمام دمشق، فى الوقت الذى تنتشر فيه قوات المشاة الصليبية حول المدينة باحثه عن إحتياجاتها المعيشية، فى حماية كتيبة قوية من ألف فارس تحت قيادة وليم بيورى كونستابل المملكة، وأمير دمشق الشاب يراقبهم من أعلى أسوار مدينته، ويقوم بشن هجوم يقضى به على الباحثين على الطعام والعلف، الأمر الذى دفع الجيش الصليبى للإنسحاب بعد كم الخسائر التى طالته،

[43] وليم الصورى ج3 ص41

وفى هذه الأثناء طمح بوهيمند الثانى أمير أنطاكيا ـ الذى أظهر حماسة لتوسيع الأراضى التى تحت سيطرته ـ فى ضم المدن التى كانت تابعه لإمارته ثانيةً، فزحف بقواته لإسترداد مدينة عين زربة فبراير 1130م والتابعه للأمير الأرمنى ليو الأول، الذى أستغاث بالأمير غازى الدانشمندى، فزحف الأمير غازى لينقض على جيش أنطاكيا الزاحف بمنتهى الثقة والغرور، ليتم القضاء على قوات أنطاكيا تماماً ومن ضمنهم أميرها الشاب، لتتولى أبنه الملك بلدوين الأميرة أليس حكم الإمارة بصفتها أرملة بوهيمند والوصية على إبنتها الوحيد كونستانس ذات الربيعان، وهو ما رفضه لاتين أنطاكيا وراسلوا بلدوين الذى أسرع للسيطرة على أنطاكيا بعد إنتشار أخبار تحالف أبنته مع أتابك الموصل عماد الدين زنكى ضده هو شخصياً، ليسارع بلدوبن لأنطاكيا، ليصادف فى طريقة فارس فرنجى بيده فرس أبيض كالحليب منتعل حدوة فضة، وعليه سرج حريرى أبيض مطعم بالفضة، ومدثر بدثار مرصع من نفس لون الفرس، ليصدم الملك عندما يعرف أن هذا الفرس هدية أبنته لزنكى، ليتابع الملك طريقة مخلفاً هذا الفارس يتأرجح على حبل المشنقة،

ويفاجئ بلدوين بأبواب أنطاكيا مغلقة فى وجهه بأوامر أبنته، ليقف بلدوين خارج أسوار أنطاكيا وقد راسل جوسلين كونت الرها طالباً مساعدته، بينما أبنته تغرق جنودها الأرمن بفيضان من الأموال معتمده على أنها نصف أرمنية من جهة أمها، بينما الفرسان الفرنج يرفضون الوقوف ضد سيدهم الإقطاعى الأعلى فيقوم الفارس النورماندى وليم أوف أفرس بعد عدة أيام بفتح البوابات أمام الملك، بينما أليس تتحصن ببرج من أبراج المدينة وترفض مقابلة أبيها إلا بعد ضمانات لحياتها، التى ستقضيها منفيه فى مدينتى اللاذقية وجبلة، مهرها من زوجها القتيل، لتعود أنطاكيا مجدداً تحت وصاية بلدوين،[44]

وأراد بلدوين عدم ترك المملكة بدون وريث بسبب عدم وجود ولد ذكر له، بل كان له أربعة فتيات فقط، فاخذ فى البحث عن زوج لأبنته الكبرى ميلزاند فأرسل سفارة لملك فرنسا لويس السادس ليرشح فارس فرنسى ليكون الزوج

[44] وصلت أخبار هذا النزاع إلى المسلمين فقد ذكرها العظيمى فى كتابه تاريخ حلب ص383

المنشود، فأختار لويس أمير أرمل وهو فولك الأنجوى كونت أنجو[45]، وهو كهل خمسينى العمر، قصير القامة بدين، أصهب الشعر، لا يوجد فى مظهره ما يجذب فتاة شابة، وكان قد سبق له زيارة مملكة بيت المقدس والإلتحاق بهيئة فرسان المعبد كعضو مؤقت، بعد أن تنازل عن ممتلكاته بأوروبا لأبنه جيوفرى، ليلقى هذا الترشيح القبول من الجميع ما عدا العروس الشابة، حيث كان فولك فى ضعف عمرها تقريباً، الأمر الذى اصابها بخيبة الأمل، ليتم الزواج بالرغم من معارضة العروس الحزينة فى 1129م، ويتم منح فولك وزوجته مدينتى صور وعكا، ليتوفى بلدوين الثانى 31 أغسطس 1131م، ليتوج فولك أوف أنجو Fulk of anjou (1131-1143م) ملك بيت المقدس فى كنيسة القيامة فى 14سبتمبر 1131م .

بدء فولك عهده بمحاولات إمارة أنطاكيا الخروج من تحت عباءة ملك بيت المقدس، بمعرفة أليس شقيقة زوجته، فهى لم تخضع لأبيها إلا مجبرة تحت ضغط القوة المسلحة، أما الأن فهى تحاول إستغلال موت أبيها لإعادة وصايتها على أنطاكيا، بالتحالف مع بونز كونت طرابلس، وجوسلين الثانى كونت الرها الكارهين كغيرهما من بارونات وأمراء الشرق اللاتينى لكل ما هو قادم من الغرب لدرجة عدم سماح بونز لفولك بالمرور داخل أرض كونتيته، وهو ما قاومه فولك بعنف، عندما زحف بقواته ليشهد الشرق اللاتينى أو إقتتال داخلى بين زعماءه، عندما ألتقى فولك بقوات أنطاكيا، ببونز بقواته الطرابلسية فى معركة أسفرت عن هزيمة بونز وفراره، وأجبرت أليس بالبقاء فى اللاذقية وفرض فولك وصايته على أنطاكيا، وأوكل إدارتها إلى رينالد مازوار[46] لورد المرقب،

ولكن أخطر تهديد كان من داخل بيته من زوجته الشابة التى أرتبطت بعلاقة أثمة بالأمير هيو (هيج) الثانى أوف لوبواسيه لورد يافا، وهو شاب شاء قدره أن يتزوج بإيما (أيميلونا) الثرية أبنة أخى البطريرك أرنولف وأرملة أيوستاس جارنيه، التى تكبره بعدة سنوات، مما أدى إلى توثيق الترابط بينه وبين ميلزاندا، لتنتشر الشائعات حول هذه العلاقة الغرامية حتى تصل لآذن

[45] كانت والدته برترادا هجرت والده بعد أن أنجبت شقيقين لفولك وهربت إلى الملك فيليب وصارت عشيقته وأنجبت منه ولدين وابنه تسمى سيسيليا التى تزوجت من تنكريد، الأمر الذى حدا بالباباوية إلى حرمانه ، مما دفع فيليب إلى إرسال أخيه هيج للإشتراك بالحملة الأولى لرفع قرار الحرمان عنه كما أشرنا بالفصل الثانى،

[46] يسميه وليم الصورى رينييه ماسوييه، تاريخ وليم الصورى ج3 ص99

الزوج المخدوع والمتيم بزوجته ليزداد حقده على غريمه هيو، بيد أن هيو رصيده حافل بالأعداء، فقد أنضم للملك أبنى زوجة هيو، الذان دفعهما كرههما لزوج أمهما للعمل على زيادة حقد الملك على عدوهم المشترك، ويتطور الأمر لمواجهة بين هيو وأبن زوجته ولتر جارنيه، ليتم تحديد يوم للنزال والمبارزة يتخلف عنه هيو، ليتم إدانة هيو بناء على تخلفه عن حضور المبارزة تبعاً لقانون الفرنجة، ليخف هيو الخطى إلى عسقلان ملتمساً حماية الفاطميين، لتقوم حامية عسقلان بإعمال تعرضية ضد الصليبيين تصل بهجومهم حتى مدينة أرسوف وأصابوا منها كثير من الغنائم[47] دون معترض، ويستغل الملك وأتباعه الأحداث فقاموا بهجوم على يافا ليتم محاكمه هيو بسبب الخيانة والأتفاق مع الفاطميين، ليتم الحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات بأوروبا للحفاظ على شرف الملك[48]، وإثناء إنتظار هيو بعكا للسفر لأوروبا تنفيذاً لحكم نفيه قام أحد الفرسان بطعنه أثناء لعبه النرد ليصاب هيو أصابة بالغة لتوافيه منيته بعد سفره لصقلية مباشرة لتشير اصابع الأتهام لفولك الزوج المخدوع .

[47] وليم الصورى ج3 ص121
[48] وليم الصورى ج3 ص 122

"أنكم قد تحصنتم منى بالجبال،

فأخرجوا إلى الصحراء حتى نلتقى،

فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا

بكم أرحت المسلمين من شركم"

عماد الدين زنكى مخاطبا الأمبراطور البيزنطى

وفى هذه الأثناء ظهر البطل عماد الدين زنكى أول من آمن بضرورة تكوين جبهة موحدة لمقاومة الصليبيين، بعد أن كانت إدارة القتال ضد الصليبيين تعتمد على تحالفات بين أمراء الأمارات الإسلامية المختلفة، التى يقف إختلاف وجهات نظر حكامها وقلة مواردها حجر عثرة أمام زيادة قواتها، وأن أستطاعت إستراتيجية التحالفات أن تجنب بلاد الشام سقوط مدنها الداخلية الكبرى كحلب ودمشق وحمص تحت براثن الصليبيين، فمما يحسب للصليبيين تكتلهم ونسيانهم خلافاتهم إذا ما واجهوا قوات إسلامية، وإن كان ذلك لإستشعارهم الخطر ووجودهم وسط بحر من الأعداء، فى الوقت الذى تشرذمت فيه القوى الإسلامية بل وحاول البعض الإستعانة بالصليبيين ضد أخوانهم، بينما تجول الصليبيون بمنتهى الحرية فى الشام يهاجمون ما شاءوا من المدن، ووصلت أحلامهم إلى إحتلال دمشق وحلب وحماة، محاولين إتمام إلتهام الشام ككل، طوال ثلاثين عاماً مرت على الوجود الصليبى بالشرق، ثلاثون عاماً مدة قليلة تاريخياً، ولكنها كانت بالتأكيد قاسية على معاصريها، ولكن بظهور زنكى بدأت القوى الإسلامية تتراص وتتلاحم تدريجياً مكونة نواة الجبهة الموحدة، مستفيداً من سيطرة مناخ عام بين المسلمين منادى بمقاومة المحتل،

كما دفع زنكى بأسرة بنى أيوب لصدارة مشهد الصراع ضد الصليبيين، ليعتلى بنى أيوب قمة العسكرية الإسلامية وتتبوء صدارة الجهاد ويتمكن صلاح الدين الأيوبى من تحرير بيت المقدس، وقد أدى إنهيار السلطنة السلجوقية، وإختفاء عاهل سلجوقى قوى، إلى إفساح المجال لنمو قوة الأتابكة التابعين للسلاجقة، حتى أستطاع عماد الدين

زنكى إنشاء دولة بشمال العراق والشام تصل لمصاف الدول المستقلة، لا ترتبط بالدولة السلجوقية إلا بخيط واهى قطعة نور الدين محمود[1]

تم تعيين زنكى أتابكاً[2] (521-541هـ/1127-1146م) للموصل ومربياً لأميرها ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقى فى 1127م ليضم زنكى حلب فى يونيو 1128م لمحور المقاومة ويلحق بها حماة الواقعة على طريق المؤدى إلى دمشق سبتمبر 1130م وسنجار الواقعة على الطريق الواصل بين الموصل وحلب، ليستطيع زنكى تكوين جبهة قوية من شمال العراق وشمال الشام مما يشجعه على العمل ضد الصليبيين، فقام نائبه فى حلب الأمير سيف الدين سوار بالهجوم على أنطاكيا فى أبريل 1136م ليعود لحلب مثقل بحوالى سبعة ألاف أسير صليبى وغنائم لا تحصى، وكانت هذه الحملة الناجحة من نائب زنكى بمثابة الشرارة، فتشجعت دمشق وقام مقدم عساكرها الأمير بزاوش بالهجوم على طرابلس 531هـ/1137م، ليلتقى بأميرها الأمير بونز ليلقى بونز مصرعه فى المعركة 4 رجب531هـ/28مارس1137م والعديد من رجاله ويتم أسر جيرالد أسقف طرابلس[3]، هذا خلاف الغنائم التى أستولى عليها الدماشقة،

وفى 11 يوليه 1137م يلتقى زنكى بجيش بيت المقدس تحت قيادة الملك فولك تحت أسوار قلعة بعرين الخاضعة لسيطرة الصليبيين، عندما تظاهر زنكى بمهاجمة حصن بعرين[4] الضخم المسيطر على مدخل وادى البقيعة، ليستنجد كونت طرابلس ريموند الثانى[5] بخاله الملك فولك الذى يندفع بكامل قواته لحماية الحصن ومعه جودفرى شاربولو شقيق جوسلين الثانى كونت الرها، لتصل قوات بيت المقدس مرهقة بعد

---

1 تبدأ العلاقة بين الأسرتين عندما قاد عماد الدين زنكى جيشه المهزوم من قوات الخليفة المسترشد بالله بقيادة مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد 526هـ/1132م حتى يصل لمدينة تكريت التى كانت قلعتها تحت حكم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وأخيه الأصغر أسد الدين شيركوه، ليقدم نجم الدين خدمة العمر لعماد الدين زنكى، بمساعدته على عبور نهر دجلة القاطع للطريق بينه وبين مدينته الموصل، الأمر الذى يجلب على الأخوين غضب بهروز شحنة بغداد، ليتم طردهما من تكريت 532هـ/1137م فى نفس الليلة التى تستقبل فيها الحياة يوسف بن أيوب، وليحفظ عماد الدين الدين الذى طوقه به أيوب ويتم تعيين أيوب حاكماً على بعلبك، بينما تجذب كفاءة شيركوه العسكرية أنظار الجندى المتمرس فيتم إلحاقه بجيشه الرئيس، الذى يتدرج فى مناصبه سريعاً

2 الأتابك لفظ من جزئين ، أتا بمعنى أب ، وبك بمعنى الأمير ، فالمعنى أبو الأمير ، وهو المربى الذى أعتاد سلاطين السلاجقة تعينه لتعليم أبناءهم وإدارة أماراتهم حتى بلوغ الأمير السن الذى يسمح له بتولى زمام أمارته

3 وليم الصورى ج3 ص133

4 يطلق عليه الصليبيون أسم قلعة مونتفراند

5 خلف أباه بونز كونت طرابلس عقب مقتله 1137م

الرحلة الشاقة ليبادر زنكى بمهاجمتها فوراً، لتحل هزيمة ساحقة بالصليبيين قضت على معظم الفرسان اللاتين "وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب"[6]، ويقع كونت طرابلس فى الأسر، ويُقتل شقيق كونت الرها، ويفر ملك بيت المقدس فولك بأقصى ما يستطيع جواده ويحتمى بقلعة بعرين، التى يحاصرها زنكى، ويقذفها بالمجانيق ليل نهار، وأهتزت جدران القلعة لتبث الرعب الشديد، ولم يعد ثم موضع آمن داخل الأسوار[7]، حتى عدمت عندهم الأقوات وأكلوا الدواب[8] ولحوم جيادهم بعد أن لم يجدوا شيئاً سواها يقتاتونه[9] والقلعة مكتظة بالهاربين داخلها مع الملك فولك، الأمر الذى زاد من مشاكل التموين،

وملك بيت المقدس يستجدى الأمان من عماد الدين، ويجعر بأعلى صوته طالباً النجدة من مملكته، بينما يقوم زنكى بطم الأخبار ومنع وصول أى أنباء للمحاصرين، حتى أصبحوا لا يعلموا شيئاً من أخبار بلادهم، لشدة ضبط الطرق وهيبة زنكى على جنده[10]، فى الوقت الذى أرسلت دمشق قائد جيشها بزواش لمهاجمة مملكة بيت المقدس، ليهاجم الدماشقة نابلس ويتم تدميرها تماماً، ويتم تسليم قلعة بعرين وخمسين الف دينار على أن يفرج عن فولك ملك بيت المقدس المحاصر، الذى يعدو بفرسه سعيداً بنجاته،

ولكن هذا الإنتصار وحصار ملك بيت المقدس أدى إلى موجة عارمة من الدعوات لضرب الصحوة الإسلامية التى قد تؤدى إلى توحد القوى الإسلامية، فالوحدة الإسلامية تعنى إنهيار الكيان الصليبى بالشرق، "فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكى أن أخذ حصن بارين (بعرين) ومن فيه من الفرنج (الملك فولك) ملك بلادهم فى أسرع وقت لعدم وجود الحامى عنها، وإن المسلمين ليس لهم إلا قصد بيت المقدس، فحينئذاً إجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم"[11]

ليسرع الإمبراطور يوحنا كومنين (538-512هـ/1118-1143م)[12] بقيادة جيشه فى إتجاه أنطاكيا، منتهزاً فرصة الفوضى الضاربة فى الكيانات السياسية الصليبية لفرض

---

6 الكامل ج8 ص358
7 تاريخ وليم الصورى ج3 ص142
8 مفرج الكروب ج1 ص73
9 وليم الصورى ج3 ص143
10 الكامل ج11 ص51
11 الكامل ج9 ص86
12 هو أبن ألكسيوس كومنين،

نفوذه على الشمال الشامى وخصوصاً أنطاكيا، والإنتقام من الحنث الصليبى عن قسمهم لوالده ألكسيوس كومنين بتسليم الأراضى التى كانت تابعة لبيزنطة، ولما يمثله موقع أنطاكيا من أهمية بالغة للأمبراطورية البيزنطية، والطامع فى إعادة حدود دولته الأسيوية لما قبل الإنسياح السلجوقى، متشجعاً بالدعوات التى أرسلتها الأميرة المتمردة أليس بزواج إبنتها من ولد الأمبراطور، وهى الدعوات التى قاومها بارونات أنطاكيا والملك فولك، الذين سارعوا بزواج الأميرة الطفلة كونستانس ذات الربيع السابع من الأمير ريموند بواتيه[13]، الأمر الذى جعل الأمبراطور يوحنا يستشيط غضباً،

ليزحف الأمبراطور جنوباً بينما الأسطول البيزنطى يحمى جناح جيشه، بعد أن عقد إتفاقية مع السلطان مسعود السلجوقى لتأمين مؤخرة جيشه تنازل يوحنا بمقتضاها عن أنقرة وجانجرى لسلطان السلاجقة، ليفر الأرمن للإحتماء بالجبال ويقبع الصليبيون بحصونهم بعد أن أثارت ضخامة الجيش البيزنطى أرتياعهم، ويهاجم البيزنطيون مدينة طرسوس التابعة لأنطاكيا فأستولوا عليها بالقوة ومن بعدها أدنة والمصيصة وعين زربة[14] ليظهر البيزنطيون أمام أسوار أنطاكيا بعد أن غطى السهول المحيطة بها الألاف من الفرسان والمشاة، وأرتال من العربات الرومانية ذات العجلات الأربع، وآلات الحصار، ليجبر الخوف أميرها ريموند بواتيه على الخضوع للأمبراطور بموافقة الملك فولك، بعد إستجداء صليبى للصلح فى مفاوضات لحوحة، بشرط حضور ريموند وباروناته لقسم يمين التبعية الإقطاعية أمام الأمبراطور، وتسليمه أنطاكيا وقلعتها وقتما يشاء، ليتسلم الأمبراطور يوحنا المدينة ويرفرف العلم الأمبراطورى على برج أنطاكيا الرئيس،

وإن لم يصر على دخولها وطرد الصليبيين منها لتأكده من عجزه عن إستمرار سيطرته على المدينة عقب عودته لعاصمته، فرضى بإعلان أمير أنطاكيا تبعية أمارته لبيزنطة، وتم عقد إتفاقية بيزنطية صليبية تنص على مهاجمة عماد الدين زنكى وتحطيم قوته العسكرية، وإحتلال حلب وشيزر وحمص لإقامة إمارة جديدة يتولى إمارتها ريموند بواتيه على أن يكون تابع لبيزنطة، على أن يتنازل عن أنطاكيا لبيزنطة عقب ذلك،

---

[13] هو الأبن الأصغر للكونت وليم التاسع دوق أكيتانيا، وكان فى خدمة الملك هنرى الأول ملك إنجلترا، وجاء الشرق سراً بعد أن أرسلوا أحد فرسان الإسبتارية لإستدعاءه ليتزوج الأمير كونستانس بنت بوهيمند وريثة أنطاكيا عام 524هـ/1126م

[14] وليم الصورى ج3 ص135

ليهاجم يوحنا وحلفاءه الصليبيين أراضى حلب بعد قضاءه فصل الشتاء فى أرمينيا، ليحاصر الجيش المتحالف مدينة بزاعة ويحتلها ويتوجه لحصن تبنين، بينما حلب تستعد للمقاومة وتكاتب عماد الدين زنكى، الذى سارع بتعزيز حامية المدينة ليفقد الجيش البيزنطى الصليبى عامل المفاجأة بعد أن أضاع الكثير من الوقت أمام بزاعة ،

لتنهك قوات حلب الجيش البيزنطى الصليبى الذى كان يحاصر تبنين، ليجبر يوحنا على رفع الحصار عن المدينة العنيدة ويتوجه إلى حصن الأثارب ويستولى عليه ويكمل طريقه فى إتجاه شيزر الحصينة ذات الموقع الإستراتيجى الهام المسيطر على حوض نهر العاصى، وتدوى أصوات إرتطام الأحجار بسور القلعة، وسط مقاومة آل منقذ أصحاب القلعة، ويستنجد أميرها أبو العساكر سلطان، بعماد الدين زنكى، الذى يسارع بالزحف بجيشه والتمركز شمال المدينة على ضفاف نهر العاصى، ويراسل يوحنا مهدداً "أنكم قد تحصنتم منى بالجبال، فأخرجوا إلى الصحراء حتى نلتقى، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شركم"[15]، وذلك بالرغم من ميل ميزان القوة للجانب البيزنطى بشكل فاضح ولكن عماد الدين الذى كان "عنده من الدهاء والمكر شئ كثير"[16] نجح فى خداع يوحنا والإيحاء له بضخامة الجيوش الإسلامية، ويناور عماد الدين بقواته كأنه يريد إستدراج الجيوش المتحالفة لكمين، "ولم تكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه"[17] حتى عندما ألح القادة الصليبيون المرافقون له بالهجوم على جيوش عماد الدين قال لهم يوحنا "أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟، إنما يريد أن تلقونه فيجئ له من نجدات المسلمين ما لا حد له"[18]، فى الوقت الذى راسل عماد الدين الصليبيين والبيزنطيين كلاً على حدا لزرع بذور الفرقة بين قواتهما، لينهار تحالف الألداء، وسط تبرم الأمبراطور من تقاعس أمير أنطاكيا وكونت الرها فى القتال، وإنكبابها على قضاء وقتهما فى المقامرة، ويتم رفع الحصار عن شيزر بعد أن أهدى صاحبها بعض الهدايا للأمبراطور، ليسارع عماد الدين لإسترداد حصنى البزاعة والأثارب،

كل هذه الإنتصارات الإسلامية أدت إلى تدفق محاربى القبائل التركمانية للخدمة بجيوش زنكى، علاوة على بسط الأمن على المدن الإسلامية وخاصة حلب مما أدى إلى إنتعاش إقتصادى بها بسبب زيادة النشاط الزراعى والتجارى، مما أنصب فى زيادة القدرة على الإنفاق الحربى بالنسبة لدولة زنكى ،

15 الكامل ج9 ص91
16 مفرج الكروب ج1ص91
17 الكامل ج9 ص91
18 الكامل ج9 ص91

كما أستطاع زنكى بما مُنح من قدرات عسكرية وإدارية، وقادته الأكفاء مثل سوار بن أتكين بن تاج الملوك بورى الذى إستطاع الدفاع عن حلب والقيام بغارات ناجحة ضد أمارة أنطاكيا، "وكان له وقعات كبيرة مع الفرنج، أبان فيها عن الشجاعة والأقدام وصار له بسببها الهيبة فى قلوب الكفار"[19]، إستطاع فى أحداها الهجوم على قافلة صليبية ضخمة وإبادة كافة قوات الحراسة الخاصة بها، وكذلك القائد لجة الذى هزم قوات أنطاكيا فى 536هـ/1142م مما أسفر عن مقتل سبعمائة صليبى، مما أتاح لزنكى تفرغه لإتمام توحيد بلاد الجزيرة تحت حكمه، وإتمام تطويق إمارة الرها الصليبية ،

ولكن بقدر ما كان ظهور الأمير عماد الدين زنكى طوق نجاة للمسلمين ضد الصليبيين، قد ظهر من الأمراء من أختار الأرتماء بين أحضان الصليبيين بل والتحالف معهم ضد بنى جلدته، فقد قام معين الدين أُنر الوصى على دمشق بالتحالف مع الملك فولك، بعد أن وعى فولك والصليبيون أهمية مد يد الصداقة لأقلهم خطورة حتى حين، ووصل الأمر بتكوين جبهة من الصليبيين ودمشق ضد زنكى، وقام الملك فولك بمقتضى هذه المعاهدة بالزحف لدمشق عقب قيام زنكى بمحاصرتها لإجباره على فك الحصار، وهو ما كان لكراهة زنكى مقاتلة الجيشين الصليبى والدمشقى فوق أرض معادية[20]، بعد عقد إتفاقية بين أنر وفولك دفع أنر بمقتضاها مبلغ عشرين ألف دينار وعدد من رجالاته ليكونوا رهينه[21]

حتى أنه تم الأتفاق على هجوم مشترك على بانياس بعد إعلان حاكم بانياس إبراهيم أبن طرغت تبعيته لزنكى، وذلك تنفيذاً لباقى بنود المعاهدة بين أنر وفولك، حيث رأى أنر أن وضع بانياس فى يد الصليبيين الذين يتمتع بعطفهم خير من أن يراها فى قبضة خصم يخافه أشد الخوف ولا يطمئن إليه[22]، فقامت القوات الصليبية الدمشقية المشتركة بالهجوم على بانياس ومقاتلتها، وشدد الصليبيون فى هذه الأثناء الحصار بلا هوادة يعاونهم حلفاءهم الدماشقة الذين لا يقلون عنهم حماسة[23] مما أسفر عن مقتل أميرها وأستسلام بانياس يونيه 1140م، لتقوم القوات الصليبية بمذبحة بين سكانها تحت سمع وبصر معين الدين أنر الذى أحتفل بهذا الأنتصار بزيارة حلفائه فى مدنهم

19 زبدة الحلب ج2 ص245
20 تاريخ وليم الصورى ج3ص 177
21 وليم الصورى ج3 ص 175
22 وليم الصورى ج3 ص177
23 وليم الصورى ج3 ص178

فقام بجولة فى مدن الصليبيين، عكا وبيت المقدس ونابلس وحيفا وطبرية قوبل خلالها بحفاوة بالغة من حلفاءه،

ويستمر فولك فى منصبه حتى وافته منيته صريع سقوطه عن صهوة جواده أثناء مطاردة أرنب خلال رحلة صيد بمدينة عكا فى نوفمبر 1142م ليخلفه أبنه بلدوين الثالث الطفل تحت وصاية أمه، الذى يعتبر أول ملوك بيت المقدس المولودين بالشرق، لتتصدع المكانة المميزة التى كان يتمتع بها ملوك بيت المقدس على باقى الأمارات الصليبية التى لم يولى أمراءها أدنى إهتمام بعرش يجلس عليه طفل تحت وصاية أمرأة، كما أزدادت النزعات الإستقلالية لدى بارونات مملكة بيت المقدس التواقين للمزيد من الحرية ،

بدء بلدوين الطفل الواقع تحت وصاية أمه فترة حكمه بكارثة حلت بالصليبيين بسقوط أول أمارة أستطاع الصليبيون إنشاءها فى الشرق، فقد أختار زنكى أن يوجه ضربة للصليبيين فى مقتل بالهجوم على الرُها، تلك الأمارة الصليبية المتواجدة بشمال الفرات مستغلاً ضعف أميرها جوسلين الثانى (525-545هـ/1131م-1150م)،

وتكمن أهمية أمارة الرها بموقعها الإستراتيجى الهام لسيطرتها على الحوض الأوسط لنهر الفرات، وتحملها عبء الدفاع عن صليبى الشام ضد تحركات التركمان الذين كانت تعج بهم بلاد الجزيرة، وكذلك لسيطرتها على خطوط المواصلات بين بلاد الشام والعراق وأسيا الصغرى، ونظراً لأهميتها الدينية لدى الصليبيين الذين عدوها أشرف المدن الصليبية بعد بيت المقدس والقسطنطينية، وتستطيع الرها بموقعها قطع الطريق بين مدينتى زنكى الكبيرتين، حلب والموصل، لوقوع الرها على الطريق الرابط بينهما، كل هذا أدى إلى إدراك زنكى أهميتها وطموحه لتحريرها، مستغلاً ضعف أميرها جوسلين الثانى وركونه للدعة والرفاهية، وإتخاذه مدينة تل باشر مقراً له، ليبتعد عن القتال ويتفرغ لمجونه، وكذلك العداء الذى أستفحل بين كونتية الرها وأمارة أنطاكيا، وأتبع زنكى إستراتيجية القضم المتتابع ضد إمارة الرها، وذلك بالإستيلاء على المدن والقلاع التابعة لها، لإضعافها ومحاصرتها قبل الإنقضاض عليها وإلتهامها ،

بدء زنكى هجومه على الرها فى 28نوفمبر1144م، بعد أن تظاهر بقيامه بحملة ضد مدن ديار بكر التابعة للأراتقة، وبعد أن بث جواسيسه بالرها لنقل أخبار أميرها إليه، ليقوم أمير الرها بمفارقتها والذهاب لمدنه بالشام غرب نهر الفرات إعتقاداً منه بإنشغال زنكى بديار بكر، وما أن أعلم الجواسيس زنكى بمفارقة جوسلين الرها حتى

سارع زنكى بمهاجمتها، ويقوم بحصار أسوارها البالغة القوة، حصاراً فى منتهى الإحكام، منع جوسلين من إتصاله برجاله المدافعين عن الرها، بينما جوسلين يجبُن عن مواجهة زنكى وينتظر قوات النجدة بمدينة تل باشر، مغلقاً أذنيه أمام إستغاثات هيو الثانى رئيس أساقفة الرها اللاتينى، فى الوقت الذى رفض رئيس الأساقفة الثرى إنفاق بعض المال الذى يكتنزه للدفاع عن المدينة، فى الوقت الذى أحجم ريموند بواتيه أمير أنطاكيا (530-544هـ/1136-1149م) عن إنجاد جوسلين سواء بسبب العداء الذى إستفحل بينهما أو خوفاً من قوة زنكى الجبارة، فقد كانت الفرحة تغمر قلب أمير أنطاكيا للنكبة التى نزلت بالكونت جوسلين[24]، ويبادر زنكى بإرسال فوج من جيشه لضرب قوات النجدة القادمة من بيت المقدس بقيادة "منيس" كنوستابل المملكة وفيليب صاحب نابلس وألياند بورس أمير الجليل، ويرسل زنكى حفاروه لينقبوا سور الرها ويرفعون النقب الذى ينجحون فى فتحه بالأخشاب التى سرعان ما يغمروها بالكبريت والدهون الذائبة ويشعلوا فيها النيران، لتنهار بعد إحتراقها أخذةٌ معها جزء من سور المدينة، لينجح زنكى فى إقتحام المدينة فى 26 جمادى الأخر 539هـ/23ديسمبر 1144م، بعد حصار دام أربعة أسابيع،

وقد اثبت سقوط الرها مقدرة المسلمين على إحراز إنتصارات كبرى على الصليبيين، وأعاد الثقة والأمل إليهم، كما يعتبر سقوط الرها صفعة للصليبيين، فهى أول إمارة إستطاع الصليبيون أقامتها بالشرق، وكذلك لما لها من قدسية لديهم، وثرواتها الزراعية الكبيرة التى أتاحت لأمراء الرها ثروات كبيرة مكنتهم من تجهيز قوات قوية، كل هذا حُرم منه الصليبيين، علاوة على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين والإطاحة ببقايا الهيبة التى كانت تتوج فرسانهم، وينحصر الصليبيين بالشريط الساحلى بالشام بعد طردهم من الجزيرة بمواردها الغنية، الأمر الذى حد من قدرة القوات الصليبية على المناورة، وتطهير الطريق الواصل بين الموصل وحلب من الصليبيين، وجعل وادى نهر الفرات أرض إسلامية خالصة مرةٌ أخرى، وكذلك أظهر تحرير الرها مدى الضعف الذى أستولى على الصليبيين لدرجة فشلهم فى إتخاذ أى إجراء لإعادة سيطرتهم عليها ،

ويقوم زنكى بمهاجمة باقى مدن الأمارة بداية بسروج، ليلحقها بالرها فى يناير 1145م، وأثناء كل هذه الأنتصارات التى حققها زنكى قام أحد مماليكه بإغتياله فى سبتمبر 1146م أثناء حصاره قلعة جعبر، وقد فقد المسلمون بمقتل زنكى قائداً قوياً

[24] وليم الصورى ج3 ص238

مؤمناً بالجهاد ضد الغزاة لدرجة صياح شخص على قاتل زنكى "لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله" وأن كان القدر رؤوفا بهم بأن عوضهم بأبنه نور الدين محمود[25] (541-569هـ/1146-1174م) والذى كان لا يقل عن والده زنكى قوة وأيماناً بالجهاد وزاد عنه بورعه

أعتمد نور الدين أستراتيجية المباغتة والمفاجأة والسرعة فى تحريك قواته والمناورة بها، بما لا يدع مجال للصليبيين بتجميع قواتهم، لحالة الضعف التى أستولت على قوات الكيانات الصليبية بما لا يمكن لكيان واحد الفعالية فى القتال إلا بنجدات من قوات الكيانات الصليبية الأخرى، وكما أتبع أستيراتيجية القضم المتتابع بالإستيلاء على الحصون الصغيرة الواقعة على حدود دولته مع الكيانات الصليبية، إيماناً منه بأهمية هذه الحصون التى كانت تعتمد عليها الإستراتيجية الدفاعية للصليبيين، وقد مهد نور الدين الطريق لتحرير القدس، فقد أنهك نور الدين الصليبيين فى بلاد الشام حتى لم يعد لهم مطامع غير حفظ ما بإيديهم من البلاد[26]

أنقسمت دولة زنكى بين ولديه، الجزء الشمالى وقاعدته الموصل أستولى عليه أبنه البكر سيف الدين غازى، بينما ثبت أخيه الأصغر نور الدين محمود قدميه بحلب والجزء الشامى من مملكة عماد الدين زنكى، بناء على نصيحة ومجهودات شيركوه، فعقب وفاة عماد الدين زنكى أجتمع شيركوه بنور الدين وقال له "قد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسى ملكك، وتجتمع فى خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب أستظهر على بلاد الشرق"[27]، وقد حاول أعداء زنكى أستغلال أختفاءه من الساحة، وكان أشد هؤلاء الأعداء خطورة هو جوسلين امير الرها السابق الذى حاول إعادة الرها لحوزة الصليبيين، مما سيفقد أبناء زنكى مجدهم الكبير بتحريرها،

وبالفعل هاجم جوسلين الرها وإستطاع دخولها بمساعدة سكانها الأرمن، بعد أن راسلهم بمجرد سماعه أنباء مقتل عماد الدين زنكى، وأتاح له الأرمن تسلق اسوار المدينة هو ورجاله والإستيلاء عليها، بينما أحتمت الحامية الزنكية بقلعة المدينة واستبسلوا فى الدفاع عنها، التى حاصرها جوسلين وأرسل فى طلب المساعدة من باقى كيانات الصليبيين، ولكن كان هناك نور الدين الذى ما أن تطرق لسمعه هجوم جوسلين حتى سارع بجيشه ينهب الأرض لنجدة المدينة الأستراتيجية فى

25 ولد فى 511هـ/1117م
26 التاريخ الباهر ص125
27 الروضتين فى أخبار الدولتين ج1 ص191

541هـ/1146م، وما أن وصلها بعد خمسة أيام من سيطرة جوسلين عليها، حتى بادر جوسلين بالفرار بجيشه مذعوراً تحت ضغط مطاردة الفرسان المسلمين الذين قتلوا ثلاثة أرباع فرسان الصليبيين أثناء المطاردة بل وتم جرح جوسلين نفسه جرحاً بليغاً برقبته، ومقتل بلدوين حاكم مرعش الصليبى، وإعادة فرض السيطرة الزنكية على الرها فى 1146م،التى أستفاد نور الدين من أمكانياتها الضخمة فى تمويل حروبه وجهاده ضد الصليبيين،

وجرف تيار الجهاد نور الدين لمهاجمة أنطاكيا، التى أخذ فى مهاجمتها بصفة مستمرة حتى سلبها معظم أملاكها شرق نهر العاصى، مثل قلاع ومدن أرتاح وبسرفوث وكفرلاثا والأثارب طوال عامى 1146-1147م، كما آمن نور الدين بضرورة تكوين جبهة موحدة ضد الصليبيين ولكن ليس بنفس أسلوب أبيه، بل حاول فرضها بالدبلوماسية فقام بإرسال سلسلة سفارات لدمشق لتقريب وجهات النظر وتكوين تحالف ضد الصليبيين حتى أسفرت هذه السفارات عن عقد صلح بين حلب ودمشق فى مارس 1147م .

كان نجاح عماد الدين زنكى فى تحرير الرها ناقوس خطر أخذ يضرب فى ربوع أوروبا، ووجد له أذاناً صاغية فى بلاط لويس السابع Luois VII ملك فرنسا الشاب (1137-1180م)، فقد قامت الملكة ميلزندا بإرسال هيو أسقف جبلة للبابا يوجينوس الثالث (1145-1153)، وتم عقد مجمع كنسى فى فزلاى مارس 1146م برئاسة البابا يوجنيوس والقديس برنارد راعى دير كليرفو، ويجلجل صور برنار فى مستمعيه "أحملوا السلاح ولينفخ فيكم الغضب المقدس روح القتال، ويل للذين لا يخضب سيفه بالدم"[28] وأصدر البابا أمراً باباوياً للويس السابع بتحمل تنظيم حملة لإستعادة الرها مقابل الغفران عن حرقه كنيسة مدينة فيترى بفرنسا وقتله ثلاثة عشر ألف ضحية من مواطنيه عام 535هـ/1141م، أثناء إخماده ثورة ثيوبولد كونت شامبنى ضده ،

وليعلن كونراد الثالث Konrad III هوهنشتاوفن أمبراطور ألمانيا (1137-1152م) فى ديسمبر 1146م المشاركة فى الحملة، وبرفقته أخيه هنرى دوق النمسا، ومعه ملكين تابعين له، فلاديسوف ملك بوهيميا وبوليسلاف ملك بولندا، ليحمل عبئ الحملة الصليبية الثانية أكبر عاهلين فى أوروبا أينذاك، لتختلف الحملة الصليبية الثانية عن الحملة الصليبية الأولى، ففى حين أخذت الحملة الصليبية الأولى شكل هجرة شعبية تحت قيادة بعض كبار الأمراء الأوروبيين، أخذت الحملة الثانية شكل الجيوش الملكية

[28] صلاح الدين البطل الأنقى ص68

المحترفة تحت قيادة ملكا الدولتين المشتركتين فى الحملة ـ فرنسا وألمانيا ـ، والسبب فى ذلك تحسن العلاقات بين البابوية وملوك أوروبا بعكس العلاقات السيئة بين البابا أربان وملوك عصره خلال التحضيرات للحملة الصليبية الأولى ،

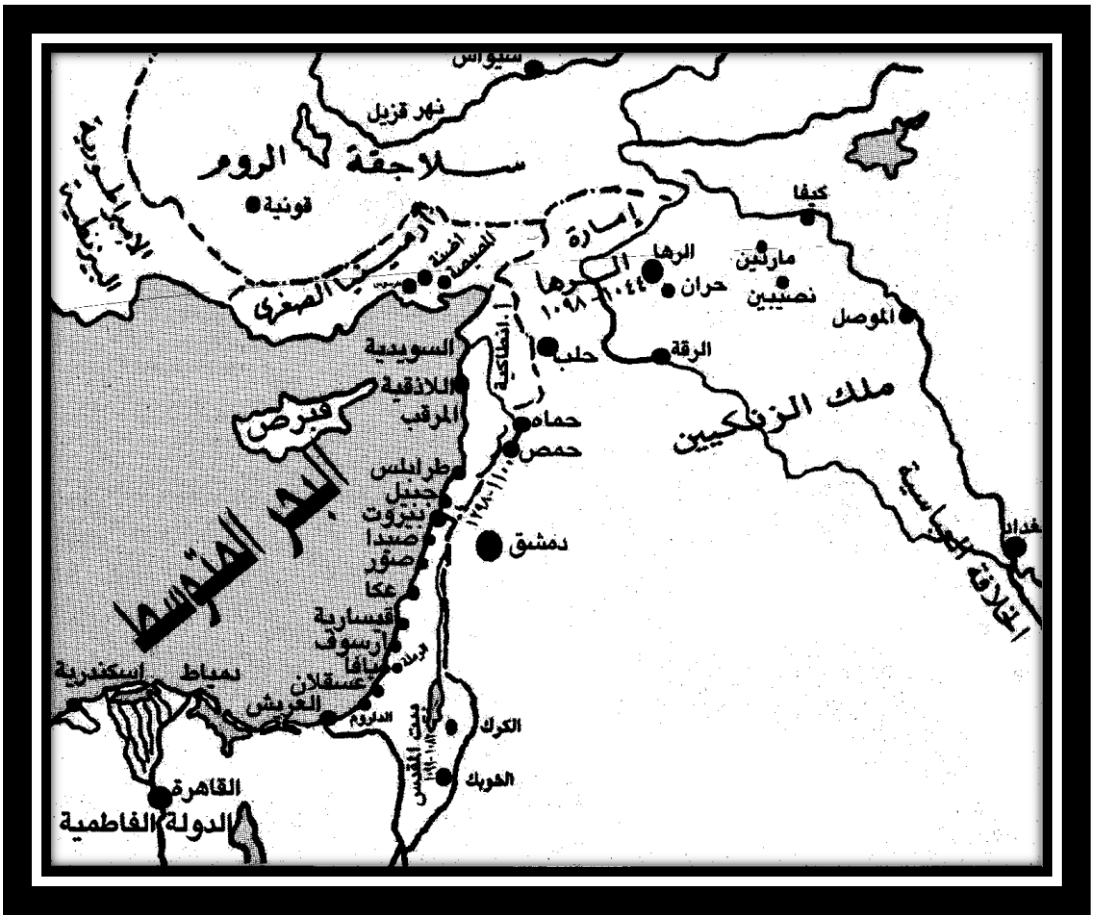

وقد عرض روجر الثانى ملك صقلية على لويس ملك فرنسا أستعداد صقلية توفير الدعم اللوجستى بإمداد الحملة بالمؤن وتوفير أسطول بحرى لنقل الحملة الفرنسية، وإن لم يكن هذا العرض لخدمة الحركة الصليبية، بل بسبب مطالبة روجر بحقوق له فى وراثة أنطاكيا، وهو ما رفضه لويس لوجود روابط عائلية بينه وبين أمير أنطاكيا الحالى ريموند دى بواتيه، ليعقد روجر الثانى تحالف مع الدولة الفاطمية لتأمين خطوط دفاعات صقلية، بينما هو يمخر بأسطوله عباب البحر الأدرياتيكى يهاجم الممتلكات البيزنطية فى 1147م ببحر إيجة ويستولى على جزيرتى كورفو وسيفالونيا

ويدمر الجزر الأيونية، لتزداد هوة الشك بين بيزنطة والحملة الثانية، فالجميع لاتين سواء لويس أو كونراد أو روجر ،

تم الأتفاق بين الجيشين الفرنسى والألمانى على أتخاذ نفس الطريق البرى الذى سبق وأتخذته الحملة الأولى، على أن يزحف الجيش الألمانى أولاً ويلحق به الجيش الفرنسى لعدم حدوث صعوبات فى التموين، وتجنب للإحتكاك الذى من الممكن حدوثه بين الفرنسيين والألمان، ويلقى جنود الحملة ترحيباً فاتراً أثناء زحفهم فى أوروبا، وينصب إهتمام سكان المدن المار بجوارها قوات الحملة عن البحث عن مكان للأختفاء، ولم يتلقى جنود الحملة أى أطعمة إلا التى تم أنزالها بالسلال من أسوار المدن المغلقة الأبواب، بعد دفع ثمنها نقداً أولاً، فى الوقت الذى كان الألمان يدفعون رتابة الطريق بمهاجمة الأديرة ونهب وحرق القرى غير المحصنة،

وعانت القسطنطينية من نفس الأعتداءات الصليبية كالتى عانت منها أثناء الحملة الأولى، بالرغم من القسم بعدم الإضرار بأراضى الأمبراطورية الذى أقسمه لويس وكونراد مقابل تموين جيشيهما ومساعدات بيزنطية، ليقوم السكان البلغار واليونانيون بالأنتقام من الفرسان الألمان المتهورين المشاغبيين، بقتل السكارى حتى الغيبوبة منهم، لتصدم مشاهد جثث فرسان ألمانيا جنود الجيش الفرنسى الزاحفين بعدهم، لتصل الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية المغلّقة الأبواب فى اكتوبر 1147م، وحاول الأمبراطور البيزنطى مانويل كومنين Manuel Komnenos(537-575هـ/1143-1180هـ)[29] أقتفاء أثر جده وإجبار قادة الحملة الثانية على قسم يمين الولاء له، وهو ما رفضه الملكان لتعقد بيزنطة صلح مع سلاجقة الروم، مما أطلق يد السلطان مسعود بن قلج أرسلان سلطان قونية فى قتال ومقاومة قوات الحملة، فى الوقت الذى تعالت صيحات بين جنبات المعسكر الفرنسى تنادى بالإتصال بأسطول روجر الصقلى والتعاون معه فى الإستيلاء على القسطنطينية، التى أدار ثرائها رؤوسهم،

لتتغلب المصالح السياسية على الحركة الصليبية، فروجر الصقلى تحالف مع الفاطميين ضد بيزنطة، بينما بيزنطة التى عانت من الهجمات القرصانية الصقلية والهجمات اللصوصية الألمانية والفرنسية تتحالف مع سلطان قونية السلجوقى، لتُهزم الحملة الثانية قبل عبورها البسفور، بسبب الطعنات القاتلة التى سددها روجر لها فى الظهر، وقبل ذلك عربدة جنودها المشاكسين فى مدن حلفاءهم البيزنطيين، والحلفاء

[29] هو الأبن الرابع للأمبراطور حنا كومنين، ولد 517هـ/1123م، وتقلد العرش بوصية من أبيه 538هـ/1143م حتى وفاته 576هـ/1180م

البيزنطيون المخلصون فى حلفهم بقدر إخلاص اللاتين، بحثوا عن من ينجدهم من سلوك حلفاءهم الدموى، الذين لم يستطعوا التفرقة بين دماء البيزنطيين والمسلمين،

ليبدء الجيش الألمانى الغير منضبط الزحف بدون نظام ولا أحتراس، مسرعاً الخطى خلف أمبراطوره[30] الممتلئ ثقة بقدرة جيشه على هزيمة المسلمين بمفرده بدون مساعدة الجيش الفرنسى، والطامع فى الفوز بمجد الإنتصار وحده، ليصل لنيقية الخالية من السكان ويغادرها فى أكتوبر1147م، ليتخلى عنهم الدليل البيزنطى ـ بعد أن نصح الجيش الألمانى بعدم حمل طعام لوفرته بمدينة قونية القريبة ـ ليتخبط الجيش الألمانى فى أسيا الصغرى على غير هدى، يدير أنظاره فى الأرض الجرداء التى وجد نفسه فيها يبحث عن ما يسكت به صرخات الجوع لجنوده ولدوابهم، فينقض عليهم السلطان مسعود السلجوقى بجيشه عند مدينة آسكى شهر فى 26 أكتوبر1147م وأخذت سيوف السلاجقة الألمان من كل جانب ليطلق كونراد ساقيه للريح بمنتهى الصعوبة ليصل لمدينة نيقية بفلول جيشه وهو فى حالة يرثى لها ورأسه تقطر دماً من جرح أصيب به، ومعه جندى فقط من كل عشرة جنود كانوا تحت قيادته، بينما ذهب البقية طعمة لسيوف السلاجقة، بعد أن أستولى السلاجقة على كميات لا تحصى من الغنائم، ويلحق به لويس السابع وجيش فرنسا بنيقية بعد أن سرت إشاعة أنتصار الألمان على جيوش السلاجقة ومصدر هذه الإشاعة هو الأمبراطور مانويل والذى هدف من وراءها حث الفرنسيين على عبور البسفور وإخلاء عاصمته، ويجتمع الجيش الفرنسى وبقايا الجيش الألمانى، ليختار الجيشان الطريق الساحلى ليبتعدوا عن السيوف السلجوقية ويحتموا بالقلاع البيزنطية، ويذوق الجيش الزاحف الأمرين من الجوع وهجمات السلاجقة الذين تنهال عليهم المساعدات السرية البيزنطية، ليعود كونراد للقسطنطينية يجر أذيال الخيبة والعار، ليبقى فى القسطنطينية لشهر مارس 1148م، ليسافر بحراً للشام على متن أسطول بيزنطى ،

فبالرغم من أن شمال وغرب الشام كان ممهداً لجنود الحملة لوجود الكيانات الصليبية، إلا إن جيوش السلاجقة بأسيا الصغرى لعبوا دور الأسفنجة التى امتصت هذه الجيوش الجرارة، ولم يعبر من خلالها إلا قطرات ،

[30] كانت هناك عداء بين بيزنطة والألمان، حيث الأمبراطورية الرومانية الغربية سقطت تحت سنابك القبائل الجرمانية، بينما يرى الأمبراطور البيزنطى أنه أمبراطور الدولة الرومانية بشقيها الشرقى والغربى ، الأمر الذى يحيل الأمبراطور فريدريك إلى مغتصب،

ويصل لويس السابع لأنطاكيا هو وزوجته أليانور داكيتين[31] ـ التى أصطحبها لشكه فى سلوكها ـ مارس 1148م بأسطول صغير قام بإستئجاره وحشوه بأسرته وفرسانه المقربين وترك باقى مشاته التعساء لمصيرهم، ليتحولوا إلى طعام لسيوف السلاجقة، بينما أليانور تتسلى أثناء الطريق بكافة المتع بين ضباط زوجها الشبان بألبستهم الفاخرة،

ويقابل عم زوجته ريموند أمير أنطاكيا[32]، ويتسابق الجميع لأستغلال الجيش الفرنسى لتحقيق مصالحه، الذى بالرغم من أفتقاره لمشاته الذين تركهم على جانبى طريق زحفه إلا أنه حضر بكم هائل من الفرسان، فأمير أنطاكيا وجوسلين أمير الرها السابق حاولا حث الجيش الفرنسى على ضرب الدولة النورية فى مقتل، مدينة حلب قلب دولة نور الدين، وتحرير أراضى أنطاكيا والرها التى أستولى عليها زنكى ونور الدين محمود قبل ذلك، وهو ما يعتبر الهدف الرئيسى لخروج الحملة من أوروبا، التى ما دعى لها إلا لإعادة الرها لحظيرة الصليبيين والقضاء على الدولة الزنكية تماماً ،

وفى أثناء ذلك وصلت سفارة من بيت المقدس برئاسة فولشر بطرق بيت المقدس فى إبريل 1148م تستعجل قدوم الحملة للقيام بهجوم على داخلية الشام، ليجد لويس نفسه فى بحر من الخلافات لتتكفل العلاقة الأثمة بين زوجته أليانور وعمها ريموند أمير أنطاكيا والتى بدأت بالغزل وأنتهت بالفراش، بحسم رأيه، "فقد عزم ريموند على أن يحرم لويس من زوجته أما قسراً أو بمؤامرة يدبرها فى الخفاء، وأستجابت الملكة لريموند لما هى عليه من الرعونة والطيش، ولم تخلص لزوجها"[33]

ويتوجه لويس إلى بيت المقدس مصطحباً زوجته اللعوب رغماً عن أرادتها بالرغم من إعلان عزمها الحصول على الطلاق، وقد يكون الخوف من قوة جيش نور الدين سبب إضافى لأختيار لويس العمل فى محيط بيت المقدس، لتبتعد الحملة عن هدفها الأساسى ويتجنب نور الدين الخطر القادم من أوروبا ،

ويصل لويس بيت المقدس فى منتصف أبريل 1148م ليجد أن كونراد قد سبقه هناك، ليعقد إجتماع مع ملك بيت المقدس بلدوين الثالث (1143-1163م) ووالدته الوصيه عليه ميلزندا وبارونات المملكة، وهنا يتخذ أمراء بيت المقدس موقف فى منتهى الغرابة فبدلاً من أن تتخذ مملكة بيت المقدس موقف فى صالح الحركة الصليبية ككل

31 تم الطلاق بينهما بعد الحملة عام 1152م وتزوجت أليانور من هنرى الثانى ملك إنجلترا وتلد منه ريتشارد قلب الأسد1157م

32 كانت أليانور أبنة وليم كونت بواتو شقيق ريموند

33 وليم الصورى ج3 ص290

وتوجه الحملة الثانية لمقاتلة نور الدين محمود الخطر الأكبر على الوجود الصليبيى، إذا بها تحاول إستغلال الجيش الفرنسى فى مهاجمة حليفها الوحيد معين الدين أنر فى دمشق والذى يضارع أكثر الصليبيين تطرفاً كرهاً لنور الدين، بعد أن أسالت أراضى دمشق الخصبة لعاب بارونات بيت المقدس، مما كان يعنى لمملكة بيت المقدس فقدان الحليف الوحيد لهم بين القوى الإسلامية، فى الوقت الذى كان العقل والمنطق يحتم مهاجمة السلطان العادل نور الدين، الذى ملك عليه طرد الفرنج من الشام كل جوانحه، مع الإبقاء على التحالف مع دمشق حتى التخلص من نور الدين محمود، ولكن قوة نور الدين وتجارب الفرنج معه أقنعتهم بإختيار الوجهة التى رأوها أسهل، فالخوف من نور الدين لعب دور أكثر أهمية من الرهاء

وإن كان منطق القوة يجعل الهجوم على دمشق فكرةٌ خلابة، فإجتماع ملكى ألمانيا وفرنسا مع زعماء مملكة بيت المقدس بينما فى فناء قلعة عكا آلاف الفرسان المدرعين سيجعل التفكير فى الإستيلاء على دمشق أمراً ميسوراً، ثم لماذا يحافظ الصليبيون على عهد مع من تحالف معهم ضد بنى جنسه، إذا لم يحافظ هو على روابط الدين والجنس والوطن، هل سيحافظوا هم على معاهدتهم معه، ويضيعون مدينة مثل دمشق من بين أيديهم، ثم الإستيلاء على كبرى مدن الشام سيوفر نصر ومجد للويس وكونراد وبأقل التكاليف ،

ليتم الإتفاق على مهاجمة دمشق فى إجتماع عُقد بعكا، ويقدم الفرنج هدية سخية للمقاومة العربية، ويبدء الزحف فى 25 مايو 1148م لتجتمع الجيوش الصليبية عند بحيرة طبرية فى أوائل يوليو 1148م ويزحف الصليبيون بعد أن أحتل جيش بيت المقدس المقدمة ويليه الجيش الفرنسى فى القلب بينما كونراد والجيش الألمانى يحمى المؤخرة، لتبدء بمهاجمة غوطة دمشق فى 24 يوليو 1148م، بعد أن تبايعوا دور دمشق وحماماتها وقياسرها فيما بينهم([34])، ليشترك جميع أهل دمشق فى الدفاع عن مدينتهم، ويستفيق معين الدين أنر من أحلام صداقته للفرنج، لدرجة عدم إهتمامه بزيادة درجات حصانة دمشق عقب ورود أنباء قدوم قوات الحملة للشام، لإعتقاده مجيئهم للحج فقط وإستبعاده نقض الفرنج لمعاهداتهم معه ،

ويقود أمبراطور ألمانيا الباحث عن ما يحفظ به ماء وجهه الهجوم فى اليوم الأول، ويصل هجوم كونراد الثالث بقواته حتى الميدان الأخضر بالبساتين القريبة من أسوار المدينة، ويستشهد العديد من علماء وأهالى دمشق اثناء أول يوم قتال، ويقضى

[34] الإعتبار ص115

الصليبيون ليلتهم بجوار باب الجابية فى أحضان بساتين دمشق، ونهرها الذى يمدهم بإحتياجاتهم من المياه بسخاء، وتحنو بساتينها عليهم بفواكهها النضرة،

وحاول الصليبيون أستغلال النجاح الذى لاقوه أول يوم فى شن هجوم مباغت ثانى أيام القتال لُيبلى معين الدين أنر وقواته بلاءاً حسناً ويصدوا الهجوم الصليبى، ليُجبر الصليبيين على التراجع بعد أصابتهم بخسائر كبيرة، وتنهمر على رؤوس الصليبيين أمطار من سهام فرسان دمشق، لتصاب الجيوش الصليبية بخسائر فادحة، ليتحول الصليبيون بعيداً عن سهام فرسان دمشق، ويخرجوا من بساتينها، ويعيدوا إنتشار قواتهم بعد أن أشار عليهم بارونات المملكة بضرورة إنسحابهم خارج بساتين دمشق وتمركزهم فى الجانب الأخر من المدينة القاحل، بعيداً عن هذه البساتين الكثيفة والأحراش التى تأتيهم بسهام لا يرون من قذفها، وسط تأييد من مقدمى الداوية والإسبتارية، ليجد الفرنج أنفسهم بعيداً عن النهر والبساتين السخية، الأمر الذى أوقعهم فى مشاكل التموين القاتلة، وأبعدهم عن أسوار المدينة، ذلك بعد الرشى التى وعد بها أنر كبار بارونات وفرسان الداوية والإسبتارية فى حالة فك الحصار على المدينة،

ويستنجد معين الدين أنر بنور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازى، ويزحف الأخوان بجيشيهما، وسيف الدين يرسل رسالة لأنر يقول فيها "حضرت ومعى كل من يحمل السلاح ببلادى"[35]، وما أن يقترب الجيش النورى الغازى حتى يجد الصليبيون أنفسهم فى موقف بالغ الصعوبة ليعقدوا صلح مع أنر، بعد أن راسلهم معين الدين أنر مهدداً أياهم بقوله "إن ملك الشرق قد حضر فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندمون"[36]، لينسحبوا من أمام دمشق على أن يسلمهم معين الدين أنر بانياس، بعد أن أتهم بعض المؤرخين الصليبيين أمراء بيت المقدس بتلقى رشاوى من أنر لإفشال الحملة على دمشق، وقد أدى الصراع على مستقبل الحكم فى دمشق قبل سقوطها إلى تقاعس أمراء مملكة بيت المقدس وملكهم عن القتال، فبينما أراد بارونات بيت المقدس فرض سيطرة مملكتهم على دمشق، وتعيين جوى بريسبار لورد بيروت لوردا لدمشق كتابع إقطاعى لمملكة بيت المقدس، رأى لويس وكونراد أن تقام إمارة جديدة بها يتولى رياستها ثيرى أوف فلاندرز القادم من الغرب، مما يحرم بارونات وكونتات المملكة من ما كانوا يحلموا به، وهذا الوتر الذى لعب عليه معين الدين أنر عندما كاتب فرنج بيت المقدس بقوله "أن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يبقون عليكم

35 مفرج الكروب ج1 ص113
36 الكامل ج9ص159

ما بأيديكم من البلاد"[37] لإنتشار رائحة الكراهية المتبادلة بين فرنج الشام والقادمون من أوروبا، حتى تصل هذه الرائحة لأنوف الساسة المسلمين إينذاك، فى الوقت الذى سعى ريموند دى بواتيه إلى هزيمة لويس إنتقاماً منه على عدم مساعدة إمارته بقتال نور الدين محمود، يضاف لذلك الأموال الطائلة التى دفعها الداهية العجوز معين الدين أنر لأمراء مملكة بيت المقدس، والتى ظهر لهم بعد إنسحابهم إنها قطع ذهبية مزيفة،

وما أن يصل الجيش لبيت المقدس حتى بادر كونراد بالعودة لألمانيا فى 8 سبتمبر 1148م ليبقى لويس ستة أشهر أخرى ويغادر بيت المقدس فى 1149م عائداً لفرنسا، وقلبه يغلى مقتاً لبيزنطة التى رأى فيها السبب الأكبر لمصير الحملة الكئيب، ليحاول عقد تحالف بين فرنسا وصقلية لغزو القسطنطينية بمباركة البابوية فى روما، ولكن تحول الظروف بين هذا التحالف،

لم تحقق الحملة الصليبية الثانية هدفاً واحداً من اهدافها بسبب التضارب بين زعماء الحملة، وسيطرة الأنانية وبحث كل فريق عن مصالحه الخاصة بِغض النظر عن المصالح العامة للحركة الصليبية ككل، والأهم هو تبدل حال المشرق الإسلامى خلال الحملة الصليبية الثانية لظهور قيادات مؤمنة بفكرة المقاومة وقادرة على التعاون للتغلب على الأخطار المشتركة، فالحملة الصليبية الثانية كانت أفضل تنظيمياً وذات أمكانيات عسكرية تفوق الحملة الأولى، زد على ذلك وجود أمارات لاتينية بالشرق تتيح لها قواعد إرتكاز لعملياتها العسكرية، ومع هذا لم تحقق أى نجاح فى الوقت الذى صادفت الحملة الأولى نجاحات مبهرة وغير متوقعة، الأمر الذى يظهر أن الفرق بين الحملتين هو القوى الإسلامية، فالحملة الأولى واجهت جبهة مهلهلة، وزعماء همهم الأول مصالحهم الشخصية، علاوة على تمتعهم بضيق أفق لامتناهى، فى الوقت الذى واجهت فيه الحملة الثانية الأسرة الزنكية المتمثلة فى نور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازى، زد على ذلك معين الدين أنر الذى ثاب إلى رشده وأظهر مقدرة قتالية عالية وظهر من شجاعته ما لم يشاهد من غيره[38]، ويضاف لهؤلاء البسالة والتضحية الكبيرة التى تمتع بها أهالى دمشق من المجاهدين والفقهاء والزهاد[39] ومسارعتهم إلى القتال والشهادة،

ويحاول وليم الصورى قصر سبب فشل الحملة على رنات الذهب فى أيدى بارونات المملكة، فى الوقت الذى رأينا المقاومة الشرسة التى أدارها جيش وأهالى دمشق،

37 التاريخ الباهر ص89
38 الروضتين ج1 ص525
39 الإعتبار ص95

والذين أستخدموا الأحراج والأجامات الكثيفة التى تكتنف دمشق وغوطتها، والتى كانت تعوق مناورات وتحركات فرسان الصليبيين، الذين يحتاجون أراضى سهلة للقيام بهجماتهم المميتة، وكذلك التعاون الفعال بين الأخوين سيف الدين ونور الدين ومسارعتهما بجيشيهما لنجدة دمشق، وشجاعة معين الدين أنر وحنكته السياسية، زد على ذلك التنافس والأنانية التى ضرب الصليبيين، والكراهية المتزايدة بإستمرار بين الصليبيين البلديين الجشعين والصليبيين الجدد الإنتهازيين، وتنازعهم الكعكة قبل نضجها، كل هذا أوصل الحملة إلى نهايتها المفجعة،

وكل ما حققته الحملة الثانية هو زيادة التقارب بين دمشق وحلب والموصل، وزيادة التباعد بين بيت المقدس ودمشق، وخسائر صليبية فادحة، وفقدان الصليبيين لحليفهم الوحيد المتمثل فى أسرة طغتكين صاحبة دمشق أخر حلقة فى سلسلة المتحالفين من المسلمين مع الفرنج، وكذلك التأكيد لنور الدين محمود على حتمية ضم دمشق لدولته، التى رأى فيه سكانها الأمل الوحيد لبقاء مدينتهم خارج نطاق السيطرة الصليبية، كما أدى الفشل الصليبى إلى زيادة الخلافات بين الصليبيين بعضهم البعض وبين الصليبيين والبيزنطيين، وبين الصليبيين الوافدين الجدد والصليبيين البلديين،

كان فشل الحملة الثانية نقطة فارقة فى تاريخ الحملات الصليبية أسقطت أسطورة الفارس الصليبي الذى لا يقهر، ونزعت عنه الهيبة، بعد فشل الجيش الصليبى الإستمرار فى القتال أكثر من أربعة أيام، وبداية إنطلاق حركة تحرير الشرق من الوجود الصليبى، وإكتمال المرحلة الأولى لحركة بعث القوة الإسلامية، والتى ستعقبها المرحلة الثانية والتى ستهدد فيها قوات نور الدين محمود الوجود الفرنجى فى الشام، وتطهر غرب الفرات تماماً من الوجود الصليبي،

لتعيد فشل الحملة الثانية الطمأنينة النفسية للمسلمين، فى الوقت الذى غدت الهيبة العسكرية للفرسان الصليبيين باهتة أكثر، ويندب الصليبيون حظهم فى القدس، ويتباعت الأوروبيون عنهم، لتتسلل المبادءة من أيديهم إلى إيدى نور الدين،

ويمكن إعتبار الحملة الثانية من الأسباب الغير مباشرة لهزيمة الصليبيين فى معركة حطين، فعند سفر أفراد الحملة تخلف عنها عدد ليس بالقليل من أفرادها ممن أستهواهم سحر الشرق وحضارته والحياة النضرة فيه بالمقارنة بأوروبا، ومن الفرسان الذين بقوا فى الشرق، فارسان سيكون لهما دور كبير فى هزيمة الصليبيين بمعركة حطين، أولهما رينو دى شاتيون (أرناط) الذى أرتكب الموبقات كلها، والثانى مقدم الداوية خلال معركة حطين جيرارد دى ريدفورت الفارس الفلمنكى (هولاندا)، هذا بالإضافة

إلى العديد من فرسان الحملة الذين أستهواهم الشرق ليؤلفوا مجموعات من الصليبيين الجدد الذين بعداءهم مع الصليبيين البلديين سيشقون المجتمع الصليبى فى الشام، الأمر الذى سيساهم فى إضعاف الصليبيين وسيقودهم لهزيمة حطين ،

بمجرد إنسحاب قوات الحملة الصليبية راسل ريموند الثانى كونت طرابلس نور الدين محمود مستنجداً به ضد برتراند المطالب بإمارة طرابلس وحفيد ريموند كونت تولوز مؤسسها، ويشير عليه بقصد حصن العزيمة[40]، فقام نور الدين محمود ومعين الدين أنر بعد أن أمدهما سيف الدين غازى ببعض قواته بقيادة عز الدين أبى بكر الدبيسى بحصار برتراند ووالدته بقلعة العزيمة، وبعد حصار شديد يقتحم المسلمون القلعة ويتم أسر برتراند وأمه ،

نور الدين الذى لا يهدء حاول إستغلال حالة الفشل والتباعد الصليبى فى أعقاب الحملة الثانية فقام بمهاجمة الأراضى الباقية شرق نهر العاصى التابعة لأمارة أنطاكيا فقام بمحاصرة قلعة أنب الواقعة بالقرب من حلب، وما أن علم ريموند دى بواتيه أمير أنطاكيا بحصار نور الدين لقلعة أنب حتى بادر بقواته لطرده وحماية قلعته، فتقابل الجيشان فى 29 ونيو 1149م لتنتهى الواقعة عن كارثة لجيش أنطاكيا الصليبى ومقتل جميع أفراد الجيش الصليبى ومن بين القتلى ريموند نفسه ـ الذى قُتل على يد أبو الحارث أسد الدين شيركوه ـ وأمير كيسوم وزعيم الباطنية على بن وفا الذين كانوا يساعدون الصليبيين، يعتبر قتل ريموند من عوامل قلب ميزان القوى فى شمال الشام، "لأن ريموند كان من عتاة الفرنج وكبار زعماءهم"[41] وكان "من أبطال الأفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل والتناهى فى الشر"[42]، بينما "عم الحزن الناس فى كل مكان (بين الصليبيين) على مقتل ريموند ورينالد"[43]، وأستغل نور الدين هذا النصر وإختفاء معظم قوات جيش أنطاكيا من الساحة فقام بمهاجمة مدينة أنطاكيا نفسها وميناء السويدية، ثم أدرك نور الدين أن الإستيلاء على معاقل أنطاكيا القريبة من حلب أجدى فقام بالإستيلاء على باقى أملاك أنطاكيا شرق نهر العاصى، ثم ينجح نور الدين فى اسر جوسلين الثانى أمير الرها السابق ليقبع فى سجون نور الدين ما يزيد عن تسعة أعوام ،

40 التاريخ الباهر ص90
41 الروضتين ج1 ص58
42 ذيل تاريخ دمشق ص305
43 وليم الصورى ج2ص 791

ليختفى زعماء الفرنج بشمال الشام، ليتولى بلدوين الثالث الوصاية على أنطاكيا بينما نور الدين يقتضم بقايا حصون الرها، لينضم ريموند الثانى كونت طرابلس لأمير أنطاكيا، فأثناء عودة ريموند كونت طرابلس بعد توديع زوجته الذاهبة للقدس، وعند عبوره بوابة طرابلس هاجمه بعض الحشاشين، ليلقى مصرعه طعناً بالخناجر هو وأثنين من حراسه، بينما الملك بلدوين فى المدينة يقامر بالنرد، وتبحث طرابلس عن أمير،

فى هذه الأثناء بلغ بلدوين الثالث الثانية والعشرين من عمره 546هـ/1152م مما يعنى حقه فى ممارسة مهامه بدون وصاية أمه مليزندا، وهو ما رفضته الملكة الأم، فقد أستمرأت الحكم فلم تستطع أن تفطم عنه، وهذا ما دفعها لأقتراح تقسيم المملكة بينها وبين أبنها، على أن يخصص لبلدوين المدن الساحلية، بينما تستأثر هى بالقدس ونابلس، ليرفض بلدوين هذا الأقتراح لتقع حرب أهلية بين صليبى بيت المقدس تنتهى بأنتصار الملك بلدوين الثالث وعقد صلح بينه وبين أمه، لترفع يدها عن شئون الحكم تماماً وتقبع فى قلعة نابلس تلعق جراح فقد السلطة .

وكما رأينا أن مقتل ريموند دى بواتيه أمير أنطاكيا ترك فراغ فى حكم الأمارة، فى الوقت الذى مازالت ذكرى سقوط الرها ماثلة فى الأذهان، مما جعل بلدوين الثالث يبحث عن زوج لأرملة ريموند الأميرة كونستانس، وقد حاول الأمبراطور البيزنطى إستغلال الفرصة بتزويج الأرملة من أمير بيزنطى لفرض السيطرة البيزنطية على أنطاكيا التى تحلم بها بيزنطة، لتلقى هذه المحاولة معارضة شديدة من أمراء أنطاكيا وبلدوين، فعرض بلدوين ثلاثة أسماء من كبار النبلاء على كونستانس ـ إيفز نسل كونت سواسون، ووالتر فولكنبرغ، ورالف ميرل من كبار نبلاء طرابلس ـ لتختار من بينهم زوجاً لها، لترفضهم الأرملة العابثه المتمسكة بحريتها التى تستغلها فى حياة المجون ،

لتلتقط عينى أميرة أنطاكيا الخبيرة بالرجال فارس فرنسى شاب فقير، كان من ضمن قوات الحملة الصليبية الثانية وكان فى خدمة لويس السابع، وسوف يكتب لهذا الفارس أن يكون من أهم أسباب نهاية مملكة بيت المقدس، هذا الفارس هو رينو دى شاتيون المعروف بأرناط بين المؤرخين العرب، وهو رجل وقح متغطرس فظ، وهو الأبن الأصغر المفلس المحروم من الميراث ـ تبعاً للعرف الإقطاعى الأوروبى ـ لجيوفرى كونت جين ولورد شاتيون وسير لوان، حتى والده كان أميراً من قاع طبقة نبلاء أوروبا، ولم يرجع رينو للأفلاس المنتظره فى مسقط رأسه، وفضل الإنتظار فى

الرفاهية والترف الشرقى، وألتحق بخدمة بلدوين كفارس بالأجر، ممنياً نفسه بزيجة تنتشله من هوة الفقر، لترتمى كونستانس بين أحضانه وتدفعه للسفر لطلب الأرتباط بها من بلدوين، ليُصدم بلدوين من فكرة زواج بنت خالته من فارس معدم من حثالة الفرسان[44]،

ويتم الزواج ـ بالرغم من معارضة الملك ـ فى يناير 1153م ليبدء أرناط عهده كأمير أنطاكيا بعقاب بطرق أنطاكيا بسبب تحريضه لكونستانس على عدم الزواج منه، وكذلك ثراء البطرق الذى أسال لعاب اللص المفلس، ووصل الحال بأرناط إلى ضرب بطرق أنطاكيا وجرح رأسه وتلطيخ الأسقف فى عسل وإلقائه عاريا فى شمس الظهيرة الحارقة تاركاً إياه فريسة لألاف الحشرات المتلهفة على العسل الملطخ به جسده، متناسيا قداسة منصب البطرق، ليسارع البطرق بغمر أرناط بفيضان من الذهب حتى لا يقضى يوماً أخر فريسة للحشرات، بينما نشأت صداقة إجرامية بين أرناط وفرسان الداوية، قوى أواصرها عنصريتهم وكراهيتهم لكل ما هو غير كاثوليكى

بل قام أرناط بمهاجمة قبرص التابعة لبيزنطة إينذاك، وأسر حاكم قبرص البيزنطى، ورجال الدين القبارصة والتمثيل بهم بجدع أنوفهم وقطع أذانهم وألسنتهم ولم يشفع لهم أنهم رجال دين مسيحيين، والجنود الفرنج ينهبون كل ما فى طريقهم، غير مفرقين بين كنائس وأديرة وقصور وحوانيت، بينما جثث الرجال القبارصة مفترشة الثرى كانت نساءهم تغتصب، وتم ذبح الجميع ذبح الشياه لمدة ثلاثة أسابيع، وبمجرد وصول أنباء أسطول إنقاذ بيزنطى، يسارع أرناط فى العودة لأنطاكيا بسفنه المكتظة بالأسلاب والأسرى الأثرياء المنتظر دفع فدية ضخمة لهم ،

وما أن يزحف الأمبراطور البيزنطى مانويل للأنتقام من أرناط، حتى قام المحارب اللاتينى برشوة بعض كبار حاشية مانويل لحث الأمبراطور على منحه عفوه، ثم يحث أرناط الخُطى حتى معسكر الأمبراطور بمدينة المصيصة، وليقتحم أرناط على رأس أمراءه بلاط مانويل، حافي القدمين، يرتدى قميص قصير من الصوف، يربط فى عنقه حبلاً من الحبال التى يُربط بها الإغنام، وأمراءه على شاكلته بنفس هيئته، وينطرح أرضاً منبطحاً على بطنه تحت أقدام الأمبراطور، الذى لم يكلف نفسه عناء النظر لهذا الوضيع، بل أستمر فى إكمال حديثه لبضع دقائق قبل أن يتعطف بالنظر لأرناط الذليل، ويقدم أرناط سيفه وهو يمسكه من طرفه الحاد لمانويل، وهو يبكى

44 الحروب الصليبية ج3 ص359

ومعفراً رأسه بالتراب تحت قدم الأمبراطور طالباً صفحه وسط ضحكات الحاضرين، فأرناط أظهر قدراً من العبودية توازى غطرسته،

ليمنحه الأمبراطور عفوه مقابل شروط مهينه تتضمن، قيام أرناط بتسليم أنطاكيا للأمبراطور حينما يطلب، تعهد أرناط بتقديم وحدات عسكرية من أنطاكيا للقتال بجانب قوات الأمبراطورية، تعيين بطريرك أرثوذكسى بدلاً من البطريرك الكاثوليكى الحالى، وإن ترك مانويل أرناط على رأس أمارة أنطاكيا لتأكده من أهمية وجوده لما يسببه من إنشقاقات فى الصف الصليبي بسبب رعونته وحمقه، حتى أصبح أرناط مصدراً غير محتملاً لتكدير الجو،

وقد كان وجود نور الدين محمود مسيطراً على حلب حائط صد قوى أمام أى توسع صليبى فى إتجاة الشمال، مما جعل بلدوين يفكر فى التوسع جنوباً على حساب مصر التى بلغت تحت حكم الفاطميين درجة كبيرة من الضعف، فبدء بلدوين بعسقلان، أخر مدن الشام تحت الحكم المصرى، فيقوم بلدوين بتشيد قلعة غزة وتسليمها للداوية لحراستها ومضايقة عسقلان، وفى يناير 1153م يحاصر الصليبيون عسقلان ويبدى الجيش المصرى مقاومة بطولية تطيل فترة الحصار حتى تسلم عسقلان 19 أغسطس 1153م بشرط خروج أهالى عسقلان إلى مصر ليتقدم الصليبيون خطوة فى إتجاه مص، ثم زحف بقواته لإحتلال القاهرة قبل أن يصده الوزير المصرى الصالح طلائع بن رزيك[45]،

وأن أستطاع بلدوين إحتلال عسقلان، فإن نور الدين تقدم خطوات كبيرة فى سبيل تحقيق الوحدة المنشودة القادرة على تطهير الشام من الوجود الصليبى بضمه دمشق لدولته، فبالرغم من المحاولات المتعددة التى قام بها عماد الدين زنكى للإستيلاء على دمشق، إلا أن المدينة بقيادتها من أسرة طغتكين ومملوكه معين الدين أنر أستطاعت مقاومة وإفشال كل هذه المحاولات، بسياسة المهادنة والإستعانة بالفرنج، أما الأن فقد كانت دمشق تحت حكم مجير الدين أبق بعد موت الوصى عليه معين الدين انر، وقد كان أبق قاسى وقصير النظر، فقام بالتحالف مع الصليبيين علاوة على قسوته مع أهالى دمشق مما أدى إلى نفور قلوب رعيته منه، فقد قامت مفاوضات بين مجير الدين ومملكة بيت المقدس أسفرت عن تقسيم الناتج الزراعى لمنطقة السواد التابعة لدمشق، على أن يكون الثلث للصليبيين والثلث الثانى لمجير الدين والثلث الباقى

[45] كنز الدرر وجامع الغرر، إبن أيبك الدوادارى ج7 ص15

للمزارعين[46]، بالإضافة على تعهده بتسليمه حصنى المنيطرة وعكار الهامين للصليبيين، وفرض إتاوة باهظة على حصنى مصياث والطوفان التابعين للحشاشين، علاوة على تعهده بدفع ثلث الإنتاج الزراعى لمنطقة بعلبك للصليبيين عقب هجوم ملك بيت المقدس على المنطقة 503هـ/1111م[47]

وهذا ما أستغله نور الدين فقام بمكاتبة أهالى دمشق عن طريق حاكم بعلبك الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبى، حتى تأكد من مساعدة أهالى دمشق ضد أبق فقام بالهجوم على دمشق التى سارع الدماشقة بفتح أبواب مدينتهم لأستقبال نور الدين محمود بدون قتال أو سفك دماء، بعد أن أُقطع مجير الدين أبق حمص، ولن تندم دمشق على إلقاء مقدراتها بين يدى نور الدين، فعلى يديه سينتهى عهد التحالف مع الفرنج، وستعيش المدينة أزهى عصورها، مما يعنى تكوين جبهة قوية مكونة من الشام وشمال العراق، لا ينقصها إلا مصر لتشكيل جيش يستطيع مواجهة الصليبيين ومن وراءهم أوروبا، ليميل ميزان القوى بشكل واضح لصالح نور الدين، فبالرغم من أن مساحات الكيانات الصليبية أكبر وأغنى فى مواردها من أراضى دولة نور الدين، بيد أن دولة نور الدين تتمتع بميزة الوحدة تحت قيادة موحدة، بعكس الكيانات الصليبية التى كانت تعانى من تناحر زعماءها المتعجرفين ،

وقام نور الدين بمهاجمة مدينة بانياس، التى صمدت بقيادة صاحبها كونستابل المملكة همفرى بن تورون، لتصل قوات النجدة بقيادة الملك بلدوين، بينما ينسحب نور الدين إنسحاباً تكتيكياً ليهز الغرور بلدوين ويأخذ فى العودة لعاصمته، بينما نور الدين يقوم بمناورة رائعة بقواته حتى يصل مخاضة بنهر الأردن تعرف بمخاضة الأحزان، ليقوم بنصب كمين عند هذه المخاضة التى لا يوجد دونها طريق لجيش بيت المقدس، وهناك ألتقى بجيش بيت المقدس فى مايو 1157م بقيادة بلدوين الذى فر بشق الأنفس بعد الهزيمة الساحقة التى لحقت بجيش بيت المقدس الذى ذهب بين قتيل وأسير، ويختفى بلدوين الثالث خلف أسوار مدينة صفد وتنقطع أخباره، "وقيل أنه فى الهاربين، وقيل أنه فى جملة القتلى، ولم يعرف له عن خبر"[48] ووثب المسلمون كالليوث على بانياس التى ألقت بأمورها فى أيدهم،

46 ذيل تاريخ دمشق ص164
47 ذيل تاريخ دمشق ص171
48 ذيل تاريخ دمشق ص343

ويعرض الأسرى بشوارع دمشق بملابسهم وتجهيزاتهم العسكرية "والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال فكل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفى يده راية، والرجالة والسرجندية كل ثلاثة أو أربعة أو أكثر أو أقل فى حبل[49]،

وتقترب هذه المعركة من حيث نتائجها من نتائج معركة حطين، حيث أختفى جيش بيت المقدس الذى تم أسر معظم قواته وقواده، فلماذا لم يستغل نور الدين هذه المعركة للقضاء على التواجد اللاتينى بالشرق كما فعل تلميذه صلاح الدين ،

الفرق هنا هو سلامة الملك، فبينما تم أسر ملك بيت المقدس جى فى معركة حطين بما يعنى إختفاء رأس المملكة، نجد الملك بلدوين أستطاع الفرار والوصول لعاصمته التى ستستعيد أنفاسها بوصوله، وكذلك سلامة قوات طرابلس وأنطاكيا التى لم تشترك فى المعركة، فى الوقت الذى تم القضاء على قوات طرابلس بجانب قوات بيت المقدس فى معركة حطين، كما أن الجبهة الإسلامية خلال معركة حطين كانت أقوى وأقدر ـ لإنضمام مصر إليها ـ على مواجهة أوروبا التى ستحاول درء أثار الهزيمة وسقوط المملكة اللاتينية، بينما كانت هذه الجبهة لم تكتمل حلقاتها بعد خلال فترة حكم نور الدين محمود، التى أكملها صلاح الدين الأيوبى ،

وأتسمت المعارك فى هذه الأثناء بما يمكن الأطلاق عليه حرب قلاع وإغارات حيث كان الأغارة تهدف إلى تدمير النشاط الأقتصادى للحصن بتدمير الأراضى الزراعية التابعه له، كما فعل أسد الدين شيركوه ضد صيدا مايو 1158م، ووقعت معركة بين نور الدين والصليبيين، الذين هاجموا نور الدين على غرة يوليو 1158م أثناء راحته بمنطقة تسمى البقيعة بجوار حصن الأكراد، ليفاجئ نور الدين بقوات اليزك الخاصة به[50] تعدو لمعسكره وفى أثرها مباشرة قوات الصليبيين، ليخرج نور الدين من ظهر خيمته، ويسارع بركوب فرس النوبة[51] ولكن تصادف أن الفرس كانت رجله مقيده فنزل فارس كردى وقام بقطع القيد من قدم فرس نور الدين فلحق الفرسان الصليبيون بهذا الكردى فقتلوه، فحفظ نور الدين أولاد هذا الكردى ورباهم مع أولاده[52]، ورفض نور الدين الإنسحاب لحلب وأقام معسكره بقرب موقع المعركة وقال "والله لو

49 ذيل تاريخ دمشق ص341
50 قوات فرسان خفيفة تستخدم للأستطلاع
51 فرس يكون جاهز قرب السلطان دائماً للطوارئ
52 مفرج الكروب ج1 ص135

معى ألف فارس لقيتهم ولا أبالى" وأقسم بقوله "والله لا أستظل بجدار حتى أخذ بثأر الإسلام وثأرى"[53]

وفى نوفمبر 1160 م يهاجم الأمير اللص أرناط بعض الرعاة المسيحيين ويسرق قطعان ماشيتهم ليخرج الأمير مجد الدين ابو بكر بن الداية نائب نور الدين ويقاتل أرناط الذى وقع بالأسر ليقبع فى سجون نور الدين حوالى ستة عشر عاما (1160 - 1176م) ولا يحاول أحد من زملائه العمل على فك أسره، وفى عام 1162 م يتوفى بلدوين فى الثالثة والثلاثين من عمره ليخلفه أخيه الصغير آمورى (Amaury) (558-569هـ/1163 - 1174م)

توج هذا الملك البدين المتلعثم ذو السبعة وعشرون عاماً فى 18 فبراير 1162 م، وقد تميز بالشجاعة والمقدرة السياسية، وأن كان غير طاهر الذيل ولم يتورع عن مطاردة نساء نبلاءه فى مجتمع تميز بالإنحلال الأخلاقى، وقد ملك عليه إحتلال مصر تفكيره طوال سنوات حكمه، فإذا ما كانت سوريا قد أتحدت تحت راية نور الدين، فيجب إلا تكتمل وحدة جيرانه المسلمين، فهو على يقين أن دولته تستمد حياتها من تشتت القوى الإسلامية، بيد ان إكتمال جبهة من سوريا ومصر من شأنه فناء دولته والوجود الصليبى ككل، فلهذا عمل آمورى على عدم إنضمام مصر لدولة نور الدين، والعمل على الفوز بها، ثم كان الضعف السارى فى شرايين الفاطميين أكبر حافز لآمورى على الطمع فى إحتلال وادى النيل،

فنجاح نور الدين فى ضم دمشق وشيزر وإختفاء الأسر الحاكمة التى كانت تحالف وتهادن الفرنج، أدى إلى ضغط هائل على الكيان الصليبى فى الشام، وكذلك أدى الإستيلاء على دمشق إلى ظهور خطوط تماس بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس، كل هذا أدى إلى توالد يقين لدى الفرنج بإستحالة نجاح أى نشاط عسكرى لهم فى الجبهة الشرقية، لوجود الدولة النورية القوية بقيادتها المتحمسة للقضاء على الوجود الصليبى بالشام، فلهذا أدار الصليبيون رؤوسهم إلى الجبهة الجنوبية، مصر التى طالما أسالت ثرواتها لعابهم، وزارت أحلامهم منذ مجيئهم للشرق، كما أدى نجاح نور الدين محمود فى تكوين قوس المقاومة المتمثل فى الجهات الداخلية من الشام إلى زيادة شعور الصليبيون بالخطر، الأمر الذى أدى إلى محاولتهم التحالف مع أعداءهم التقليديين بالقسطنطينية ،

[53] إبن أثير التاريخ الباهر ص116 ، أبن الأثير الكامل ج 9 ص463

كما أدت الهزائم المتوالية التى تلقتها الجيوش الصليبية على يد نور الدين إلى ترنح الوجود الصليبى فى الشام مما ينذر بقرب إنهيار هذا الكيان، الأمر الذى إدار أنظار آمورى ناحية مصر الغنية بموقعها التجارى المتميز، الذى من الممكن أن يوفر موارد مالية ضخمة، وأمام طموح آمورى الجارف بمد سيطرته على وادى النيل، بينما إمكانيات دولته الذاتية أقل من تحقيق هذا الطموح، أرسل آمورى سفارة لأوروبا لمناشدة ملوكها إرسال حملة صليبية جديدة تكون وجهتها القاهرة، ولكن أوضاع أوروبا فى ذلك الوقت أجهضت مشروع الحملة فى مهده، الأمر الذى حدا بآمورى إلى القيام بنفسه بالسفر للقسطنطينية والإعتراف بسيادتها على مملكة بيت المقدس، والزواج من أميرة بيزنطية، فى سبيل نوال مساعدة بيزنطة فى مشروعه الطموح ،

وقد بدء أمورى محاولاته لأحتلال مصر مبكراً فى ذى القعدة 558هـ/سبتمبر 1163م متذرعاً بعدم إلتزام الخلافة الفاطمية بدفع الضريبة التى فرضها أخيه بلدوين عليها، حتى وصل لبلبيس وحاصرها، ولكن الوزير المصرى فارس المسلمين أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار أستخدم شقيق المصريين على مر العصور، النيل فقد كان فيضان النيل هو الجندى المصرى الذى دافع عن مصر وأجبر الصليبيين على الأنسحاب، بيد أن هذه المحاولة الفاشلة أوضحت للصليبيين مدى الضعف المسيطر على الدولة الفاطمية المحتضرة ،

وكان الوزير الأسبق على ضرغام يسمى شاور بن مجير السعدى ولكن ضرغام أجبره على الفرار ليلتجئ شاور بنور الدين فى ذو القعدة558هـ/أكتوبر 1163م طالباً مساعدته للعودة لمنصبه المسلوب، وزيران يتصارعان على مُلك مصر ضمن سلسلة من خمسة عشر وزيراً سبقوهما على الحكم توفى وزير واحد فقط منهم على فراشه، أم البقية فقتلى،

وإن كانت هذه الحادثة ليست أول لقاء بين مصر ونور الدين، فقد قام الوزير الفاطمى سيف الدين أبو الحسن على بن السلار وزير الخليفة الظافر بأمر الله، بإرسال الأمير الشيزرى أسامة بن منقذ بأموال إلى نور الدين لطلب مساعدته ضد الفرنج عندما أزداد ضغطهم على عسقلان، على أن يقوم نور الدين بمهاجمة أملاك الصليبيين بطبرية لإجبار الصليبيين على تخفيف ضغطهم على عسقلان، فقام الأمير أسامة بن منقذ بتجنيد ثمان مائة وستين فارساً بالمال الذى أرسله معه أبن السلار وأرسل معه نور الدين أمير من أمرائه ـ عين الدولة الياروقى ـ ولاقوا الفرنج المحاصريين

لعسقلان ليساعدوا والى عسقلان ناصر الدين ياقوت وقوات عسقلان على هزيمة الفرنج وإجبارهم على رفع الحصار عن المدينة[54]

ليجدها نور الدين فرصة ذهبية للإستيلاء على مصر وقفل أبوابها فى وجه الصليبيين وضمها لمحور المقاومة، وتم الأتفاق بين شاور ونور الدين على أن يدفع شاور لنور الدين ثلث دخل مصر، ومنح قوات النجدة أقطاعات بمصر فأرسل نور الدين معه حملة فى إبريل 1164م بقيادة أجدر قواده أسد الدين شيركوه ومن ضمن هذه الحملة فارس شاب ذو سبعة وعشرون عاماً هو أبن أخ لشيركوه أنه البطل صلاح الدين يوسف بن أيوب[55]، الذى كانت هذه أول لقاء له مع أم الدنيا التى أتاحت له برجالها ومواردها أمكانيات مقاومة الصليبيين، وعند وصول أخبار الجيش النورى القادم صحبة شاور حاول ضرغام الأستنجاد بالصليبيين مما جعل جميع المصريين ينفضون من حوله الأمر الذى أدى لمقتله فى النهاية، ودخول شاور والجيش النورى القاهرة فى مايو 1164م إيذاناً بعودته لمنصبه،

ولكن ما أن صفا الوقت لشاور ـ الذى ستغرق مكائده الشيطانية المنطقة فى الدم والنار ـ واستطاع فرض سيطرته على مقاليد الحكم حتى أنقلب على شيركوه ورفض اعطاءه ما وعد به نور الدين، مما أدى إلى حدوث مواجهات بين الطرفين، وقيام شيركوه بالتحصن فى بلبيس، فقام شاور بإستدعاء الصليبيين لطرد شيركوه، ويراسل شاور آمورى قائلاً "إن شيركوه طلع معى نجدة ضد ضرغام، فلما حصلوا فى البلد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيشاً ولا قرار"[56] بعد أن تعهد بدفع ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الطريق السبعة وعشرين من القدس إلى القاهرة، كما تعهد شاور بمنح هدية لكل فارس من فرسان الإسبتارية المشاركين فى الحملة، وتوفير علف أفراس الحملة،

وكان آمورى فى إنتظار هذه الفرصة التى لا تعوض فأنطلق بجيشه "لعلمه أن الخطر فى مقامه، إذا ملك أسد الدين مصر"[57] وقد تضخم الجيش الصليبى بعد إشتراك الحجاج القادمين من أوروبا به، بعد أن عهد لبوهيمند الثالث أمير أنطاكيا بإدارة شئون المملكة، ليجتمع آمورى وشاور بمدينة فاقوس وينطلقوا لحصار شيركوه فى بلبيس،

---

54 الإعتبار ص14 – 16

55 أرتبط صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه منذ أن كان فى الرابعة عشر من عمره حيث صار من ضباطه، وألتحق رسمياً بخدمة نور الدين

56 الروضتين ج1 ص167

57 الكامل ج 11 ص134

ولكنهم فشلوا فى إقتحامها ولم ينالوا منها نصيباً[58] لمدة ثلاثة أشهر ـ من أغسطس إلى أكتوبر1164م، بالرغم من ضعف تحصيناتها بسبب بطولة شيركوه وعسكر نور الدين، وتلقى شيركوه مساعدات من القبائل العربية النازلة بجوار بلبيس، وبسبب هذه المقاومة، وورود أخبار الإنتصار الذى حققه نور الدين بحارم، تم عقد إتفاق على أن يغادر شيركوه وآمورى مصر أواخر 1164م، ليكون شاور المنتصر الوحيد، وأن كان بشكل مؤقت،

كل هذا والخليفة العاضد لدين الله[59](555-567هـ/1160-1171م) لا حول له ولا قوة، فقد أستعان وزيراه شاور وضرغام بأعداءه، سواء نور الدين محمود السنى المذهب، أو الصليبيين ،

ليسارع آمورى بالعودة لمملكته لعله يدفع عنها هجمات نور الدين الذى أستغل غياب آمورى فى مصر وعاث فى أراضى الصليبيين قتلاً وحرقاً، فقد زحف نور الدين على قلعة حارم التابعة لإمارة أنطاكيا ليحاصر المدينة التى أستنجدت بزعماء الفرنج المتواجدين بالشام، ليزحف أمير أنطاكيا بوهيمند الثالث بقواته، وكونت طرابلس ريموند الثالث ونائب قليقية البيزنطى قسطنطين كولومان والأمير الأرمنى ثوروس الثانى بالإضافة لحاكم مدينة حارم رينولد سانت فاليرى، لينسحب نور الدين من حارم حتى مدينة أرتاح لإستدراج الصليبيين بعيداً عن قواعدهم، ليطارد بوهيمند نور الدين متجاهلاً تحذيرات الأمير الأرمنى ثوروس معتمداً على ضخامة قواته البالغة ثلاثين ألف مقاتل، لينسحب ثوروس بعد تجاهل نصائحه، وتصطدم القوتان بالقرب من أرتاح، ويتبع نور الدين تكتيك فصل فرسان الفرنج عن مشاتهم، بتظاهر فرسان قوات حلب بالهزيمة حتى يتبعها فرسان الفرنج، لتنفرد فرسان قوات الموصل بمشاة الفرنج وتقضى عليهم، حتى إذا ما عاد فارسهم لم يجدوا مشاة ليحتموا بها ويلجئون إليها[60]، لترتد قوات حلب فى أثر فرسان الفرنج ومن أمامها قوات الموصل وباقى فرق الجيش ليتم حصر القوات الصليبية من كل جانب والقضاء عليها، وعدل المسلمون عن القتل إلى الأسر فتم أسر ما لا يحد[61] من الصليبيين وتقدرهم بعض المصادر المعاصرة بستة آلاف أسير عجت بهم سجون دمشق، ومن بين الأسرى بوهيمند الثالث أمير أنطاكيا وريموند الثالث كونت طرابلس ونائب قليقية البيزنطى،

---

58 مفرج الكروب ج1ص140

59 أبو محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد، ولد عام 546هـ/1151م وبويع بالخلافة عام 555هـ/1160م وتوفى عام 567هـ/1171م

60 الكامل ج9 ص468

61 الكامل ج9 ص469

لتسقط حارم فى قبضة نور الدين الأمر الذى يفتح له الطريق لأنطاكيا، وبعد هذا الإنتصار زحف نور الدين لمدينة بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس مستغلاً إختفاء القيادات الصليبية من الشام، فآمورى بمصر، وكونت طرابلس وأمير أنطاكيا قابعين فى سجون نور الدين، وحاكم بانياس مع مليكه بناء على منصبه ككونستابل المملكة، وتسقط بانياس بعد حصار صغير، وتطول الأتهامات قسيس بالمدينة أسمه روجر وقائد حامية المدينة الفارس ولتر دى كيسنوى بأنهم تلقوا رشوة لتسليم مدينتهم، وتعتبر معركة حارم من المعارك الكبرى التى أدت إلى ترنح القوة العسكرية للصليبيين ،

ولكن كانت هذه الأحداث التى وقعت بمصر بمثابة عدسة مكبرة لنور الدين محمود وآمورى بينت مدى الضعف الضارب فى أوصال الدولة الفاطمية المحتضرة، الأمر الذى يوضح سهولة الإستيلاء عليها للأستفادة من خيراتها وحرمان الطرف الأخر من أمكانياتها الضخمة، وكما أن شيركوه هام حباً بمصر وطمع فى الإستحواذ عليها وأدرك سهولة هذه المهمة بسبب شيخوخة الدولة الفاطمية،

وبالفعل غادرت دمشق حملة وأن كانت صغيرة العدد ولكنها كانت مكونة من نخبة جنود الجيش النورى، لأكمال جبهة مقاومة الصليبيين فى يناير 1167م بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبى الذى إشترك فى الحملة على مضض، وقد توقع شيركوه قيام شاور بالأستنجاد بالصليبيين فلم يشأ حصر جيشه بين شاور وآمورى، فتوجه للوجة القبلى وعبر النيل ولم يُعلم به إلا وهو بناحية أطفيح[62] ليتمركز بالبر الغربى للنيل فى الجيزة فى إنتظار شاور وآمورى،

وصح ما توقعه شيركوه فقد أستنجد شاور بالصليبيين، قائلاً لهم "ملكُكم ولا مُلك الأعداء"[63]، وقد سارع آمورى لإنقاذ نفسه والوجود الصليبى قبل إنقاذ شاور، فهو يدرى إن ضم نور الدين لمصر بمثابة المسمار الأخير فى نعش الوجود الصليبى فى الشام، فعُقدت المحكمة العليا بنابلس برئاسة آمورى، وقد أجمعت المحكمة العليا على المسارعة لأنقاذ شاور بجميع بارونات المملكة، وعلى من لا يستطيع المشاركة فى حملة الإنقاذ دفع عشر دخله السنوى، وصدر أمر بتجمع كل فرسان ومشاة المملكة بمدينة عسقلان، ليبدء زحف الفرنج فى 30 يناير1167م على الصعب والذلول[64] ويقطع الصليبيون مراحل السفر لمصر والرجاء يقودهم والخوف يسوقهم[65]، حتى

62 الكامل ج10ص3 ، كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص28
63 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص29
64 الكامل ج10 ص3
65 التاريخ الباهر ص132

أجتمع الصليبيون مع شاور فتم عقد مفاوضات تحديد الثمن المقترح للصليبيين لتعقد صفقة بين شاور والصليبيين تنص على أن يبقى الصليبيون فى مصر حتى طرد شيركوه على أن يدفع لهم شاور مبلغ أربعمائة الف دينار نصفها معجل والباقى بعد التسليم، وصمم آمورى لإتمام الأتفاق أن يوقع عليه الخليفة الفاطمى العاضد أمام سفارة (إستكشافية) تضم كلاً من هيو صاحب قيسارية وجفرى مقدم فرسان الداوية من طرف آمورى الطامع فى مصر، الأمر الذى جعل من الصليبيين حماة الدولة الفاطمية ،

ليرسل شيركوه من معسكره رسالة لشاور يطلب منه التعاون على قتال قوات بيت المقدس، أنتهازاً لفرصة وجودها بعيدة عن مراكز تجمعاتها، مع إعطاءه لشاور كافة الضمانات على إنسحابه للشام بعد القضاء على الصليبيين، قائلاً له "أنا أحلف لك بالله الذى لا إله إلا هو، وبكل ما يثق به المسلم من أخيه، إننى لا إقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكن أحد من التعرض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك ألباً عليه، وما أومل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة وخلاصة عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز هذه الفرصة التى قد أمكنت، والغنيمة التى قد كتبت فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته وما أظن أنه يعود فيتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً"[66]، ليرفض شاور هذا العرض ويرسل الرسالة لآمورى، قائلاً "ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفرج"[67]،

وبالفعل قام شاور وآمورى بإتخاذ الخطوات التنفيذية لضرب جيش شيركوه، فقاموا بعبور النيل وهنا أتجه شيركوه جنوباً لأستدراج شاور وآمورى حتى الأشمونين بالمنيا، واتخذ موقعه فى قرية البابين الواقعة على حافة الصحراء بجيشه الصغير البالغ حوالى ألفى فارس، بعد أن جاءته جواسيسه بأخبار كثرة عدد جيش شاور وآمورى،

عقد شيركوه مجلس حرب أقترح فيه البعض الأنسحاب للشام لعدم التكافأ بين القوتين فقد قال بعض أمراء جيش شيركوه "إن هُزمنا ـ وهو ما لا شك فيه ـ فإلى أين نلتجئ، وبمن نحتمى، وحق لعساكر عدتهم ألف فارس وقد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم، أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف" حتى أخذ شرف الدين برغش مملوك نور الدين ـ صاحب قلعة الشقيف ـ بزمام الحديث مذكراً الأمراء بإن نور الدين سوف يحاسبهم فى حالة الأنسحاب بدون قتال من أمام شاور وآمورى ومخوفاً أياهم من لقاء نور الدين

[66] الروضتين ج1 ص168
[67] الروضتين ج2 ص64

فى هذه اللحظة بأن نور الدين سوف يسترد كل دينار أخذوه من بيت مال المسلمين طوال عمرهم بسبب عدم قيامهم بقتال الصليبيين قائلاً لهم "من يخاف القتل والجراح والأسر لا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو فى بيته مع النساء، والله لئن عدتم للملك العادل نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون عليه ليأخذن أموالنا وما معنا من إقطاع وجامكية[68] وليعودن علينا بجميع ما أخذناه من يوم خدمناه إلى يومنا هذا ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون ديار مصر يتصرف فيها الكفار"[69]، ليأخذ صلاح الدين طرف الحديث مشجعاً على القتال، وأمام هذا أخذ الجميع بخيار القتال مهما كانت موازين القوى،

وبالفعل أخذ شيركوه فى إعتباره الفارق الكبير فى موازين القوى بينه وبين الصليبيين وشاور، فصف جنوده على شكل هلال وجعل قلب جيشه أضعف من جناحاه، وأوكل قيادة قلب الجيش لصلاح الدين بينما تولى شيركوه قيادة الميمنة بنخبة قواته، مع إعطاء تعليماته لصلاح الدين بالأنهزام أمام جيش الصليبيين وشاور، لأستدراجهم بين جناحى جيشه لينقضا علي جيش شاور وآمورى كالكماشة، قائلاً له "هم يعتقدون أننى فى القلب، فهم يجعلون جمهرتهم بإزائه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا أنفسكم وإندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فأرجعوا فى أعقابهم"[70]

فشيركوه يريد فصل فرسان الفرنج عن مشاتهم، فالفارس الصليبى بدروعه الثقيلة، التى تحد من حرية حركته، وإن منحته حماية فعالة، كان لايستطيع الإستمرار فى القتال إلا لفترة محدودة يجب بعدها رجوعه للحماية بين صفوف مشاته ليستعيد نشاطه، فأراد شيركوه حرمانهم من هذا التعاون ،

أحتل شيركوه بعض المرتفعات الحاكمة على أرض المعركة ببعض قواته، بعد أن أنضم إليه قوماً من عرب الصعيد[71]، وتبدأ المعركة فى 18 إبريل 1167م بهجوم صليبى بقيادة آمورى على القلب ليقاتلهم صلاح الدين وهو ينسحب متظاهراً بالهزيمة، ليبتلع الصليبيون الطُعم، ويتوغلوا بين جناحى جيش شيركوه ليقفلا عليه الحلقة ويهاجم شيركوه مشاة الفرنجة بجناح جيشه الأيمن، وينفرد شيركوه بمشاة الصليبيين وتهاجم ميمنة شيركوه بقيادته ميسرة الجيش المشترك، ليتم تدمير الميسرة تماماً، ويثخن فى مشاة الصليبيين قتلاً، وينهزم باقيهم هاربين، بينما يجد آمورى نفسه

---

68 كلمة فارسية بمعنى راتب

69 التاريخ الباهر ص133 ، مفرج الكروب ج1 ص150 ، الكامل ج10ص4 ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص30

70 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص30

71 الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب ص29 ، كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص29

وقد أحيط به، ليستطيع الفرار بأعجوبة تاركاً خلفه جثث أغلب فرسانه، وهيو كونت قيسارية ومعه بقايا الفرسان الصليبيين فى أسر شيركوه، ويسارع آمورى وشاور بالأنسحاب للقاهرة بعيدا عن شيركوه ليتعجب أبن أثير بقوله "وكان من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس يهزم عسكر مصر وأفرنج الساحل "[72]

وبمناورة رائعة لشيركوه الذى لا يهدء أتجه بسرعة غير متوقعة للأسكندرية التى رحب أهلها ووواليها نجم الدين محمد بن مصال بهم إستياءاً من تحالف شاور مع الصليبيين، وترك شيركوه أبن أخيه صلاح الدين بالأسكندرية ومعه خمسمائة فارس، وتحرك هو بباقى الجيش فى إتجاه الصعيد الذى رحب بشيركوه أيضاً حتى وصل لمدينة قوص وأنضم إليه عدداً كبيراً من الفلاحين المسلحين، فالقائد العبقرى على بينه أن آمورى يقاتله الوقت، فهو لا يستطيع الإستمرار أكثر من ذلك بعيداً عن مملكته المنهكه تحت ضربات نور الدين، فشيركوه لم يكن متعجلاً، وأسرع آمورى وشاور للأسكندرية، وحاصرا المدينة وبداخلها صلاح الدين وفرسانه الخمسمائة، وقد قلت الأقوات بالمدينة وأن صبر اهلها على ذلك الحصار "وصدقوا القتال مع صلاح الدين"[73] الذى أمتد لمدة أربعة أشهر، بالرغم من إغراءات شاور الذى أعلن إسقاط المكوس[74] إذا سلموا صلاح الدين، ووعود آمورى "سلموا إلى هذا البلد وأنا أحط عنكم المكوس[75] وأوسعكم عدلاً" ليجيب أهلها "معاذ الله أن نسلم الإسلام إلى الكفر"[76] وأن نسلم المسلمين إلى الفرنج[77]

أرسل صلاح الدين يطلب النجدة من عمه الذى أسرع شمالاً ليدخل الطرفان فى جولة مفاوضات تنتهى على أن يترك الطرفان مصر أيضاً فى يونيو 1167م، وقد كان نور الدين كثف هجماته على مدن الصليبيين ليجبر آمورى على سرعة العودة لأنقاذ مملكته، وهذا ما جعل آمورى يتعجل الموافقة على المفاوضات والأسراع لعاصمته، ولكنه أشترط على شاور قيامه بدفع مائة ألف دينار سنوياً للصليبيين، وكذلك بقاء عدد من فرسان الصليبيين للسيطرة والدفاع عن أبواب القاهرة، الأمر الذى يرجح كفة الصليبيين فى الصراع الدائر للسيطرة على مصر، ما ينعش الأمال الصليبية القديمة

72 التاريخ الباهر ص133
73 الروضتين ج1ق2 ص370
74 الضرائب ، المواعظ والإعتبار ج1 ص174
75 الضرائب
76 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص32
77 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص30

التى ما فتئت تداعبها أحلام الإستيلاء على القاهرة، الأمر الذى سيجعل منهم القوة العظمى بالشرق الأدنى ،

وقد شكلت هذه الضريبة التى أضطر شاور لدفعها سنويا عبئ ثقيلاً جداً عليه وكذلك كان وجود أبواب القاهرة تحت سيطرة الصليبيين ما لا يمكن أن يوافق عليه المصريون، وعليه حاول شاور أن يقوم بهوايته فى اللعب على الحبلين فقام بإرسال أبنه الكامل شجاع لطلب مساعدة نور الدين ضد الصليبيين وهو ما كان ينتظره نور الدين، فى الوقت الذى كان الصليبيون قد زاد طمعهم فى مصر وخصوصاً البارونات الذين حلموا بإقطاعات فى ريف مصر الغنى، وبالفعل طالبوا الملك آمورى بالزحف والإستيلاء على مصر، ومما زاد فى شجاعة بارونات بيت المقدس وصول وليم الرابع كونت نفرس بقوة كبيرة من الفرسان، وهو ما رفضه وتخوف منه آمورى، ولكنهم واصلوا الضغط على الملك الذى حاول ان يبين لهم أنهم لن يلاقوا مقاومة الجيش الفاطمى فقط لكن جميع أهل مصر، فالملك آمورى كان مكتفياً بالضريبة التى يحملها له شاور، طالما مصر خارج نطاق نفوذ نور الدين، ولذلك قال لمن ألح عليه بالزحف على مصر "المصلحة إلا نقصدها فإنها طعمة لنا، فإن قصدناها فإن أهلها لا يسلمونها[78]، صاحب مصر وعساكرها وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها"[79]،

فى النهاية أنتصر الرأى المطالب بالزحف على مصر ونحن قد عرفنا ان ملك بيت المقدس كان صوته مثل صوت أياً من بارونات، ففى النهاية زحف الصليبيون أواخر أكتوبر 1168م لغزو مصر، بعد أن أعلن نيته الهجوم على حمص، لدرء أنظار نور الدين عنه، وتم تقسيم الغنيمة قبل النصر، فتم منح الإسبتارية مدينة بلبيس فى حال الإستيلاء عليها، علاوة على عدة مدن أخرى وهى تنيس ودمياط والمحلة وأسكندرية وقوص وأسوان والبهنسا وأطفيح والفيوم، فالإسبتارية سقطت تحت عبء ديون أوقعهم فيها رئيسهم "جيلبرت الأسالى" مما جعلهم الأشد حماساً للحملة، أما الداوية فعارضت الحملة ورفضت الإشتراك فيها حسداً لما ستجنيه الإسبتارية ،

بينما يحاول آمورى خداع شاور فيرسل لشاور رسالة "إنى قد قصد الخدمة على ما قررته لى من العطاء فى كل يوم"

---

78 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص31

79 الروضتين ج1 ص170، مفرج الكروب ج1 ص 156 والكامل ج10ص11

ليرد عليه شاور "إن الذى قررته أنما جعلته لك متى أحتجت إلى نجدتك، أو إذا قدم على عدو، فأما مع خلو بالى من الأعداء فلا حاجه لى إليك ولا لك عندى مقرر"

ليرد عليه آمورى "لا بد من حضورى"[80]

فيرسل شاور الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار لكشف هدف آمورى، فأراد آمورى طمأنة شاور، فساق تبرير لا ينطلى على أحد، فقد زعم أنه علم بنية قوات أوروبية الهجوم على مصر، فأتى للدفاع عنها كما تنص المعاهدة بينه وبين شاور، معلناً أن حبه لمصر وخليفتها هو ما دفعه للإسراع لدفع الخطر الصليبى،

ليصلوا لبلبيس ليجدوا أبوابها مغلقة فى وجههم وبداخلها طى بن شاور، وعندما طلب آمورى من طى فتح أبواب بلبيس له قال له طى "على أسنة الرماح، أتحسب بلبيس جبنة تأكلها؟" فرد عليه آمورى "نعم هى جبنة والقاهرة زبدة"، وحاصر آمورى بلبيس وأقتحمها فى 4نوفمبر1168م/مستهل صفر564هـ ليرتكب الصليبيون كعادتهم مذبحة مروعة تعادل بشاعتها عدم جدواها، فقد تم قتل جميع من حوتهم أسوار بلبيس، وأسر أبن شاور وأبن أخيه، مما جعل المصريين يصممون على مقاومة الصليبيين حتى لا يتعرضوا لنفس المصير، ووصل الجيش الصليبى للفسطاط فى 13نوفمبر 1168م/ العاشر من صفر564هـ، ليجدوها كومة من الرماد بعد أن أحرقها شاور عقب إجلاء أهلها عنها إلى القاهرة بعد أن أستمرت النيران تعمل فى الفسطاط أربعة وخمسين يوماً، حتى لا يستفيد الصليبيون منها حيث كانت الفسطاط بدون سور يحميها، كما وصل الأسطول الصليبى مهاجماً تنيس وحاول إختراق نهر النيل للوصول لداخلية مصر ولكن فلاحى الدلتا سدوا فرع دمياط أمام السفن الصليبية مما أضطرها للأنسحاب لعكا،

وحاول شاور كسب وقت وجر الصليبيين إلى مفاوضات بعد رشوة الملك، وعرض مليونى قطعة ذهبية مقابل الجلاء عن مصر وإطلاق سراح إبنه وإبن أخيه، حتى تصل النجدة المنتظرة من نور الدين، فشاور قد أرسل رسولين متتاليين وعلى أيديهما رسالة لنور الدين "إن لم تبادر ذهبت البلاد"[81]، بعد أن راسل آمورى قائلاً "أن هذا بلد عظيم كبير وفيه خلق كثير، ولا يمكن تسليمه البته ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، ولا تعلم أنت أو أنا لمن الدائرة، والرأى أن تحقن دماء أصحابك

[80] الروضتين ج1 ص170
[81] مفرج الكروب ج1 ص158

ودماء أصحابى، وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفواً"[82]، فى الوقت الذى شعر آمورى بالإحباط، بسبب مقاومة القاهرة لجيشه، وخوفه على بلاده من نور الدين، ويتسرب إلى آذانه أنباء قدوم جيش النجدة النورى بعد إستنجاد الخليفة، فيوافق على عرض شاور متأثراً بنصيحة ميلز دى بلانسى، ولكن شاور لم يرسل لآمورى إلا خمسة ألاف دينار فقط، متذرعاً بعدم قدرته على جمع المزيد إلا إذا تحرك الجيش الصليبى بعيداً عن العاصمة، ليعيد آمورى إنتشار جيشه بعيداً عن القاهرة،

حتى الخليفة العاضد أرسل يستنجد بنور الدين وضمن الرسالة خصلات من شعور نسائه، وكتب بخط يده "هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج"[83] "واغوثاه، واغوثاه، واغوثاه، إلحق دين الإسلام، أدرك أمة محمد عليه السلام، يا نور الدين، يا نور الدين، يا نور الدين"[84]

بينما نور الدين لم يكن فى حاجة إلى أى حافز لطرد الصليبيين ومنعهم من إحتلال مصر، فسارع بإرسال شيركوه الذى أصر على إصطحاب صلاح الدين بجيش مكون من خمسة ألاف من المشاة وألفين من الفرسان، وما أن علم آمورى بإقتراب الجيش النورى حتى أتجه لسرياقوس فى إنتظاره لمهاجمته وهو ما يزال مرهق من عبور الصحراء، ولكن أسقط فى يده عندما علم أن شيركوه أتخذ درب غير مطروق ليصل للقاهرة، التى أستقبلته إستقبال الأبطال فى ديسمبر 1168م ويقيم معسكره بباب اللوق، وشاور ما زال يقول "الفرنج ولا أسد الدين"[85]

ويحاول آمورى الإستيلاء على أى مساحة من مصر لعله يتفاوض عليها أو ينشئ بها أمارة، فيرسل مائتى وخمسين فارس وألفى راجل للإستيلاء على قليوب، ولكنه وجد فلاحيها وأهاليها حشدوا له، فرجعت القوة الصليبية، فأرسل ثلاثمائة فارس وثلاثة ألاف راجل للإستيلاء على جزيرة إبيار، فتجمع فلاحيها وعرب البحيرة وعرب الفيوم، وعبرورا النيل الفاصل بينهم وبين القوات الصليبية، وألتقوا بهم وتم قتل جميع القوات الصليبية ولم يعد منهم إلى آمورى إلا أثنى عشر فارس فقط[86] وهنا تيقن آمورى ان الغنيمة فى الأياب فبعد أن جاء لمصر يطلب قرنين رجع الشام بدون أذنين،

---

82 الروضتين ج1 ص171

83 شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص33

84 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص30

85 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص32

86 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص31-32 ، وهنا يطلق أبن أيبك على فرسان الصليبيين لقب القنطارية وهى الرمح الخاص بالفرسان

وقد أدت مغامرات آمورى فى مصر إلى تقليص الموارد البشرية والمادية صعبة التجديد للصليبيين ككل،

حاول شاور الأستعانة بالصليبيين على أن يحضروا بحراً لدمياط، فى الوقت الذى يحاول مخادعة شيركوه، وكما أعد مؤامرة لإغتيال شيركوه وكبار قادته، ويحرص على زيارته فى معسكره بشكل يومى، حتى يقوم صلاح الدين بالقبض على شاور، ولكن شاور يلقى مصرعه بأمر مباشر من الخليفة العاضد، ويلقى أبنه شجاع مصرعه فى قصر الخليفة، لتغلق صفحة الخضوع للصليبيين من مصر تماماً .

ليتم تنصيب شيركوه وزيراً للخليفة ويلقب بالملك المنصور، ولكن لم يمهل القدر شيركوه للحكم فقد توفى فى 23 مارس 1169م بعد شهرين من توليه الوزارة بمرض التخمة، ليختار الخليفة العاضد أبن أخ شيركوه وأصغر أمراء الجيش النورى ليستطيع السيطرة عليه، وربما كان صلاح الدين الوزير الوحيد الذى تدخل الخليفة الفاطمى فى إختياره منذ ضعف الدولة الفاطمية، ذلك الشاب الذى لم يتجاوز الثلاثين من عمره والذى أستطاع أن يحفر أسمه بحروف من ذهب، وأجبر أعداءه على الأعجاب بأخلاقه وفروسيته والذى كتب على يده بداية النهاية لدولة الصليبيين فى الشرق، والغريب أن هذه الأحداث حدثت خلال تولى أكثر ملوك بيت المقدس شجاعة ومقدرة، فقد دخلت مصر بقوة فى دائرة الصراع لتكون نهاية هذه الحركة الأستعمارية على يد جيوشها، فقد أدت حملة آمورى الفاشلة إلى تغيير موازين القوى فى المنطقة فبعد أن كانت مصر تحت حكم دولة ضعيفة وكان الشرق منقسم مذهبياً وسياسياً، وحدت حملة آمورى الشرق كله تحت راية نور الدين ليرث الجميع صلاح الدين.

إكتمال الجبهة

"لو أن نور الدين علم فيكم من يقوم

مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى

لسلم إليه مصر وهى أعظم ممالكه"

صلاح الدين مخاطباً أمراء عماد الدين إسماعيل

أصبح يوسف ذو الأثنين والثلاثين ربيعاً أخر الوزراء الفاطميين، ولُقُب بالملك الناصر صلاح الدنيا والدين، وأرتدى الزى الرسمى للوزراء الفاطميين، العمامة المحنكة[1]، بالرغم من أعتراض كبار أمراء الجيش النورى الذين عز عليهم أن يحوذ أمير أصغر منهم رتبة هذا المنصب الرفيع، كما لاقى صلاح الدين الصعاب من حاشية العاضد الذين عز عليهم ضياع نفوذهم، وصلاح الدين يغدق الأموال، حتى أستحوذ على قلوب الجميع وأصبح رجل الساعة بلا منازع ،

إستطاع نور الدين وشيركوه وصلاح الدين القضاء على أكبر سببين من أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى فى إحتلال بيت المقدس، الإنقسام العقائدى بوجود خلافتين أحدهما سنية والأخرى شيعية فى العالم الإسلامى، والإنقسام السياسى بين جناحى الأمة العربية، مصر والشام وذلك بضمهما تحت لواء دولة متحدة،

بعد سلسلة طويلة من المؤامرات والصراع الغير أخلاقى على السلطة، والإضطرابات، والمجاعات، والأستقواء بالأعداء، والمحن التى لازمت أفول حكم الفاطميين، قضى حكم صلاح الدين الخيّر على هذه الفوضى وألقى بها خارج مصر،

أدت سيطرة نور الدين على مصر بواسطة قائده صلاح الدين إلى صدمة صليبية، وتولد إقتناع لديهم بضرورة السيطرة على مصر بعد طرد صلاح الدين منها، الصليبيون على تمام اليقين بإن إنتظام الوحدة بين البلاد العربية هو الحد الفاصل لوجودهم بالشرق، فهم إنما أقاموا كياناتهم السياسية فى الشرق وأستمروا بسبب التمزق والتشرذم الإسلامى، فلهذا أستطاعوا بناء جزائرهم المتناثرة الصغيرة وسط المحيط الإسلامى الخضم، الذى إنهزم ليس لضعف قواه البشرية، إنما لتفككها، " فمن

[1] عمامة تلف طرفها تحت ذقن مرتديها، وهى الزى الخاص بالأساتذة المحنكون، وهم كبار الخدم وأرباب الوظائف بقصر الخليفة الفاطمى،

الممكن الدفاع عن المملكة طالما أن مملكتا مصر ودمشق باقية فى أيدى زعامات متنافرة معادية بعضها مع بعض"[2]

وهنا أستشعر الصليبيون الخطر على وجودهم بالمشرق، فخفوا الخطى لأوروبا يتسولوا النجدة من الممالك والإمارات الغربية، فإذا كان سقوط الرها قد أثار ملكى فرنسا وألمانيا للقيام بحملة صليبية، فمصر أولى أن تثير أوروبا مجتمعة، فألف آمورى سفارة من ألمع الشخصيات فى الهيراركية الكنسية، من آمورى بطريرك بيت المقدس وهرنسيوس مطران قيصرية ووليم مطران عكا، ليطرقوا أبواب بلاط فريدريك بربروسا أمبرلاطور ألمانيا ومنه للويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك أنجلترا ووليم الثانى ملك صقلية وفيلين كونت فلاندرز وهنرى كونت شمبانيا، ليجدوا آذاناً موصده أمامهم، فأوروبا الأن غير أوروبا الحملة الأولى، فأوروبا الأن نشأت بين جناباتها مدن مما أدى لنمو الطبقة البرجوازية، التى أرتبطت بمصادر دخل وأعمال فى مدنها، بعكس طبقة الأقنان التى شكلت فيضان جارف من الفقراء الذين رأوا فى الشرق طوق النجاة من الحرمان الذى غرقوا فيه، أما الأمراء فقد فقدوا الكثير من نفوذهم أمام زيادة قوة الملكية، مما يحد من قدرتهم على إتخاذ المبادرة فى الإشتراك فى حملات كبيرة، علاوة على الخلافات الناشئة بين الباباوية وملوك أوروبا بسبب التقليد العلمانى[3]،

ليدير آمورى دفة الإستنجاد إلى بيزنطة العدو الدائم للصليبيين، فتم الأتفاق عل قيام حملة برية بحرية صليبية بيزنطية مشتركة فى 16أكتوبر1169م، وقام آمورى أيضاً بتقسيم الغنيمة قبل الصيد فقد أصدر مرسوم بتخصيص مدن الفسطاط وتنيس والمحلة والأسكندرية وقوص وأسوان وأطفيح والفيوم للأسبتارية إذا ما أشتركوا فى الحملة، وزحف الصليبيون براً مباشرة لدمياط، بعد صعوبات تشكيل جيش بيت المقدس بعد الخسائر الكبيرة بين صفوف فرسان الإسبتارية فى معركة البابين، ورفض الداوية الإشتراك فى أى هجوم على مصر حسداً لدور الإسبتارية الملحوظ فى الحملات على القاهرة، ويصل الأسطول البيزنطى الضخم بقيادة أندرينيقوس كونتوستيفانوس لدمياط لتغطى المياه مائة وخمسين سفينة حربية وستين سفينة لنقل الخيول وعشرين سفينة لنقل المؤن تحمل ما يكفى الجيش البيزنطى لثلاثة أشهر، ويرسل صلاح الدين قوات بقيادة خاله شهاب الدين محمود الحارمى وأبن أخيه تقى الدين عمر وأعقبها قوات

---

[2] رسائل جاك فيترى ص256

[3] التقليد العلمانى هو قيام الملوك والأباطرة بتعيين رجال الدين وهو ما قاومته الباباوية وأرادت أن يقتصر تعيين رجال الدين من خلالها فقط

بقيادة مقدم جيشه قطب الدين خسرو الهذبانى للدفاع عن المدينة، وتفشل الحملة بسبب المقاومة البطولية لأهالى دمياط وعساكر صلاح الدين من جهة، وبسبب إنعدام الثقة بين الطرفين المهاجمين، والإغارات التى قام بها نور الدين محمود على المدن الصليبية بالشام ،

كان على صلاح الدين مواجهة مشكلة ضخمة وهى توحيد مصر والشام عقائدياً، بما يعنى إسقاط الدولة الفاطمية، بيد أن صلاح الدين تخوف، إعتقاداً منه بوجود مؤيدين للفاطميين بين الشعب المصرى، ولكن الفاطميون وأن نجحوا سياسياً فى مصر فقد فشلوا عقائدياً فشلاً ذريعاً، فأبطل صلاح الدين من الأذان "خير على خير العمل" فى 10 ذو الحجة 565هـ/1171م ثم فى خطبة الجمعة فى سبتمبر1171م تم الدعاء للخليفة العباسى المستضئ وقطع الدعاء للعاضد بما يعنى إسقاط الخلافة الفاطمية عملياً وإعادة توحيد المسلمين، "دون أن ينتطح فيه عنزان"[4]، بعد أن سبقه نور الدين فى توحيد الشام عندما عمم المذهب السنى فى حلب،

وأن لم تسير الأمور هينة مع صلاح الدين، فهناك من وضع فى طريق التحرير العراقيل، ووجد فى القوى الخارجية خير معين، ووجدت فيه القوى الخارجية خير وسيلة لإضعاف مصر وضرب الوحدة الإسلامية، فقد قام مؤيدو حكم الفاطميين بمحاولة كبرى لضرب صلاح الدين والأستقواء بالصليبيين ونورمان صقلية لتنفيذ هذا المخطط، وتناسوا أن الخطر الصليبى أكبر من فقدانهم مقاليد الحكم، مقدمين لأعداء أمتهم ما يرفضوا أن يقدموه لبنى جنسهم، وتزّعم هذه المحاولة الشاعر عمارة اليمنى[5]، الذى بالرغم من أنه سنى المذهب إلا أن ما ناله من أحسان الفاطميين جعله يخطط لضرب قلب العروبة والإسلام بمعاول الصليبيين، بل بلغ من مقته لصلاح الدين تهكمه بإطلاق لقب المملوك الصغير عليه، ولكن المؤامرة تفشل وتتكشف خيوطها وهى فى طور الإعداد، ليكون مصير المستقوين بالأعداء التأرجح على حبل المشنقة،

وكأى رجلين نجيبين حدث بوادر صدام بين نور الدين وصلاح الدين بسبب تشكك نور الدين فى وجود نوايا إستقلالية لدى صلاح الدين، بينما نور الدين يتجاهل الإعتراف بوضعية صلاح الدين كوزير للخلافة الفاطمية ويظل يخاطبه فى

---

4 الكامل ج9 ص365

5 نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى، شاعر وفقيه، حضر إلى مصر أكثر من مرة، حتى أستقر بها 551هـ/1156م، حتى أعدم شنقا 2 رمضان 569هـ/25 يوليو 1164م عقب مؤامرته ضد صلاح الدين

المراسلات الرسمية بالأمير الأسفهسلار[6] ولا يفرده بالمكاتبة ويكتب علامة نور الدين فى رأس المراسلة، فى الوقت الذى أضحت القدرات العسكرية لدى صلاح الدين تماثل وتضاهى القدرات العسكرية لنور الدين محمود بالشام، مما يعنى أنه لا يمكن زحزحة صلاح الدين من مصر إلا بالحرب، وأن كان الرجلان أكثر حكمة من أن يشتتا كلمة الأسلام بعد إجتماعها، ولكن كان للقدر كلمته فقد كان عام 1174م عام فاصل توفى خلاله الملك العادل نور الدين 11 شوال569هـ/15مايو1174م، ومات آمورى ذو الثمانية وثلاثين عاماً فى 11 يوليو 1174م ومانويل كومنين أمبراطور بيزنطة، الذى لم يهتم خلفاءه بالشام ففقد الصليبيون بموته ملاذاً كانوا يلجأون إليه فى وقت الشدائد، ليخلوا المجال لفارس هذا الزمان صلاح الدين

الملك بلدوين الرابع (569-580هـ/1174-1185م)

الملك المجذوم أبن آمورى توج بعد وفاة آمورى الأول فى 11يوليو1174م وعمره ثلاثة عشر عاماً، وقد أصيب منذ طفولته بمرض الجذام مما أثر بالسلب على قدرته بتحمل أعباء الحكم، مما عظم النزعة الأقطاعية والأستقلالية بين الأمراء الصليبيين فى الشام، وقد أستفحل النزاع على الوصاية على العرش سواء قبل بلوغ الملك السن القانونية أو أثناء إشتداد مرضه، الأمر الذى يبيين عدم إلتزام الصليبيون بمبدأ الإنتخاب وتمسكهم بالوراثة حتى فى حالة عدم الأهلية،

تم تعيين صديق آمورى "ميلان دى بلانسى"[7] وصياً على العرش، ويحاصر بمقت بارونات المملكة لإزدراءه لهم، وتعاليه عليهم، ليجد غريماً قوياً فى شخص ريموند الثالث أمير طرابلس[8]، الذى كان أسيراً لدى نور الدين بين عامى 1164م - 1172م ليستطيع ريموند إزاحة ميلان، فبينما كان يسير فى شوارع عكا لحقته طعنة من مجهول أودت بحياته أواخر 569هـ/ 1174م،

أدت وفاة نور الدين المفاجئة إلى نشوب نزاع فى أرجاء مملكته بين الطامعين فى إيجاد مكان لهم فى المملكة، بل ما أن طرق نبأ وفاته الآذان حتى "تحركت الفرنج فى كل أرض"[9] فقد خلف نور الدين طفلاً وهو عماد الدين إسماعيل(569-577هـ/

6 مقدم العسكر

7 ميلان دى بلانسى ولد بأقليم شامبنيا بفرنسا، وقدم للشرق 1160م

8 ينتمى للبيت الملكى ببيت المقدس حيث كانت والدته الأميرة هودرين بين الملك بلدوين الثانى، لهذا كانت ينادى بحقوق الوصاية على الملك بلدوين الرابع المجذوم وبلدوين الخامس الطفل

9 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص43

1174-1181م)، وقد تنازع أثنان من كبار أمراء نور الدين وهما شمس الدين بن المقدم وشمس الدين بن الداية منصب الوصاية على عماد الدين إسماعيل، ولم يكن من الممكن أن يظل على عرش نور الدين "طفل لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد"[10] ولم يلبث أن دخل فى الصراع أحد مماليك نور الدين المسمى سعد الدين كمشتكين، بينما حاول أبن أخ نور الدين، سيف الدين غازى الثانى حاكم الموصل إستغلال الموقف والإستيلاء على ممتلكات نور الدين الشمالية، مما هدد البنيان الذى أفنى نور الدين عمره فى تشيد أركانه .

صلاح الدين و إكمال الجبهة الموحدة

قبل صلاح الدين كانت مقاومة الصليبيين تسير كيفما أتفق، وأن ظهرت نواة الجبهة الموحدة منذ عماد الدين زنكى، وأكتمال البنيان بشكل كبير بمجهودات نور الدين محمود، ولكن صياغة هذه الجبهة فى كيان موحد متماسك يتمتع بإقتصاد موّجه للمجهود الحربى يعمل هذا الكيان تبعاً لخطط موحده وبشكل متكامل، ظهر على يد صلاح الدين الأيوبى،

أنتشرت أخبار إختلال أحوال الدولة النورية، بسبب صغر سن خليفة نور الدين، وتنافس كبار أمراءه على السيطرة على السلطان الطفل، فأمراء عايشوا ملك كنور الدين بالغ المهابة ويسيطر على كل صغيرة وكبيرة بمملكته، بينما أمراءه يهابونه لدرجة الخوف، فمن الطبيعى عند إختفاء هذه المهابة وإستبدالها بصغر سن السلطان، سوف يحاول كل أمير تنسم رياح القوة التى كان مفتقدها، ويتصارع الجميع، فأنقسمت الدولة النورية بالشام إلى ثلاث أمارات متنافسة، الموصل وبلاد الجزيرة تحت سيطرة سيف الدين غازى الثانى أبن أخ نور الدين محمود، وحلب تحت سيطرة شمس الدين بن الداية والذى سرعان ما تم القبض عليه على يد سعد الدين كمشتكين لإتهامه بالميل إلى صلاح الدين، ودمشق تحت سيطرة شمس الدين بن المقدم، والجميع فشل فى ملئ الفراغ الذى أحدثته وفاة نور الدين محمود، وكأن الأمور بالشام عادت لما قبل نور الدين ،

راسل صلاح الدين أمراء الشام بقوله "لو أن نور الدين علم فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى لسلم إليه مصر وهى أعظم ممالكه"[11]، وتحرك صلاح الدين

[10] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ص39
[11] الكامل ج10 ص58

إكتمال الجبهة

على رأس قوة صغيرة تقدر بسبعمائة فارس[12] فى نوفمبر 1174م ميمماً وجهه شطر الشام ليتدارك الجبهة التى تستطيع مواجهة أوروبا، والقضاء على أى محاولات لهدمها، بعد أن نصّب أخيه العادل نائباً عنه بمصر ووزع بعض عساكره ـ بمصر ـ على ثغورها ومداخلها[13]، ووصل صلاح الدين لـدمشق التى فتحت احضانها له وأستـقبلته إستقبالاً طيباً، وقضى ليلة وصوله لدمشق بدار ابيه المعروفة بدار العقيقى، وفى الصباح سلم شمس الدين بن المقدم مفاتيح قـلعة دمشق له، هذا وقد حرص صلاح الدين أن يعلن أنه ما حضر للشام إلا لحفظ دولة أبن أستاذه السلطان إسماعيل، وأخذ صلاح الدين فى إكمال سيطـرته على باقى مدن الشام فدخل حمص فى 10ديسمبر 1174م وأعقبها بحماة 28ديسمبر 1174م، وأن قاومته حلب الموجود فيها عماد الدين إسماعيل بن نور الدين، وأثناء وجود صلاح الدين أمام حلب أرسل سنان مقدم الحشاشين بعد الفداوية لإغتياله بناء على طلب وأموال عظيمة أرسلها سعد الدين كمشتكين، ولكن المحاولة فشلت،

ولما لم تنجح مؤامرة إغتيال صلاح الدين استنجد كمشتكين بريموند الثالث كونت طرابلس، ليسرع الصليبيون الذين خافوا مـن إتحاد القاهرة، دمشق، حلب، وأدركوا أهمية بقاء حلب مستقلة عن هذا الأتحاد فقاموا بمهاجمة حمص لإجبار صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب، وبالفعـل أنسحب صلاح الدين إلى حمص لحمايتها فسارع الصليبيون بمغادرها فى فبراير 1175م، وإعترافاً بالجميل من كمشتكين أطلق سراح الأسرى الصليبيين الموجودين فى سجون حلب، ومن ضمنهم جوسلين الثانى وأرناط بعد أن قضى ستة عشر عاماً يرسف فى قيود سجون حلب، ليقوم الملك بلدوين بتعيين أرناط قيماً على المملكة وقائداً عاماً لجيوشها، وتزوج أرناط من الأميرة "إيتنت دى ميلى" وريثة الأردن وحصنى الكرك والشوبك، الأمر الذى يعنى سيطرته على بارونية هامة من بارونيات بيت المقدس ويتيح لها موقعها الأستراتيجى السيطرة على الطريق بين مصر والشام،

ثم دخل سيف الدين غازى فى الصراع وأرسل جيشه تحت قيادة أخيه عـز الدين وأنضمت إليه قوات حلب وتقاتلا مع صلاح الدين عند قرون حماة فى إبريل 1175م، ولكن عز الدين أخطأ بأن جعل قلب جيشه ومركز القيادة فى مكان منخفض عن

---

12 أبدى صاحب مدينة بصرى صديق بن جاولى إمتعاضة من قلة القوات التى صاحبت صلاح الدين، وعندما أستفسر من القاضى الفاضل رئيس ديوان إنشاء صلاح الدين عن ما إذا كان لدى صلاح الدين أموال ليجند بها جنود أخبره القاضى الفاضل أن صلاح الدين ليس لديه إلا عشرة آلاف دينار فقط "فضرب صاحب بصرى رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا" مفرج الكروب ج2 ص19

13 الكامل ج9 ص404

أرض المعركة فبعد أن دارت المعركة لم يستطع فرسان الموصل وحلب رؤية رايات عز الدين فإعتقدوا فراره فأنهزموا من أمام صلاح الدين[14]، وصلاح الدين ينادى فى جنوده بعدم مطاردة أو قتل الجنود الزنكيين الفارين، وسرعان ما أطلق سراح الأسرى منهم، وكأنه يريد أن يدخرهم لما هو أهم، وبعد هذه المعركة قطع صلاح الدين الخطبة لعماد الدين إسماعيل بما يعنى إستقلاله بمصر والمدن المستولى عليها فى الشام وقيام الدولة الأيوبية رسمياً، وخصوصاً عقب إعتراف الخليفة العباسى المستضئ بالله (575-566هـ/1170-1179م) بسلطان صلاح الدين على مصر والشام وإرساله له الخلع ومرسوم بحكم مصر والشام

فبعد أن أفنى نور الدين محمود عمره فى تكوين جبهة تحرير القدس، إنقلب خلفاءه إلى أصدقاء للصليبيين بسبب خشيتهم من صلاح الدين، بل عرض الزنكيون بالموصل على الصليبيين جزية سنوية ضخمة وإطلاق جميع أسرى الصليبيين لديهم وتسليم بعض الحصون لهم مقابل طرد صلاح الدين من دمشق،

وأعقب ذلك معركة بين الموصل وحلب من جهة وصلاح الدين من جهة أخرى "بتل السلطان" فى 22أبريل 1176م عندما قاد صاحب الموصل سيف الدين غازى قواته، وأنتهت هذه المعركة أيضاً بإنتصار صلاح الدين مما أكد مولد الدولة الأيوبية،

وأثناء حصار صلاح الدين لمدينة أعزاز شمال حلب حاول الحشاشون إغتيال صلاح الدين مجدداً، السلطان يراقب عمل المنجنيقات من خيمة الأمير جاولى الأسدى، وبالفعل أستطاع ثلاثة من الحشاشين الوصول للدائرة الضيقة المحيطة بصلاح الدين متنكرين فى زى جنوده، وهاجمه أحدهم بسكين وضرب بها صلاح الدين فى رأسه فجاءت الطعنة فى عمامة صلاح الدين والتى كان معتاد على ان يضع بداخلها قطع معدنية للوقاية، فلم تؤثر فى رأسه الضربة إلا جرح غير مميت وأمسك صلاح الدين ـ كجندى متمرس لم تؤثر به المفاجأة ـ بهذا الفداوى وطرحة أرضاً وأمسك يديه وشل حركته، حتى قتله مملوك صلاح الدين الأمير سيف الدين بازكوج، فأندفع الثانى ليضرب صلاح الدين من ظهره فعاجله أحد أمراء صلاح الدين فقتله أمير صلاح الدين بعد أن جُرح، وقُبض على الثالث وقتل، فقام صلاح الدين وركب فرسه ورأسه تقطر دماً، بينما رابعهم يعدوا ومن خلفه الباعة بسوق الجيش ويقبضوا عليه

[14] الكامل ج10ص75

ويقتلوه[15]، ومنذ ذلك اليوم لم يركب صلاح الدين إلا وهو مرتدى درعاً أسفل ملابسه،

وقد قام الصليبيون بقيادة الملك بلدوين الرابع والوصى على العرش ريموند بمهاجمة إقليم البقاع ليتصد لهم شمس الدين تورنشاه أخو صلاح الدين ويوقع بهم الهزيمة، وعلى هذا أضطر صلاح الدين لمواجة ثلاث أعداء، الزنكيين والباطنية الحشاشين والصليبيين،

وخلال هذه الأحداث كان الملك بلدوين الرابع لا يُعتبر رجل الساعة بسبب مرضه الذى حال دون إضطلاعه بأعباء الحكم، وكما منعه من الزواج مما أثار مشكلة وراثة عرش المملكة، فلم يكن هناك حل إلا زواج الأميرة سيبيل شقيقته، فتم زواجها من أمير قادم من شمال أيطاليا يسمى وليم لونجورد دى مونتفرات وملقب بطويل السيف فى أكتوبر 1176م ليتوفى بحمى الملاريا بعد عدة أشهر من زفافه، ويترك زوجته يتحرك بين أحشاءها جنين سُمى بعد ولادته بلدوين الخامس،

وأهتم صلاح الدين بتأمين ظهره فى مصر ومتاثراً بالتحصينات العسكرية فى الشام اخذ فى تشيد قلعة الجبل لتكون خط دفاعى عن القاهرة، فقد أكتفى الفاطميون بحصن فى السهل (مدينة القاهرة بأسوارها) ولكن عيون الجندى المتمرس أختارت موقع أكثر حصانة عندما لمس ضعف أسوار القاهرة وموقعها غير الإستراتيجى، وكما اهتم بتحصين القاهرة والفسطاط بسور حجرى ضخم وكما أهتم بتأمين أسكندرية، وتقوية الأسطول المصرى ،

ثم خرج صلاح الدين لمهاجمة بيت المقدس أواخر نوفمبر 1177م، بعد أن أمر قواته بالإستعداد بأخذ مواد إعاشة ومؤن تكفى عشرة أيام[16]، وهاجم عسقلان التى أسرع لها الملك بلدوين الرابع عند ورود أخبار أستعدادات صلاح الدين ودخل بها فحاصره صلاح الدين بين أسوارها، وتحركت قوات صلاح الدين بمنتهى الحرية، وإغاروا على مدن وقرى الصليبيين حتى أبتعدوا وتفرق الجيش الأيوبى وأستطاع بلدوين التسلل من عسقلان وجمع قواته وأنضم أليه أرناط بقواته، وهاجما صلاح الدين فى تل الصافية أوائل ديسمبر1177م، وقواته ما تزال متفرقة، بينما كان يعبر نهر تل صافية قبل إتخاذ أوضاعها القتالية، فمنى صلاح الدين بهزيمة، وأستطاع بعض الفرسان الصليبيون الأقتراب من صلاح الدين ومهاجمته، حتى قُتل فارس صليبى بجواره،

---

[15] مفرج الكروب ج1 ص45

[16] مفرج الكروب ج 1 ص 58

وتوالت هجمات الفرسان الصليبيين على صلاح الدين، حتى تراجع يسير ببطئ حتى يتلاحق به جنوده، ورجع القاهرة فى صعوبة بالغة وكاتب أخيه العادل بقوله "ما أنجانا إلا الله لأمر فى علمه وأتمنى أن يكون فتح الساحل" ،

وحانت لحظة الثأر، فى موقعة مرج عيون بين صلاح الدين والصليبيين فى 10يونيو1179م، عندما زحف بلدوين بجيشه بعد أن أستنجد بريموند أمير طرابلس والذى حضر بجيشه، لإعتراض عز الدين فرخ شاه، الذى أرسله عمه صلاح الدين للأغارة على سهل البقاع لتدميره إقتصادياً، فتربص الصليبيون لقوات فرخ شاه وهى عائده بعد أغارتها الناجحة، غير مدركه إنها تحت نظر قوات صلاح الدين الإستطلاعية، ليحاول بلدوين الإنفراد بقوات فرخ شاه وذلك بإشغال صلاح الدين بقوات طرابلس والداوية، وتندفع الداوية مهاجمة قوات صلاح الدين المستعده، لتجهز قوات صلاح الدين على الداوية وقوات طرابلس وتحث الخطى لمهاجمة بلدوين، الذى تأخذه المفاجأة ولا يجد سبيل إلا الفرار تحت ضغط هجمات قوات صلاح الدين، بعد أن سقط الملك عن فرسه[17]، فحاول صاحب بانياس همفرى دى تورون حمايته فأصيب بسهم بخده خرج من أسفل ذقنه، فكانت فيه منيته، الأمر الذى يؤدى إلى سقوط أعداد غفيرة منهم بين قتيل وأسير فى سجون دمشق، ومن ضمن الأسرى أودو سانت أماند مقدم الداوية وبلدوين سيد الرملة[18]، تنتهى المعركة بإنتصار حاسم لصلاح الدين وفرار بلدوين بشق الأنفس ولكن صلاح الدين لم يحاول إستغلال النصر لتوقعه ورود حملات صليبية جديدة فى حالة تحرير المدن الصليبية، وكما أن ملك بيت المقدس مازال طليق بإمكانه تجيش قوات للمقاومة، فلهذا أهتم بتوحيد الشرق أولاً لتطهير الساحل ومقاومة ما قد يجئ من حملات صليبية .

وأمام كل هذه الأحداث وما صاحبها من تدهور صحة بلدوين مما أعاقه عن إضطلاعه بمهام منصبه، فكان يجب إيجاد زوج مناسب لشقيقة الملك الأرملة سيبيل، التى وجدت ضالتها فى فارس فرنسى يسمى جى دى لوزيجنان Guy of Lusignan الذى تزوجها فى 1180م، الذى كتب على يده سقوط بيت المقدس، وليدخل فى الأحداث شخصية اخرى ساعدت جى مساعدة فعالة فى تدمير بيت المقدس وهو أرناط الذى اطلق كمشتكين سراحه بعد قضائه ستة عشر عام أسيراً فى قلعة حلب فى عام 1177م، ليبحث لنفسه عن إقطاع ليحكمه ليجد ضالته فى أميرة أرملة عن زوجين ليكون أرناط الثالث لها، وليحكم قلعتى الكرك والشوبك بشرق الأردن اللتان ورثتهما

---

17 الروضتين ج3 ص24 - مفرج الكروب ج1 ص73

18 تاريخ وليم الصورى ج4 ص319

عن أبيها، ومن خلال تحكم أرناط بهذين الحصنين الذين يتحكمان بحكم موقعهما فى الطريق الواصل بين مصر والشام، حتى صلاح الدين عند رجوعه إلى مصر بعد سيطرته على دمشق "خرج أخيه العادل وتلقاه بأهل مصر من خلف سويس خوفاً من الفرنج"[19] لتكون هجمات أرناط هى الحبل الذى ألتف حول عنقه لتكون نهايته من أفعاله، بل تجاوز أرناط حدود العقل فى عام 1181م عندما حاول التوغل فى الجزيرة العربية حتى وصل لواحة تيماء الواقعة فى الطريق للمدينة المنورة ولم يرجعه إلا الهجوم الذى قام به فرخ شاه أبن أخ صلاح الدين على حصنى أرناط مما أجبره على العودة لإنقاذ إقطاعه، وهذه المحاولة من أرناط ما كان يمكن السكوت عنها وحتى بلدوين فزع منها، ولكنه كان لا يملك القوة التى تسمح له كبح جماح أرناط، الأمر الذى يبين مدى ضعف السلطة الملكية بمملكة بيت المقدس، أمام زيادة قوة ونفوذ بارونات المملكة ،

وفى عام 1182 م خرج صلاح الدين من مصر التى كانت أخر مرة يراها فيها، وأنتقل للشام ليدير المعركة النهائية ضد الصليبيين، لتحدث بعض المعارك المحلية بين صلاح الدين والصليبيين أنتصر فيها كلها صلاح الدين بمعاونه أبن أخيه فرخ شاه، ولكن صلاح الدين كان ينظر لحلب والشمال لإستكمال الجبهة الإسلامية الموحدة، لتساعد الأقدار صلاح الدين عندما حاصر حلب فطلب أميرها من صلاح الدين تعويضه عنها بمدينة سنجار الصغيرة فى شمال العراق ليضم صلاح الدين حلب لـدولته فى 12 يونيه 1183م ليكون ذلك أسوء حدث يمكن أن يصيب الفرنجة على حد قول المؤرخ الصليبيى المعاصر للأحداث وليم الصورى، فقد غدا صلاح الدين أقوى حاكم فى الشرق بدولة تمدد من أقصى جنوب مصر حتى شمال الشام، وإكتملت الجبهة التى عليها مجابهة أوروبا، وتلاحمت مصر والشام فى دولة موحدة لا بشكل إسمى كما كانت فى أيام نور الدين، ولكن فى شكل فعلى على يد صلاح الدين، وذلك لأول من منذ عدة قرون،

وقد كان النشاط العسكرى المتزايد لصلاح الدين ونجاحه فى إخضاع شمال العراق وداخلية الشام إلى دولته، الأمر الذى ينذر بعواقب وخيمة للصليبيين، ثم المرض الذى ينهش بشراسة فى جسد بلدوين الرابع كل هذا دفع بارونات المملكة إلى البحث عن طريقة لمواجهة الخطر الإسلامى المتفاقم صوبهم، ليسرع هؤلاء البارونات لعقد إجتماع مجلس البارونات الأعلى (المحكة العليا)، والملك وبارونات يخيم على وجوههم يأس شديد وقنوط، وبعد عدة إجتماعات كئيبة، ومشاورات مذعورة قرر

[19] كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص43

الجميع إجراء إحصاء عام لجميع سكان المملكة، لتحديد القدرات العسكرية وعدد الفرسان والرجالة بشكل دقيق، كما قفزت الحالة الإقتصادية المتردية للمملكة، وخزينتها التى تشتكى من الخواء، بعد تقلص الأراضى المسيطر عليه بسبب مجهودات نور الدين وصلاح الدين، وإختفاء أموال الأتاوات التى طالما ملئت بطون خزائن بيت المقدس من الفاطميين والدماشقة وجميع المتخاذلين، ليتم الموافقة على فرض ضرائب باهظة على الجميع، نبلاء علمانيين ورجال الكهنوت، وذلك بجباية 1% من ممتلكات جميع سكان مملكة بيت المقدس سواء رجال أو نساء، نبلاء أو أديرة، فتم جمع بيزانت من كل مائة بيزانت فى حوزة الجميع، حتى من لم تصل ممتلكاته النقدية إلى بيزنت تم فرض بيزنت على كل مسكن به موقد نار لإعداد الطعام، وعلى كل كنيسة دفع أثنين من البيزنتات عن كل مائة بيزنت من ريع أراضيها، وعلى كل عامل وموظف بالمملكة دفع بيزنت عن كل مائة بيزنت من أجره، وعلى كل حائز إقطاعية دفع بيزانت واحد عن كل موقد نار لإعداد الطعام ببيوت فلاحى إقطاعيته،

وتجمع هذه الضرائب من المنطقة المحصورة بين حيفا إلى القدس فى إكياس مختومة لكل مدينة ومقاطعة على حدا، وتوضع بخزينة كنيسة الصليب المقدس تحت إشراف لجنة من بطريرك القدس ورئيس كهنة القبر المقدس ورئيس قلعة بيت المقدس (برج داوود)،

أما المنطقة الواقعة من حيفا إلى بيروت شمالاً فيتم تجميع الأموال منها ووضعها بقلعة عكا تحت إشراف لجنة من رئيس أساقفة صور والفارس جوزكاين وكيل الملك ورئيس قلعة عكا، مع التشديد على أن هذه الأموال ليست مخصص الإنفاق منها على أى شأن من الشئون المعيشية للمملكة، وأنما تكون قاصرة للأنفاق منها على الدفاع عن المملكة فقط[20]،

بينما سقط الصليبيون فى بحر البحث عن من يعتلى العرش فما حل عام 1183م حتى سقط بلدوين طريح الفراش فقد نهشه مرض الجذام حتى النخاع لدرجة عجزه عن الحركة وفقده لبصره تماماً، ومع هذا رفض بلدوين التنازل عن العرش بل تمسك به وأقصى ما سمح به هو إختيار وصى على العرش، فكان يجب إختيار زوج مناسب لشقيقة الملك الأميرة سيبيل، ولكن للأسف منصب الوصى لملك مريض يخلفه ملك طفل وهو بلدوين أبن سيبيل منصب غير براق ولا يحمل أغراءات، وخصوصاً فى

[20] تاريخ وليم الصورى ج4 486 -489

إكتمال الجبهة

ظل تنامى قوة المسلمين بقيادة صلاح الدين، الذى أوشك أن يطيح بالمملكة بالضربة القاضية، وهى حقيقة لم تكن خافية على وليم أسقف صور والذى تباكى على مملكة بيت المقدس قبل سقوطها فى كتابه الشهير، حتى طال إنتظار الأرملة وأخيها لهنرى دوق برجنديا بعد قسمه بالوصول للمملكة وزواجه من سيبيل، ولكنه لم يحمل نية الوفاء بقسمه ،

هبط المملكة الأبن الثانى لكونت لوزنيان ويسمى آمالريك وتم تعيينه كونستابل للمملكة، وحاول هذا الطموح ذو الأصل النبيل المتواضع أن يرفع من شأنه، فعرض على سيبيل أن تتزوج بشقيقه الأصغر جى، والمبعد من الغرب بسبب قتله إيرل سالسبورى قائد حراسة ملكة إنجلترا، مبيناً لها ما يتمتع به من وسامة ليمس شغاف الأرمله الطروب التى ترجوه أن يحضر أخيه للمملكة، وما أن تتأكد من وسامته حتى توافق عليه زوجاً لها، بعد أن أثبت جى أنه عاشقاً جيداً أكثر منه محارباً قوياً، وهو ما يرفضه الملك أن يلقى مقاليد المملكة فى يد صبى صغير جاهل، أدنى مقاماً من عائلته، وكذلك يستنكف بارونات المملكة أن يكون سيدهم الأعلى صبى أبن كونت فرنسى تافة معدم متواضع النسب، جى لوزينان الذى وصفه المؤرخ وليم الصورى بالبلادة وضعف الشخصية ونفى عنه أى صفة من صفات الفرسان وأنه ما هو فى العير ولا النفير[21] وبأنه أنسان حقير تافة[22]،

يتم الزواج فى 1180م لخوف الملك المريض من قيام ريموند كونت طرابلس بخلعه عن العرش، ويتم منح جى المحظوظ كونتية يافا وعسقلان[23] تحت ضغط إلحاح أخته وأمه أجنس دى كورتناى وهرقل[24] بطرك بيت المقدس، ليحاصر جى بسيول من الحظ، بين ملك مدنف على وشك الموت، ووريث طفل ذو صحة معتله، وفى هذا العام هاجم صلاح الدين المملكة للقضاء عليها ولكن الصليبيون تمسكوا بأستراتيجيتهم المناديه بتجنب الأشتباك المفتوح مع المسلمين قدر الأمكان، وأحتموا بقلاعهم مما أجبر صلاح الدين على الأنسحاب وإنتظار فرصة أخرى .

وتحت ضغط من سيبيل وأمها وافق الملك بلدوين على نقل الوصاية على المملكة إلى زوج شقيقته جى ما عدا مدينة القدس التى ستظل تحت حكم بلدوين لإستغلاله دخلها

---

21 الحروب الصليبية ج4 ص 254

22 الحروب الصليبية ج4 ص325

23 تاريخ وليم الصورى ج2 ص116

24 أتخذت الملكة أجنس أرملة الملك آمورى وأم الملك بلدوين الرابع البطريرك هرقل عشيقاً لها، الأمر الذى أتاح له الوصول لكرسى البطريركية،

الضخم، بعد أن أقسم جى ـ بناء على شرط بلدوين ـ ألا يتطلع لعرش المملكة ما دام بلدوين حياً[25]، وأضطر بارونات المملكة الموافقة على مضض ،

جى لوزجنان والإنهيار الصليبى

ولم يكن جى هو المشكلة الوحيدة التى جلبت الدمار للصليبيين، فقد أتحد معه أرناط الذى حاول تكرار محاولته الغبية بالتوغل فى الجزيرة العربية وتهديد المقدسات الإسلامية، مستغلاً وجود صلاح الدين بالموصل وشمال العراق أثناء إستكماله تشيد الجبهة الموحدة، ووفاة نائب الشام عز الدين فرخشاه أبن أخ صلاح الدين والذى طالما أذاق أرناط الأمرين، أراد أرناط إجراء تغيير فى الإستراتيجية الصليبية بنقل الصراع إلى ساحل البحر الأحمر، ففى 1183م سار أرناط بقواته حتى رأس خليج العقبة وهاجم أيلة وحاصرها وقام بتجميع سفن نقلها مفككه على ظهور جمال مستأجرة من بعض من باعوا دينهم وأوطانهم من أهالى المنطقة، وأنزلها فى البحر الأحمر، وهاجم جزيرة فرعون وحاصرها بسفينتين، وأرسل باقى أسطوله ليتوغل فى البحر الأحمر حتى وصلوا لميناء عيذاب فى أقصى جنوب مصر، وأخذوا عدة من مراكب الكارم وهى مكدسه بهار وبضائع، وقتلوا من أهل عيذاب جماعة كثيرة، فإنهم لم يتحققوا أنهم فرنج[26] فهى المرة الأولى والأخيرة التى يتوغل الفرنج حتى هذه المنطقة، وهاجموا طريق قوص ـ عيذاب، وقتلوا البعض، وأحرقوا عدد من سفن الحجاج وهاجموا بعض القوافل التى سارت أمنه بدون حراسة، ثم عبروا البحر الأحمر وهاجموا ميناء ينبع الذى يعتبر ميناء المدينة المنورة ثم هاجموا ميناء الرغيب، وهبطت قوات برية صليبية، وكانوا عازمين على دخول مكة والمدينة[27] وقام بعض خونة البدو بإرشاد قوات أرناط لطريق المدينة المنورة، ولكنهم لم يدروا أن الجيش المصرى يتعقبهم ،

فما أن علم العادل شقيق صلاح الدين ونائبه بمصر بالهجوم الصليبى فى البحر الأحمر حتى أرسل قائد الأسطول المصرى الأمير حسام الدين لؤلؤ الذى تعقب الصليبيين وأفنى قواتهم المتخلفه تحاصر قلعة أيلة، قبل أن يفاجئ الأسطول الصليبي الراسى فى ساحل حوراء ويشبعه قتلاً وأسراً، ويترجل هو ورجاله ويأخذوا خيول من البدو ويطاردوا الصليبيين ليلحق بهم وهم على مسافة يوم من المدينة المنورة[28]، لتتكفل السيوف المصرية بتطهير وحماية حرم الرسول منهم، ويستحر القتل بفرسان

---

[25] الحروب الصليبية ج4 ص318

[26] كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص71 ، وتجار الكارم هم تجار البهار القادم من الهند

[27] الكامل ج10 ص118

[28] السلوك ج1 ص79 ـ مفرج الكروب ج2 ص130

الفرنج ويتم أسر الباقى[29] ويساق الأسرى ليتم نحر أثنين منهم فى مِنَى خلال موسم الحج بينما تتهادى الجمال بالقاهرة وباقى المدن المصرية وعليها باقى الأسرى ليتم أعدامهم، وأقسم صلاح الدين أن يقتل أرناط بيده ان ظفر به[30]، وعلى هذا نجح أرناط فى جمع الأمراء المسلمين حول صلاح الدين وتصميمهم على مساعدته ضد من حاولوا العبث بالمقدسات الأسلامية وهو ما لا يمكن السكوت ع ، ويطلق صلاح الدين ما فى جعبته من قوة، وكما زرع أناط عداء شخصى مع صلاح الدين لا يُمحى ولا يُغفر .

وإستعداداً للمعركة الفاصلة أتخذ صلاح الدين إجراءات دبلوماسية فى منتهى الحنكة والذكاء، بمحاولته إضعاف فرنج الشرق بقطع أذرعهم الممتدة بينهم وبين أوروبا، وذلك بعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات البحرية الأيطالية جنوة والبندقية وبيزا، فقد تم عقد معاهدة مع جمهورية بيزا، الأمر الذى حدا بهذه القوى البحرية ـ التى كان فرنج الشرق يعتمدون على بحريتها لمد شرايين الحياة مع أوروبا ـ إلى إحجامها عن الإضرار بمصالحها التجارية مع مصر، علاوة على ما لهذه المعاهدات من آثار إيجابية على النشاط الإقتصادى المصرى، حتى أصبح "ما منهم إلا من هو يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده"[31]، علاوة على تقوية العلاقات مع الدولة البيزنطية، وخصوصاً بعد فتور العلاقات بينهم بين الصليبيين عقب وفاة الأمبراطور مانويل كومنين ،

كما نجح صلاح الدين فى حصار الكيانات الصليبية بالشام، فقواته بحلب ودمشق كانت من القوة ما يتيح لها القيام بغارات ناجحة، وجعل أى مغامرة صليبية مغامرة غير مأمونة، الأمر الذى أدى إلى تقوقع الصليبيين داخل مدنهم إنتظار اللحظة التى يختارها صلاح الدين لبدء موجة التحرير، فصلاح الدين أستولى على المبادءة، وترك رد الفعل للصليبيين،

وبنفس سرعة تدهور صحة الملك بلدوين الموشك على الموت نجح جى فى إكتساب عداء وأحتقار بارونات المملكة، الذين نجحوا فى أقناع بلدوين فى خلع جى من الوصاية على العرش وإعادة الوصاية إلى ريموند أمير طرابلس ومنح ريموند مدينة بيروت كأقطاع له مقابل الوصاية على العرش، وحاول بلدوين أن يفسخ زواج أخته

---

29 الروضتين ج2 ص37 - رحلة أبن جبير ص54

30 الروضتين ج2 ص75

31 الروضتين ج1 ص243 ، ولهذا لن نجد أى دور يذكر لأساطيل الجمهوريات الإيطالية منذ هذا الوقت وحتى بعد حطين لن تصافح سفينة إيطالية الساحل الشامى بعكا خلال الحملة الثالثة

بالكونت الوسيم، الذى هرب من أمام بلدوين وسارع لزوجته يرجوها أن تفر بصحبته لعسقلان حتى لا يمنعها أخيها الملك من الذهاب معه، وتزداد ثورة جى ويهاجم البدو الرعاة الذين يرعون قطعانهم بجوار قلعة غزة بعد دفع أتاوة للملك بلدوين نظير أمانه، ويرفض المثول أمام المحكمة العليا التى أستدعته بناء على طلب الملك، ليحث بلدوين الخطى لعسقلان محمولاً على الأعناق ليجد أبوابها موصده فى وجهه، بينما هو يطرق باب المدينة كان أهلها محلقين فوق السور ينظرون له سكوتاً، ولا يملك الملك قوة أو نفوذ أمام أحدى مدنه وأحد أفصاله الإقطاعيين، ليذهب الملك الغاضب ليافا وينصب عليها أحد أتباعه،

وتنصب المحكمة العليا فى عكا ويتم تلاوة حيثيات إدانة جى، لتجد قضيته السيئة من يدافع عنه من القادمين من الغرب، فى شخصيات بطرق القدس ومقدمى الداوية والإسبتارية،

ومن أجل سد الطريق للعرش فى وجه جى تم تنصيب ابن زوجته سيبيل من زوجها الأول وليم دى منتفرات والمسمى بلدوين ملكاً تحت اسم بلدوين الخامس، وهو أبن خمسة أعوام وذو صحة معتله مثل خاله الملك، لينقسم الصليبيون بين مؤيد للملك بلدوين الرابع، وبين رافض لإعتلاء طفل للعرش ولا يجدوا جدوى من إعتلاء بلدوين الخامس العرش وخصوصاً فى هذه الوقت الذى تنامت فيه قوة دولة صلاح الدين، وبين مؤيد لجى وخصوصاً من الوافدين الجدد والداوية، وبين مؤيد لريموند وخصوصاً من الصليبيين البلديين، حتى أصبح على عرش المملكة ملكان عاجزان، أحدهما طريح الفراش والأخر طفلاً غض[32]

ويصدر الملك المحتضر قانوناً بإنه فى حالة وفاة بلدوين الخامس قبل العاشرة من عمره يحتفظ ريموند بالوصاية عشرة سنوات، ويستشار البابا بروما وملوك فرنسا وأنجلترا وألمانيا فى مصير المملكة،

وأول ما سعى إليه ريموند الوصى الجديد هو عقد هدنة مع صلاح الدين، كان صلاح الدين فى حاجة إليها لترتيب البيت الأيوبى من الداخل قبل المعركة المنتظرة، فريموند ينتمى للصليبيين البلديين المولودين بالشام، وقد قضى فترة ليست بالقصيرة فى أسر نور الدين، الصليبيون البلديون لا يرون غضاضة فى إيجاد نوع من التفاهم مع جيرانهم المسلمين، بعكس الصليبيين الوافدين ،

32 تاريخ بيت المقدس ج4 ص331

الصليبيون البلديون والذين يطلق عليهم بولان (أفراخ)، وكان يطلق هذا اللفظ على نتاج تزاوج الفرنج بالمسيحيات الشرقيات، فالصليبيون عندما أحتلوا الساحل الشامى العديد منهم ترك أسرهم بالغرب، كما كان الكثيرون منهم من صغار السن، بينما من أصطحب الجيش من النساء كن من أدنى الطبقات وأصحاب أحقر الأعمال، فلهذا لجأ العديد من اللاتين للتزاوج من الشرقيات، مما أنتج جيل تربى تربية شرقية مما أثر على شخصيته، جيل ليس له صلة بأوروبا إلا ما يسمعه عنها فقط، وقد سيطر الأفراخ على الإقطاعات ببيت المقدس، وضموا لذلك سيطرتهم على المناصب العليا فى إدارة المملكة، مستغلين ضعف خلفاء أمورى، مكونين طبقة أرستقراطية من عدد محدود من العائلات قليلة النسل، وأدى حرص نبلاء الشرق اللاتينى على تقوية سيطرتهم على مقاليد الشرق إلى التزاوج فيما بينهم، مما أدى إلى نتيجتين، أولهما قلة النسل الناتج عن هذه الزيجات البينية، وثانيهما هو النظرة التى نظروا بها للقادمين من الغرب، نظرة لمنافسين طفيليين، وليست نظرة لأخوة فى الدين والجنس، مما أنسحب إلى الصليبيين الجدد القادمين من الغرب، الذين نظروا لطبقة البولان نظرة ملؤها الحقد والحسد بسبب ثراءهم والترف الذى يرفلون فيه، والحياة اللينة التى يحيونها بمدنهم الكبرى التى توفر لهم أقصى رفاهية عصرهم، كل هذا أدى إلى إشعال العداوة بين جى وباروناته الأفراخ، الذين طمحوا فى منصب ملك بيت المقدس وعملوا على تزويج سيبيل لأحد الأفراخ من بيت أبلين، وهو ما رفضته الأرملة المتيمه بجى الوسيم، الذى أستعان بمن وجده بالمملكة من الصليبيين المولدين بالغرب كأرناط وجيرارد، مما زرع الشقاق داخل المجتمع الصليبى ،

لتزداد ثقة جى بنفسه ويستغل ضعف ومرض الملك وثروة سيبيل، ويستقطب العديد من الفرسان الباحثين عمن يشترى سيوفهم، فيهاجم بهم قلعة الداروم المملوكه ملكية خاصة لبلدوين، ويهاجم من حولها من البدو الرعاة الذين أشتروا حق الرعى من بلدوين بجانب قلعته، ليفتك بهم جى، أمام عجز ملك بيت المقدس،

ولم يقتصر الشقاق على بيت المقدس فقط، بل طال أنطاكيا، التى أدى سلوك أميرها بوهيمند المنحل بإتخاذه عشيقة له وطرده زوجته إلى فرض الحرمان الكنسى واللعنة عليه من قِبْل الكنيسة، وإعتبار أن الإنتكاسات التى تطرى على رؤوس الصليبيين إنما هى بسبب إنحلاله، إن كان الإنحلال والعلاقات غير الشرعية هى سمة الوجود اللاتينى بالشرق، فمن الملاحظ هو إنتشار العلاقات الأثمة والإنحلال الجنسى بل والشذوذ الجنسى بين لاتين المشرق،

وقد قابل بوهيمند قرار الحرمان بتحدى بل تعدى الأمر بقيام الأمير بطرد كبار نبلاءه وفرسانه بل وقائد قواته من الأمارة، ليجدوا ملاذاً لهم فى مملكة أرمينيا الصغرى بعيداً عن الشام ،

وتعدى الأمر إلى تصادم الملك المريض المتمسك بالعرش مع ريموند كونت طرابلس، بعد أن بيّن ريموند عن مطامع فى عرش بيت المقدس بعد إشراف بلدوين على الموت وصغر سن أبن أخته وسميه، وضعف وحقارة جى زوج سيبيل، مما زاد من الهواجس فى صدر الملك، هواجس زادتها نميمة باروناته الطامعين فى زيادة مساحة حرياتهم وإضعاف سيطرة التاج على إقطاعياتهم، لهذا فهم أبعد ما يكونوا عن الترحيب بصعود وصى قوى على العرش كريموند، وزادت الخلافات بين بلدوين الرابع وريموند لدرجة منع ملك بيت المقدس لريموند من المرور بأراضى المملكة لزيارة إقطاع زوجته بطبرية وأقليم الجليل، الأمر الذى سيزيد حنق الكونت، ويفتح له الطريق لأحضان صلاح الدين ،

وقد نجح صلاح الدين خلال الهدنة فى فرض سيطرته على ديار بكر والموصل والتى سوف تمد جيوش صلاح الدين بثمانية الاف فارس كل عام، فقد كان شرط صلاح الدين لحكام مدن وقلاع الجزيرة "أن يكونوا مساعديه فى جهاد الفرنج"،

وينجح صلاح الدين فى حصار الكيانات الصليبية بالشام بتكوينه ممالك إقطاعية بمدن الشام الكبرى،على رأس كلاً منها أمير من بيته، وخصص كلاً منها لحصار كيان صليبى، فحمص وحماة لطرابلس، وحلب لأنطاكيا، ودمشق لبيت المقدس، ومصر من خلف الجميع

وبينما صلاح الدين يستعد للجولة النهائية توفى الملك الطفل بلدوين الخامس(1186م) ومن قبله خاله الملك بلدوين الرابع (1185م) مما ترك فراغ حاول الجميع إنتهاز الفرصة لملئ هذا الفراغ، وقد طمح ريموند فى منصب الملك فهو أجدر الأمراء الصليبيين والوصى على الملك المتوفى وكان ينعم بعطف وتأييد بلدوين الرابع حتى حين، وأتحد معه القهرمان جوسلين أوف كورتناى الذى أقترح علي ريموند ان يجتمعا فى طبرية لبحث السُبل اللازمة لوصوله للعرش، وبالفعل اتجه ريموند لطبرية لأنتظار صديقه جوسلين الذى سارع الخطى بأتجاة عكا لتنصيب سيبيل وجى كملكا لبيت المقدس 1186م، بعد أن قام جوسلين بإرسال قوات لإحتلال صور وبيروت مدن صديقه ريموند، وبهذا أنقسم الصليبيون بين مؤيد لـريموند من الفرنج المولدين بالشرق فى الأغلب والإسبتارية، ومناصر لجى وسيبيل من القادمين من الغرب

والداوية، ورجحت الداوية كفة جى عندما وقف جيرارد مقدم الداوية وقال فى فظاظة أنه سيتم تتويج سيبيل رغم أنف جميع رجال البلد[33]، مما أقنع من ألتفوا حول ريموند بأنه الجواد الخاسر وتسربوا فى إتجاة عكا لتقديم فروض الولاء للملك الجديد جى، بعد أن أعلنت زوجته بإنها أعطته عن طيب خاطر أن يملك جسدها، وقالت وهى تضع التاج على مفرقه "أُعلن أنا سيبيل أننى أخترت لنفسى جى دى لوزنيان زوجاً وملكاً، لأننى أعرف أنه رجل عظيم وذو خلق قويم، وسوف يحكم شعبه حكماً صالحاً ولن أرضى به بديلا" ولكن العداء استشرى بين ريموند من جهة والملك جى والداوية وأرناط وهرقل بطريرك بيت المقدس من جهةً أخرى، عداء كان من أسباب هزيمة حطين

وكما شكل ندرة القيادات ذات الكفاءة للصليبيين مشكلة خطيرة، حتى أصبح الزعماء الصليبيون الأن مجرد أقزام، ويسقط البارونات الصليبيون فى دوامات البحث عن الألقاب والإقطاعات، والإستغراق فى المهاترات الدبلوماسية والبحث عن المزيد من الثروات ،

وكانت القوى بين المسلمين والصليبيين متقاربه نظرياً طوال مراحل الصراع، ولم يميل التوازن العسكرى لطرف بشكل حاد، بل كان الميل يتأرجح ببطئ، وما شكل فارق فى القوة بين الطرفين لم يكن العدد البشرى والتسليح بقدر ما كان الإتحاد والتعاون والتنظيم بين عناصر الطرف الواحد ،

[33] ذيل وليم الصورى ص43

معـركة حـطين

{وقاتلوا فى سبيل الله الذين

يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله

لا يحب المعتدين}

سورة البقرة آية 190

معركة حطين

583هـ/1187م العام الحاسم الذى أنهارت فيه دولة الصليبيين فى القدس، وأن استمر الوجود الصليبى فى الشام إلى القرن الثالث عشر الميلادى، فقد تكفل بذلك إنهيار الوحدة الأيوبية على يد خلفاء صلاح الدين الذين أفتقدوا إيمانه بضرورة تطهير الشرق من الصليبيين مهما كانت التحديات والتضحيات، كانت بداية هذا العام وصلاح الدين أقوى حاكم فى الشرق حيث أمتدت دولته من مصر وحتى بلاد الجزيرة بجنوب تركيا الأن، بينما أعترف بسلطانه حكام الموصل وديار بكر، مما وفر له معين لا ينضب من الجنود الذين يغذوا جيوشه، وعم الشرق روح مؤمنة بضرورة تحرير القدس ،

بينما الصليبيون وصلوا لأضعف أطوارهم وأصبحت مملكتهم عارية إلا من بعض ظلال قوتها، بسبب الصراع الشرس على السلطة وكذلك الصراع الصاخب بين مكونات المجتمع الصليبي فى الشام، فقد أدى طول فترة الوجود الصليبى فى الشام إلى ظهور جيل ثانى وثالث من الصليبيين الناتج عن تزاوج اللاتين القادمين من أوروبا من مسيحيات شرقيات، وهذا الجيل لم يكن له صلة أو معرفة حقيقية بأوروبا أبداً، إلا أنها أرض أسلافهم، سُمى هؤلاء بالأفراخ (الصليبيون البلديون، البولان)، بينما لم ينضب فيضان المهاجرين القادمين من أوروبا، وقد نظر الطرفان بإحتقار لبعضهما البعض، فالأفراخ كانوا ينظرون للقادمين من وراء البحار نظرة إستعلاء بسبب همجيتهم وتخلف أوروبا بالنسبة للشام المتحضر المتأثر بالحضارة الإسلامية، "فكل من هو قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد عاشروا المسلمين"[1]، وكذلك بسبب النوعية التى أعتادت أوروبا إلقاءها إلى الشرق والتى كانت تتألف فى الغالب من المفلسين والمجرمين الباحثين عن التوبة والثراء، بينما

1 الإعتبار ص134

ينظر القادمون من أوروبا للأفراخ نظرة حقد ومقت بسبب ترفهم الذى يرفلون فيه، وإعتادوا وصفهم بالخنوثة،

فقد صدم مظهر المدن الشرقية بجمالها ومنازلها الفخمة متعددة الطوابق عيون القادمين من أوروبا بمبانيها الفقيرة الكئيبة، فبينما المنازل بالشام تضمن لقاطنيها الرفاهية برياشها الوثير وجدرانها المغطاة بالقيشانى الذى لم تسمع أوروبا عنه بعد، وأرضيتها التى تـزينها السجاجيد الشرقية الفاخرة المزركشة، والستائر الحريـرية التى يتلاعب بها النسيم تكسو النوافذ، فى الوقت الذى كانت منازل أوروبا ـ بأثاثها الخشن لا يُرجى منها إلا إستخدامها فى ما صنعت له بدون أى شكل جمالى ـ أقـرب ما تكون بالأكواخ، وفى الوقت الذى أمتلئت شوارع مدن الشام بفرنج الشرق المـرتدين أفخـر الملابس الحـريرية، التى كانت فى متناول حتى محدودى الدخل من الصليبيين، فى الوقت الذى كانت ملابس النبلاء فى أوروبا تهدف إلى المنفعة فقط لا للجمال، وأستبدل فرنج الشرق قلانسهم الخشنة سيئة الصنع بعمائم حريرية أنيقة، وإينما ساروا عبقت العطور الدمشيقة التى أستخدموها بسخاء الجو، فى الوقت الذى تجول الفرنج القادمون من الغرب بملابسهم الخشنة المصنعة بشكل بدائى،

وشوارع المدن بالشرق المزدحمة وقد أمتلئت قارعة الطرق بمئات الحوانيت المكدسة بالأقمشة والعنبر وأدوات الزينة الرخيصة والتوابل والتى تعبق الجو، وقد غطيت الجادة والأزقة المتجاوره بأكملها بسقوف من الخشب تحميها من أشعة شمس الظهيرة، فى الوقت الذى كانت أكبر مدن أوروبا ما تزال فى طور الطفولة،

وكما كان بأمكانهم الإستمتاع بالحمامات المنتشرة بالشرق والتى عرفـوها عـن المسلمين، وكذلك الصابون المجهـول بأوروبا، الأمر الذى أدى إلى أتهام لاتين الشرق بالرفاهية والترف لمواظبتهم على زيارة الحمامات، لذلك طالما تباهى فرسان الداوية بعدم إستخدامهم الحمامات أو الإستحمام أبداً، وكما كان القادمون من الغـرب بملابسهم الخشنة النادر غسلها قد لا يسمعـون عن الإغتسال ولم يجربوه،

وأعتاد لاتينى الشرق أستخدام الصحاف النحاسية والفضية والزجاجية التى أنتشـرت فى الشرق، والمناضد المطعمة بالعاج، حولها المقاعد الوثيرة، وتناول الحلوى الـدمشقية وأنهاء طعامهم بالبطيخ والتمر، وتحلية مشروباتهم بالسكر، فى الوقت الذى كانت أوروبا بها مناطق قائمة على إقتصاد اللقط، بينما يستطيع الصليبى بالشرق الإستمتاع بالطعام الشرقى الذى لا تستطيع قائمة الطعام بأوروبا منافسته، وكان الثراء الذى تمتع به فرنج الشام والذى جعـل صغار أمراءهم ينعمون بحياة لا يحلم بها ملك

بالغـرب الأوروبى، حتى أن آمر قلعة بالشرق يعيش حياة تزيد فى روعتها عن حياة ملك فى أوروبا الغربية، بل أن عوائد ميناء عكا الصليبى تفوق دخل ملك أنجلترا، كل هذا لعب دور بارز فى تأجج هذا الحقد، فأطايب الحياة بالشرق جعلتها أكثر بهجة مما كانت عليه تحت ضباب الغرب، الأمر الذى أدى إلى مقاومة صامته من فرنج الشرق لإستقرار القادمين من الغـرب فى الشام، بينما القادمون من الغـرب أصبح لديهم الإختيار بين الإشتراك فى الحملات الصليبية وبين عدم الإشتراك، كالإختيار بين الثراء، والتسول[2]،

وأدى إختلاف سياسة فرنج الشرق الذين كانوا بحكم تـربيتهم فى الشام لا يرون غضاضة فى إيجاد نوع من التفاهم مع المسلمين بعكس الوافـدين الجدد من الغرب، الأمر الذى إدى إلى فساد الود بينهم ،

وشهد الصراع بين البولان والصليبيين الجدد منحنى خطير، بزيادة نفوذ القادمين من وراء البحر من الصليبيين الجدد، بعد أن أستطاعوا السيطرة على أكثر المواقع حساسية ونفوذاً فى المملكة، القصر، والجيش، وفرسان الهيكل، وبارونية الكرك، بعد إعتلاء جى القادم من فرنسا عرش المملكة وسيطرته على القصر الملكى، وتعيين أخيه أمالريك قائد عام الجيش، وخضوع الداوية لهم بعد إعتلاء جيرارد القادم من هولاندا رأس سلطة الهيئة، ويضاف لذلك كثرة إشتراك فرسان أوروبا بهيئة الداوية بسبب كثرة مراكز تجنيدها بالمدن الأوروبية، وكذلك سيطر الصليبيون الجدد على واحدة من أكبر بارونيات المملكة وأكثرها أهمية إستراتيجية تحت لواء الأحمق الكبير أرناط، الأمر الذى سيزيد سخونة الصراع، الأمر الذى يلقى مقاليد المملكة بين أيدى صقور السياسة الصليبية، مما سيكتب النهاية لدولتهم،

أما الصراع على السلطة ـ بسبب قـزمية الملك جى ـ قد خلف عداء مـرير بين ملـك بيت المقدس وأقوى الأمراء الصليبيين ـ الأمير ريموند أمير طرابلس حفيد ريموند صنجيل ـ عداوة عمل الملك جى على إستفحالها بغباء ورعونة، فيقتحم جى مدينة بيروت ويطرد نواب ريموند منها بدعوى إنتفاء سبب منحها لريموند، فهى أنما مُنحت له مقابل وصايته على العرش، وأرتفعت أصوات محرضة الملك على مهاجمة طبرية

---

[2] لبيان مدى الثراء الذى تمتع به الصليبيين بالشرق نقرء ما كتبه فوشيه الشارترى بكتابه تاريخ الحملة إلى القدس وهو قسيس رافق الحملة الصليبية الأولى "أولئك الذين كانوا غربيين أصبحوا الأن شرقيين، ومن كان رومياً أو أفرنجياً قد تحول فى هذه البلاد إلى جليلى أو فلسطينى، ... وبين فترة وأخرى ينضم إلينا أقرباؤنا، ... وقد جعل الله من كانوا فقراء فى الغرب أثرياء فى هذه البلاد، ومن كان لديهم القليل من المال ، ملكوا ما لا يحصى من القطع الذهبية، ومن لم يكن لديهم دار، أمتلكوا مدينة، فلماذا يعود إلى الغرب أذن من وجد الشرق كذلك؟ (تاريخ الحملة إلى القدس ص218 -219)

والقبض على ريموند، ولكن قرب طبرية من دمشق وبها صلاح الدين أقنع الملك جى بالتروى، مما اقفل كافة الأبواب أمام ريموند إلا باب صلاح الدين، وقد عمل صلاح الدين بذكاء دبلوماسى على جعله مفتوحاً دائماً أمام ريموند بل قام صلاح الدين بإطلاق سراح فرسان طرابلس الأسرى لديه، ووعده بمساعدته لإعتلاءه عرش بيت المقدس، مما دفع ريموند للأرتماء بين أحضان صلاح الدين[3]، الذى شجع هذا التحالف وعمل على تـقوية أواصره، وأصبح ريموند ينظر للملك جى كعدو أكثر خطراً من صلاح الدين، وكما وعد صلاح الدين ريموند بالنصرة بعد ورود أخبار الأستعدادات التى اتخذها الملـك جى لمهاجمة طبرية التابعه لزوجة ريموند، هذا التحالف زاد من هوة الشقاق بين الصليبيين بسبب عدم قدرة أرناط وفرسان المعبد تصور وجود تحالف بين سلطان المسلمين وأمير صليبى، الأمر الذى دفعهم لـرمى ريموند بالخيانة مما زاد الخلاف بينهم لدرجة عدم الإستماع لخبراته بإجتماعات المحكمة العليا ،

ونظراً للظروف المناخية والطبيعية لبلاد الشام أقتصـرت الأعمال الحربية على فصل الصيف فقط، فقد كانت الأمطار بالشتاء وما ينتج عنها من أوحال وكذلك الثلوج التى تشتهـر بها الشام حجر عثرة أمام تحركات الجيوش وإعاشتها، وكذلك كان يتعـذر وصول السفـن من أوروبا فى فصل الشتاء الذى يكون الأبحار والرسو فيه مغامرة خطيرة قد تكلف الجميع حياتهم، لهذا أقتصر القتال على فصل الصيف، الذى كان فى بداياته ترِد لصلاح الدين قوات الممالك المكونة لدولته فقد كان تصل تباعاً قواته المصرية والحلبية ومن دمشق وباقى مدن الشام، والمدن المتحالفه معه كالموصل ومدن ديار بكر وكذلك المتطوعة والبدو العرب على مراكز تجمع الجيوش الأيوبية ،

كل هذه الظروف دفعت وليم الصورى إلى إختتام كتابه عن تاريخ الصليبيين بالشرق بنظرة متشاءمة وبالغة الكأبة عام 1184م، حيث لم يستطع كتابة نهاية مملكة بيت المقدس على حد قوله، لتثبت الأيام صحة نظرة وهواجس وليم السوداء، فبعد ثلاثة سنوات من هذا التاريخ وجه صلاح الدين والمسلمون طعنة قاتله للوجود الصليبى بالقدس فى معركة حطين 1187م ،

فى هذا العام 1187م تجمع لدى صلاح الدين أضخم جيش تستطيع دولته تقديمه لأرض المعـركة، مما ملئه تصميم على أن يكون هذا العام هو عام الحسم، وخصوصاً

[3] وقد كان رسو زورق الخلافات على شاطئ الصليبيين بعد إبحاره من شاطئ المسلمين من النقاط الهامة فى النصر بحطين ، فكأنما إنقلب السحر على الساحر

العمل الذى قام به أرناط الذى وجه الضربة القاضية لوجود مملكة بيت المقدس بالقدس، فنظرياً كانت ما تزال الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين قائمة، حتى أعطى أرناط لصلاح الدين الذريعة التى اقطلعهم بها، وعمل على تسريع الأمور التى كانت ما تزال تختمر، فهذا الأمير اللص كان لا يستطيع العيش بشرف وكان لا يستطيع مقاومة السرقة والنهب[4]، فقد مرت بجوار حصنه الكرك قافلة قادمه من مصر مطمئنة للهدنة السارية وأن أتخذت أحتياطاتها أثناء المرور، وقد أسالت ضخامة هذه القافلة لعاب أرناط الذى ما أن شاهد جمالها تتهادى تحت ثقل بضائعها حتى سارع بنصب كمين لها بكامل قواته لتسقط القافلة فى هذا الكمين، ويرفض أرناط إرجاع محتويات القافلة والأسرى تنفيذاً لبنود الهدنة، وحتى الملك جى لم يستطع بالرغم من محاولاته حمل أرناط على أحترام الهدنة[5]، ورد أرناط رداً قاسياً عليه "كما هو سيد بلاده(الملك جى) فأنا سيد بلادى، ولا عهد بينى وبين العرب" بما يعنى عدم إلتزامه بمعاهدات الملك،

الأمر الذى يعنى سقوط الهدنة بين المسلمين والصليبيين ومسوغ للهجوم الأسلامى المنتظر، وتحريك الماء الراكد، بينما غزا صلاح الدين المجتمع الصليبى وطغت سيرته على أحاديث قاطنى المملكة، ولزيادة هوة الخلافات الصليبية وإستغلالاً للتحالف بينه وبين ريموند طلب صلاح الدين من ريموند السماح لقوات إستطلاعية بقيادة أبنه الافضل نور الدين علىّ، مؤلفة من قوات حلب بقيادة بدر الدين دلدورم بن ياروق صاحب مدينة تل باشر ومقدم قوات دمشق صارم الدين قايماز النجمى[6]، بالمرور من أقليم الجليل التابع له لأستطلاع الإستعدادات القتالية للمملكة، وهو ما اوقع ريموند فى مأزق لا يُحسد عليه، فهو أن وافق فقد خان قومه مما سيجلب عليه عداء الصليبيين والأوروبيين جميعاً وأن رفض فقد خسر الحليف القوى الذى يتحامى به، وقد أختار ريموند الجانب الأقوى فقد سمح على مضض لقوات صلاح الدين بالمرور، بشرط دخولها أراضيه بعد أول ضوء ومغادرتها قبل أخر ضوء، إذ كان لا يملك ترف الرفض فالقوات كانت ستمر سواء وافق أو رفض، وبالفعل توغل الأفضل حتى وصل للناصرة بالقرب من بيت المقدس، بعد أن حذر ريموند فلاحيه طالباً منهم المكوث فى قراهم المحصنة، وقام بتحذير مقدمى الداوية والإسبتارية وأسقف صور،

---

4 قد مر علينا أن الأمراء والفرسان الصليبيين كانوا يعتمدون على السلب وقطع الطرق كمصدر دخل أساسى لهم

5 الأمر الذى يبين ضعف السلطة الملكية أمام تنامى قوة البارونات ويضاف لذلك ضعف شخصية جى

6 مفرج الكروب ج2 ص187

وكانت هذه المناورة فى منتهى الذكاء من صلاح الدين، فقد أحدثت صدع عميق فى الجدار الصليبى، كما كانت مهمة فوج الأفضل هى إستفزاز القوات الصليبية وإستثارتها لدفعها للمعركة المنشودة، وأثناء أنسحاب الأفضل قامت قوة من خمسمائة فارس من الداوية والأسبتارية وأربعمائة من المشاة بقيادة مقدمى الداوية والإسبتارية، كانت فى طـريقها لطرابلس لمفاوضة ريموند للتصالح مع الملك جى، بمهاجمته والأشتباك معه بعين جوزة بجوار مدينة الناصرة، بعد أن أنضمت لها حامية الناصرة وحامية قـلعة الفولة، بينما ينادى جيرارد مقدم الداوية بغرور وعنجهية فى قرية مجاورة على من يريد الغنائم فليأتى بعـد المعـركة، وقد أنتهى هذا الأشتباك بفناء القوة الصليبية ولم ينج منهم إلا العشرات، منهم باليان الأبلينى حاكم الرملة ورينولد صاحب صيدا ومقدم الداوية جيرارد دى ريدفورت الذى فر محتمياً بأسوار الناصرة، مخالفاً قسمه وقانون الهيئة التى يتولى رئاستها، بينما زميله مقـدم الأسبتارية روجيه دى ميلان لم يملك حسن حظه وكان بين القتلى[7][8] وكذلك مارشال الداوية جاك دى مالى، حتى خلت الناصرة وقلعة الفولة من حامياتهما، مما زاد مقت مقدم الداوية لريموند، وكان هو وأرناط وضعف شخصية جى من أكبر أسباب الهزيمة فى حطين،

وأن كانت هذه الكارثة التى حلت بالصليبيين ناقوس خطر أدى إلى التقارب بين الجانبيـن المتصارعين بسبب أحساسهم بالخطـر على وجودهم ككل، فقد حاصر الندم ريموند، واستبشع نتيجة المعركة، فقد كان جاك دى مالى صديقه المقرب، كما كانت الخسارة الفادحة فى فرسان النخبة للصليبيين أكبر من أن تعوض، كما تعالت أصوات جيرارد تصب أقسى اللعنات على رأس ريموند[9] حتى وصلت أصواته لبابا روما، الأمر الذى دفع ريموند أعلان إستعداده للإنخراط فى سلك الرهبنة للتوبة مما حدث، ولكن خسارة فارس مثله فى ذلك الوقت كان أخر ما تتحمله المملكة، فتم الإتفاق على المصالحة بينه وبين جى وتعهده بالمساعدة المخلصة له،

وإستمراراً فى محاولات صلاح الديـن الناجحة فى شق الصف الصليبى، وبحثه عن أصدقاء داخل معسكر الأعداء، أمر صلاح الدين نائبه فى حلب بتوقيع هدنة مع

---

[7] الكامل ج10 ص145

[8] بعد أن رماه جيرارد بالجبن عندما طلب عدم الإشتباك مع المسلمين

[9] حالة العداء بين جيرارد وريموند قديمة، فقد كانت هناك فتاة تدعى سيليا وريثة كونتية الباترون عقب وفاة والدها وليم درويل، وكان ريموند الوصى عليها وتم الوعد لجيرارد بالزواج من هذه الفتاة الثرية، ولكن هبط إلى طرابلس ثرى من مدينة جنوة يدعى بليفين والذى أستطاع شراء الزواج من هذه الفتاة مقابل رشوة ضخمة، الأمر الذى أدى بجيرارد الإنخراط فى سلك الداوية صابا اللعنات على رأس ريموند

أنطاكيا منفرده بما يعنى أمكانية مشاركة قوات حلب فى المعـركة المنتظرة وخسران الصليبيين لجهود قوات أنطاكيا[10]،

عبقرية صلاح الدين تظهـر فى نجاحه فى مناوراته التى سبقت اليوم الأخير قبل المعـركة، قد أدت هذه المناورات إلى إجبار الصليبيين على خوض القتال فى المكان والزمان الذين أختاراهما صلاح الدين، والمناسبين لقواته مما كان مفتاح النصـر للمسلمين، بعد أن أجبر قوات الصليبيين بالزحف والبقاء تحت السلاح لمدة يومين،

فخلال حروب العصور الوسطى تنعدم فرصة المفاجأة الإستراتيجية بسبب محدودية الحركة وبطئها النسبى، وتظهر عبقرية القائد فى إجبار العدو على خوض المعـركة فى المكان والزمان المناسبين لقواته،

وكما نجحت إستراتيجية صلاح الدين فى فصل مشاة الصليبيين عـن فرسانهم المدرعة الثقيلة، فقد أدت كثرة المعارك التى لم تنقطع والتى خاضتها القوات الإسلامية ضد الصليبيين إلى أكتشاف أن الفرسان المدرعة الصليبيين بالرغم من قوتهم التدريعية الهائلة كانت لا تضاهى الفرسان المسلمين الذين تميزوا بخفة الحركة، والمسلحـين بعدد كبيـر مـن السهام، والمدربين لدرجة الأحتراف على إستخدام القوس من أعلى صـهوات جيادهم، والذى اتبعوا تكتيك القتال من الحركة مع قـذف أعداءهم بوابل هتان مـن السهام، التى لم يجد الصليبيون أى حماية من هذه السهام إلا خلف مشاتهم المسلحين بدورهم بالسهام والأقواس والنشاب والمحجوبين بستائر معدنية تقيهم سهام الفرسان المسلمين، والذين كانوا يوفرون حماية للفارس الصليبى وجواده، وذلك بإتخاذ مواقعهم بين فرسانهم وبين جيش المسلمين ويبادلوا فرسان المسلمين القذف بالسهام، حتى تظهر فرصة فيفتحوا ممرات لفرسانهم ليهاجموا الفرسان المسلمين فى اللحظه المناسبة لهم، هجمات مثل هذه بفرسان متسـربلين بالحديد، يصعب إصابتهم بسبب الدروع التى تغطيهم تماماً، لا تذر أحداً أمامها، وعلى حد قول مؤرخنا أبى شامة "ألف فارس من المسلمين لا تصَبر على حملة ثلاثمائة فارس من الفرنج"[11]،

وكذلك إثناء زحف الجيش الصليبى يكّون المشاة حلقة حول فرسانهم، وفى هذه الأثناء كان لا يتيسر مهاجمة الجيش الصليبى بسبب التعاون بين المشاة والفرسان، أما فى

[10] كان أمير أنطاكيا بوهيمند الثالث معرف عنه نزواته الجنسية الأمر الذى دفع الكنيسة لفرض قرار الحرمان عليه بسبب إتخاذه عشيقة له هى أمرأة تدعى سيبيل بعد أن طرد زوجته الشرعية، فأستطاع صلاح الدين تجنيد عشيقة أمير أنطاكيا التى أرسلت لصلاح الدين تحركات قوات بوهيمند وأسرار أمارته بشكل دورى مقابل هدايا غمرها بها،

[11] الروضتين ج2 ص104

معركة حطين فقد نجحت عبقرية صلاح الدين العسكرية فى فصل المشاة عن الفرسان والقضاء على قدرتيهما على القتال المتعاون فأنفرد بالأثنين كلاً على حدا .

نصب صلاح الدين خيمته بقرية عشترا، حيث تجمعت قواته، بعد قدوم قوات مصر ودمشق وحلب والموصل وماردين، حتى أختفت أراضى القرية تحت بحر متلاطم من ملابس الجند الفضفاضة المتماوجة وألاف الخيام الصغيرة المتراصه فى نظام، لينظم صلاح الدين قواته تنظيمات القتال، مع تلقين كل جندى موقعه بالجيش، ثم زحف بتشكيلات القتال حتى وصل للأقحوانة شرقى طبرية بدايات 1187م وقد تألفت هذه القوات من كتائب ولايات الدولة المختلفة، علاوة على قوات حلفاء صلاح الدين حكام مدن ديار بكر وشمال العراق بالأضافة لقوات الحلقة السلطانية وهى قوات محترفة تابعة لصلاح الدين مباشرة سواء من مماليكه الذين يطلق عليهم الصلاحية أو القوات المحترفة الذين يتقاضون مرتبات شهرية منتظمة من ديوان صلاح الدين، هذا بالأضافة للمتطوعين والـذين كانوا يهرعون من كافة البلاد العربية والمتحمسين لتطهير الشام، الذين أخذت أعدادهم وحماستهم فى الإزدياد بفعل إنتصارات نور الدين محمود، وهؤلاء كانوا خفيفى التسليح وغير محترفين ويقاتلون مترجلين ويكلفوا بمهام ثانوية ،

دبوس إسلامى

أما عن أسلوب وتسليح جيوش صلاح الدين فقد كانت تعتمد على خفة الحركة سواء فى وسائل حماية الفارس كدرعه الذى كان يتميز بالخفة والفعالية فى ذات الوقت وكان يطلق عليه كزاغند، وهو عبارة عن معطف طويل حتى الفخذ من المخمل الأصفر أو الأحمر مبطن بفراء ومثبت به شرائح معدنية تحمى الأجزاء القاتلة ببدن الفارس، ويرتدى أسفله قميص زرد طويل ومن أسفله قميص كتان، كما حمل الفارس المسلم سيف مستقيم مزدوج الحد، والرمح والترس المعدنى المستدير، ودبوس[12] لتحطيم دروع خصمه، بينما يحمى ساعده بساعد حديد، وكذلك ساقه وقدمه، ويعلوا

12 هراوة غليظة لها رأس مدملجة من الحديد

رأسه خوذة معدنية يتدلى منها حلقات معدنية لحماية رقبته، ولها جزء أمامى متحرك لحماية أنفه ،

وكل تسليح الفارس المسلم أخف وزناً من التسليح الفرنجى، وعرف الجيش الصلاحى سلاحى المشاة والفرسان وكلاهما تسلحا بالأقواس والسهام، والذان أعتمدا عليهما فى إنهاك الفارس الصليبى ثقيل الحـركة والذى كان لا يستطيع الأستمرار طويلاً فى المعركة بسبب ثـقل وزن دروعه وتجهيزاته وحرارة الجو القاتلة فى شهور صيف الشرق، التى كانت كـفيلة بتحويل درعه إلى أتون من لهب، كانت تحد من قدرته على القتال إلا لبضع سويعات وعلى فترات متقطعة، ثم يقوم فرسان المسلمون بهجوم عام بعد إنهاك فرسان الصليبيين بشرط النجاح فى الفصل بينهم وبين مشاتهم، فقد وفرت خفة حركة الفارس المسلم وقدرته العالية على المناورة فرصة إمتلاكه ميزة إختيار الوقت الملائم للهجوم، وقدرته على الإنسحاب المنظم والقتال من مسافات أمنة ضد فرسان الفرنجة ثقيلى الحركة، الأمر الذى أتاح لهم ممارسة الأسلوب القتالى الشرقى الفعال، الكر والفر، مما سمح بإيطالة زمن المعارك الأمـر الذى كان لا يحتمله فرسان الفرنجة سجناء دروعهم الحديدية،

كما برع الفرسان المسلمون فى تكتيك الكمائن، بالتظاهـر بالفرار وجذب مطارديهم إلى أماكن مختارة بعناية ومتمركز بها قوات نخبة متخفية مستعده للتدخل ضد فرسان الفرنج، وكما أعتاد الفرسان المسلمون قتال الجيش الصليبى أثناء زحفه، بالهجوم عليه فى شكل موجات متلاحقة بسهامهم المتدفـقة، مع تخصيص النصيب الأكبر من هذه الهجمات لمؤخرة الجيش الصليبى ،

يضاف للفرسان المسلمين قوات المشاة وأغلبهم معينين برواتب نقدية بدواوين الجند الخاصة بكل مدينة إسلامية، فكثرة الحروب فى الشرق أدى إلى ظهور طبقة من ممتهنى القتال سواء الفرسان أو الرجالة، ومهام المشاة تأتى بعد نجاح هجوم الفرسان المسلمين فى إكمال تطهير ميدان المعـركة وفرض السيطرة عليه، يضاف لذلك مهام رئيسة خلال أعمال حصار المدن المسورة والقلاع، من تسلق الأسوار وإقتحام الثغرات،

وأمتاز الجيش الإسلامى بنظام إستطلاع ممتاز يسمى "اليزك" وهو عبارة عن قوات مختارة تتكون من حوالى ألف فارس، تراقب قوات العدو وترافقه بإستمرار من مسافة أمنة، وتنقل أخباره بإستمرار لقيادة القوات العليا، كما أمتاز الجيش الإسلامى بموسيقات عسكرية (الطبلخاناه) وهى تستخدم لإعطاء أوامر للجنود أثناء المعارك،

حيث كانت هناك نغمات للهجوم وغيرها من الحركات العسكرية، كما كانت تبث الحماس فى الجنود وتحطم معنويات الصليبيين،

وإن أدى تطور قتال الفرسان وتجهيزاتهم الباهظة إلى إحتكار القتال من صهوات الجياد على المقاتلين المنتسبين إلى أمير أو سلطان مما حرم فرص التدريب والقتال كفرسان إلا عليهم مما حد من عدد القوات الراكبة، نفس الشئ بالنسبة للصليبيين فقد أدى إرتفاع تكاليف تجهيز الفارس ثقيل العدة وطول فترة التدريب اللازمة، وكذلك عدم سماح النبلاء بإنخراط من هم خارج طبقتهم الأرستقراطية للعمل كفرسان، كل هذا أدى إلى قلة عدد الفرسان ثقيلى العدة التى تستطيع المشاركة فى المعارك، وإن أدى جودة تسليحهم وكفاءة تدريبهم إلى فعاليتهم العالية فى القتال،

بينما على الجانب الأخر نجد **الفرسان الصليبيين** ثقيلى العدة من بارونات وأمراء وأصحاب رتبة الفرسان ومنتسبى الهيئات الدينية كفرسان الأسبتارية والهيكل (الداوية) وإعتمدت العقيدة القتالية الصليبية على هؤلاء الفرسان ثقيلى العدة، الذين كانوا يدخرونهم للمواقف الصعبة والأدوار النهائية خلال المعارك، ولذلك كان الفرسان خلال الزحف محاطين بمشاتهم النبّالة لحمايتهم بواسطة نبالهم، وينقسم المشاة إلى قسمين قسم يسير أمام الفرسان يقاتل، وقسم مستريح، حتى إذا ما تعب القسم المشترك فى القتال، أخذ القسم المستريح مكانه وإنخرط مقاتلاً، حتى يستعيد القسم الأخر أنفاسه،

وفى المعتاد كان هجوم فرسان الفرنج ثقيلى العدة يتم بمجموعات متفرقة كل مجموعة من حوالى مائة فارس أو مائتى فى عدة جهات من خطوط قتال أعداءهم، لزعزعة خطوط أعداءهم التى لا تتحمل ضغط هجوم الدبابات البشرية هذه، مما يزرع بينهم الفوضى ويجبرهم على الفرار، فهجوم مفاجئ من عدد كبير من الفرسان المزودين بزرديات ودروع، مستغلين ثقل جيادهم الضخمة ومسلحين برماح طعن قوية وطويلة، محتمين بتروس ودرقات تمنحهم الحماية من العنق للفخذ، كل هذا يمنحهم قوة دافعة كبيرة تؤدى إلى تحطيم خطوط دفاع أعداءهم وتمزيق فرسانهم وإخراجهم من ميدان المعركة والسيطرة على ميدان القتال بالقوات الراجلة التى تتبعهم، لهذا حرص الصليبيون على المناورة لجذب المسلمين لأراضى مستوية ليقوموا بهجومهم المميت،

وأدرك الفرنجة شديدى الحذر خطر الفرسان المسلمين النبّالة وقدرتهم الكبيرة على إصابة فرسان الفرنجة بسهامهم، فهم أكثر الناس إحترازاً فى الحرب[13]، الأمر الذى

[13] الإعتبار ص17

دفعهم إلى زيادة وسائل الحماية لفرسانهم بالشكل الذى أبعدهم عن الرشاقة وخفة الحركة، مما جعلهم أبطئ من أن يجاروا الفرسان المسلمين سريعى المناورة، الأمر الذى أحالهم كالخراف السمينة المثقلة بشحومها أمام رشاقة الفارس المسلم، الأمر الذى أوجب عدم قيام الصليبيون بهجوم عام إلا إذا تجلت فرص النصر واضحة، فالهجوم الفاشل يعنى إختلال نظامهم بشكل يصعب أن لم يستحيل إستعادة نظام تشكيل خطوط قتالهم، وإذا ما حاولوا مطاردة الفرسان المسلمون فكأنهم يطاردوا الرياح، كما أستغل الفرسان المسلمون قدرتهم العالية على المناورة بالتظاهر بالفرار والإلتفاف خلف فرسان الفرنجة ومهاجمة الرجّالة الصليبيين مما يحرم فرسان الفرنجة من القاعدة المتحـركة التى يستندون عليها إثناء قتالهم ،

وبجانب الفرسان الثـقيلة كان هناك الرقباء (سيرجندية الفرسان) وهؤلاء فرسان خفيفة العدة وتعمل كقوات مساعدة للفرسان ثقيلى العدة، وكما يوجد المشاة (السيرجندية)، كما يوجد قوات فرسان خفيفة التجهيز أخرى تسمى تركبولى وهؤلاء مرتزقة ذو أصل شرقى بيزنطى ومحلى ويتسلحون بالقوس والسهم على الطراز الشرقى، وكانوا يوضعون تحت القيادة المباشرة لمارشال الجيش وكانوا يكلفون بالمهام التى تحتاج لخفة حركة مثل الأستطلاع والعمل خلف خطوط العدو .

وكان القتال يجرى بين فرسان المسلمين والصليبيين أقرب ما يكون للنزال الفردى إذا ما جرى الإعتماد على الرمح، وقد أدى طول فترة بقاء الصليبيين فى الشرق وكثرة الأعمال القتالية بينهما إلى خلق حالات تحدى وتربص بين الفرسان بعضهم البعض، ويتعمد الفارس طعن عدوه وإسقاطه عن فرسه الأمر الذى يؤدى إلى عدم قدرته على القتال مترجلاً فيسهل قتله أو أسره، فإن الفارس الصليبى مادام فرسه سالماً لم يذل للصرعة فإن لبسه زرد من قرنه إلى قدمه، كأنه قطعة من حديد، ولكن فرسه إذا هلك ملك[14]

وتتخذ جيوش العصور الوسطى خلال الحروب تشكيل الصفوف، حيث يصطف الجيش بعدة صفوف تزداد وتنقص تبعاً لعدد الجيش، وإن أعتاد المماليك تلامذة الأيوبيين على الأصطفاف من ثلاثة إلى ستة صفوف، وطالما الصف متماسك فالجيش فى قتال، أما إذا إختل الصف فمعنى هذا الهزيمة وإندحار الجيش وفرار جنوده، ويعتمد الفرسان الصليبيون على ثقل وسائل حمايتهم خلال هجومهم الذى يقومون به

[14] الروضتين ج3 ص183

بمجموعات من مائة فارس فى الأغلب لتشتيت وتحطيم صفوف جيش المسلمين وطرد فرسانه من ميدان المعركة ،

وأمتاز الجيش الإسلامى بالقيادة الموحدة والقادة الأكفاء أصحاب الخبرات الكبيرة، بعكس الجيش الصليبى المفتقد لقيادة عليا قوية تستطيع السيطرة على كافة فرق الجيش الصليبى اللجب، وإفتقار الجيش لقادة أكفاء إلا ريموند الثالث المكروه والمغموس فى ولاءه من قبل كبار قادة جيشه ،

وبعد إكتمال تجمع قوات صلاح الدين قام بالزحف ظهر يوم الجمعة وهو الوقت الذى كان صلاح الدين حريصاً دوماً لبداية كافة تحركاته تيمناً بصلاة الجمعة، وعبرت قوات صلاح الدين حدود مملكة بيت المقدس بأضخم جيش، بلغ حوالى أربعون ألف جندى وهو مقارب لعدد جيش الصليبيين الذين دفعوا به لأرض المعركة ،

فبينما أعتمد نور الدين على سياسة القضم المتتابع بالإستيلاء على الحصون الحدودية الصليبية، والإنهاك الإقتصادى بتدمير زراعات الأقاليم اللاتينية، فإن صلاح الدين بما أستطاع تكوينه من أمبراطورية ضخمة سمحت له بتجيش جيش ضخم طمح فى خوض معركة فاصلة تقضى على المؤسسة العسكرية الصليبية بما يسمح بالقضاء على الوجود الصليبى ككل، وصد الهجمات الأوروبية الإنتقامية ،

وقد كانت معركة الناصرة أيذاناً لبدء صفحة جديدة بين جى وريموند الذان تصالحا فى بيت المقدس خلال إحتفال بهيج بعد أن أرسل الملك سفارة من مقدم الإسبتارية ومقدم الداوية وبارونات صيدا وإبلين ورئيس أساقفة صور وتحت ضغط تهديدات البطريرك بفرض قرار الحرمان على ريموند وإبعاده عن زوجته، عقب إستشعار الجميع الخطر على الوجود الصليبى بسبب التقارب والعلاقات الودية بين صلاح الدين وريموند الثالث، بما كان بمثابة نقض الهدنة بين صلاح الدين وريموند، وطالب الملك جى الأمير ريموند بحشد قوات طرابلس واللحاق به فى معسكر حشد جيوش بيت المقدس عند بلدة صفورية، ويجوب أرجاء المملكة منادين يصيحون بأعلى صوتهم بإستدعاء كافة قوات المملكة، فرساناً مشاة، وتم إستدعاء جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، وسارعت المدن والحصون بإرسال حامياتها، وزحف البارونات ونبلاء المملكة على رأس قواتهم، وقد أنهزم الصليبيين رعباً قبل المعركة،

وجاءت سياسة صلاح الدين بأهدافها فعندما طالب الملك جى بوهيمند صاحب أنطاكيا باللحاق به فى صفورية بقواته أرسل له بوهيمند أكبر أبناءه بقوات رمزية تبلغ حوالى خمسين فارس فقط، وتجمعت القوات الصليبية فى صفورية الغنية بمصادر مياهها مما

وفـر طبوغرافية ممتازة للجيش الصليبى بجوار نبع ماء حيث كان ملوك بيت المقدس يميلون لتجميع جيوشهم به لتوافر الماء والكلاء[15] وتم حشد جميع القادرين على حمل السلاح بالمدن الصليبية بحيث أُخليت المدن من حامياتها، بعد وعد الملك جى للجنود الذى سيسارعون للإلتحاق بالجيش بالعطاء الوفير،

وقامت الهيئتان العسكريتان الداوية والإسبتارية بجمع كافة قواتهما لهفة للإنتقام لمعركة الناصرة، وتم جلب صليب الصلبوت ليسيروا به أمام الجيش لرفع الروح المعنوية، أن تخلف بطريرك القدس هيراكليوس (هرقل) متذرعاً بمرضه،

وكان هنرى الثانى ملك أنجلترا قد تبرع بمبلغ ضخم لفرسان الداوية ككفارة عن إغتياله لمعارض له هو توماس بيكت أسقـف كانتربرى، بعد أن تعهد لبابا روما بدفع مبلغ مالى مرتين سنوياً يكفى لتجهيز مائتى فارس من الداوية والإسبتارية لأرض المعركة، دفعه كله مقدم الداوية للملك جى لتجنيد المزيد من المرتزقة والجنود مما يضخم الجيش، وعرفاناً بجميل ملك أنجلترا، أمر الملك جى قوات المشاة بحمل شعار ملك أنجلترا على ملابسهم اثناء المعـركة، وعلى هذا قد تم جمع جميع القوات التى يمكن للصليبيين جمعها، ولا يمكن تعـويض أى خسائر فيها، فالصليبيون وبالرغم من طول فترة بقائهم فى الشام ظلوا أرستقراطية عسكرية ولم يستطعوا تكوين ظهير شعبى لهم ليعـوض خسائرهم بعكس قوات المسلمين والتى كانت تستطيع تعويض خسائرها بكل سهولة وسرعة،

صلاح الدين بأعـوامه الخمسين التى قضى معظمها فى محاربة الصليبيين يعقد إجتماع مجلس قيادة أركان قواته لإختيار إستراتيجية القتال الواجب إتباعها، فمن قواده من أشار بترك قتال الجيش الصليبى لضخامته، والإكتفاء بشن غارات على المدن الصليبية، ومنهم من أشار بوجوب قتال الصليبيين مخافة إتهامهم بالتقاعس عن قتال الصليبيين والنقد من جموع المسلمين، فقد قال أمير من أمراء صلاح الدين "الناس فى المشرق يلعنوننا ويقولون تركوا قتال الكفار وأقبلوا يريدون قتال المسلمين[16]، والرأى أن نفعل فعلاً نعذر به ونكف الألسنة عنا" فقال صلاح الدين "الرأى عندى أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكافرين، فإن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا، ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد"[17]

---

15 تاريخ بيت المقدس ص74

16 قبل معركة حطين كان ينظر لحروب صلاح الدين لإتمام الجبهة الموحدة، على إنها حروب ضد المسلمين ولم تظهر نتائجها الهامة إلا مع نصر حطين

17 الكامل ج10 ص145

إستراتيجيات وخطط الجانبين

وطفت على السطح مشكلة كيفية إستغلال الجيش الصليبى العـرمرم، والذى ضم جميع الرجال القادرين على حمل السلاح داخل أرجاء المملكة وأمارة طرابلس مما يعنى شل الحياة الأقتصادية تماماً، وقد أشار ريموند على الملك جى بإتباع الأستراتيجية العسكرية الصليبية التقليدية، والتى تنص على تجنب الدخول فى معارك كبرى ضد جيش معادى ضخم كالذى يقف على ضفاف بحيرة طبرية وعلى رأسه صلاح الدين، بل طالب بإتباع سياسة المطاولة والنفس الطويل، علماً بأن قوات صلاح الدين ما تلبث حتى تضطر للعودة لمتابعة أسرهم وإقطاعاتهم، بينما يتمركز الجيش الصليبى فى مكمنه بصفورية الغنية بمواردها المائية منتظراً صلاح الدين، والذى إذا ما توغل داخل أراضى المملكة يباغته الجيش الصليبى عقب عبوره أرض صخرية جرداء خلال حرارة الصيف القاتلة وجنوده مرهقه مجهده من السير الطويل بينما الجيش الصليبى بكامل حيويته وقوته، فإذا ما كان النصر حليف الصليبيين فمعنى هذا ان الجيش الأسلامى عليه الأنسحاب مسافة كبير داخل أراضى معادية حتى يصل لأقرب حصن أو قلعة أو مدينة مسورة أسلامية ليحتمى بها، بينما إذا ما طالت الهزيمة الصليبيين وهم فى صفورية يستطيعوا بكل بساطة الأحتماء بأى قلعة من القلاع الصليبية المنتشرة بالقرب من معسكرهم .

والملفت أن صلاح الدين كان يـرنوا إلى عكس أقتراح ريموند فقد كان يخطط لإجبار الجيش الصليبى على الزحف لمقابلة الجيش الأسلامى فى المكان المناسب له، وهو أقصى حدود مملكة بيت المقدس قبل وصول الجيش الصليبي لبحيرة طبرية، مما يعنى عبور الجيش الصليبى أراضى جرداء لا يوجد فيها أى مصادر مياه بينما يجبرهم صلاح الدين على الأشتباك فور عبورهم الصحراء وقبل إلتقاط انفاسهم بينما جنود صلاح الدين مستجمين حول طبرية التى تمدهم بإحتياجاتهم من المياه بسخاء ،

ثم أن الفرسان المسلمون يفضلون إختيار الأراضى الوعرة ميداناً للمعارك، لإستخدام تضاريس هذه الأراضى فى مناورات الإلتفاف التى يؤدونها ببراعة وإحترافية، أما الصليبيون فيفضلون الأراضى السهلة الخالية من أى تضاريس ليسهل عليهم القيام بهجومهم المعتاد بصفوف متراصة وبشكل مباشر معتمدين على قوة تدريعهم،

ووضع صلاح الدين وأركان حربه خطة مركبة لضرب الجيش الصليبى الضخم، وتعتمد هذه الخطة على عدة نقاط، إتخاذ مواقع حاكمة أمام أضيق نقطة فى الطريق إلى بحيرة طبرية العذبة لمنع الصليبيين من الوصول إليها الأمر الذى يضعهم تحت

سيف العطش، إجبار الصليبيين على ترك مواقعهم الممتازة بصفورية الغنية بموارد المياه والزحف وإجتياز الطريق الشحيح فى الماء، وذلك بمهاجمة مدينة طبرية والمتواجد داخل أسوارها الكونتيسة إيشفيا، ثم مهاجمة الصليبيين اثناء زحفهم الأمر الذى سيؤدى إلى بطئ الزحف مما يعرضهم لفترة أطول لشمس الشرق الحارقة وكذلك إجبارهم على القتال أثناء زحفهم الأمر الذى يزيد أرهاقهم، ثم قتال الصليبيين بمجرد وصولهم للحد الأمامى للقوات الإسلامية مع عدم ترك فرصة لهم لإلتقاط أنفاسهم، كما حرصت القيادة الإسلامية على عدم إشراك كافة القوات كلها فى مراحل القتال، بل قامت قوات نبالة خفيفة بمهاجمة القوات الصليبية أثناء زحفها، ثم قطع الطريق وحصار الصليبيين بقوات تتشبث بالأرض، وإدخار قوات راكبة مختارة تحت قيادة تقى الدين عمر للإشتراك خلال اللحظات الحاسمة والإجهاز على القوات الصليبية والسيطرة على ميدان القتال،

وهكذا أحتشد الجيشان، المسلمون غرب طبرية، الصليبيون فى صفورية، يفصل بينهم حوالى ستة عشر ميلاً أى حوالى أربعون كيلومتر من الأراضى الصخرية الجرداء، هى الجيش الثالث الذى بحث الجيشان على التحالف معه، فالجيش الذى سيستطيع أجبار خصمه على عبور هذه الأربعين كيلو متر يُعتبر قطع نصف الطريق للنصر، وفى الوقت الذى تجمد الصليبيون فى مواقعهم أعمل صلاح الدين ذهنه بكل حنكة فى طـريقة لإجبار الصليبيين على الزحف لمواجهته، وقائد عبقرى مثل صلاح الدين لا يعدم الوسيلة، فصلاح الدين كان على دراية بمزاج الفارس الصليبى المتقلب، فالفارس الصليبى كان محترف قتال ولكنه كان هاوى حرب، فهو كان ذو مهارة فردية فائقة فى إستخدام الأسلحة ولكنه كان لا يحسن العمل كفرد فى مجموعة بل تميز بالتهور ويمكن إستيثارته بسهولة .

وعليه قام صلاح الدين بتنظيم قواته بحيث تقطع الطريق الواصل بين طبرية وصفورية، فى سهل خصيب مغطى بالعشب تظلله أشجار الثمار، وإن كانت أوضاع قوات صلاح الدين فى كنف البحيرة فى منتهى الخطورة فقد أقفلت أمامها أبواب الإنسحاب فى حالة ما إذا تعرضت للهزيمة، حيث كانت بحيرة طبرية تقطع طريق الجيش الإسلامى إلى قواعده،

قاد صلاح الدين قلب الجيش المكون من عسكر مصر التى جاءته بأهلها السمر[18] حيث كان أكثر من فى الحلقة السلطانية[19] من العساكر المصرية، بالإضافة لقوات

[18] الفتح القسى ص164

باقى ولايات دولته، وتولى تقى الدين عمر أبن أخيه قيادة الجناح الأيمن، التى أدخرها صلاح الدين كقوات إحتياطية لإنهاء القتال بعد أن يصل بالجيش الصليبى لمرحلة الإنهاك، وتولى مظفر الدين كوكبرى قيادة الجناح الأيسر، ووفر الجيش الإسلامى أحمال هائلة من السهام، وتم توزيع السهام على الفرسان والمشاة، مع توفير سبعين عربة بالخطوط الأمامية محملة بالسهام لمن تفرغ جعبته، على أن تكون بحيرة طبرية فى ظهر جيشه، لتشهر سيف العطش على القوات الصليبية، بينما يرنو إلى الجيش الإسلامى من بعيد شبح مرتـفعات هضبة الجولان، كان صلاح الدين يمر بين صفوف قواته ويقول لجنوده "أنا واحد منكم"[20] وجاءت اللحظة الفاصلة من الخطة وهى إجبار الصليبيين على ترك مواقعهم الحصينة بصفورية ،

قام صلاح الدين بمهاجمة مدينة طبرية المقامه فى أحضان بحيرة طبرية بجزء من جيشه، والتى تحتمى خلف أسوارها صاحبتها كونتيسة طرابلس "إيشيفا أوف بور" زوجة ريموند، فليس هناك اكثر من أستنجاد أميرة طرابلس يمكن من إثارة روح التعصب والمغامرة لدى الصليبيين، وسقطت مدينة طبرية بمنتهى السهولة والسرعة، وقامت أميرة طرابلس بالأحتماء بالـقلعة، مما أثار الذعر فى نفس الأميرة المحاصرة، بينما صلاح الدين لا يريد سقوط القلعة حتى لا يميت أمل إنقاذ الكونتيسة فى نفوس الصليبيين، فقامت إشيفيا بإرسال رسالة إستنجاد للجيش الصليبى المتمركز فى صفورية، وهذا كل ما كان يحلم به صلاح الدين حتى رسول أميرة طرابلس أستطاع إجتياز حصار قوات صلاح الدين المحكم بمنتهى السهولة، مما يشير لأحتمالية تيسير صلاح الدين لمهمة هذا المبعوث ،

وهكذا قام صلاح الدين بمناورته البارعة بمهاجمة طبرية المتولى الدفاع عنها زوجة ريموند كونتيسة طرابلس، قطعة الجُبن التى ستجذب الفارس الصليبى المتغطرس للمصيدة، وترك إكمال باقى خطته لعنصرية وغرور وغرائز الصليبيين،

قد وقع الصليبيون فى الفخ بسبب أن الطُعم كان شديد الأغراء ولا يقاوم، فقد توحدت أراء الفرسان حول ضرورة الزحف لتخليص الكونتيسة المحاصرة فى طبرية وألتقت معهم أراء أغلب كبار الأمراء، بعد أن أرسلت الكونتيسة رسالة بإنها خائفة أشد

---

[19] قوات تابعة للدولة رأساً وتعمل تحت قيادة السلطان مباشرة مقابل راتب دورى،

[20] شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص64

الخوف[21]، لينادى الفرسان "هيا بنا نخرج وننقذ سيدات طبرية وعذرواتها"[22] وأن كان "ولا بد من الموت، فموتنا فى هذه الأرض المقدسة خير لنا منها"[23]

الرسالة الأن بين يد الملك جى الجالس بخيمته بوسط معسكر جيشه، فقام بجمع كبار البارونات ورجال الأكليروس وعرض عليهم فحوى الرسالة، وكان أول الأمراء حديثاً هو أمير طرابلس الكونت ريموند بصفته زوج الكونتيسة، ريموند كان أجدر أمراء الصليبيين فى الشام وأكثرهم خبرة، ولكنه كان متهم بمحالفة صلاح الدين ومحاصر بمقت وكراهية رجال الملك جى، ومع هذا كان رأيه أن أتبعه الصليبيون كفيل بإعطاء مملكة بيت المقدس بالقدس بضع سنوات أخرى، فقد كان من رأى ريموند عدم الدخول فى مصيدة صلاح الدين، تلك المصيدة الضخمة التى أعدها لهم بإحكام، مصيدة مساحتها أربعين كيلومتر من الأرض الجرداء التى لا تستطيع مد الجيش بإحتياجاته من المياه، فقد قال ريموند أن سقوط طبرية وأسر زوجته خير عنده من ذهاب المملكة كلها، فريموند على علم بأخلاق حليفه القديم ويعلم إستحالة إضرار صلاح الدين بالكونتيسة إذا تم أسرها، بل سيقوم بإطلاق سراحها وأن أقصى ما سيفعله صلاح الدين هو هدم أسوار مدينة طبرية، والتى سيكون من السهل إعادة بنائها بعد ذلك، بل وطالب ريموند الملك بنقل المعسكر الصليبى بالقرب من عكا وإختيارها المكان المناسب للمعركة المنتظره، لأنه فى حالة هزيمة الصليبيين سيحتمون بمدنهم المسورة وقلاعهم، أما لو كانت الهزيمة من نصيب الجيش الأسلامى فسوف يتم مطاردته لمسافة كبيرة قبل أن يتمكن المسلمون من الوصول لمدنهم ومعاقلهم، وما أن أنهى ريموند حديثه حتى تمتم مقدم فرسان الهيكل جيرارد بقوله أنه "مرتدى زى ذئب"، فجيرارد لم يستطع نسيان الهزيمة التى نالها على يد الأفضل بن صلاح الدين فى الناصرة، وأرناط الأحمق الكبير نادى بديماجوجية مجنونة بوجوب إنقاذ الكونتيسة، وصاح فى قحة أن واجب ملك بيت المقدس ينصب على تخليص الكونتيسة بإعتبارها تابعه إقطاعية له، وبينوا أن مُثل الفروسية العليا والشرف يحتمان عليه عدم الخوف من صلاح الدين، وقال أرناط ـ فى أداء مسرحى درامى ـ لـريموند "قد أطلت تخويفنا من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم، وأما قولك أنهم كثيرون فالنار لا يضرها كثرة الحطب"[24]، ولكن باقى البارونات أقتنعوا برأى ريموند وتم الأتفاق فى نهاية الأجتماع على الأنتظار فى صفورية .

---

21 ذيل وليم الصورى ج67

22 ذيل وليم الصورى ص70

23 كنز الدرر وجامع الغرر ج7 ص52

24 الكامل ج10ص145 وإن كان يستحيل على أبن أثير معرفة مادار فى مجلس الحرب للجيش الصليبى

طريق الموت

تم النداء بين جنبات المعسكر الصليبى بقرار مجلس الحرب بالإنتظار بمعسكرهم بصفورية وعدم التحرك لقتال المسلمين بطبرية، وصدرت همهمات معارضة من جانب الفرسان الذين كانوا متحمسين للقاء المسلمين ولكن جاء القرار بمثابة دلو من الماء البارد أطفئ حماستهم، وذهب بروحهم المعنوية التى تعتبر كالغذاء لشجاعة الجنود، فقد تيقن جنود الجيش بعدم خوضهم الحرب قريباً وأصبحوا غير مهيئين للقتال الأن، فقد قام كل فارس صليبى بحفظ درعه فى جرابه الصوف الذى يحفظه من الصدأ، ولم يحتفظ أيهم بالماء، فالماء فى صفورية متوفر، وبدء من لم يوّكل له مهام حراسة بالتأهب للنوم على مضض،

بينما الملك جى جالس فى خيمته يدخل عليه جيرارد مقدم الداوية يحركه حقده وكراهيته لريموند، وذكرى الهزيمة المخزية التى لحقت به وهروبه المذل من أبن صلاح الدين فى الناصرة، وأخذ فى إقناع الملك جى بضرورة الزحف لمقاتلة المسلمين، مبيناً له أن من أبسط واجباته كملك أن يحمى أتباعه الأقطاعيين والتى تدخل من ضمنهم الكونتيسة المحاصره، ومذكراً أياه ضخامة الجيش الذى أنضم تحت لواءه وأنه أضخم جيش أستطاع ملك صليبى جمعه، مبيناً مدى العار الذى سيلحقه إذا ما ترك طبرية تسقط فى يد عدوه، ولم ينس جيرارد التلميح بالمساعدات المجدية التى نالها جى من الداوية والتى لولاها ما كان يجلس على العرش، وأن الداوية يريدون الإنتقام من جيش صلاح الدين لما حل بهم من العار والإذلال، ولتشجيع الملك جى على الزحف تعهد جيرارد بصفته مقدم الداوية بقيام فرسان الداوية بحماية مؤخرة الجيش الزاحف، وهو القِسم الذى أعتاد فرسان المسلمين مهاجمته دائماً، وأمام كل هذا لم يجرؤ الملك جى ضعيف الشخصية على مخالفة جيرارد، الذى أراد مسح عار هروبه من أمام المسلمين، وهو مقدم الداوية الذين كانوا يروا العار كل العار فى عدم خوض القتال ضد المسلمين أينما وجدوا،

فتم النداء بين جنبات المعسكر الصليبى بقرار الملك بالزحف الفورى لإنقاذ طبرية وصاحبتها، وطرد صلاح الدين من أراضى المملكة، وهذا اقصى ما كان يحلم به صلاح الدين فما أن سمع بتحرك الجيش الصليبى حتى هتف "الأن جاء ما كنا نريد "،

لقد تكاتف غرور الصليبيين وعنصريتهم مع إنقسامهم السياسى مع ضعف شخصية الملك جى للقضاء على الوجود الصليبى فى القدس، فعندما تم إعلان قرار الزحف حدثت حالة من الهرج فالجميع نائم وتم إيقاظهم بأوامر مغايرة لما ناموا عليها، بينما

ساد الغضب كبار البارونات لعدم أخذ الملك برأيهم، وتم التحرك فجراً مع أولى خيوط الضياء ـ حسب رغبة صلاح الدين ـ ووجوه البعض يعلوها الثقة والبهجة، ويعلوا وجوه الباقى الإضطراب والحيرة ،

ليتم إبلاغ صلاح الدين عن طريق اليزك[25] تحرك الجيش الصليبى، وقد قاد المقدمة ريموند بسبب أن الزحف داخل أراضيه بينما أتخذ جى موقعه فى القلب كقائد عام الجيش وبجانبه حُمل صليب الصلبوت بينما كانت مؤخرة الجيش تحت قيادة بلدوين كونت أبلين وأرناط، والداوية والإسبتارية يتوليان حمايتها،

بدء الزحف الصليبى الأخير بفلسطين يوم الجمعة 3 يوليو 1187م قبل شروق شمس يوم قائظ الحرارة أنعدم فيه الهواء، لتقرع طبول الحرب لحنها الحزين، والصليبيون سائرون كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون[26] بعد أن أتخذ الجيش الصليبى تشكيلاته المعتادة، الفرسان فى الوسط بدروعهم الحديدية البراقة، التى تومض أشعة الشمس عليها، ويحيط بهم مشاتهم، الجيش الصليبى ما زال أداة قتالية فى منتهى الفعالية وهو فى معسكره بصفورية، وينبئ مشهده أثناء بدايات زحفه ـ وقد تعالى جلبة تحرك قواته حتى تصم الأذان ـ عن قوة رهيبة، ولكنه كان كعملاق بقدمين نحيلتين ضعيفتين، وقد وضعهما داخل مستنقع لا خلاص منه، مظهر الجيش من بعيد وهو يقطع الصحراء كالسفينة الضخمة التى تمخر عباب بحراً أصفر،

ليسارع الفرسان المسلمون فى إتباع أسلوبهم الفتاك القذف بالسهام والقتال من وضع الحركة وأرسال أمواج متلاطمة من سهامهم تغرق جيش الفرنج، ليصاب جيش الفرنج ببعض الخسائر الطفيفية، فدروعهم توفر لهم حماية سخية، ولكن الأهم أن الهجمات الإسلامية أدت إلى إبطاء التحرك الصليبى، وأشرقت الشمس وأرتفعت فى كبد السماء، والتحرك ببطئ تحت ضغط الفرسان المسلمين الذين تتعالى صيحاتهم المنتشيه بأمال النصر، وأزدادت قسوة الطقس وزادت وسائل الحماية التى يرتديها جنود الجيش الصليبى من الأحساس بحرارة الجو، ولا يحيط بالجيش الصليبى إلا الهواء الساخن وأشعة الشمس الحارقة والرمال الملتهبة، فالفارس الصليبى مغطى بالحديد من رأسه لأخمص قدمه وكذلك جواده، أما المشاة فيغطون أجسادهم بمعاطف من اللباد السميك الذى يكفل حمايتهم من أسلحة أعداءهم، فالصليبيون فشلوا فى تطوير وسائل الحماية الخاصة بجنودهم بما يتلاءم مع المناخ بالشرق، بل درجوا على إمتطاء خيولهم فوق رمال الشام المحرقة وأسفل لهيب شمس الشرق وأجسامهم يغطيها الزرد

[25] قوات إستطلاع مكونة من فرسان خفيفى الحركة مشهورين بالشجاعة والكفاءة
[26] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية ص61

الحديدى وبأيديهم الترس الثقيل وفوق رؤوسهم خوذهم المخروطية التى تغطى رؤوسهم ووجوههم وكأنهم ببلادهم ذات الطقس البارد بأوروبا، وهنا بدء العطش القتال نيابة عن صلاح الدين ،

ويزداد عطش الجنود والجياد على حداً سواء، وقل الماء أن لم ينعدم تماماً، وأرسلت الشمس أشعتها كأنها سياط ملتهبة من نار تجلدهم، والصحارى الجافة، وتموجات الرمال تبتلعهم، وأنين الإجهاد ترددها حناجر خائرة القوى، كأنها قادمة من القبور، فالصليبيون زحفوا فجراً ولم يتسنى لهم الوقت لأصطحاب الماء، فطبرية وبحيرتها العذبة قريبة نظرياً، الفارس الصليبى وهو بمعسكره وسط هذا الخضم من زملاءه سيرى طبرية الوصول إليها هين، ولكن الفرسان المسلمون جعلوها بعيدة المنال بقتالهم الذى أجبر الصليبيين على الزحف ببطئ شديد، فالزحف أصبح حبواً حتى لا ينفصم عرى جيشهم تحت وطأة الهجمات الأسلامية، وبعد عناء شديد وساعات تحت أشعة الشمس الحارقة عند أقتراب الجيش الصليبى من طبرية فوجئ بتمركز الجيش الإسلامى بمواقعه التى تحول بينهم وبين الوصول للماء، والشمس تودعهم إلى المغيب بعد أن أدت مهمتها بنجاح،

بينما الصليبيون وصلوا لأقصى حالات الأجهاد حتى أن جيرارد أرسل للملك جى من أعلمه بعدم قدرة فرسان المؤخرة التقدم خطوة واحدة بسبب هجمات المسلمين التى لا تنقطع، هكذا كانت أقصى نقطة أستطاع الجيش الصليبى الوصول إليها منطقة لوبيا ووجوه الجميع يعلوها أتربة الطريق الصخرى وملامح الوهن، قبل الوصول لبحيرة طبرية بثلاثة كيلومترات فقط، ولم يستطع التقدم خطوة أخرى فقد اخذ الأجهاد منه كل قدرة على التحرك، ففرسانهم قيدهم الأرهاق وينهشهم العطش بأنيابه القاتلة، بينما جيادهم تترنح وتلهث تحت وطأة حملها الثقيل، وقد قام سد منيع بينهم وبين بحيرة طبرية ذات المياه العذبة من جنود الجيش الأسلامى، لتتكشف الصورة أمام الصليبيين، فعلى مرمى بصرهم تتلالأ مياه البحيرة فى قعر الوادى بمنظر خلاب يحطم أعصابهم العطشى، بينما فى السهل الأخضر الفسيح جنود الجيش الإسلامى قاموا ببناء سد بصدورهم وسيوفهم وأرماحهم أمام أى تقدم للصليبيين الذين كثيرون منهم أدركتهم آجالهم ،

بينما يعنى التوقف الأن فى موقع تنعدم فيه تضاريس تصلح للدفاع ولا تتوفر فيه المياه كالأنتحار للجنود العطشى، والرجوع لصفورية معناه فناء الجيش تحت وطأة مطاردة الفرسان المسلمين الرشيقين، بعد أن سلب صلاح الدين القيادة الصليبية القدرة

على المناورة بقواتها، ولم يترك لهما إلا الخيار الذى يريده، وهو الصدام بمعركة مفتوحة،

فقد الجنود الصليبيون القدرة على القتال، فكان القرار المدمر الأخر وهو التوقف بلوبيا، ولكن لوبيا لا تصلح لأقامة معسكر فهى تفتقر تماماً للماء بينما على يسار الممر[27] مرتفعات تسمى قرون حطين قد يوجد بها بعض الينابيع التى تستطيع إطفاء لهيب العطش الأخذ بتلابيبهم، وكما قد توفر المرتفعات بتضاريسها بعض خطوط الدفاع ضد الفرسان المسلمين، فأصدر الملك جى أوامره بالأنحراف يسار الطريق للتمركز بقرون حطين،

ولكن تغيير المسار تم بصورة سيئة، أدت لتفتيت نظام الجيش الصليبى تماماً وإنهيار تماسكه، وتكفلت هجمات المسلمين التى أزدادت ضراوة بتمزيق أوصال الجيش المترنح، فسارع جنود الجيش الصليبى بالأحتماء بمرتفعات حطين والليل الذى أقترب، ويأخذ الجنود فى بحث عقيم عن المياه، وتحلق الجيش حول بئر بالمكان، ولكنهم أكتشفوا أن البئر جافة، ليقضى الصليبيون ليلة تعيسة يعانون من العطش بينما مظهر البحيرة الجذاب خلف جنود صلاح الدين يقطع نيات حلوقهم الجافة، وقوافل الجمال المحمله بروايا الماء تطوف على تشكيلات جيش صلاح الدين على مرأى من الجنود العطشى مما يزيد من عذاب اللهاث، وهتاف جنود صلاح الدين وتوعدهم يمزق شجاعتهم، وحاول الصليبيون أقامة معسكرهم فلم ينجحوا إلا فى أقامة خيمة الملك فقط هذه الخيمة التى ستكون محور القتال فى صباح اليوم التالى، بينما الجيش الإسلامى يعيد إنتشار جنوده لحصار الجيش الصليبى تماماً،

ما أبعد اليوم عن الأمس، فالصليبيون عندما بدءوا الزحف أعماهم غرور القوة وصور لهم تهورهم الذى جاوز الحماقة انهم سيصلون فى بضع سويعات لطبرية، ولن تستطيع اى قوة الوقوف فى طريقهم، ولكن حرارة الجو وأنعدام المياه وحسن تنظيم الجيش الأسلامى وشجاعة جنوده وكفاءة قيادته العليا كانت أقوى منهم وحطمتهم تماماً، وكان على الصليبيين قضاء ليلة حالكة السواد من الأجهاد والعطش وهجمات المسلمين التى لا تنقطع، وحتى يقال أن صلاح الدين أمر بسكب المياه على مرأى من الصليبيين لزيادة أحساسهم بلهيب الظمأ، حتى غرقت أمالهم فى مجرد النجاة من بحر غرورهم .

[27] البالغ طوله ميل واحد و الفاصل بينهم و بين المياه

الروح المعنوية للجيوش هى غذائها للنصر ، فشتان بين الجيشين ، المسلمون يبتهلون ويهللون ويكبرون، والصليبيون يعانون نيران العطش وعضات الإرهاق ،

صباح السبت 4 يوليو 1187م يوم فاصل فى تاريخ الحركة الصليبية، فقد أختار الجانبان خيار القتال، المسلمون فى المكان الذى خططوا لجر الصليبيين إليه ونجحوا فى ذلك بمهارة، والصليبيون الذى فقدوا أى خيار اخر، وبالرغم من جميع النكبات التى هوت فوق رأس الجيش الصليبى، إلا أنهم مازالوا مغامرون وجنود محنكون، ويعلمون أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام، فأمر الملك جى أخيه آمورى قائد قوات المملكة بتنظيم خطوط القتال وحشد كتائب الصليبيين إستعداداً للمعركة، وكالمعتاد أتخذ مشاة الصليبيون مواقعهم أمام فرسانهم لتوفير الحماية لخيول الفرسان من النشاب والسهام التى يطلقها الفرسان المسلمون، وأعتمدت خطة المسلمين على الفصل بين سلاحى الجيش الصليبى، ولم يدفع صلاح الدين بكامل قواته للمعركة، بل أحتفظ بقوات تقى الدين عمر للحظات الحاسمة من المعركة،

بداية المعركة كانت طبيعية حيث أطلق مشاة الصليبيون وابل هتان من السهام فى إتجاه الفرسان المسلمين ثم أعاد مشاة الجيش الصليبى أنتشارهم بجناحى ومؤخرة الجيش الصليبى بحيث أتاحوا خطوط تماس بين فرسان الصليبيين والمسلمين، لينطلق الفرسان الصليبيون فى هجمة شرسة متعجلة يحاولون بها دفع المسلمين لإيجاد طريق لبحيرة طبرية، أستطاع المسلمون أمتصاصها بعد أن تظاهروا بالتراجع لأبعاد فرسان الفرنجة عن مشاتهم الذين بلغ منهم الأنهاك حد منعهم من القدرة على مجاراة تحركات فرسانهم، كل هذا والمسلمون محيطين بالصليبيين إحاطة السوار بالمعصم،

وعندما تأكد ريموند من سقوط الجيش الصليبى فى المصيدة وضع كل جهوده فى فتح ثغرة بالطوق الحديدى الذى أحاطهم المسلمون به، وصرخ فى فرسانه "من أستطاع منكم النجاة فلينج فإن المعركة قد حسمت" فقام تقى الدين عمر بفتح ممر هروب لريموند وفرسانه للأنفراد بباقى الجيش الصليبى، وبالفعل قام ريموند وفرسان طرابلس بالركض بجيادهم هرباً وترك باقى الصليبيين لمصيرهم المحتوم، ليلحق به باليان أمير أبلين ورينالد كونت صيدا[28]، ليخلو المكان الذى كان يشغله الفرسان الفارين مما يسمح لتقى الدين بقواته المختارة بأن يعيد تشكيل إنتشارها، ويخلق خطوط تماس جديدة مع القوات الصليبية المنهكة، منتظراً اللحظة الحاسمة لإشتراكه الفعلى فى القتال،

[28] لا يستبعد أن يكون هذا الفرار بإتفاق وترحيب من صلاح الدين، حيث فشل فرسان اقوى وأفضل من الطرابلسيين فى الفرار، ثم ريموند الحليف السابق لصلاح الدين وبليان ورينالد من الصليبيين البولان حلفاء ريموند

أما الداوية والأسبتارية فقد تراجع المسلمون أمامهم، ثم حينما أبتعدوا عن مشاتهم أنقض المسلمون فى هجوم مضاد مزق فرق فرسان الهيكل والأسبتارية تماماً بما يشبه المذبحة، أما مشاة الصليبيين فقد هاجمهم المسلمون وضغطوا عليهم بشكل أدى إلى إختلال صفوفهم تماماً وإلتجاءهم فوضوياً وتكتلهم بدون نظام أعلى أحد هضاب حطين للأحتماء بها من القتل، وعبثاً حاول الملك وباروناته دفع مشاتهم للقتال، فقد بلغ منهم أجهاد العطش والطقس الحار وضراوة هجمات المسلمين حد العجز، ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه أمر الملك جى بنصب الخيام ليتجمع حولها جنوده المنهارة عند رؤيتها منصوبة لعله يستطيع تنظيم جبهة دفاعية ضد هجمات المسلمين المميتة، ولكن جميع محاولاته فشلت فى إيقاف الفوضى الضاربة فى صفوف جيشه، وفقد الصليبيون أى أمل إلا القتال، فقاموا بهجوم جارف وقاتلوا قتال اليائس[29]،

حاول الصليبيون كسر الحصار المميت المفروض حولهم، متأثرين بمظهر مياه بحيرة طبرية الخلاب، ولكن هجومهم فشل، وأنهى المجهود المبذول فيه البقية الباقية من تماسكهم،

وبلغ اليأس بالجنود الصليبيين مدى خطير، وزاد مجهود القتال من حدة العطش، وإذابت حرارة شمس الصيف الحارقة إرادتهم ومعنوياتهم، حتى رأوا الرحاب أضيق من سم الأبرة، وفى منتصف نهار المعركة أرتمى ستة جنود صليبيون مستسلمون لجنود الجيش الإسلامى الذين أخذوهم لصلاح الدين والذى أخذ فى سؤالهم عن الوضع بين الصليبيين فأخبروه ببحر الكوارث الذى غرق فيه الجيش الصليبى، وأنه سرعان ما سينهار وأعلموا صلاح الدين بمقتل أسقف عكا،

حاول من بقى من الفرسان الصليبيين الوصول إلى خيمة الملك الحمراء فوق التلة، وتنظيم دفاعاتهم اليائسة، وقاتلوا قتال من فقد الأمل فى الحياة، حتى غدت التلة أشبه بجزيرة منعزلة وسط بحر من الفرسان المسلمين، أما مشاة الصليبيين فقد أبيدوا

---

[29] ويروى لنا الأفضل بن صلاح الدين ذلك الهجوم "كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بأبى، فنظرت إليه وقد علته كآبة وأربد لونه وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان، فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بأبى، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا إيضاً هزمناهم، فألتفت والدى إلى وقال : أسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، فهو يقول هذا إلى وإذا بالخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد لله شكراً وبكى من فرحه" الكامل ج11ص53

بسيوف المسلمين حتى من حاول الفرار بالصعود أعلى الهضبة لم يجد ملجأ من القتل، وهنا ألتفت صلاح الدين لخيمة الملك التى تجمع حولها فلول فرسان الصليبيين والملك وصليب الصلبوت يحمله أسقف اللد بعد مقتل أسقف عكا، فأمر صلاح الدين أبن أخيه تقى الدين عمر بالأشتباك معهم، فتحرك تقى الدين بحرية نسبية بعد فرار ريموند الذى أخلى له الساحة، وتحت ضغط هجوم تقى الدين تراجعت فرسان الصليبيين وتكتلت وقاتلت بعنف فهى لم يعد لديها خيار، وكانت حرارة الشمس تلتهب فوق الأعشاب اليابسة التى كانت تكسو ميدان المعركة، فقام أحد المتطوعون المسلمون وقد لاحظ إن إتجاه الريح متجه لموقع الصليبيين بإلقاء النار فى الأعشاب المنتشرة فى المنطقة القريبة من الصليبيين، لتدخل النار ودخانها المعركة فى صف المسلمين مما زاد الطين بلة بالنسبة للصليبيين فقد تحالف العطش والظمأ ولهيب النيران والدخان الخانق ضدهم،

وقد حاول الصليبيون التجمع للدفاع عن أنفسهم وملكهم وأقدس مقدساتهم، صليب الصلبوت الذى يحرص الصليبيون على حمله معهم فى كافة معاركهم ليقينهم أنهم بهذا يستجلبون العناية السماوية، ولكن تقى الدين وجه إليهم الضربة القاضية، فقد نجح فى الأستيلاء على صليب الصلبوت مما قضى على البقية الباقية من معنويات الصليبيين، وحتى عندما حاول بعض فرسانهم القيام بهجوم يائس لفتح طريق لفرارهم كما فعل ريموند أستطاع المسلمون صد هذا الهجوم الذى كان بمثابة الرعشة الأخيرة قبل الأجل المحتوم، فقد أوصل الهجوم المضاد الذى قام به فرسان المسلمين قوات الجيش الأسلامى لخيمة الملك جى الذى استسلم هو وجميع من بقى على قيد الحياة، فقد كانت هذه الخيمة محور المعركة الأخيرة حتى أن صلاح الدين قال لولده الأفضل الذى كان بجواره خلال اللحظات الأخيرة للمعركة عندما هلل فرحاً إعتقاداً منه هزيمة الصليبيين "ما نهزمهم حتى تسقط هذه الخيمة" وعندما سقطت الخيمة بكى صلاح الدين ونزل من على صهوة حصانه وسجد لله شكراً، هكذا سقطت الخيمة وسقطت المملكة معها عصر يوم المعركة، وقد ترجل فلول فرسان الصليبيين عن جيادهم بسبب العطش الماسك بتلابيبهم وأرتموا أرضاً مستسلمين .

فرسان الفرنجة لم يحاولوا الفرار فقد أخذ الأرهاق بخناقهم، بعد أن أجبرهم صلاح الدين بخططه العبقرية بالبقاء تحت السلاح لمدة يومين، فما أن غادر الصليبيون معسكرهم فى صفورية حتى ظلوا بدروعهم الثقيلة يدورون كيفما يريد صلاح الدين، فمن المسيرة المرهقة من صفورية حتى حطين، وقتال الأرهاق الذى مارسه ضدهم بواسطة قواته المختارة أثناء زحفهم، التى أحالت الطريق لطريق عذاب، يضاف لذلك

سيف العطش الذى سلطه عليهم، وحرارة الطقس التى زادتها وسائل الحماية التى سجـن الصليبيون أنفسهم داخلها، مما أعاق تعرّق الجسم، الأمر الذى زاد من قسوة حرارة جنوب الشام فى هذا الوقت من العام، وفوق ذلك النجاح المبهر الذى حققته العقيدة القتالية الإسلامية، والتنفيذ الإحترافى لجنود صلاح الدين الذين نجحوا فى فصل رجّالة الصليبيين عن فارسهم، مما حرم الفرسان من الحماية لخيولهم التى كانت توفرها لهم رجّالتهم، مما يسر مهمة القضاء على مشاة الصليبيين وفرسانهم كلاً على حده،

وقد كانت نتائج حطين كارثية للوجود الصليبى فى القدس فبعد معركة حطين لم يستطع الصليبيون السيطرة على المدينة المقدسة، وما أن حل عصر اليوم إلا وكان جميع جنود الجيش الصليبى أما قتلى أو أسرى بإستثناء ريموند ،

فقد أُسر الملك جى، أسره فارس كردى يسمى درباس، وأخيه أمالريك وزير دفاع المملكة وأرناط أسره غلام صغير لأمير يسمى إبراهيم المهرانى[30]، وهمفرى أمير تبنين، ومقدم الداوية وكبار البارونات، وفرسان الفرنج بدروعهم المعدنية اللامعة جالسين أرضاً مقيدين كل أربعين فارس بحبلاً واحد، بينما أخرين جالسين مكدسين داخل خيمة يحرسها جندى منفرد، بينما هناك جندى مسلم يقود ثلاثين أسيراً مقيدين بحبلاً واحد، حتى أن أبن أثير يقول "من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحد، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحد"[31]،

أنتهت أعمال القتال وصلاح الدين الأن فى دهليزه[32] ويتم عرض الأسرى عليه، والملك جى بملابسه الممزقة يلهث من العطش ويعلو وجهه مظاهر الخوف فيناوله صلاح الدين ماء مثلج فيشرب منه الملك جى ويعطى الباقى لأرناط الذى نهل منه فينظـر السلطان مغضباً للملك جى ويكلمه على لسان الترجمان "أن هذا اللعين لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى"[33] فقد كان من عادة العرب أن الأسيـر إذا سقاه من قام بأسره فيكون ذلك بمثابة أمان له، ثم وجه خطابه لأرناط وعدد له ذنوبه وخطاياه الكثيرة، وقال له "ها أنتصرت لمحمد صلى الله عليه وسلم" ثم سحب النمجاه[34] وضرب أرناط به فحل كتفه وسقط ثم سحبه سلحدارية[35] صلاح الدين وتمموا قتله جزاءاً

30 الروضتين ج3 ص192
31 الكامل ج10 ص148
32 خيمة السلطان الحمراء المخصصة للحرب
33 مفرج الكروب ج2ص192
34 سيف معقوف قصير لا يفارقه السلطان من يده
35 حاملى سلاح السلطان وحرسه

لجرائمه التى تضعه فى الصف الأول بين مجرمى حرب التاريخ، وقد كان صلاح الدين نذر دمه مرتين أولهما عدما حاول الزحف لمكة والمدينة المنورة وأخراهما عندما أستولى على القافلة القادمة من مصر للشام، وهدء صلاح الدين من روع جى الذى أرتعدت فرائصه[36] عندما رأى ما حل بأرناط فقال له صلاح الدين الملوك لا تقتل الملوك، أما الداوية والأسبتارية باقى مجرمى الحرب الصليبيين فقد تم أسر مائتا فارس من بينهم، تم أعدامهم جميعاً بعد أن قام صلاح الدين بشراءهم من آسريهم بخمسين دينار مصرية عن كل داوى أو أسبتارى .

نتائج حطين بمنتهى البساطة تم تحطيم المؤسسة العسكرية الصليبية التى بُنى عليها الكيان الصليبى فى الشرق، فقد كانت نتائج حطين مفجعة وعاجلة ودائمة، فقد تغيرت موازين القوى فى المنطقة لصالح المسلمين، حيث حشد الصليبيون جميع القادرين على حمل السلاح للمعركة، وقدمت مملكة بيت المقدس أضخم جيش أستطاع الصليبيون تقديمه لميدان معركة، ومن هذا الجيش لم ينج إلا أقل من القليل، أما الأغلبية العظمى سقطت أما قتلى أو أسرى، حيث لم تجد المدن الصليبية من يتولى الدفاع عنها فسقط أغلبها، فعندما شارف صلاح الدين أسوار عكا ثالث يوم من إنتصار حطين أسرع أهلها بالخروج يتضرعون له أن يمنحهم الأمان ،

وإن لم يكن إكمال تحرير الساحل الشامى من الوجود الصليبيى بالأمر الهين لوجود شبكة عنكبوتية من القلاع والمدن المسورة التى أعتمدت عليها الإستراتيجية الدفاعية الصليبية، وعمل الصليبيون على تقوية هذه القلاع والمدن المسورة منذ وطأت أقدامهم الساحل الشامى، وكذلك وصول القوات الإسلامية لحالة تشّبّع من الإنتصارات وحاجتها للراحة،

وكجندى محنك أستطاع صلاح الدين أن ينتقل بجيشه الرشيق خلال ثلاثة أشهر بين أسوار المدن والقلاع وأن يجعل من نفسه سيداً على مدن الصليبيين بالساحل،

وقد حرص صلاح الدين بعبقريته العسكرية على إستغلال هذا النصر المدّوى وتحرير الساحل الشامى، وبدء بالإستيلاء على المدن الساحلية لقفل باب الدخول لمن قد يجئ مجدداً من أوروبا، وثم سقطت القدس التى دخلها صلاح الدين فى الجمعة السابع والعشرين من رجب عام 583هـ/12أكتوبر1187م بعد ثلاثة أشهر من معركة حطين وفى ذكرى الإسراء والمعراج، بحيث لم يبقى من البنيان الصليبى الضخم إلا طرابلس وأنطاكيا وصور التى منحت للوجود الصليبى فى الشام قبلة الحياة بسبب نبل أخلاق

36 الكامل ج10ص148

صلاح الدين، فقد كان صلاح الدين يخلى سبيل أى قوات يتم اسرها أثناء إستيلاءه على أى مدينة، ويأمر بمن يوصلها حيث أرادت والجميع أختار صور التى أعدها الفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم[37] حتى صارت صور بمثابة مكان حشد الناجين من الصليبيين وأضحت مسمار جحا فى الشام، بعد أن أجتمع بها كل فرنجى بالساحل[38]

وقد أستطاعت نبل وفروسية صلاح الدين إنتزاع إعجاب أعداءه، حتى وصفه أحدهم "كان صلاح الدين حكيماً فى تصرفه، ماهراً فى الخدمات العسكرية والحرب، بعيد النظر حازماً فى أعماله، كما كان سخياً مبسوط اليد، ليس فقط بالنسبة لشعبه وإنما للبعض منا الذين أستطاع أن يجتذبهم لصفه بالهدايا والوعود، ولقد عرف العالم كله كيف جعل منا أشخاص أشرار، وكيف دمر المسيحيين إرباً إرباً مثل عقاب الإله"[39] ووصفه إيضاً بقوله "صلاح الدين الرجل الطيب ذو الروح العفيفة الذى يخاف الله"[40] "كان صلاح الدين حكيماً وصاحب مقام رفيع، يتميز بالمهارة الفائقة بين قواته وهو مقاتل محنك، بعيد النظر حازم فى عمله، كان يتسم بالتسامح الواضح، ليس فقط مع المسلمين ولكن أيضاً مع المسيحيين، وهذا ما جذب لجانبه كل من كان فى حضرته أو بعيداً عنه"[41] "وكان صلاح الدين رجل حكيم أشتهر بحنكته العسكرية، وصاحب بصيرة بالأمور"[42]

وكانت أنباء حطين وسقوط مملكة بيت المقدس بمثابة الصاعقة، التى توفى البابا أوربان الثالث بمجرد سماعه الكارثة، ليعلن خليفتيه البابا جريجيريوس الثامن والبابا كليمنت الثالث فرض صيام يوم الجمعة من كل أسبوع ـ وقعت معركة حطين بدءاً من يوم الجمعة ـ لمدة خمسة سنوات، وكذلك الإمتناع عن أكل اللحوم يومين أسبوعياً لنفس الفترة، والدعوة لحرب صليبية جديدة،

قبل معركة حطين بيوم واحد كان الصليبيون يمتلكون أقوى جيش فى الشرق الأدنى، كان أداة رعب قرابة قرن من الزمان، ويعسكرون فى أنسب موقع للمعركة بالنسبة لهم بينما صلاح الدين كان نسبة كبيرة من جيشه من المتطوعين وجنود الولايات البعيدة الذين لن يستطيعوا التواجد تحت السلاح طويلاً بل ما يلبثوا أن يملوا ويطالبوا

---

37 رحلة أبن جبير ص253

38 النوادر السلطانية ص80

39 تاريخ بيت المقدس ص142

40 تاريخ بيت المقدس ص 154

41 رسائل جاك دى فيترى ص256 ، وتعتبر هذه الشهادة وهى من متعصب مثل أسقف عكا شهادة لنبل أخلاق وتسامح صلاح الدين الأيوبى وتأثيره حتى على أعداءه

42 رسائل جاك فيترى ص261

بالتوجه إلى إقطاعاتهم وبلدانهم لرعاية شئونهم وشئون أسرهم، إذاً فسلاح الوقت كان فى صالح الصليبيين، فما كان عليهم إلا الأنتظار فى موقعهم المثالى وترك المبادرة لصلاح الدين، الذى لو غامر وتوغل فى الأراضى الصليبية فقد كان سيفُرض عليه مكان وزمان المعركة المناسب للصليبيين وليس له، وإلى ذلك الوقت كانت الكتلة الرئيسة للجيش الصليبى تتكون من الفرسان المحمين من المشاة والمشاة المحمين من الفرسان، فما دام الجيش الصليبى يقاتل بإستراتيجيته المعتادة التى تقوم بالتعاون التام بين الفرسان والمشاة كان النصر حليفهم دائماً، وهذا ما وعاه صلاح الدين وعمل على فصم عرى هذا التعاون والفصل بين مشاة الصليبيين وفرسانهم وهو ما نجح فيه بامتياز وعبقرية وإقتدار

معـركة حـطين

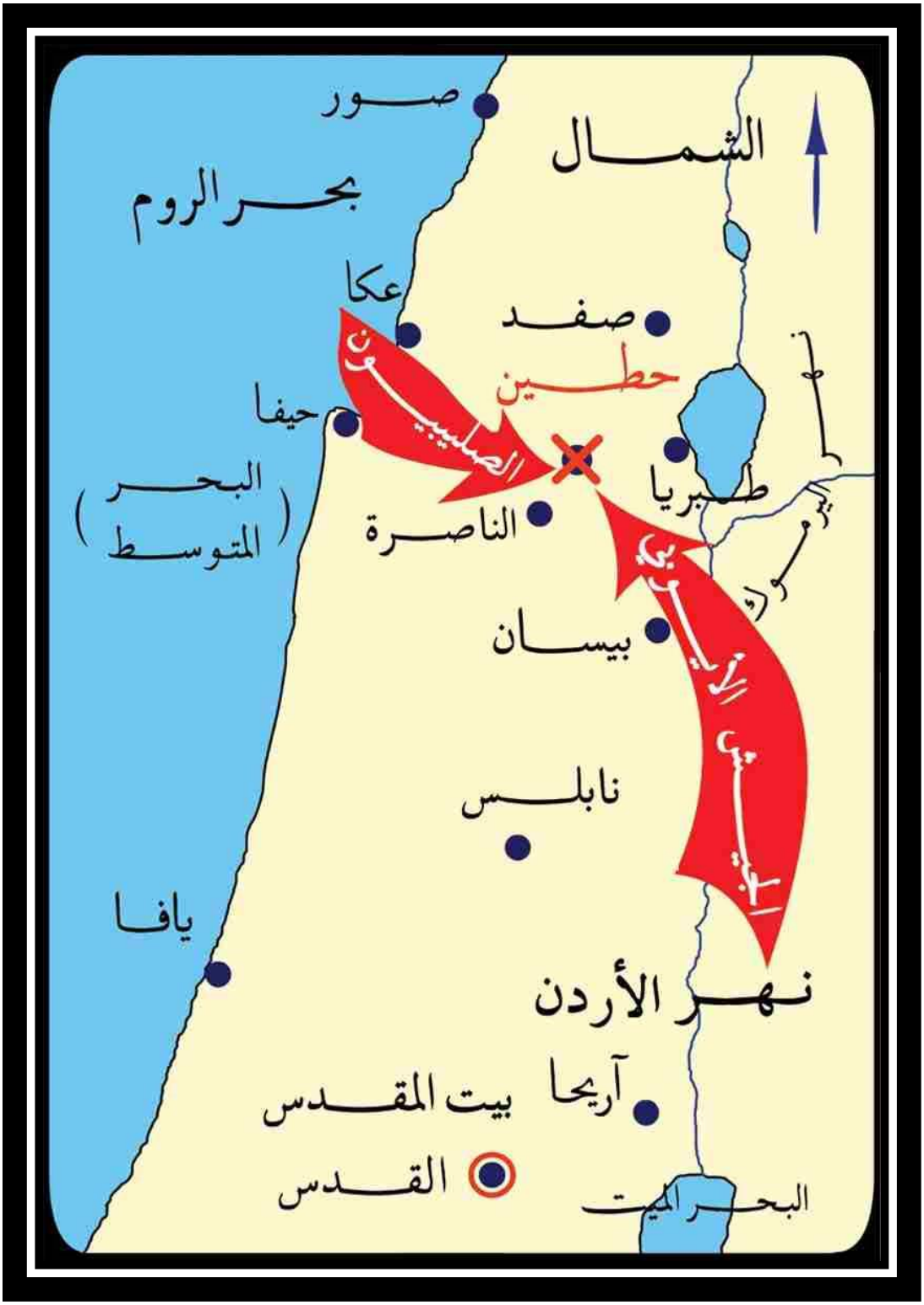

معـركة حـطين

معركة حطين

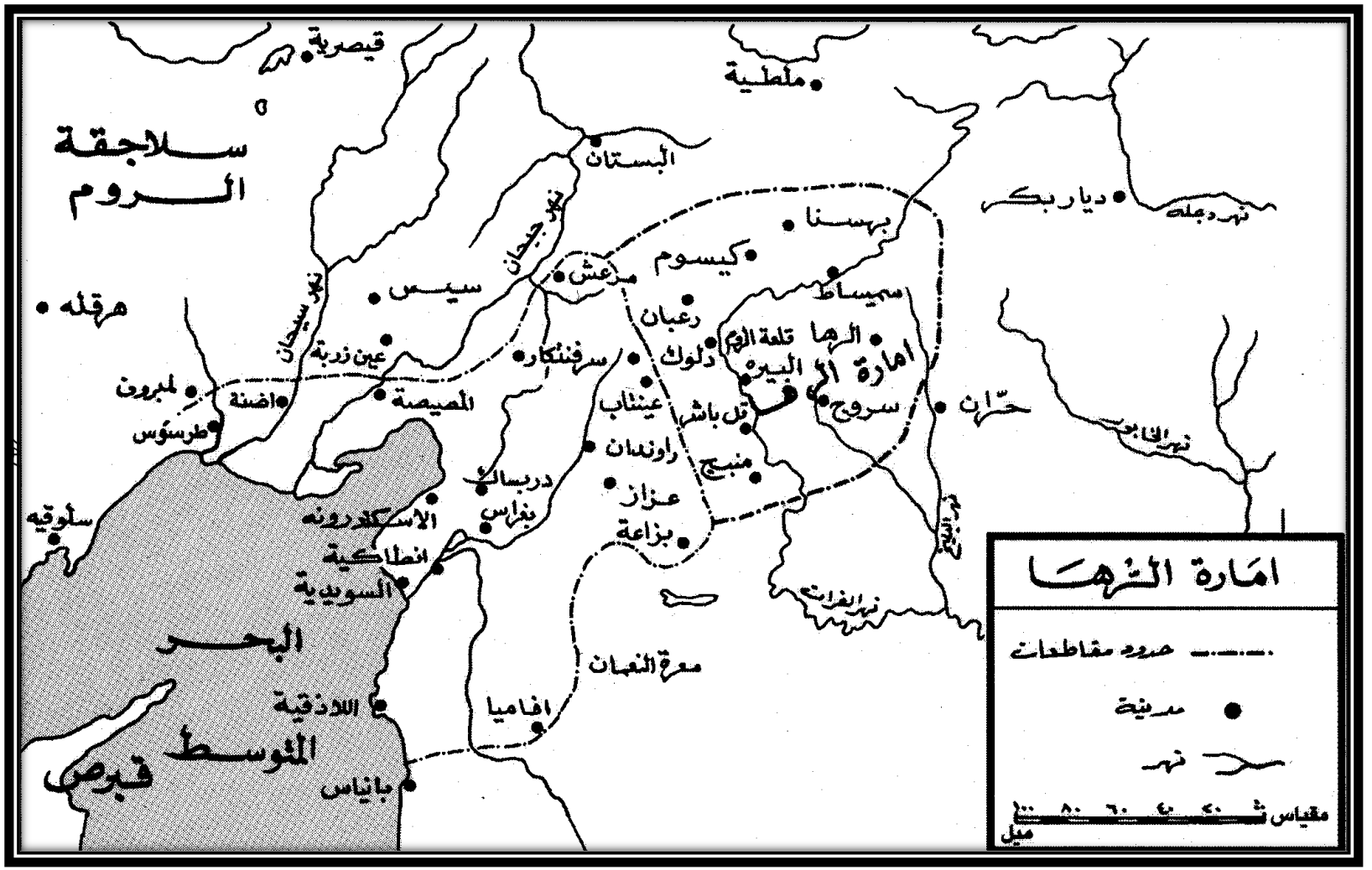
سلاجقة الروم
قيصرية
ملطية
البستان
نهر جيحان
نهر سيحان
سيس
مرعش
بهسنا
كيسوم
سميساط
ديار بكر
نهر دجلة
مرقله
رعبان
الرها
قلعة الروم
البيرة
امارة الرها
دلوك
سرفندكار
عين زربة
المصيصة
لمبرون
اضنة
طرسوس
عينتاب
سروج
حران
نهر البليخ
تل باشر
راوندان
منبج
دربساك
بغراس
عزاز
بزاعة
سلوقيه
الاسكندرونه
انطاكية
السويدية
البحر
المتوسط
قبرص
اللاذقية
معرة النعمان
افاميا
باناس
نهر الفرات
امارة الرها
حدود مقاطعات
مدينة
نهر
مقياس
ميل

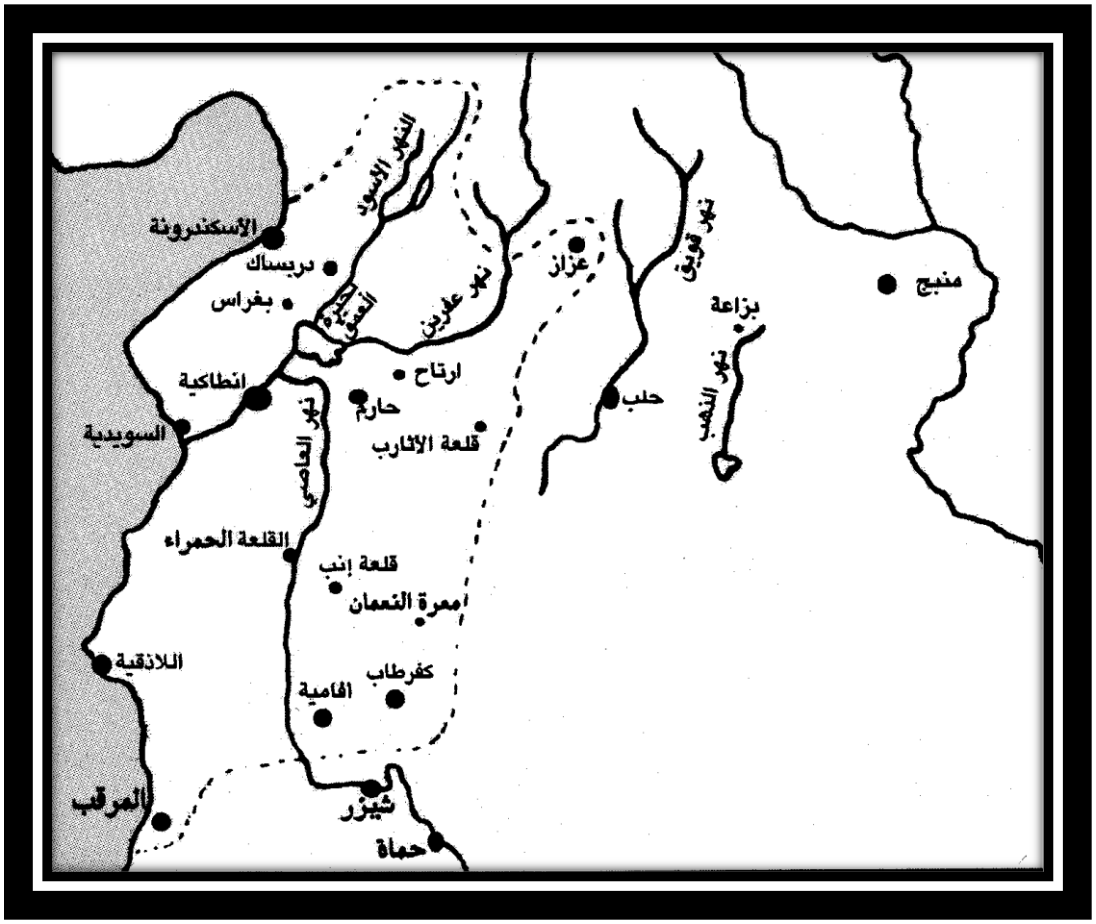

أمارة أنطاكيــا

جي دي لوزينيان ملك بيت المقدس الذى أسره صلاح الدين بمعركة حطين

تجهيزات الفارس بجيش صلاح الدين

تجهيزات الفارس الصليبى

السيف المستقيم ـ الترس المخروطى ـ الرمح ـ فأس القتال كبير ـ فأس قتال صغير ـ خنجر ـ قميص الكتان ـ قميص الزرد والخوذة المخروطية

القدس بين جيشين

منذ ثمانية وثمانون عاماً دخل الفرنجة القدس وأرجلهم تخوض فى دماء ضحاياهم، الأمر الذى أثار أشمئزازهم وفخرهم، أما صلاح الدين السلطان المسلم فقد أرسل حرسه لحماية أعداءه المستسلمين، بعد أن قام بوضع فارسين وعشرة جنود مشاة مسلمين فى كل شارع من شوارع القدس لحماية الفرنج[1]، بل وتم فرض فدية ضئيلة لتحريرهم ـ عشرة دنانير مصرية[2] عن الرجل، وخمسة عن النساء، ودينار عن الطفل ـ، وبالنسبة للمعدمين من فرنج القدس تم تحرير سبعة آلاف شخص منهم مقابل ثلاثين ألف دينار فقط، هذا فى الوقت الذى رفض بطريرك القدس هيراكليوس وهيئة كنيسته التكفل بفدية ولو لشخص واحد فقط، بل كان مشهد موكب البطريرك الطويل بعرباته التى تنوء من حمولتها من سجاجيده وملابسه وصحافه الذهبية مما أثار الدهشة بالأخص لقبول فدية شخص عادى للسماح له بمغادرة المدينة، ونفس الشئ للملكة سبيل التى سُمح لها بالخروج من القدس برتل طويل من العربات المكدسة بما خف وثقل وزنه وغلا ثمنه،

وعندما أفرج صلاح الدين عن ألف أسير من المعدمين كما رجاه أخيه الملك العادل، سارع البطريرك بطلب مماثل لنوال فخر مجانى، فحرر صلاح الدين سبعمائة للبطريرك وخمسمائة لبليان الأبلينى،

هذا فى الوقت الذى لقى فيه المنسحبين من القدس الأمرين من بنى جلدتهم، بعد أن غادروا القدس بكامل ممتلكاتهم، ليقعوا فى كمائن الأمير رينالد صاحب قلعة البترون التابعة لطرابلس، والطامع فى ما يمتلكونه، بل رفض كونت ريموند فتح أبواب مدينته أمامهم، بل وهاجمهم أهالى المدينة ونهب ما فى أيديهم، حتى "أثبتوا أنهم أكثر وحشية وقسوة للمسيحيين من المسلمين أنفسهم"[3]

كل هذا بالرغم من الصورة الوحشية التى أكتسبها الفرنج بالشرق، صورة غلفتهم كلما طفت ذكريات إلتهام الفرنج لحوم أهالى معرة النعمان، وأن لم يصل لأسماع العرب المعاصرين إعتراف مؤرخون صليبيون بهذه الجريمة، ولكن أخبار ما حدث سيخيم على الشرق لمدة طويلة، الأمر الذى حدا بأسامة بن منقذ إلى وصف الفرنج

[1] ذيل وليم الصورى ص121
[2] السلوك ج1 ق1 ص96
[3] رسائل جاك دى فيترى ص264

"بأنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما فى البهائم فضيلة القوة والتحمل"[4]

وأن كان هناك نقطة جديرة بالملاحظة، وهى حرص الصليبيين على تفريغ مدن الساحل من سكانها العرب تماماً، سواء بالقتل أو التهجير القسرى، بعد أن رسخت الدعاية الصليبية فى ذهن معاصريها أن القدس أرض خاصة لهم يحتله المسلمون، بينما سمحوا ببقاء أعداد معتبرة من السكان الأصليين فى الأراضى الداخلية التى أستولوا عليها، وقد يكون السبب فى ذلك إستشعارهم أهمية المدن الساحلية بإعتبارها الرئة التى يتنفس منها كيانهم المعتمد على الغرب الأوروبى، وكذلك إحتياجهم للسكان الإصليين للعمل بالزراعة بالأراضى الداخلية الخصيبة، وقد يكون السبب وحشية وعنصرية وجشع قوات الجمهوريات الإيطالية التى أشتركت بشكل رئيس فى الإستيلاء على المدن الساحلية، فى الوقت الذى لم يساهم الصليبيون فى إضافة أى ثقافة للشرق، بل مجرد مذابح وقتل وسفك دماء،

وقد أدت التحديات التى كان يجب على الشرق مواجهتها إلى ترسيخ الملك المحارب، الذى ظهر بدولة السلاجقة، حيث أن الأعمال العسكرية المتلاحقة والمستمرة، والتهديدات المتواصلة رفعت على العرش من لا يتحلى بنسب، بل أعتمد طريق العرش على القدرات العسكرية،

الأمر الذى مهد الطريق لأسرتى زنكى وأيوب لتولى رأس السلطة فى الشرق، وقد أستطاع عسكريان من هاتين الأسرتين تهيئة المناخ لتوجية الضربة القاضية للوجود الصليبى بالقدس، بعد أن كانت فكرة الجهاد ما زالت ناعسة، فالملك العادل نور الدين محمود بما مُنح من ورع وإيمان وقدرات عسكرية وإدارية قام بتوظيفها لإدارة الصراع ضد الوجود الصليبى، حتى أستطاع تمهيد الطريق للقدس بشكل كبير، وذلك بإجهاد الصليبيين بفضل دائبه وإصراره على القتال ضدهم، وإضفاء روحه الوثابة على شعبه، الأمر الذى منحهم الإيمان بضرورة القتال وتنامى روح التضحية بينهم، ليستكمل صلاح الدين ـ الذى يعتبر ضرورة فرضتها دواعى تحرير القدس ـ الطريق من بعد أستاذه نور الدين، ولتكتمل حلقات الجبهة الإسلامية الموحدة، بضم البلدان العربية بعضها البعض وتشكيل طوق من المدن العربية المحاصرة للوجود الصليبى،

وقد أضطر البطلان القتال شمالاً ضد من حاول فصم عرى الجبهة الموحدة التى آمنا بضرورة تشكيلها قبل الإقدام على الوثبة الأخيرة ضد الصليبيين فى المشرق،

[4] الإعتبار ص132

فنور الدين أضطر لقتال الموصل عقب موت أخيه لخوفه من تغريد أولى مدن محور المقاومة خارج السرب[5]، وهو ما دفع صلاح الدين لعبور الفرات وقتال الموصل ومدن الجزيرة للسبب ذاته، وهو تحويل خصومه إلى حلفاء فى جهاده ضد الصليبيين، والحفاظ على الجبهة التى ورثها عن نور الدين وتنميتها، جبهة رأى فيها الطريق الوحيد لتحرير القدس، حتى أستطاعا إنهاء تسعين عاماً من التدهور والإضمحلال والتشرذم، ليظهر نجاح صلاح الدين فى تشكيل جيشه بحطين والذى حظى بدعم جميع القوى الإسلامية بالعراق والشام، فبخلاف جنوده المصريين والسوريين كان معه أمراء أسرة زنكى بالموصل وسنجار والجزيرة وأربيل وحران حتى أكراد شرق نهر دجلة،

حتى أصبح نور الدين الشخصية الأكثر تأثيراً فى مصائر الشرق، بينما أستأثرت شخصية صلاح الدين النبيلة الجذابة على أحاديث المساء حول المدافئ فى الشتاء القارص بأكثر الأكواخ تواضعاً فى غرب أوروبا،

وكانت الصفات الصلبة، والصبر، والنشاط الدائم، والإيمان الذى تمتعا به، جعلهما يحظيان بالتقدير فى كل مكان يمرا به، وأدت المعارك المتصلة التى خاضاها إلى إثبات أن مهمة الحاكم ليست دائماً مريحة،

وإن تميز نور الدين بمهابة بدون عنف دفعت قواته للأقدام على قتال قوات شاور وأمورى بمعركة البابين خوفاً من مواجهته فى حال إنسحابهم، فقد سيطرت على صلاح الدين رقة طباع ونُبل أخلاق دفعت أعداءه للإعجاب به، وتجاوز تسامحه حدود المعقول فى عصره، حتى أن بعض أمراءه الأكراد، يسمى الأمير الجناح أخو المشطوب قال لصلاح الدين اثناء معركته ضد ريتشارد بيافا، قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا يحملون[6]

---

5 عند موت قطب الدين مودود ملك الموصل وشقيق نور الدين محمود، حدثت مشاكل وراثية بين أبنيه، فتدخل نور الدين لإصلاح ذات البين، فخاف وزير الموصل فخر الدين عبد المسيح من سيطرة نور الدين على الموصل لمشاعر الكراهية التى كان يكنها نور الدين له، فحاول الإستنجاد بأتابك فارس إيلدكز، فأرسل إيلدكز رسالة لنور الدين ينهاه عن الموصل ويتهدده، فقال نور الدين لرسول إيلدكز "قل لصاحبك أنى أرفق ببنى أخى منك، فلا تدخل بيننا، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان ـ عاصمة إيلدكز ـ فإنك ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وبُليت أنا بأشجع الناس (الفرنج) فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا الحفظ فيما أهملت من بلاد الإسلام، ورفع الظلم عن المسلمين" (مفرج الكروب ج1 ص193)

6 الروضتين ج4 ص188 ، بسبب منع صلاح الدين جنوده من نهب مدينة يافا عقب إقتحامها الأمر الذى دفع إلى بعض أمراءه إلى التقاعس عن القتال

كما مثل البطلان القدوة بإشتراكهما الفعلى فى القتال فهما لم يرسلا جنوداً للقتال، بل كانا على رأس جيوشهما، مشاركين جنودهما حساءهم ومخاطر القتال، فنور الدين بقامته الفارعة وبشرته السمراء كان يمتطى حصانه متسلحاً بقوسه وسهامه ملقياً بنفسه وسط المعركة كأى فارس من فرسانه، وكذلك تلميذه صلاح الدين الذى دفع بأولاده وأخوته وأولادهم للصف الأول من المعارك ليضربا المثل للتضحية بما آمنا به، وكان فى حروبه يمر على جنوده ويقول لهم "أنا واحد منكم"[7] بعد أن قضى أغلب سنوات عمره على صهوة جواده قبل معركة حطين حتى تحقيقه تحرير القدس،

بين حركتين إستعماريتين

قد تكون مقولة أن التاريخ يعيد نفسه بها بعض الشئ من المبالغة، ولكن هناك الكثير من الأحداث التاريخية التى تتلاقى بينها العديد من أوجه التشابه، فالعقل البشرى متشابه على مر العصور، وأن وجدت إختلافات فذلك بسبب إختلاف الثقافات والمعارف، ولن نستطيع إستبعاد العديد من التشابه بين ما مر على أسلافنا إبان الحروب الصليبية وبين ما نمر به فى الوقت الحاضر، بل سنجد الكثير من نقاط التماثل بين الحركة الصليبية الإستعمارية والحركة الصهيونية الإستعمارية[*]، فكلتا الحركتان إستندتا إلى نصوص بالعهد القديم (التوراة) لإثبات دعوى حقهم فى السيطرة على القدس، بل حاول المؤرخون الصليبيون ربط الحروب الصليبية بالحروب المذكورة بالتوراة للإيحاء بإن الحروب الصليبية قامت بأمر إلهى، كما تم بناء الحركتين على أساس عنصرى يسمح لهما بقتل الغير بدون أدنى شعور بالذنب، بأسباغ شرعية للقتل بستار دينى، ويمنحهم الحق فى إستلاب أراضى الغير حلالاً طيباً، بعد أن هبط الصليبيون على مدن وقرى آمنه، تقتل وتذبح وتسلب وتهجّر أبرياء عزل، تحت دعاوى ملفقة، فقد أطلق الصليبيون على أنفسهم "أبناء الله" بينما اليهود يرون أنهم "شعب الله المختار"،[*]

---

[7] شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص64

[*] وإن كنا نرى أن الحركة الصهيونية ما هى إلا إمتداد للأستغلال الذى مارسه الغرب والعمل على عدم الوحدة بين شقى العرب لضمان عدم قيام دولة قوية جنوب البحر المتوسط ، وذلك بزرع جسم غريب يشطر الوطن العربى لشطرين وإن أختلفت مادة هذا الجسم الغريب بالرغم من إتفاق دعاوى قيامه مع دعاوى الحركة الصليبية ،

[*] مارتن لوثر مؤسس مذهب البروتستانت بالقرن السادس عشر يقول "من يحول بين اليهود وبين عودتهم إلى يهوذا (فلسطين) ؟ لا أحد ، ولسوف نزودهم بكل مؤونه الرحلة ، وما ذلك إلا لكى بتخلص منهم فهم عبئ علينا

ولم تلقى الحركتين النجاح إلا بالتمزق العربى وتشرذم المسلمين، وصراعاتهم الداخلية،

وإذا ما أشمأزت نفوسنا ونحن نشاهد إقتحام الصليبيين للقدس والمذبحة التى أرتكبوها، بينما تتردد صرخات القتلى لمدة ثلاثة أيام بين أبنية المدينة الحزينة بينما يجوب الموت داخل دروبها، بعد أن خلف الفرنج جثث أهالى القدس على عتبات مساكنهم، والمذابح التى سبقتها بمعرة النعمان وأنطاكيا وما بعدها ببلبيس وغيرها، ستصطدم نفوسنا بنفس المنهاج والمذابح التى أرتكبتها الحركة الصهيونية بدير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا، فالحركتان أتبعتا سبيل التطهير العرقى لتفريغ الأراضى العربية من سكانها لتكون لهما خالصة ،

كما أن بؤرة الصراع فى الحركتين واحد، مدينة القدس، وكما كانت الحركة الصليبية تعتمد إعتماد كلى على الغرب الأوروبى لمدها بالقوى البشرية والإقتصادية مما سمح لها للبقاء حية، نجد إبنتها الحركة الصهيونية تعتمد على الغرب الأوروبى الأمريكى لمد شرايينها بما يمسك عليها الحياة، بعد أن أستمرت القدس تلهب خيال الغربيين الذين لم يستطيعوا نسيان هزيمة أسلافهم فى حطين، للدرجة التى جعلت الجنرال الفرنسى "هنرى جورو" ويسرع لقبر صلاح الدين الأيوبى بمجرد إستيلاء القوات الفرنسية على دمشق فى يوليو 1920م عقب الحرب العالمية الأولى ويقول "ها قد عدنا يا صلاح الدين"

كما قامت الحركتان بزرع مجتمعين عسكريين فى الشرق، يعتمدان على فرض الأمر الواقع بالقوة المسلحة، وسخرت الحركتان كافة أمكانيات كياناتهما للحرب، بعد أن أسقطهما إحتلالهما أراضى الغير والوحشية التى أعتادتا ممارستها ضد أعداءهما، تحت هاجس أمنى سيطر على كافة مناحى الحياة داخل نتاج الحركتين،

كما أن الحركتين تولد لديهما يقين بإن مفتاح إستقرارهما بالشرق فى القاهرة، فمصر هى محور الشرق وقلب العروبة والإسلام، وهو ما يفسر الهجوم الشرس على مصر والحروب الطاحنة التى شنتها الحركتان ضد القاهرة،

كما أنه مثلما أستماتت الحركة الصليبية فى الحيلولة دون قيام وحدة بين العالم العربى، نجد مجهودات الحركة الصهيونية ومن وراءها الغرب فى منع قيام الوحدة بين العالم العربى بل ومحاولة تحطيم الدول العربية ،

لهذا لن يكون من الغريب إن عرفنا أن أكبر نسبة بين الجامعات والمعاهد العلمية المهتمة بدراسة الحروب الصليبية فى العالم هى الجامعات العبرية، فقد أستفادت إسرائيل من تجارب الصليبيين بالشرق، فكما حرصت مملكة بيت المقدس على تغيير ديمجرافية فلسطين بزرع المستوطنات الصليبية على الأراضى العربية المحتلة، سواء لجعل هذه المستوطنات مراكز لتغذية جيوشها بالجنود، أو للإستفادة من هذه المستوطنات لمد كيانها بإحتياجاتها الغذائية، كذلك حرصت إسرائيل على زرع مستوطناتها لنفس الأسباب(*)

ولا ريب أن السيرورة الحتمية التاريخية تحتم إنهيار وإنقضاء الحركة الصهيونية، تماماً كما أنهارت وأنتهت الحركة الصليبية وإختفاءها من الشرق،

كنا مع أول موجة إستعمارية أوروبية تحت زريعة معلنة روحية وهمية، أما الباعث الحقيقى هو نزعة التوسع الأقليمى للبارونات الفرنسيين الجشعين، والمصالح التجارية للجمهوريات الإيطالية الإنتهازية، وتم بناء هذه الدوافع على ركيزتين أساسيتين، هما تحرير بيت المقدس من المسلمين، والقضاء على الكنيسة المنشقة الأرثوذكسية اليونانية، وإن كان أساس بناء هذه الحركة الإستعمارية هى الهيمنة على العالم،

والملفت أن الحروب الصليبية والتى أندلعت بدعوى من الباباوية لم تقم بإى أعمال تبشيرية بين محكوميها، بالرغم من نظر البابا أربان للحركة الصليبية على إنها حركة تبشيرية، فقد أكتفى أمراء الكيانات الصليبية بإستغلال محكوميهم وإستنزاف ما يمكن إستنزافه من نتاج كدهم والأغتراف من ثروات الشرق بدون إنشاء أى قنوات إتصال بينهم، الأمر الذى جعل الكيانات الصليبية أراضى إسلامية، أغلب سكانها من المسلمين، فى الوقت الذى قام البعض من أمراء الصليبيين بالشرق بقمع رجال الدين المسيحى بمنتهى الوحشية، الأمر الذى يؤكد علمانية الحركة الصليبية فى واقعها التى دعت إليها الباباوية،

وفشلت الحركة الصليبية فى بناء كيان متماسك ذو جذور قوية ممتدة فى الأرض، وما أن إصطدم بالجبهة الإسلامية المتحدة إلا ظهر كالقصر الضخم المصنوع من ورق وقد تحول إلى رماد تذروه الرياح، حتى أختفى أى تأثير لاتينى بالشرق بمجرد طرد أخر الصليبيين من الشام، بشكل لا يمكن تخيل إمكانية طمس إستعمار قضى ما

* تعتمد منظومة الإحتياط للجيش الإسرائيلى على التوزيع الجغرافى للجنود ، حيث تمثل كل مستوطنة ومدينة وحدة عسكرية إحتياطية مكونة من سكانها ،

يقرب من القرنين بمثل هذا اليسر، فالمجتمع الصليبى وُلد مسخاً يحمل فى مهده أسباب وفاته ،

وأتسمت العلاقة بين المستغيث مع من أغاثه بالعداء الشديد، ووصل فى الكثير من الأحيان إلى القتال والصدامات المسلحة، بل نجد جودفرى أثناء زحفه يحاول المرور بالإجبار داخل أراضى بيزنطية، والتى من المعلن أنه جاء نجدةٌ لها، مما يبين أن قادة الحملة الأولى لم يحملوا بين صدورهم أى تقدير لإستغاثة الأمبراطور البيزنطى، بل كانت لهم دوافع أخرى كثيرة إلا الدافع المعلن لبدء الزحف، حتى كانت أول أمارة صليبية يتم تأسيسها بالشرق مختلسه من بين أيدى حاكم مرتبط ببيزنطة،

ليس هذا فقط، بل حمل جودفرى الكثير من العداء ضد البابا أوربان نفسه، فقط قاتل جودفرى فى صف البابا جيبرت المنافس لأوربان قبيل الحملة الأولى، الأمر الذى يبين أن الوازع الدينى جاء متأخر عن دوافع أخرى كثيرة للأشتراك بالصليبيات،

قد فشل الصليبيون فى الإستيلاء على أى من المدن الإسلامية الداخلية الكبرى فى الشام بالرغم من محاولاتهم الحثيثة للسيطرة على دمشق وحلب، كما فشلوا فى التقدم جنوباً للسيطرة على مصر، وذلك للمقاومة الشديدة التى أبداها الكثير من أمراء هذه البلدان، الأمر الذى حصرهم بالشريط الساحلى الضيق ،

وقد كانت القوى متقاربة ولم يميل الميزان العسكرى لطرف بشكل حاد، بل كان الميل يتأرجح ببطئ، وما شكل فارق فى القوة بين الطرفين لم يكن القوى البشرية أو التسليح بقدر ما كان الإتحاد والتعاون والتنظيم بين عناصر الطرف الواحد ،

لم يكن هناك أى إتصال بين الصليبيين وسكان البلاد الأصليين، فهما كانا ينظران لبعضها نظرة العدو اللدود، فالنبلاء أستأثروا بكافة الطيبات وأغدقوا على أنفسهم ألقاب الشرف وكافة الأراضى الواسعة والإمتيازات تاركين فتات الفتات لمن هم دونهم، أما السكان الأصليين فكان عليهم زراعة أراضى أجدادهم ليتمتع مغتصبيها بخيراتها،

وقد إنتقل عدم قدرة الصليبيين على تقبل الأخر إلى فشل مكونات المجتمع الصليبى على تقبل بعضهم البعض، فالعداء بين الصليبيين الجدد والصليبيين البلديين كتب بداية النهاية لوجودهم على ضفاف البحر المتوسط الشرقية،(*)

* وهو ما يمكن ملاحظته من العنصرية فى إسرائيل بين اليهود السفرديم والأشنكاز والفلاشا

كما خانت الحركة الصليبية كافة حلفاءها من حكام الشرق الذى ظنوا أن أمنهم عند أعداء أمتهم، بل قامت بالحنث بقسمها للأمبراطور ألكسيوس كومنين المستنجد بهم، بإستيلاء بوهيمند على أنطاكيا، كما قامت الحركة بضرب تحالفها مع معين الدين أنر حاكم دمشق عرض الحائط وقامت الحملة الصليبية الثانية بالزحف على دمشق، كما قامت الحركة الصليبية بخيانة تحالفها مع شاور وحاول الملك آمورى جاهداً الفوز بمصر وإحتلالها.

وقد أضطرمت نيران الحروب الصليبية الأخيرة فى كل مكان إلا فلسطين، فقد تفرقت بها السبل على غير هدى من القسطنطينية بالحملة الرابعة 1202 - 1204م، إلى مصر فى الحملة الخامسة 1218 - 1221م والحملة السابعة 1249 - 1250م، حتى وصلت إلى تونس 1270م، وما يثير الدهشة حقاً إنها لم تصادف التوفيق إلا بالإستيلاء على القسطنطينية المسيحية 1204-1261م لتسقط الأمبراطورية البيزنطية المسيحية والداعية للحروب الصليبية تحت براثن الفرنج، ليتقاسم الفرنسيون والبنادقة الأمبراطورية البيزنطية لتذهب بيزنطة ضحية لمن استنجدت بهم، وإن أدى سقوط القسطنطينية تحت السيطرة الصليبية إلى إفراغ الكيانات الصليبية بالشام من الفرسان، الذين وجدوا أن الإقامة على ضفاف البسفور أكثر أمناً وأقل صخباً من الأقامة بالأراضى المقدسة،

الحروب الصليبية هى التى أيقظت أوروبا من سباتها الطويل، كما كانت المشروع الأول الذى جمع كافة الأوربيين على عمل مشترك واحد، بعد سنوات التقاتل والتناحر بينهم، وفتح عيونهم الساذجة على حضارة وحياة علمية متقدمة، نهلوا منها، كما زادت الحروب الصليبية معلومات أوروبا التاريخية والجغرافية، وأدت حركة تحريك الجيوش إلى الشرق إلى تطور النقل البحرى الأوروبى، وأصبحت التجارة من أهم الأعمال الإقتصادية بالغرب، الأمر الذى أدى إلى تطور وسائل الأقراض والأعمال المصرفية والبنكية، كما قضت على الإقطاع بسبب تمرد أقنان الأرض على حياة العبودية التى رزحوا تحتها، بعد أن وجدوا فى الحروب الصليبية متنفس يستطيعوا الهروب إليه، كما كان هجرة نسبة معتبرة من طبقة الفرسان إلى أرض الثراء بالشرق من أسباب تهاوى قوة الإقطاعيات، الأمر الذى أدى إلى نمو قوة الملكيات الأوروبية مما أدى إلى الخروج من عباءة الكنيسة، مما يعد من أرهاصات عصر النهضة الأوروبية،

إنتصـــار الشـريـف

التاريخ أنما هو حياة ، يجب علينا الإستفادة من تجارب أسلافنا، فالتجربة هى خير مُعلم، ولعل الدرس الجلى الواضح من الحروب الصليبية هو الإتحاد، فبدون إتحاد لاقى الشرق هزائم ونكبات سمحت لهؤلاء القتلة إقتطاع جزء كبير من شرقنا الإسلامى، والتنعم بخيراته حتى إنتبه الشرق، وما أن أتحد أبنائه حتى تبدل الوضع، ودارت بوصلة الإنتصارات ليتم تطهير الشرق منهم، حتى أصبحت الكيانات الصليبية أثر بعد عين ،

فعند قدوم الحملة الأولى كان الشرق منقسم على نفسه، حتى أستطاع الصليبيون بمنتهى السهولة تحقيق ما جاءوا من أجله، ولم يقاتلهم بشجاعة وإصرار إلا الطبيعة بالشرق، شتان بين أمراء وحكام الشرق الذين كانوا بمنتهى السخاء وهم يدرءون عن الصليبيين ضربات المجاعة والعوز الذى أوقعتهم به الطبيعة وطقس الشام الذى حاول الدفاع عن أبناءه، وبين صلاح الدين الذى أستخدم هذه الطبيعة وأشهر عليهم سيف العطش،

الفرق الشاسع بين الإنهزام الذى منى به الشرق أبان الحملة الصليبية الأولى، والإنتصارات التى حـقـقها الشرق والذى توج بحطين، يبّين الفرق بين أمة مشرذمة، مفككة، متناحرة، وبين أمة موحدة، متماسكة تحت قيادة قوية،

أولاً : المصادر

أبن أثير : أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد الشيبانى المعروف بأبن أثير (ت630)

ـ الكامل فى التاريخ ، تحقيق أبى الفداء عبد الله القاضى ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، 1407هـ/1987م

ـ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، 1963م

أبن البطائحى : الأمير جمال الملك موسى بن المأمون بن البطائحى (ت588)

ـ السيرة المأمونية ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، دار الكتب 2014م

أبن الجوزى : أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد (ت597هـ)

ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1415هـ/1995م

إبن العبرى:جريجوريس أبو االفرج (ت 1286م)

ـ مخطوطة تاريخ الأزمنة، تحقيق د/ شادية توفيق حافظ، المركز القومى للترجمة، 2007م

أبن العديم : الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبى جرادة (ت660هـ)

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق د. سهيل زكار دار ـ الكتاب العربى 1997م

أبن القلانسى : أبو يعلى حمزة (ت555هـ/1160م)

ـ ذيل تاريخ دمشق، بيروت،1908م

أبن الطوير : أبو محمد القيسرانى (ت617هـ/1220م)

ـ نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد ، فرانتس شتاينر شتوتغارت 1412هـ/1992م

أبن أيبك الدوادارى : أبى بكر عبد الله

ـ كنز الدرر وجامع الغرر ج7 المسمى: الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب، تحقيق د.سعيد عبد الفتاح عاشور، 1973م

أبن بطوطة : شمس الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله الطنجى

ـ رحلة أبن بطوطة ، تحقيق عبد الهادى التازى ، أكاديمية المملكة المغربية ، 1417هـ/1997م

أبن جبير : أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى (ت614هـ)

ـ رحلة أبن جبير، ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة،1998م

أبن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن الحلبى (ت779هـ/1378م)

ـ درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، تحقيق على القادرى ، 2011م

أبن خلدون : أبوزيد ولى الدين عبد الرحمن (ت 808هـ)

ـ تاريخ أبن خلدون ، تحقيق أبو صهيب الكرمى ، بيت الأفكار الدولية ،

ـ التعريف بأبن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، تحقيق أ. محمد بن تارويت الطنجى ، تقديم د.عبادة كحيلة ، الذخائر 2006م

أبن خلكان : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ)

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق البارون ماك كوكين ديسلان

أبن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد بن إيدمر العلائى

ـ نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام ، تحقيق د. سمير طيارة 1999م

إبن سعيد : نور الدين على بن موسى الأندلسى (685هـ)

ـ المغرب فى حلى المغرب (القسم الخاص بمصر) ، طبعة الذخائر 2003م

ـ النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، تحقيق د. حسين نصار 2000م

أبن شداد : القاضى بهاء الدين (ت632هـ)

ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، دار الفرجانى، 1988م

أبن شداد : عزالدين محمد بن على بن إبراهيم بن شداد

ـ تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط 2009م

أبن طولون : شمس الدين محمد بن على بن طولون (ت953هـ)

ـ إبناء الأمراء بأنباء الوزراء، تحقيق مهنا حمد المهنا، دار البشائر الإسلامية، 1418هـ/1998م

أبن عساكر :أبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله (ت571هـ)

ـ التاريخ الكبير، تحقيق عبد القادر أفندى رضوان مطبعة روضة دمشق ، 1329هـ

ـ تاريخ دمشق، تحقيق عمر العمرى، دار الفكر

أبن كثير : أبى الفداء إسماعيل (ت774هـ)

ـ البداية والنهاية ، تحقيق مأمون سعيد و محمد عبد القادر دار أبن كثير دمشق 1431هـ/ 2010م

أبن ميسر : تاج الدين محمد بن على بن يوسف (677هـ)

ـ المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، دار الكتب ، 2014م

أبن واصل : جمال الدين محمد بن سالم

ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى ، المكتبة العصرية لبنان ، 1425هـ/2004م

أبى البركات : أحمد بن إبراهيم الكنانى المصرى (ت876هـ)

ـ شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب،

أبى الخطاب : عمر بن الأمام على حسن الفاطمى (633هـ/1235م)

ـ النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس، تحقيق . عباس العزاوى، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ببغداد، 1365هـ/1946م

أبى الفداء : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل الأيوبى

ـ المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق د. محمد زينهم عزب ، أ. يحيي السيد حسن ، دار المعارف

أبى الهيجاء : الأمير عز الدين بن أبى الهيجاء بن محمد الهذبانى الأربلى (ت700)

ـ تاريخ أبن أبى الهيجاء ، تحقيق د. صبحى عبد المنعم محمد ، دار رياض الصالحين ، 1413هـ/1993 م

أبى شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى (ت665هـ)

ـ الروضتين فى أخبار الدولتين ، وضع حواشية إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، 2002م

أرنبغا الزردكاش

ـ الأنيق فى المناجيق ، تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز ، أنجلوالمصرية 1981م

الأشرف الغسانى (ملك) الملك الأشرف إسماعيل بن عباس آل رسول الغسانى ملك اليمن (ت803هـ)

ـ العسجد المسبوك والجوهر المحكوك فى طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار البيان بغداد ،1395هـ/1975م

الأنطاكى : يحيى بن سعيد بن يحيى (ت458هـ)

ـ تاريخ الأنطاكى ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى ، جروس برس لبنان ، 1990م

الحريرى : أحمد بن على

ـ الإعلام والتنبية فى خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار الملاح ، 1401هـ/1981م

العظيمى : محمد بن على العظيمى الحلبى (ت 556هـ/1161م)

ـ تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق 1984م

العماد الكاتب الأصفهانى : أبى عبد الله محمد بن محمد بن حامد(ت597)

ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق د. محمد محمود صبح ، الذخائر ، 2003

ـ البرق الشامى ، تحقيق د.فالح صالح ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، 1986م

العينى : بدر الدين محمود العينى (ت855هـ/1451م)

ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، عصر الأيوبيين دار الكتب

المسبحى : الأمير محمد بن عبدالله

ـ أخبار مصر فى سنتين (415-414) ، تحقيق وليم ميلورد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1980م

المقريزى : تقى الدين أبى العباس أحمد بن على (ت 845 هـ/1441م)

ـ المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوى ، دار الغرب الإسلامى 1411هـ/1991م

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، 1418هـ/1997م

ـ إتعاظ الحنفا بإخبار الأئمة الخلفا ، تحقيق د.جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1996م

ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار ، الذخائر

المكين جرجس بن العميد(ت672هـ/1273)

ـ أخبار الأيوبيين

النويرى : محمد بن القاسم بن محمد النويرى الأسكندانى

ـ الألمام، مرأة الزمان، تحقيق د. أتين كوئب، د. عزيز سوريال ، الذخائر 2010م

النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ)

ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج 28 ،تحقيق د. محمد محمد أمين و د. محمد حلمى محمد ، ج 29 ، تحقيق د. محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م

اليونينى : الشيخ قطب الدين موسى بن محمد (ت726هـ)

ـ ذيل مرآة الزمان، وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية ، دار الكتاب الإسلامى ،

بيبرس الدوادار المنصورى (الأمير) (ت725هـ)

ـ زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج 9 ، تحقيق د. زبيدة محمد عطا

ـ مختار الأخبار، تحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1993م

جمال الدين أبو المحاسن : يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (874هـ)

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب

ـ حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق أ. فهيم محمد شلتوت ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1990م

الوثائق التاريخية لمصر الإسلامية

ـ مجموعة الوثائق الفاطمية، تحقيق / د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، مصر 2002م

زين الدين بن زين التقاة : محمد بن عيسى بن كنان الصالحى الدمشقى (ت1153هـ)

ـ المواكب الإسلامية فى الممالك الشامية، تحقيق إيمن عبد الجابر البحيرى، دار الأفاق العربية، مصر 2001م

صالح بن يحيى

ـ تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى الغرب ، تعليق حواشيه وفهارسه. الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1927م

على بن داوود الجوهرى الصيرفى

ـ أبناء الهصر بأنباء العمر ، تحقيق د. حسن حبشى ، الهيئة العامة المصرية للكتاب 2002م ،

ـ نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق د. حسن حبشى ، الهيئة العامة المصرية للكتاب 2002م

مجهول

ـ خزانة السلاح ، تحقيق د. نبيل محمد عبد السلام 1978م

محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى صاحب حماة (ت617)

ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م

محمد بن منكلى الناصرى (ت778هـ)

ـ الحيل فى الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، تحقيق د. نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب، 2000م

نظيف الحموى : أبى الفضائل محمود بن على

ـ التاريخ المنصورى، تحقيق د. أبو العيد دودو، مطبعة الحجاز بدمشق، 1981م

الرهاوى المجهول

ـ تاريخ الرهاوى ترجمة البرنا أبونا، مطبعة شفيق، بغداد 1986م

بنيامين التطيلى

ـ رحلة بنيامين التطيلى 1173/1165م، ترجمة عزرا حداد، دراسة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، أبو ظبى ، المجمع الثقافى، 2002م

جاك دى فيترى اسقف عكا

ـ رسائل جاك دى فيترى وكتاب تاريخ مملكة بيت المقدس، ترجمة د. عبد اللطيف عبد الهادى السيد، 2005م

روبرت كرارى

ـ فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة د. حسن حبشى،

دانيال الراهب الروسى

ـ رحلة دانيال الروسى، ترجمة د. سعيد عبد الله البيشاوى، داوود إسماعيل أبو هدبة، الشروق ، 2003م

فوشية الشارترى

ـ تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، دار الشروق 1422هـ/2001م

مجهول[1]

ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، تحقيق د. حسن حبشى، دار الفكر العربى

مجهول

ـ ذيل تاريخ وليم الصورى، تحقيق د. حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م

[1] هو مؤرخ من ضمن قوات بوهيمند خلال الحملة الأولى

وليم الصورى([2])

ـ الأعمال المنجزة وراء البحار، تاريخ وليم الصورى، تحقيق د. حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

يعقوب الفيترى (بطريرك عكا)

ـ تاريخ بيت المقدس، تحقيق د. سعيد البيشاوى ، 1998م

ثانياً : المراجع

إسحاق عبيد

ـ الفرسان والاقنان في مجتمع الإقطاع ، مكتبة قورينا للنشر والتوزيع ، 1975م

بول كازانوفا

ــ تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ترجمة د. أحمد دراج ، مراجعة د. جمال محرز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974م

جان فلورى

ـ الحرب المقدسة ، ترجمة /غسان مايسو ، دار المدى للثقافة والنشر 2004م

جوناثان رايلى سميث

ـ تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية ، ترجمة / د. قاسم عبده قاسم ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، 2007م

ـ الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية ، ترجم د. محمد فتحى الشاعر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999م

جيمس رستون

ـ مقاتلون فى سبيل الله، ترجمة د.رضوان السيد،مكتبة العبيكان، 1423هـ/2002م

[2] ولد بالشرق فهو من المستوطنين المولدين بالشرق، وبدء فى تأليف كتابة بناء على طلب آمورى ملك بيت المقدس ، وعين كمربى للملك بلدوين الرابع، وفشل فى إعتلاء كرسى البطريريكية بالقدس كما كان يحلم وتوفى بعد معركة حطين بعامين 582هـ/1186م

جيمس واترسون

ـ فرسان الإسلام وحروب المماليك، ترجمة يعقوب عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة 2011م

حسان حلاق (دكتور) وعباس صباغ (دكتور)

ـ المعجم الجامع فى المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، دار العلم للملايين ـ بيروت، 1999م

رينيه جورسيه

ـ موجز تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق د. أحمد أيبش، دار الكتب الوطنية ـ أبو ظبى، 1435هـ/2014م

ستانلى لين بول

ـ صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ترجمة فاروق سعد أبو جابر ، 1416هـ/1995م

ستيفن رانسيمان

ـ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1994م

ستيفن هوارث

ـ فرسان الهيكل، ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، المركز القومى للترجمة، 2013م

قاسم عبده قاسم (دكتور)

ـ الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق، العربية للدراسات والنشر، 1985م

محمد سهيل طقوش (دكتور)

ـ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة فى المشرق)، دار النفائس، 1432هـ/2011م

محمد ماهر حماده (دكتور)

ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى، مؤسسة الرسالة، 1399هـ/1979م

محمد مؤنس عوض (دكتور)

ـ عالم الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، 2005م

موريس بيشوب

ـ تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ترجمة على السيد على،المجلس الأعلى للثقافة، 2004م

مونتجمرى : الفيلد مارشال مونتجمرى

ـ الحرب عبر التاريخ ، ترجمة فتحى عبد الله النمر، الأنجلو المصرية 1972م

يوشع براور

ـ عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق وتقديم د. قاسم عبده قاسم ود. محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، 1999م

ـ الإستيطان الصليبى فى فلسطين، ترجمة د. عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، 2001م

المحـــتـــوى

المقدمة ..... أ - ج

كليرمونت ..... 13 - 47

نظرة عامة على مراحل الصراع بين الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية ، والدعاية الباباوية المحمومة للحروب الصليبية ، النجاحات التى لاقتها الدعاية الباباوية ، والمجتمع الإقطاعى الأوروبى بالشرق ، وحملة الفقراء الغوغائيين وتمزيقها بسيوف السلاجقة

الإحتلال الفرنجى.. ..... 49 - 103

تشكيل حملة الأمراء ، وموقف الأمبراطور البيزنطى من الحملة ، وموقف قادتها من الأمبراطورية البيزنطية ، والصدامات المسلحة بين البيزنطيين والصليبيين ، وعبور الصليبيون البسفور وقتالهم للسلاجقة بأسيا الصغرى ، تأسيس كونتية الرها ، وسقوط أنطاكيا ومحاولة كاربوقا إنقاذ أنطاكيا ، وفظائع الصليبيين فى الشام ، وموقف الفاطميين من الحملة الصليبية ، المساعدات القيمة التى تلقاها الصليبيين من أمراء الشرق ، وسقوط بيت المقدس ، وميلاد مملكة بيت المقدس

الحياة فى الشرق ..... 105 - 138

المجتمع الصليبى ، ونظام الحكم الصليبى ، والجيش الصليبى ، والهيئات الديرية المقاتلة ، وإستراتيجيات الدفاع الصليبية ، أحوال السكان الأصليين قاطنى الكيانات الصليبية المسلمون فى دولة الإحتلال الصليبى

إرهاصات المقاومة ..... 139 - 163

المحاولات الفاطمية المبكرة لتحرير القدس ، والإعمال القتالية التى أدارها أمراء الموصل ودمشق ، محاولات السلطنة السلجوقية تحرير القدس ، ومحاولات مملكة بيت المقدس الإستيلاء على المدن الساحلية بالشام

الدولة الأتابكية العمادية..... 165 - 200

الأفاقة الإسلامية بظهور عماد الدين زنكى ، وهجوم الأمبراطورية البيزنطية على الشام ، ومحاولات بيزنطة السيطرة على أنطاكيا ، الحملة الصليبية الثانية بقيادة لويس السابع وفريدريك بربروسا على الشام ، والهجوم الصليبى على قبرص تحت قيادة أرناط ، ونجاح نور الدين محمود فى ضم مصر لمحور المقاومة بقيادة قائده أسد الدين شيركوه ، بالرغم من محاولات الصليبيين المحمومة لإحتلال مصر

جبهة التحرير الموحدة ..... 201 - 218

بدايات ظهور صلاح الدين الأيوبى ، وتعيينه أخر وزير للدولة الفاطمية ، وإسقاطه للدولة الفاطمية وإعتلاءه رأس السلطة فى مصر ، والأعمال القتالية بين مصر تحت قيادة صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ، وبوادر الصراع الصامت بين نور الدين محمود وصلاح

المحـــتـــوى

الدين يوسف ، وإنفراد صلاح الدين بالسلطة عقب وفاة نور الدين ، وإكمال صلاح الدين لمحور المقاومة ، الصراع بين مكونات المجتمع الصليبى ، والصراع على السلطة فى مملكة بيت المقدس

معركة حطين .....219 - 253

نجاح صلاح الدين فى إتمام الجبهة الموحدة ، والجيش الإسلامى الأيوبى ، والجيش الصليبى ، الصراع بين الصليبيين الجدد والصليبيين البلديين ، نجاح صلاح الدين فى ضرب الوحدة الصليبية وزرع الشقاق بينهم ، تجمع الجيش الأسلامى والصليبى ، المناورات الناجحة لصلاح الدين والجمود الصليبى ، سير أعمال القتال والنصر

الخاتمة .....255 - 263

إنتصار الشريف ـ القدس بين جيشين ـ بين حركتين إستعماريتين

المصادر والمراجع .....265 - 275

صدر للمؤلف

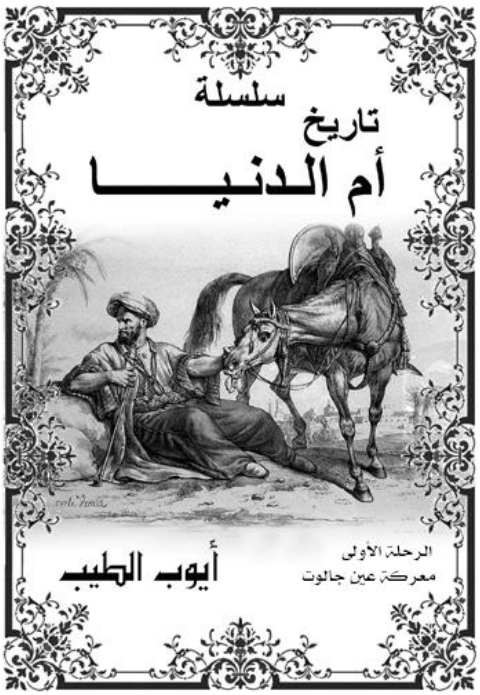

الرحلة الأولى
عين جالوت
حملة الفقراء الصليبية

الرحلة الثانية
الجيش المصرى يهزم روسيا
1854م
الحملة الصليبية الأولى وسقوط
بيت المقدس

صدر للمؤلف

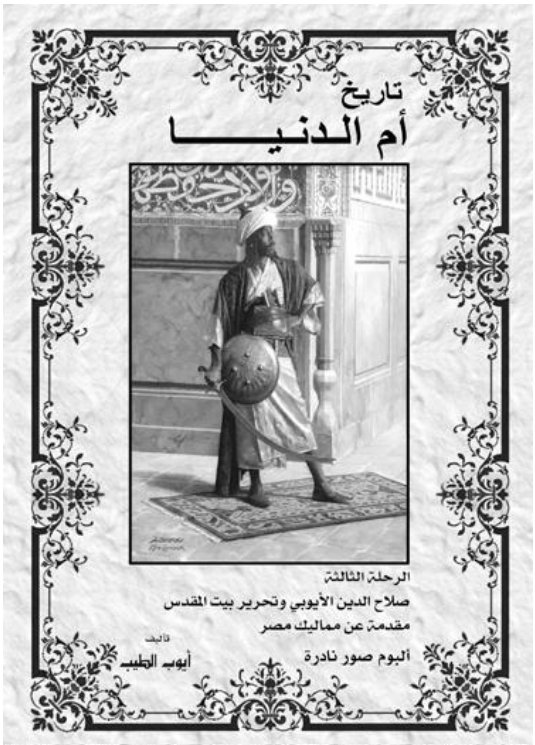

الرحلة الثالثة
صلاح الدين وتحرير بيت المقدس
مقدمة عن المماليك

الرحلة الرابعة
لم تصمت طبول الحرب
حرب الإستنزاف وحرب أكتوبر 1973

صدر للمؤلف

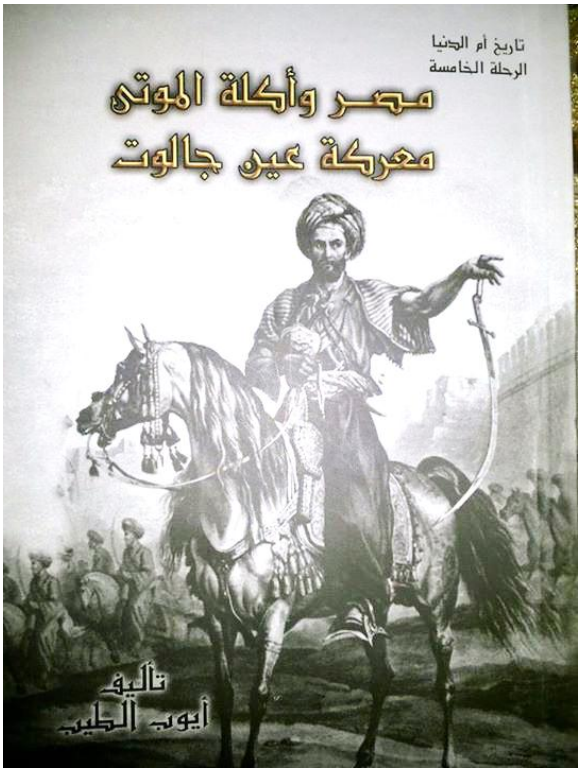

الرحلة الخامسة
مصر وأكلة الموتى
معركة عين جالوت

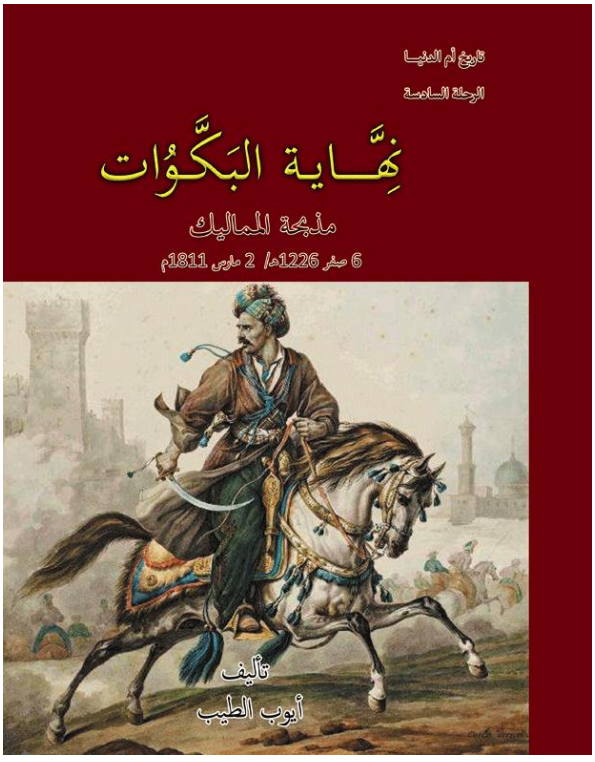

الرحلة السادسة
نهاية البكوات
مذبحة المماليك